

مِنْ صَحَائِحِ
الْإِمَامِ أَبِي الْقَاسِمِ
مِائَةُ حَدِيثٍ قُدِّسِيٍّ مَعَ شَرْحِهَا

سُرْعٌ وَعَلِيلٌ
مُحَمَّدُ عَوَّامَةٌ

مُؤَسَّسَةٌ عِلْمُ الْقُرْآنِ
جَدَّة

وَالْقِبْلَةُ لِلشَّافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ
جَدَّة

مِنْ صَحَائِحِ
الْأَخْبَارِ الْقَدِيسَةِ
مِائَةُ حَدِيثٍ قُدِّسِيٍّ مَعَ شَرْحِهَا

شرح وتعليق
مُحَمَّدُ عَوَّامَةٌ

مُؤَسَّسَةُ عِلْمِ الْقُرْآنِ
جَدَّة

وَلِلْقِبْلَةِ لِلشَّافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ
جَدَّة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م

مؤسسة علوم القرآن

والإدارة العامة للشؤون الإسلامية

المملكة العربية السعودية - جدة ص. ب: ١٠٩٣٢ . الرمز: ٢١٤٤٢ -

ت: ٦٦٥٢٤٠٦ - ٦٦٥٩٩٥١ . فاكس: ٦٦٥٩٤٧٦ .

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م

مؤسسة عالم الفقه الإسلامي

والإدارة العامة للشؤون الإسلامية

المملكة العربية السعودية - جدة ص. ب: ١٠٩٣٢ . الرمز: ٢١٤٤٢ -

ت: ٦٦٥٢٤٠٦ - ٦٦٥٩٩٥١ . فاكس: ٦٦٥٩٤٧٦ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، العفو الغفور، المنعم المتفضل، ذي الجلال والإكرام، والطول والإنعام، له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، تعالى فاتصف بكل كمال يليق بجلاله، وتقدس فتزّه عن كل نقصان لا يليق بكماله. فسبحانه من إله عظيم عنت لعظمته الوجوه، وخضعت له الرقاب، وسجدت له الجباه.

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد النبي الأمي، العربي الهاشمي، الطاهر الزكي، الذي أوحى إليه الله عز وجل بصنوف الوحي، فبلغ عنه بجميع وجوه التبليغ، فأدى بذلك الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة، وأرشد الناس إلى خير الدنيا والآخرة، فصلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومحبيه صلاة وسلاماً زاكيتين دائمين بدوام ملك الله العظيم. وعلينا معهم يا أكرم الأكرمين.

أما بعد: فإن الأحاديث القدسية تكلفت بالنورين: نور الكلام الإلهي، ونور البلاغ المحمدي، وإن المكثّر من قراءتها، والمُتمعّن في فهمها - ولو قدّر مجلس واحد من مجالس سمره - يشعّر بروحانية خاصة تتخلّل قلبه، وبقدسية وجلال يعلّوان روحه، لا يُحسّ بمثلها في مواقف أخرى مرّت به، ولو أن القارئ الكريم قام بذلك، فقرأ الأحاديث من هذه المجموعة، متصلة، لشعر بما أصفه له.

ذلك أن جُلّ الأحاديث القدسية يتحدّث عن صفات الله العلية: من تفضّله على عباده بالعطاء والرحمة والمغفرة، ومن غناه عنهم وافتقارهم إليه، ومن إقباله على من أقبل إليه، ولطفه بمن أعرض عنه.

ومن حديث عن بعض مخلوقاته الكريمة، كالملائكة، وصَلَّتهم بعباده،
ومن إبرازه لهم بعض أعمال عباده بالفضل العظيم، والثواب الجسيم.
وفيها الكثير من الحديث والشرح لمواقف عوالم الآخرة المغيَّبة.

فيَتَنقَلُّ القاريء المتوجَّه بقلبه من عالم أرضي دنيوي، إلى عالم رفيع
عُلوي، يحسُّ بأن الله يناديه، فهو يناديه: يناديه: يا عبادي، يا عبادي،
فيناديه: يارب، يارب، يارب!.

يسمع العبد أن الله أعدَّ لعباده الصالحين ما لا عين رأت، ولا أُذُن
سمعت، ولا خطرَ على قلب بشر، فيدعوه وَيَضْرَعُ إليه: ياربِّ اجعلني من
عبادك الصالحين.

يسمع العبد قولَ الله تعالى: أين المتحابون بجلالي؟ فيسرع ويقول: أنا
يارب مع فلان وفلان.

يتعطف الله تعالى على عباده فيناديهم سَحَرَ كل ليلة: هل من مُستغفرٍ
فَأَغْفِرَ له؟ هل من تائب فأتوبَ عليه؟ هل من مسترزق فأَرْزُقَه؟ هل من مبتلى
فَأُعَافِيَه؟ هل من كذا؟ هل من كذا؟ فيأخذُه الحَجَلُ والوَجَلُ: كيف يتعرَّض
المولى لعباده بالمغفرة والتوبة، والرَّزْق والمعافة.. وأنا غافل نائم!! كيف
يناديني الله تعالى وأنا عنه معرض..!! كيف أشحُّ على المحتاجين وأخشى
الفقر والله تعالى يقول لي: يا عبدي أَنْفِقْ أَنْفِقْ عليك؟! فهو يضمن لي العطاء
والخَلْف - وهو ملك الملوك - وأنا أخشى الفقر من بعد البذل؟!.

وهكذا تكون المناداة والمناجاة، والتوجُّه والمبادرة، والسموُّ بالروح
والقلب...

ثم إن التحدُّث عن ذات الله وصفاته أمرٌ تضيق عنه الألسُن البشرية،
خشيةً أن تَزَلَّ في الحديث عن الله فتصفه بما لا يُرضيه، فتأتي الأحاديث
القدسية تُعبِّر عن الله بكلام منه سبحانه، ولا أصدق ولا أكمل من التعبير عن
الذات المقدَّسة بمثل كلام الله.

وهذه مائة حديثٍ قدسي، أكرمَ الله تعالى وتفضَّلَ بالتوفيقِ إلى جمعها، وتخريجها، وشرحها، وسأعرضُ للمنهج في ذلك بعد تعريفِ الحديثِ القدسي، وشرحِ بعضِ مسائلٍ علميةٍ تتعلقُ به، والحديثِ عن أشهرِ المؤلفاتِ فيه المتداولة.

تعريف الحديث القدسي:

الحديث القدسي: هو كلُّ قولٍ صريحٍ يرويه النبي ﷺ عن الله عز وجل.

١- وأصل هذا التعريف من «شرح المنظومة البيقونية» ص ٢١ لشيخنا العلامة العمدة المحدث الشيخ عبد الله سراج الدين حفظه الله تعالى بخير وعافية، قال: «هو الذي يرويه النبي ﷺ عن الله تعالى». وقولي «كل قول صريح»: توضيح لقوله «هو الذي».

ففي هذا التعريف أربعة قيود يُحترزُ بها عن غيرها.

الأول: القول، خرَجَ به الفعل. فحديث البخاري في كتاب الأدب ١٠: ٤٣١ (٦٠٠٠): «جَعَلَ اللهُ الرحمةَ في مائةِ جزءٍ، فأَمْسَكَ عنده تسعةً وتسعين جزءاً...»: هذا حكايةُ فعلٍ لله عز وجل، لا يدخلُ في مسمّى الأحاديث القدسية، ونحو هذا كثير.

الثاني: الصريح، خرَجَ به غير القول الصريح، كقوله ﷺ - في حديث البخاري ١: ١٨٢ (٨٦) -: «... أَوْحَى إِلَيَّ أَنْكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ مِثْلَ - أَوْ قَرِيبَ - مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ...». وقوله في حديث مسلم ١٧: ٢٠٠: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَقْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَتَّبِعِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ». أما إذا ورد: أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ، أَوْ: إِلَى إِبْرَاهِيمَ، أَوْ: إِلَى مُوسَى: أفعَل، كَذَا، ونحوه: فهو قدسي.

ونحو هذا في عدم الصراحة: بعضُ الأحاديث الوارد فيها: فَيُنَادِي مُنَادٍ، أَوْ: فيقال. كحديث ابن عباس عند البخاري ٦: ٣٨٦ (٣٣٤٩)،

ومسلم ١٧ : ١٩٤ : «إنكم محشورون حفاةً عُراءَ غُرلاً...»، وإنه سيجاء برجال من أمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا رب أصيحابي! فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك». وسيأتي الكلام على هذا المثال آخر هذه المقدمة ص ٢٢.

الثالث: يرويه النبي ﷺ، خَرَجَ به ما كان من رواية غيره ﷺ، كالذي يُنقل في الإسرائيليات ونحوها، ولو صحَّ سنده، وكالحديث الذي ذكره الشيخ محمد المدني في آخر كتابه «الإتحافات السنية» برقم ٨٦١: «عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: حَدَّثْتُ أن موسى - أو عيسى - قال: يا ربَّ ما علامةُ رضاك عن خلقك؟ فقال الله عز وجل: أنْ أُنزِلَ عليهم الغيثُ إِبَّانَ زرعهم...». فهذا لا يعدُّ قدسياً بحالٍ ما.

وكذلك لا يعدُّ قدسياً إذا كان من رواية صحابي عن كتابٍ من كتب الله السماوية، كحديث البخاري ٤ : ٣٤٣ (٢١٢٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاص في صفة النبي ﷺ: «أَجَلُ والله، إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي...».

الرابع: أن يكون عن الله عز وجل، أما ما كان من روايته ﷺ عن ملك من الملائكة، أو عن جبريل عليه السلام، فلا يعدُّ قدسياً أيضاً. كحديث بدء الوحي مثلاً. وانظر ما يأتي صفحة ١٩ و ٢١.

وهل يشترط ليكون الحديث قدسياً أن يُصدَّرَ بـ: قال الله تعالى، أو: إن الله تعالى قال، أو: يقول الله تعالى؟ أولاً يشترط، كما هو الحال في أحاديث كثيرة مفتتحة بكلام للنبي ﷺ، ويَرِدُ في أثنائها أو في آخرها جملة منسوبة لله عز وجل؟.

مثل حديث مسلم الآتي برقم ٤٣: «ما من يومٍ أكثر من أن يُعتَقَ الله فيه عبداً من النار: من يومٍ عرفة، وإنه ليدنو ثم يُباهي بهم الملائكة فيقول: ما أراد هؤلاء؟».

والجواب: أن الكل يُسمَّى قدسياً، وقد تتبعت كثيراً فلم أر نصاً على ذلك، وسألت عدداً من شيوخ الكبار فاختلف عليّ جوابهم. ثم رأيت الحافظ ابن حجر رحمه الله قال في «الفتح» جملة صريحة في أن الكل قدسي.

قال البخاري رحمه الله في «صحيحه» ١٣ : ٤٦٤ : «باب قول الله تعالى: يريدون أن يبدلوا كلام الله» وأورد تحته سبعة عشر حديثاً، الخمسة الأولى منها قدسية، وهي: ١ - «قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر...»، و ٢ - «يقول الله عز وجل: الصوم لي، وأنا أجزي به...» و ٣ - «بينما أيوب يغتسل غريماً خراً عليه رجل جراد من ذهب، فجعل يحثي في ثوبه، فناداه ربّه: يا أيوب...» و ٤ - «يتنزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني...» و ٥ - «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة... قال الله: أنفق أنفق عليك».

قال الحافظ رحمه الله بعد أن تكلم بإيجاز عن الحديث الأول ١٣ : ٤٦٧ : «وهو من الأحاديث القدسية، وكذا ما بعده إلى آخر الخامس». وأنت ترى أن بعضها - ١، ٢، ٥ - مصدر بنسبته إلى الله عز وجل. وبعضها - ٣، ٤ - ليس كذلك.

وهل الحديث القدسي لفظه ومعناه من الله عز وجل؟ أو لفظه من النبي ﷺ ومعناه من الله تعالى؟

ذهب بعض أهل العلم إلى القول الأول، وذهب الجمهور إلى الثاني، وإليك البيان:

أقدم من وقفت على نقل عنه - من الجمهور - هو العلامة الطيبي المتوفى سنة ٧٣٤ رحمه الله تعالى، قال: «القرآن: هو اللفظ المنزل به جبريل على رسول الله ﷺ للإعجاز، والقدسي: إخبار الله رسوله بالإلهام أو

بالمنام، فأخبر النبي ﷺ أمته بعبارة نفسه، وسائر الأحاديث لم يُضِفْه إلى الله تعالى، ولم يروه عنه تعالى^(١).

وقال العلامة الكرمانى شارح البخارى المتوفى سنة ٧٨٦ رحمه الله تعالى، في «شرحه» المذكور ٩: ٧٩ أوائل كتاب الصوم: «فإن قلت: فهذا قول الله وكلامه، فما الفرقُ بينه وبين القرآن؟. قلتُ: القرآن لفظه معجزٌ ومنزَّلٌ بواسطة جبريل، وهذا غير معجز وبدون الوسطة، ومثله يسمَّى بالحديث القدسي، والإلهي، والرباني.

«فإن قلت: الأحاديث كلها كذلك، وكيف لا وهو ما ينطق عن الهوى؟. قلتُ: الفرق بأن القدسيّ مضافٌ إلى الله ومروي عنه، بخلاف غيره - يريد: النبوي -، وقد يفرَّق بأن القدسي ما يتعلَّقُ بتنزيه الله تعالى وبصفاته الجلالية والجمالية، منسوباً إلى الحضرة المقدسة، تعالى وتقدَّس». ثم ذكر كلام الطيبي السابق.

وإلى هذا القول نحا العلامة السيد الشريف الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦ رحمه الله، في «تعريفاته» ص ٨٣.

وكذلك الإمام العيني المتوفى سنة ٨٥٥ رحمه الله، في «عمدة القاري» ٩: ١٠، نقل كلام الكرمانى والطبي، وسكت عنه.

وقال عليّ القاري المتوفى سنة ١٠١٤ رحمه الله في «مرقاة المفاتيح» ١: ٩٥: «الفرق بين الحديث القدسي والقرآن: أن الأول يكون بإلهام، أو منام، أو بواسطة ملك، بالمعنى، فيعبّره بلفظه، وينسّبه إلى ربه، والثاني لا يكون إلا بإنزال جبريل باللفظ المعين».

ونحو هذا قال المناوي المتوفى سنة ١٠٣١ رحمه الله، في «فيض

١ - كان الطيبي قال هذا في شرحه على «مشكاة المصابيح»؟ ونقلته عنه بواسطة «شرح الكرمانى على البخارى» ٩: ٧٩.

القدير» ٤: ٩٤ في آخر شرحه للأحاديث التي ذكرها السيوطي رحمه الله تعالى في «الجامع الصغير» المصدرة ب: قال الله تعالى .

وذهب غير الجمهور إلى أن الحديث القدسي أوحى بلفظه ومعناه إلى النبي ﷺ، وأقدم من عرفته قال بهذا القول: العلامة ابن حجر الهيتمي المكي المتوفى سنة ٩٧٤ رحمه الله، في «الفتح المبين» ص ٢٠١، وسيأتي نقل كلامه بطوله .

وأشار إليه القاري نفسه في موضع آخر من «المرقاة» ٥: ١٢٤ فقال عند شرح حديث أبي ذر: «قال: قال رسول الله ﷺ فيما يروي: أي: بواسطة، أو بغيرها، يقظة، أو مناماً، باللفظ، أو بالمعنى». فجوز الوجهين .

وأشار إليه أبو البقاء الكفوي المتوفى سنة ١٠٩٤ رحمه الله، في «كلياته» ٤: ٣٨ فقال: «وقال بعضهم: القرآن لفظ معجز ومنزل بواسطة جبريل، والحديث القدسي: غير معجز وبدون الوساطة» قال هذا بعد أن ذكر مذهب الجمهور، فأفاد أن هذا (البعض) يقول بقول ابن حجر الهيتمي، وقد يكون هو مراد الكفوي بقوله «وقال بعضهم» .

ونقل القاضي محمد شريف الدين الفاروقي الفالامي رحمه الله، مصحح الطبعة الهندية لكتاب «الإتحافات السنية» للشيخ محمد المدني، نقل آخر الكتاب فوائد في معرفة الفوارق بين القرآن الكريم، والحديث القدسي، والحديث النبوي، جاء في آخرها ما لفظه: «وفي «فوائد الأمير حميد الدين»: الفرق بين القرآن والحديث القدسي على ستة أوجه...، والخامس: أن القرآن يجب أن يكون لفظه من الله تعالى، وفي الحديث القدسي يجوز لفظاً من النبي ﷺ»^(١). فكان الأصل عنده أن يكون لفظه موحى به من الله تعالى، ويجوز أن يكون من النبي ﷺ .

والآن أنقل كلام الإمام ابن حجر الهيتمي . قال رحمه الله في آخر شرح

١ - ص ٣٣٨ من طبعة الشيخ محمود أمين النواوي بمصر سنة ١٣٩٨ .

حديث أبي ذر - وهو الحديث الرابع والعشرون من «الأربعين النووية» - ص ٢٠١: «فائدة يعمُ نفعها، ويعظمُ وقْعها، في الفرق بين الوحي المتلوّ - وهو القرآن - والوحي المروي عنه ﷺ عن ربّه عز وجل، وهو ما ورد من الأحاديث الإلهية، وتسمى القدسية، وهي أكثر من مائة^(١)، وقد جمَعها بعضهم في جزء كبير^(٢)، وحديث أبي ذر هذا من أجلها.

اعلم أن الكلامَ المضافَ إليه تعالى أقسام ثلاثة:

أولها - وهو أشرفها -: القرآن، لتميّزه عن البقية بإعجازه من أوجه قدّمناها أوّل الكتاب^(٣)، وكونه معجزةً باقيةً على ممرِّ الدهر، محفوظةً من التغيير والتبديل. وبحرمةٍ مسّه للمحدّث، وتلاوته لنحو الجنب، وروايته بالمعنى، وتعيّنه في الصلاة. وبتسميته قرآنًا. وبأن كلَّ حرف منه بعشر حسنات. وبامتناع بيعه في رواية عند أحمد، وكراهية عندنا - أي السادة الشافعية - . وبتسمية الجملة منه آيةً وسورةً.

وغيره من بقية الكتب والأحاديث القدسية لا يثبت لها شيء من ذلك، فيجوز مسّه^(٤) وتلاوته لمن ذكر، وروايته بالمعنى، ولا يجزي في الصلاة، بل يطلّها، ولا يسمى قرآنًا، ولا يعطى قارئه بكل حرف عشرًا، ولا يُمنع بيعه ولا يكره اتفاقًا، ولا يسمّى بعضه آيةً ولا سورةً اتفاقًا أيضًا.

١ - كأنه رحمه الله يريد الصحيح منها، أما مطلقاً: فأكثر بكثير جداً جداً.

٢ - لعله يريد ابن بَلْبَانَ المقدسي؟ وسيأتي الحديث عن كتابه «المقاصد السنية في الأحاديث الإلهية» ص ٢١.

٣ - خلاصة ما قاله في شرح المقدمة ص ٢٢ - ٢٣: «وجوه إعجاز القرآن لا تنحصر، فمنها: إيجازه وبلاغته... ومنها: خروجه عن جنس كلام العرب نظماً ونثراً، وخطباً وشعراً، ورجزاً وسجعاً... ومنها: أن قارئه لا يملّه، وسامعه لا يُمجّه... ومنها: ما فيه من الإخبار بما كان مما علموه ومما لم يعلموه... ومنها: اشتماله على علوم الأولين والآخرين، مع كون الآتي به أقام بينهم أربعين سنة قبل تكلمه به أمياً لا يُحسن نظم كتاب، ولا عقد حساب...».

٤ - نصّ ابن عابدين من السادة الحنفية ١: ١١٦، ١١٧ على حرمة مس المحدّث حدثاً أكبر أو أصغر للكتب السماوية ما علّم أنه غير مبذل منها، فما نقله عنهم الدكتور وهبة الزحيلي في كتابه «الفقه الإسلامي وأدلته» ١: ٢٩٦ غير دقيق.

ثانيها: كتبُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبل تغييرها وتبديلها.

ثالثها: بقية الأحاديث القدسية، وهي ما نُقل إلينا آحاداً عنه ﷺ، مع إسناده لها عن ربه، فهي من كلامه تعالى، فتُضاف إليه - وهو الأغلب، ونسبُها إليه حينئذ نسبة إنشاء، لأنه المتكلم بها أولاً، وقد تُضاف إلى النبي ﷺ، لأنه المخبر بها عن الله تعالى، بخلاف القرآن، فإنه لا يُضاف إلا إليه تعالى، فيقال فيه: قال الله تعالى، وفيها: قال رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه.

ولا تنحصر تلك الأحاديث القدسية في كيفية من كيفيات الوحي، بل يجوز أن تتنزل بأي كيفية من كيفياته، كرويا المنام، والإلقاء في الرؤى، وعلى لسان الملك.

ولراويها صيغتان: إحداهما: أن يقول: قال رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه. وهي عبارة السلف، ومن ثمَّ أثرها المصنف فيما مرَّ^(١).

ثانيتها: أن يقول: قال الله تعالى فيما رواه عنه ﷺ. والمعنى واحد.

وقد علّق شيخنا العلامة المحدث فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين أمتع الله المسلمين به في «شرحه على المنظومة البيقونية» ص ٢٤، على قول ابن حجر الهيثمي: «ونسبُها إلى الله حينئذ نسبة إنشاء» فقال: «هذا صريح في أن الأحاديث القدسية هي كلام الله تعالى، ولكن لم يبلغ حد الإعجاز والخصائص التي اختص بها القرآن الكريم، كما أن بقية الكتب الإلهية النازلة على الرسل السابقين صلوات الله تعالى عليهم أجمعين لم تبلغ حد الإعجاز، ولم تنل خصائص القرآن الكريم».

وقد عبّر الدكتور محمد عبد الله درّاز المتوفى سنة ١٣٧٧ رحمه الله،

١ - يريد: الإمام النووي رحمه الله تعالى. والذي مرَّ: هو قوله أول الحديث المشروح - حديث أبي ذر: «عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل». قلت: لفظ روايته في مسلم يتفق مع محل الشاهد منه.

عن وجهة نظر الجمهور، في مقدمة كتابه «النبأ العظيم» ص ١٥ فقال: «هذا هو أظهر القولين عندنا، لأنه لو كان منزلاً بلفظه لكان له من الحرمة والقدسية في نظر الشرع ما للنظم القرآني، إذ لا وجه للتفرقة بين لفظين منزّلين من عند الله، فكان من لوازم ذلك وجوب المحافظة على نصوصه، وعدم جواز روايته بالمعنى إجماعاً، وحرمة مسّ المحدث لصحيفته. ولا قائل بذلك كلّهُ»^(١).

وأيضاً فإن القرآن لما كان مقصوداً منه - مع العمل بمضمونه - شيئاً آخر، وهو التحديّ بأسلوبه، والتعبد بتلاوته: احتيج لإنزال لفظه. والحديث القدسي لم ينزل للتحديّ ولا للتعبد، بل لمجرد العمل بما فيه. وهذه الفائدة تحصل بإنزال معناه.

فالقول بإنزال لفظه قولٌ بشيء لا داعي في النظر إليه، ولا دليل في الشرع عليه، اللهم إلا ما قد يلوح من إسناد الحديث القدسي إلى الله تعالى بصيغة: يقول الله تبارك وتعالى كذا. لكن القرائن التي ذكرناها آنفاً كافية في إفساح المجال لتأويله، بأن المقصود نسبة مضمونه لا نسبة ألفاظه.

وهذا تأويل شائع في العربية، فإنك تقول حينما تنثر بيتاً من الشعر: يقول الشاعر كذا، وتقول حينما تفسر آيةً من كتاب الله بكلامٍ من عندك: يقول الله تعالى كذا. وعلى هذه القاعدة حكى الله تعالى عن موسى وفرعون مضمون كلامهم بألفاظٍ غير ألفاظهم، وأسلوب غير أسلوبهم، ونسب ذلك إليهم.

فإن زعمت أنه لو لم يكن في الحديث القدسي شيء آخر مقدّس وراء المعنى، لصح لنا أن نسمي بعض الحديث النبوي قدسياً أيضاً، لوجود هذا المعنى فيه!

فجوابه: أننا لما قطعنا في الحديث القدسي بنزول معناه، لورود النص الشرعي على نسبته إلى الله تعالى بقوله ﷺ: قال الله تعالى كذا: سميناه قدسياً لذلك، بخلاف الأحاديث النبوية، فإنه لما لم يرد فيها مثل هذا النص

١ - انظر مذهب الحنفية في مسّ المحدث صحيفة فيها ما لم يبدل من كتاب سماوي، فيما تقدم تعليقا ص ١٢ رقم ٤.

جاز في كل واحد منها أن يكون مضمونه معلماً بالوحي، وأن يكون مستنبطاً بالاجتهاد والرأي، فسمي الكلُّ نبياً، وقوفاً بالتسمية عند الحدِّ المقطوع به، ولو كانت لدينا علامة تُميز لنا قسم الوحي لسميناه قدسياً كذلك».

وأقول: إن هذا البيان - والله أعلم - معبرٌ تمامَ التعبير عن وجهة نظر الجمهور، وهو مؤلف من شقين:

- نفي المشابهة بين القرآن الكريم والحديث القدسي، ويلزم من نفي المشابهة أن نلحق الحديث القدسي بالنبوي حينئذ.

- تأويل قول النبي ﷺ أول الحديث القدسي: قال الله تعالى كذا.

١ - أما الشق الأول - وهو ذكْر الفوارق الكثيرة بين القرآن والحديث القدسي - فهذا أمر مسلم به، وبأن القدسي لا يتصف بخصيصة من خصائص القرآن الكريم التي تقدم ذكرها في كلام ابن حجر الهيتمي، ولكن: هل يلزم من نفي المشابهة بينهما أن نلحق القدسي بالنبوي؟.

الجواب: لا، ذلك أن الكلام الذي أوحى الله تعالى به إلى أنبيائه أربعة أقسام، هي الثلاثة التي تقدمت في كلام ابن حجر الهيتمي، يضاف إليها: الحديث النبوي:

١ - القرآن الكريم، ذو الخصائص. ٢ - الكتب السماوية الأخرى سواء، وليس لها خصائص القرآن. ٣ - الحديث القدسي. ٤ - الحديث النبوي.

فقول الدكتور دراز: «لو كان - الحديث القدسي - منزلاً بلفظه لكان له من الحرمة والقدسية في نظر الشرع ما للنظم القرآني، إذ لا وجه للفرقة بين لفظين منزلين من عند الله»: في محل المنع، فأين هو عن الكتب السماوية الأخرى؟! إذ أنها منزلة من عند الله تعالى بلفظها ومعناها اتفاقاً، وليس لها من الخصائص ما للقرآن العظيم اتفاقاً.

وبالتالي: لا يلزم من نفي المشابهة بين القرآن والقدسي: أن نلحق القدسي بالنبوي، لأننا إذا لم نلحقه بالنبوي، ألحق بالقرآن!! لا. إننا حينما

نقول: لفظه ومعناه من عند الله، نقول: هو ليس كالقرآن الكريم، فإن قيل: إذاً هل له نظير في الكلام المضاف المنسوب إلى الله عز وجل؟ قلنا: نعم، هو كالكتب السماوية الأخرى سوى القرآن، لفظها ومعناها من عند الله، وهذا كذلك.

٢- أما الشق الثاني في كلام الدكتور دراز - وهو تأويل قول النبي ﷺ في صدر الحديث القدسي: قال الله تعالى كذا - فهو على ما بين المشبّه والمشبّه به من فارق - أقول فيه: إنما يصار إلى التأويل عند اللزوم، ولا لزوم هنا، ما دمنا قد أزلنا الإشكال الذي عبّر عنه بقوله: «لو كان منزلاً بلفظه لكان له من الحرمة والقدسية في نظر الشرع ما للنظم القرآني» بأن هذا التلازم غير صحيح، إنما هو ناشئ من قبل حصر الكلام المنسوب إلى الله في القرآن الكريم والحديث النبوي:

فالقرآن الكريم: لفظه ومعناه من عند الله، وهو معجز ومختص بخصائص.

والحديث النبوي: لفظه من النبي ﷺ، ومعناه من عند الله تعالى، إلا ما دلّ الدليل الواضح على كونه من اجتهاد النبي ﷺ.

ونقض هذا الحصر يكون بالتنبّه إلى الكتب السماوية الأخرى، وأنها باتفاق كلام الله لفظاً ومعنى - قبل أن يطرأ عليها الدخيل والتحريف -، فنلحق الأحاديث القدسية بها، إعمالاً لظاهر قول النبي ﷺ: قال الله تعالى كذا، وإن الله تعالى قال كذا. حتى لو لم يكن هناك كلام منسوب إلى الله عز وجل لفظه ومعناه من الله، وهو غير معجز - كالكتب السماوية - لما كان بنا ضرورة إلى تأويل هذا التعبير منه ﷺ، ونقول نحن من عند أنفسنا: القرآن كلام الله المعجز المتحدّى به، والحديث القدسي كلام الله غير المعجز وغير المتحدّى به. وثمة فائدة كبرى نستفيد منها من القول بأن القرآن لفظه ومعناه من الله تعالى وهو معجز، والأحاديث القدسية لفظها ومعناها من الله تعالى، وهي غير معجزة، تلك هي أن الحجة تقوم على الكافرين حينئذ بوجه أقوى، وذلك حينما يقول لهم النبي ﷺ: إنه يأتيني كلام لا تستطيعون الإتيان بمثل بعضه.

وكلامٌ تستطيعون الإتيان بمثل بعضه، والكلُّ من عند الله تعالى، فهذا إمعانٌ في التحدي للكافرين. والله تعالى أعلم.

المصنفات في الأحاديث القدسية:

لم يكن معروفاً شائعاً - منذ سنين خَلَتْ - من كتب الأحاديث القدسية إلا كتاب «الاتحافات السنية» للعلامة المُنَاوي رحمه الله، جمع فيه ٢٧٢ حديثاً قدسياً مع عزوها إلى مُخْرِجِهَا من أئمة الحديث. وطُبِعَ شرحٌ عليه اسمه «النفحات السلفية» باسم الشيخ محمد منير الدمشقي صاحب المطبعة المنيرية، وجُدِّدَ طبعه بمصر أيضاً من سنوات قليلة، نُشِرَتْ مكتبة التراث الإسلامي، وكانت كتابة هذا الشرح سنة ١٣٦١ هـ أيام الحرب العالمية الثانية، كما جاء ذلك أثناء شرحه للحديث ١٩٨.

وطُبِعَ بالهند كتابٌ آخر يحمل الاسم نفسه: «الاتحافات السنية في الأحاديث القدسية» للشيخ محمد بن محمود المدني الحنفي المتوفى سنة ١٢٠٠ هـ، ثم طُبِعَ مرات بالبلاد العربية، فيه ٨٦٤ حديث^(١).

ومنذ أكثر من خمسين سنة طَبَعَ الأستاذ الشيخ محمد راغب الطباخ المتوفى سنة ١٣٧٠ رحمه الله، بمطبعته العلمية بحلب رسالة واحدة جمعت رسالتين في الأحاديث القدسية، إحداهما «مشكاة الأنوار» للشيخ محيي الدين ابن عربي الطائي، جمع فيها ١٠١ حديث قدسي، وثانيتها للشيخ علي القاري، جَمَعَ فيها أربعين حديثاً قدسياً.

ثم عَهِدَ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر إلى لجنة من شيوخ الأزهر، لاختيار مجموعة من الأحاديث القدسية، فقاموا بذلك، جزاهم الله خيراً، وطُبِعَ باسم «الأحاديث القدسية»، فيه ٤٠٠ حديث، وكرّر تصويره ببيروت.

١ - لا (٨٦٣) كما جاء في مقدمة ناشره ص ١٣.

ثم قام الأخوان الفاضلان الأستاذ الشيخ محيي الدين مستو، والدكتور محمد العيد الخطراوي - الأديب السعودي - قاما بتحقيق ونشر «المقاصد السنية في الأحاديث الإلهية» لابن بَلْبَانَ المقدسي (٦١٢ - ٦٨٤) رحمه الله تعالى، وجزاهما الله خيراً على ما بذلا من جهد في إخراجه. وكانت طبعته الأولى سنة ١٤٠٣، ثم أعاد طبعه.

فالكتب المتداولة الآن في الأحاديث القدسية هي هذه الأربعة.

١ - أما كتاب العلامة المناوي: فيضاف إلى ما تقدم عنه أمران: التزم إخراج الأحاديث القدسية التي لم يتخللها كلام نبوي أبداً - إلا نادراً - ولم يلتزم الصحة أو الحسن فيما يذكره، فهو جامع لما صحَّ ولما لم يصح.

٢ - وأما كتاب الشيخ محمد المدني: فكتابه أوسع بكثير من كتاب المناوي، ويتفق معه في التخريج وعدم التزام الصحة، لكنه قَسَم كتابه إلى ثلاثة أبواب: «الباب الأول: فيما صُدِّر بلفظ: قال. والباب الثاني: فيما صُدِّر بلفظ: يقول. والباب الثالث: فيما لم يصُدِّر بهما، بل يُذكر في أثناء الحديث كلامُ الله تعالى ممزوجاً بالحديث». وعمدته فيه: «الجامع الكبير» للسيوطي رحمه الله.

وعدد أحاديث القسم الأول: ١٦٨ حديث، وعدد أحاديث القسم الثاني: ٩١ حديثاً، فمجموعهما ٢٥٩، وهو في هذين القسمين يشترك مع عَظَم كتاب المناوي.

٣ - أما كتاب «الأحاديث القدسية» اختيار اللجنة الأزهرية: فقد اعتمدت في جمعها على الكتب الستة و«الموطأ»، والأحاديث التي في البخاري نقلت شرحها من «إرشاد الساري» للقسطلاني رحمه الله، وما كان في «صحيح مسلم» نقلت شرحه من «شرح النووي» رحمه الله. وما كان في غيرهما تخيَّرت شرحه من عدة مصادر.

وفي اختيار الأحاديث وجمعها، وفي شرحها: جهد مشكور طيب،

أجزل الله لهم المثوبة. ولشهرته وتداوله أحبب أن أبدي ما وقفت عليه من ملاحظات، ابتغاء النفع، ثم لاستدراكها.

١- بلغ عدد أحاديث الكتاب - حسب ترقيمه - ٤٠٠ حديث، لكن فيه تكرار كثير، سببه نقل ألفاظ الحديث الواحد من كتاب واحد، أو من عدة كتب.

مثال ذلك: حديث «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ..»، ذكروا لفظه بتمامه من «صحيح البخاري»، ثم ذكروا لفظه من «صحيح مسلم»، ثم ذكروا مغايرات روايات مسلم، ثم ذكروا لفظه من «سنن الترمذي». وقد أَخَذَ هذا الحديث الواحد منهم عشرة أرقام من ٣٦٨ إلى ٣٧٧! والكل حديث واحد، وهذه المغايرات يُستفاد منها أحياناً في شرح الحديث.

٢- إن الكتاب وُضِعَ لجمع الأحاديث القدسية من هذه الكتب: الستة و«الموطأ»، مع أنه قد جاء فيه جملةٌ غير قليلة لا ينطبق عليها اسم الحديث القدسي!.

من ذلك - وليس على سبيل الاستقصاء - الأحاديث ذوات الأرقام: (٦)، ١٠٠-١١٠، ١٩٠، ١٩٦، ١٩٧، ٢٥٠-٢٥٨، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩١، ٣١١-٣١٤، (٣٣٣).

فليس كلُّ حديثٍ فيه ذكر جبريل (٢٨٧، ٢٨٨) أو مَلَكٍ ما (١٠٠-١١٠)، أو ذكر النداء أو القول يوم القيامة في أرض المحشر (١٩٠)، ٢٩١، ٣١١-٣١٤) يعتبر حديثاً قدسياً.

وقد يُروى الحديث الواحد على وجهين، فيكون قدسياً صراحةً في وجه، وليس قدسياً أبداً في وجهه الآخر، فلا ينبغي ذكر الوجه الثاني، مع أنهم يوردونه.

مثال ذلك: حديث (٣٠١) ولفظه: «قال الله عز وجل: إذا أحبَّ عبدي لقائي...»، فهذا قدسي صريح، وقد ذكره، ثم ذكروه بعده (٣٠٢، ٣٠٣).

اللفظ الآخر: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه»، وهو غير قدسي - وقد نبهوا إلى هذا، فأحسنوا - ومع ذلك فلا داعي إلى ذكره.

في حين أنهم لما ساقوا روايات حديث «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ» لم يَنْبَهُوا إلى أن بعضها غير قدسي.

فلو حُذِفَت الأحاديث المكررة، وما ليس قدسياً: لما جاوز عددُ أحاديثه المائة.

٣- من مزايا الكتاب الجيدة: أن الصحة غالبية على أحاديثه، ولو اسْتَغْنَوْا عن عدد يسير من أحاديثه الضعيفة لكان أولى، ولاتُصَف الكتاب بمزية عالية. ومن أحاديثه الضعيفة: الأحاديث ذوات الأرقام (٩، ٢٠٤، ٣٠٠، ٣٥٧).

٤- في بعض أحاديث الكتاب سقطُ جُمْلٍ من الإسناد أو المتن - وهذا قد يُعتبر من الأخطاء المطبعية - لكن أثر هذا السقط في اعتبار بعض الأحاديث قدسياً، إذ الساقطُ منه الجملةُ الدالةُ على أنه قدسي.

مثال ذلك: حديث (٢٨٦): «فقال: يا محمد إن ربك يقول: أما يُرضيك...»، سقط منه جملة: «إن ربك يقول»، فلم تُوجَد فيه علامة كونه قدسياً.

٥- حَصَلَ - على سبيل الندرة - تحريفٌ في اللفظة الدالة على كون الحديث قدسياً.

مثال ذلك: الحديث (٢٠٢)، نَقَلُوهُ عن «سنن النسائي»، وفي آخره: «فيقول: ادخلوا أنتم وآبائكم» أي: فيقول الله...، وعلى هذا فهو قدسي، لكن لفظ النسائي في النسخ المتداولة بين أيدينا ٢٥: ٤ (١٨٧٦): «فيقال: ادخلوا الجنة أنتم وآبائكم». ولا يلزم منه أن يكون قدسياً، فقد يكون القائل ملكاً. واللجنة تعتمد طبعة «سنن النسائي» القديمة الواقعة في مجلدين.

٦- "حَصَلَ تَقْصِيرٌ فِي تَخْرِيجِ بَعْضِ الْأَحَادِيثِ، وَهُوَ نَادِرٌ أَيْضاً.

مثال ذلك: الحديث ٢٨٥، نَقَلُوهُ عَنْ «سَنَنِ النَّسَائِيِّ»، وَهُوَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» ٤: ١١٢ بِشَرْحِ النَّوَوِيِّ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ نَقْلَهُ مِنْهُ هُوَ الْمَتَعَيَّن.

٤- كِتَابُ «الْمَقَاصِدِ السُّنِّيَّةِ» لِابْنِ بَلْبَانَ الْمُقَدَّسِيِّ. جُمِعَ فِيهِ مَوْلَفُهُ مِائَةُ حَدِيثٍ. خَتَمَ كُلُّ عَشْرَةٍ مِنْهَا بِحِكَايَاتٍ وَعَظِيَّةٍ، وَأَشْعَارٍ زُهْدِيَّةٍ، ذَلِكَ أَنَّ عُلَمَاءَنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، كَانَ يَهْمُهُمْ مِنْ أَمْرِ الْعَامَةِ مَا يَهْمُهُمْ مِنْ أَمْرِ الْخَاصَةِ، فَكَانَ الْمُؤَلِّفُ ابْنَ بَلْبَانَ كَانَ يُمْلِي كِتَابَهُ إِمْلَاءً، وَمِنْ عَادَةِ الْمُتَمَلِّينَ - كَمَا نَرَاهُ عِنْدَ ابْنِ رَجَبٍ فِي رِسَالَتِهِ - أَنَّ يَخْتُمُوا مَجَالِسَهُمُ الْإِمْلَائِيَّةَ بِأَشْعَارٍ مُنَاسِبَةٍ، وَابْنُ بَلْبَانَ يَخْتُمُهَا بِالْوَعْظِ وَالزَّهْدِ وَالرَّقَائِقِ، مُرَاعَاةً لِحَالِ الْعَامَةِ.

إِنَّمَا يُؤَخِّذُ عَلَيْهِ: إِيْرَادُهُ فِيهَا مَا لَا زِمَامَ لَهُ وَلَا خِطَامَ!.

أَمَّا مِنْهَجُهُ فِي الْمِائَةِ حَدِيثٍ: فَهِيَ قَدْسِيَّةٌ فِي الْغَالِبِ، وَفِيهَا مَا لَيْسَ بِقَدْسِيٍّ، ذَلِكَ أَنَّهُ يَعْتَبِرُ الْأَحَادِيثَ الَّتِي فِيهَا ذِكْرُ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْسِيَّةً، كَحَدِيثِ بَدْءِ الْوَحْيِ، وَحَدِيثِ «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةٌ» إِذْ فِيهِ قَوْلُهُ «يَا جَبْرِيلُ هَؤُلَاءِ أُمَّتِي...»، وَحَدِيثِ إِمَامَةِ جَبْرِيلَ بِالنَّبِيِّ ﷺ الْأَوْقَاتِ الْخَمْسَةِ، عَقِبَ لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَهَذِهِ أَرْقَامُ مَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ: (١، ٧، ١١، ١٢، ٢٥، ٣٣، ٤٢، ٥٣، ٧٧).

فَهُوَ يَشْتَرِكُ - مَعَ الْكِتَابِ السَّابِقِ - فِي هَذِهِ الْمُلَاحَظَةِ عَلَيْهِ.

كَمَا يَشْتَرِكُ مَعَهُ - وَمَعَ الْكِتَابَيْنِ السَّابِقَيْنِ أَيْضاً - فِي أَنَّهُ لَمْ يَخْلُ مِنْ أَحَادِيثَ تَالِفَةٍ ضَمِنَ الْمِائَةَ - سِوَى مَا فِي خَوَاتِيمِ كُلِّ عَشْرَةٍ - كَالْحَدِيثِ ١١، ٧٧. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

مِنْهَجِي فِي اخْتِيَارِي:

حَرَصْتُ فِيمَا جُمِعَتْ أَنَّ أَحْتَرِزُ مِنَ الْمُلَاحَظَاتِ الَّتِي أَبْدَيْتُهَا عَلَى هَذِهِ الْكُتُبِ الْأَرْبَعَةِ.

١ - فالتزمت الصحة أو الحُسْن فيها. فغالبا من الصحيحين، وإذا لم يكن الحديث منهما ذكرت من صحَّحه أو حسَّنه، إما من كلام مخرجه كالترمذي رحمه الله، وإما من العلماء الآخرين، كالعراقي، وابن حجر، والشهاب البُوصيري في زوائد ابن ماجه، وغيرهم، ولا أدفع عن بعضها الاختلاف فيه.

٢ - كما التزمت أن تكون كلها قدسية، إما مصدرة بـ: قال الله تعالى كذا، ونحوه، وإما أن الجملة القدسية متخللة أثناء الحديث.

وشدَّدت على نفسي في هذا الالتزام، فإذا تضافرت الروايات على كونه نبوياً، وانفردت منها رواية بلفظة تجعله قدسياً: توقفت عن ذكره.

مثال ذلك: حديث ابن عباس عند البخاري في كتاب الرقاق - باب الحشر ١١: ٣٧٧ (٦٥٢٦): «إنكم مَحْشُورُونَ حُفَاةٌ عُرَاةٌ غُرْلَاءُ...» وإنه سَيَجَاءُ برجال من أمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يارب أصبحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك».

وظاهر من هذا أن فاعل (فيقول) هو الله عز وجل، بقرينة قوله قبله: يارب أصبحابي.

لكن رواه البخاري قبل هذا الموضع في أربعة مواضع أخرى، موضعين في أحاديث الأنبياء ٦: ٣٨٦، ٤٧٨ (٣٣٤٩، ٣٤٤٧)، وآخر سورة المائدة ٨: ٢٨٦ (٤٦٢٥) وأول سورة الأنبياء ٨: ٤٣٧ (٤٧٤٠)، وفيها كلها: «فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك». وكذلك جاءت رواية مسلم ١٧: ١٩٤.

وزادني توقفاً أن مسلماً روى في أحاديث استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء ٣: ١٣٦ - بشرحه - عن أبي هريرة حديثاً فيه حكاية هذا الموقف نفسه عند الحوض، ولفظه: «وَلْيَصَدَّنَّ عَنِّي طَائِفَةٌ مِنْكُمْ فَلَا يَصِلُونَ، فأقول: يارب هؤلاء من أصحابي، فيجيبني ملك: وهل تدري ما أحدثوا بعدك؟». فلهذا لم أذكره.

أما في حالِ رواية الحديثِ على وجهين متكافئين: قدسي ونبوي: فإني أذكره، كما يراه القارئ الكريم في رقم ٧٦، ٧٨.

٣- وخُرجت الحديث من أشهر كتاب رواه، فلا داعيَ إلى عزو الحديث إلى «سنن أبي داود» أيضاً إذا كان في الصحيحين، وإذا كان في «سنن أبي داود» أو «سنن الترمذي» فلا حاجة إلى زيادة عزوه إلى ابن ماجه - مثلاً -. وإن فعلتُ شيئاً من هذا أوضحتُ مرادي.

وسلكتُ في التخريج والعزو طريقة المحدثين، ذلك أني أنقلُ لفظَ الحديث من البخاري - مثلاً - ويكون هو في «صحيح مسلم» أيضاً، فإني أعزوه إليهما مع وجود اختلاف بين اللفظين. ولا أنبئه على شيء من المغايرات إلا أحياناً لأمرٍ يتصل بمعنى الحديث.

٤- ولاحظتُ حالَ متوسطِ قراءِ الكتاب الإسلامي، فأكثرُ جداً من ضبط ألفاظِ الحديث، وتبسطُ في شرح غريبه، وحرصت - كعادي - على نقل المعاني الدقيقة الواضحة للكلمات الغريبة التي تقرب معانيها من غيرها فيظنُّ فيها الترادف، معتمداً في ذلك «مفردات القرآن» للراغب الأصفهاني، و«النهاية» لابن الأثير رحمهما الله تعالى.

٥- أما شرح الحديث ومعناه: فحرصتُ جداً على تبسيط الأسلوب، وخلّوهُ من الكلمات الاصطلاحية، وبُعِدِه عن الأسلوب العلمي الذي يُحتاج معه إلى مراجعة أو مرجع.

٦- ووثقتُ النقول، فعزوتها إلى مصادر معتمدة، يطمئنُّ إليها علماء الإسلام، ويرضونها في فهم كلام الله تعالى ورسوله ﷺ.

٧- ورتبتُ الأحاديث على وفق موضوعاتها، بجمع النظائر إلى بعضها، فجاء الكتاب شبةً مرتّب على الأبواب، مع مراعاة أبرز موضوع للحديث.

والله عز وجل هو المسؤول وحده: أن يتقبَّل هذا العمل مني - وسائر ما

أعمله - وأن يجعل فيه السداد، ويُعْظِم به النفع، ويُجْزِلَ لي الأجر والمثوبة،
إنه خير مسئول، وأكرم مرجوٍّ ومأمول.

وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه.
والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

المدينة المنورة ١٤١١/٨/٩

محمد عوامه

١ - عن أبي إدريس الخولاني رحمه الله، عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى، أنه قال:

١ - تخريجه: رواه مسلم في كتاب البر والصلة - باب تحريم الظلم ٤ : ١٩٩٤ (٥٥)، «شرح النووي» ١٦ : ١٣١، ورواه الترمذي بنحوه وفيه زيادات ٧ : ١٨٧ (٢٤٩٧) من طبعة حمص، و ٤ : ٦٥٦ (٢٤٩٥) من الطبعة التي ابتداء تحقيقها العلامة أحمد شاكر رحمه الله تعالى.

معناه: هذا الحديث الشريف من أشهر الأحاديث القدسية وأجلها، وأعظمها وقَعاً ومهابةً. في نفس المؤمن. وقد ذكر الإمام مسلم عَقِبَهُ أن أبا إدريس الخولاني كان إذا حَدَّثَ بهذا الحديث جَثَا على ركبتيه.

ونقل الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى في «جامع العلوم والحكم» ص ١٩٥ عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه قال عن هذا الحديث: «هو أشرف حديث لأهل الشام!» لذلك صَدَّرْتُ به الكتاب. بل أرى أنه مثلُ حديث «إنما الأعمال بالنيات» الذي قال فيه الإمام عبد الرحمن بن مهدي: «من أراد أن يصنَّف كتاباً فليبدأ بحديث: إنما الأعمال بالنيات». نقله ابن رجب أيضاً أول «جامع العلوم والحكم».

وهذا الحديث - حديث أبي ذر - كذلك هو من حيثُ الجلالة والشمولُ.

افتتح الله عز وجل هذا الحديث بنداؤه لعباده، وشرَّفهم بإضافتهم إليه فقال: «يا عبادي». وهو لفظ يدخل فيه كلُّ من تتوجَّب عليه عبادة الله عز وجل عبادةً تكليف، فيدخل تحت هذا النداء الكريم: الإنس والجن جميعاً.

وكرَّره الله عز وجل - وفيه من التلطُّف والتعطف ما فيه - قبل كلِّ تنبيه إلهي هام يريد الله تعالى به تنبيه عباده إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم.

«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا».

وفي هذا التكرير أعظم لفتِ نظر، وشدَّ اهتمام.

ولما كان من طبيعة النفوس البشرية الاطمئنان إلى العدل وأهله، والركون إلى الإنصاف في المعاملة: قدّم الحق سبحانه وافتتح هذا الحديث العظيم الشأن بما يُطمئن عباده، ويجعل نفوسهم رضية فقال.

«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي» فاطمئنوا إلى ما آمركم به وأنهاكم عنه، فإنني لا أريد من ذلك إلا خيركم، ولهذا فإنني «جعلته بينكم محرماً»، لتعيشوا في خير تام، فلا يَبِغِ أحدٌ على أحد: «فلا تظالموا». أي: فلا تتظالموا.

وهذا نصٌّ على تحريم أحدِ نوعي الظلم، إذ الظلم: ظلم للنفس، وظلم للآخرين.

فظلم النفس: بالمعاصي، وأعظمها الشرك بالله تعالى. قال عز وجل: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، وقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وظلم الآخرين يكون بالقول وبالفعل. روى مسلم في «صحيحه» ١٦: ١٣٥ - بشرح النووي - عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أَتَذَرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قالوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دَرَهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ. فقال ﷺ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا. فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ: أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ».

ومما يشمل نوعي الظلم: ما رواه البخاري في «صحيحه» في تفسير سورة هود ٨: ٣٥٤ (٤٦٨٦)، ورواه مسلم أيضاً عقب حديث المفلس ١٦: ١٣٦ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَمْلِكُنِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾».

يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهِدُونِي أَهْدِكُمْ.

فهو شاملٌ للظالم لنفسه بالمعاصي على اختلاف مراتبها، وشاملٌ للظالم للآخرين. وكذلك حالُ أهل القرى، منهم الظالم لنفسه، ومنهم الظالم لغيره.

وإن يوم القيامة يومٌ يكون فيه كمالُ مظهر العدلِ الإلهي: فلن يدخلَ الجنةَ مؤمن هو من أهلها ما دام عليه حقُّ لعبدٍ ولو كان هذا العبد من أهل النار، كما جاء في حديث عبد الله بن أنيس الذي رواه أحمد ٣: ٤٩٥ وغيره - وهو حديث قدسي - وفيه: «ولا ينبغي لأحدٍ من أهل النار أن يدخلَ النارَ وله عند أحدٍ من أهل الجنة حقٌّ حتى أقصه منه، ولا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنة أن يدخلَ الجنةَ ولأحدٍ من أهل النار عنده حقٌّ حتى أقصه منه، حتى اللطمة».

فليحذرْ كلُّ عبدٍ هذا الموقفَ العصيبَ، وليُعِدْ له العُدَّةَ والجوابَ الذي يعتقد أنه يُرضي الله تعالى ويقبله منه.

ثم شَرَّفَ المولى سبحانه وتعالى عباده بالإضافة إليه ثانيةً، وناداهم:

«يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهِدُونِي أَهْدِكُمْ».

يَنبَهُ الله تعالى العبادَ بأنهم كلُّهم عُرضَةٌ للضلال والغواية، ومتأهِّلٌ للشر والفساد، بما رُكِبَ عليه من نفسِ أُمارة بالسوء، وقرينٍ من الشيطان، ودنيا مُغرِية... إلا من استعصم بالله واستمسك بحبله المتين، وكان على وَجَلٍ دائمٍ من أن تُخطفَه المَصِلاتُ من النفس الشريرة، وشياطين الإنس والجن، ومفاتن الدنيا وزخارفها، فسأل الله على الدوام الحفظَ والوقايةَ، والعنايةَ به والهدايةَ، فأنعم الله عليه باستجابة دعائه، وإعطاءِ سؤاله، فوفَّقه للطاعات والقُرْبَات، وجعله من عباده الصالحين.

فقوله: «كلُّكم ضالٌّ» أي: ضالٌّ لو تُرِكَ وشأنه وطبعه، لأنه في أصل أمره مولود على الفطرة الحنيفية، لكنه يَضِلُّ لو تُرِكَ ونفسه البهيمية تَرَتَّعَ وتَبَغَّى، إلا من استهدى الله - أي: سألَه الهداية - فهداه ووفَّقه، وأخذ بناصيته إلى سواء السبيل.

ومن أعظم مظاهر هداية الله تعالى للعبد: أن يُوفِّقه لصحبة الأخيار، واتخاذ القُرناء الصالحين الأبرار. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ

يا عبادي كلُّكم جائِعٌ إلّا من أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أَطْعِمَكُم.
يا عبادي كلُّكم عارٍ إلّا من كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي اكْسُكُم.
يا عبادي إنكم تُخْطِئُونَ بالليل والنهار، وأنا أَغْفِرُ الذنوبَ جميعاً،
فاستَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُم.

الصادقين ﴿ وقال عز شأنه: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ... ﴾ وَعَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ سَبْطَهُ وَرِيحَانَتَهُ سَيِّدَنَا الْحَسَنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَعَاءَ الْقُنُوتِ، وَأَوَّلُهُ: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ» رواه أصحاب السنن وقال الترمذي حسن.
ثم جاء بعده نداءان إلهيان بالطعام - ومثله الشراب - وبالكساء، وأفرد كل واحد منهما بنداء، إشارة إلى تحقُّق فقر العباد بكلٍّ منهما إلى الله عز وجل، ومَنْ كان الفقر ملازماً له في طعامه الذي هو في متناول يده بكثرة، وفي كسائه الذي عليه منه أظمارٌ مختلفة الأشكال والأجناس: ينبغي أن يعلم أنه في غاية الفقر، وعليه حينئذ أن يتحقَّق بالافتقار، فيستشعر من نفسه أنه عبدٌ لله، محتاجٌ إليه للوصول إلى لُقمة الطعام وجُرعة الشراب وقطعة الكساء، ثم هو محتاجٌ إليه في هَضْم هذه اللُقمة واستساغة هذه الجرعة، ثم هو محتاجٌ إليه فقير في بقاء ما ينفعُ بدنَه من هذه اللُقمة والجرعة، وطرح ما لا ينفعه، وهكذا...

ولكنَّ أكثر الناس عن هذه الحقائق غافلون، بل هم غارقون في خطايا أشدَّ منها تجاوزاً لحقوق الله عز وجل، وتعدياً على حُرُماته، وهم في حال لا يَسْعُهُمْ إلّا أن يتداركهم الله تعالى بمغفرته، وما عليهم إلّا أن يستغفروه، لذلك عَقِبَ بيان حالهم السابقة بالنداء الخامس:

«يا عبادي إنكم تُخْطِئُونَ بالليل والنهار، وأنا أَغْفِرُ الذنوبَ جميعاً، فاستَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُم».

قال الإمام النووي رحمه الله في «شرح صحيح مسلم» ١٦: ١٣٣ في ضبط «تخطئون»: «الرواية المشهورة: تخطئون، بضم التاء، ورُوي بفتحها وفتح الطاء، يقال: خَطِئَ يَخْطِئُ إذا فعل ما يَأْثُمُ به، فهو خاطيء، ومنه قوله تعالى: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ ويقال في الإثم أيضاً: أخطأ، فهما صحيحان».

فيكون معنى قوله: إنكم تُخطئون - على كلا الوجهين في الضبط -: إنكم تعملون أعمالاً تائمون وتُذنبون بها.

وأفاد الحديث - وهو مشاهدٌ من أنفسنا - أن هذه الآثامَ والذنوبَ كثيرةٌ مستمرةٌ لا تنقطع، ليلَ نهار، ولكنَّ عَفْوَ الله تعالى ومغفرتهَ أعظمُ وأوسعُ، لذلك تَمَدَّحُ الله عز وجل بقوله عقبه: «وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً». ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. إلا الشركَ بالله فإنه استثناء تعالى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

ولا تَعَارِضُ بين التعميم والتأكيد الذي في الحديث القدسي، وبين التخصيص والتعليق بالمشيئة الذي في الآية، فالآية لا نصُّ فيها على استغفار العبد استغفاراً شاملاً من الذنوب كلها حتى الشرك، بأن أُلْقِيَ عنه ودخل في دين الله وأسلم وجهه إليه، أما الحديث ففيه قوله: «فاسْتَغْفِرُونِي» من الذنوب التي صدرت عنكم: علمتم بها أو لم تَعْلَمُوا، ومن جملة ذلك: إن كان مشركاً استغفر الله من الشرك وتاب عنه ودخل في الإسلام، فإنكم إن فعلوا ذلك: «أَغْفِرْ لَكُمْ».

فإن كان استغفاره مستوفياً شروطه، وتوبته صادقةً نصوحاً: غَفَرَ الله ما كان منه، وهو أكرمُ وأجلُّ من أن لا يقبلَ منه، ولا يغفرَ له، سبحانه وتعالى. وإنما يتوجب على العبد الاستغفار، لأن فيه أموراً يحبُّها الله عز وجل منه، وهي: اعترافُ العبد على نفسه بالعبدية، واعترافه على نفسه بالخطيئة، واعترافه لله عز وجل بالربوبية، واعترافه على نفسه أمامَ ربِّه بالقيئة إليه والتوبة لديه، وخوفه من يوم الحساب والجزاء، وما إلى ذلك من معاني إيمانية لا يتخلَّف عن صاحبها غفرانُ الله وعفوه، بفضلِهِ وكرمه.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله في «جامع العلوم والحكم» ص ١٩٩: «كان بعض أصحاب ذي النون - المصري الزاهد المشهور - يَطُوفُ يُنادي: آه أين قلبي؟ من وَجَدَ قلبي؟. فدخل يوماً بعض السُّكَّ - الطُّرُق والأزقة - فوجد صبياً يبكي وأُمُّهُ تَضْرِبُهُ، ثم أخرجته من الدار وأغلقت البابَ دونه، فجعل الصبيُّ يلتفت يميناً وشمالاً لا يَدْرِي أين يذهب ولا أين يَقْصِدُ، فرجع إلى باب الدار فجعل يبكي ويقول: يا أُمَّاه مَنْ يفتح لي الباب إذا أغلقت عني بابك؟ ومن يُدْنيني إذا طردتني؟

يا عبادي إنكم لن تبُلغوا ضَرِّي فتَضُرُوني، ولن تبُلغوا نَفْعي فتَنفَعُوني.

ومن الذي يُدِينني إذا غضبت عليّ؟ فرجته أمه فنظرت من خلل الباب فوجدت ولدها تجري الدموع على خديه متمعكاً - متمرعاً - في التراب، ففتحت الباب وأخذته، حتى وضعته في حجرها وجعلت تقبله وتقول: يا قرّة عيني ويا عزيز نفسي أنت الذي حملتني على نفسك، وأنت الذي تعرضت لما حل بك، لو كنت أطعتني لم تلق مني مكروهاً.

فتواجد الفتى - صاحب ذي النون - ثم قام فصاح وقال: قد وجدت قلبي، قد وجدت قلبي، وإن الله عز وجل أرحم بعبد المقبل إليه بالاستغفار الصادق من هذه الأم بولدها.

وتأمل قوله فيما سبق: فاستهدوني، فاستطعموني، فاستكسوني، فاستغفروني، وقارنه بقول الله تعالى على لسان إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿.. إلا رب العالمين. الذي خلقني فهو يهدين. والذي هو يطعمني ويسقين. وإذا مرضت فهو يشفين. والذي يُميتني ثم يُحيين. والذي أطع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾: تجد التتابع بينهما تاماً.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله في «جامع العلوم والحكم» ص ١٩٦: «فإن من تفرّد بخلق العبد وبهدياته، وبرزقه وإحيائه وإماتته في الدنيا، وبمغفرة ذنوبه في الآخرة: مستحق أن يُفرد بالإلهية والعبادة، والسؤال والتضرع والاستكانة له».

وجاء النداء المشرف السادس لتأكيد حقيقة العجز في العباد، وتأكيد حقيقة استغناء الله سبحانه عنهم، فقال:

«يا عبادي إنكم لن تبُلغوا ضَرِّي فتَضُرُوني، ولن تبُلغوا نَفْعي فتَنفَعُوني».

لن تبُلغوا: أي: لن يبلغني ضرّ منكم، بمعنى: لن يصل إليّ منكم ضرر بمعاصيكم، أو بإعراضكم عن سؤال حوائجكم مني. وإن اهتديتم وتوجّهتم إليّ بالسؤال والدعاء: فلن أنتفع منكم بذلك، إنما ضرر معاصيكم ونفع طاعاتكم عائد إليكم، ذلك أن الله هو الغني ونحن الفقراء.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً.

ثم جاء النداء السابع والثامن تحقيقاً وتبييناً لما قبله :

«يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً».

والمعنى : لو أن كل فرد فرد من الثقلين كان قلبه كأتقى قلب رجل فيهم - ولا ريب أن أتقى قلب في مخلوقات الله عز وجل هو قلب محمد ﷺ^(١) - لما زاد ذلك في ملك الله شيئاً.

ولو أن كل فرد فرد من الثقلين كان قلبه كأفجر قلب رجل فيهم - ولا ريب أن أفجر القلوب قلب إبليس^(٢) - لما نقص ذلك من ملك الله شيئاً.

وتأمل هذا التأديب الرباني الدقيق للعباد، في مخاطبتهم. ذلك أنه قال أولاً : «لو أن أولكم وآخركم.. كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما نقص..»، ثم قال ثانياً : «لو أن أولكم وآخركم.. كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص..». ففي مقام ذكر العباد بالتقوى والخير جاء بلفظ المخاطب «منكم»، وفي مقام ذكركم بالفجور والشر لم يأت به، ولم يخاطبهم بكلمة «منكم». مع أن المتكلم والمخاطب هو رب العالمين وخالقهم ومُحييهم ومميتهم. سبحانه وتعالى !.

فما أحوَجَ العبادَ إلى هذا الأدب - وغيره وغيره - فيما بينهم !.

ثم، ما أحوَجَنَا إلى هذا فيما بيننا وبين ربنا عز وجل ! وذروة الأدب مع الله تعالى وغايته : أن تُطيعه فلا تعصيه في أمرٍ ما، وإن بدرت منك بادرة أسرع إلى التوبة والإنابة إليه.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نَقَصَ ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُصُ المِخِيطُ إذا أُدْخِلَ البحر.

وانظر الكلام على قوله الكريم الآتي: «ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه».

ولأنه لا يؤثر على مُلك الله تعالى شيء: كَمَا وكَيْفًا. وهذا هو حقيقة الغنى المطلق الذي اتَّصَفَ به مولانا جَلُّ وعلا، وكيف يَزِيدُ وَيَنْقُصُ وهو الذي أوجد هذا الوجود - من حين أوجده - على أكمل الوجوه.

وللغنى مرتبتان: دُنْيَا وَعُلْيَا. فالمرتبة الأولى الدنيا: بمعنى الاستغناء، يعني: أن صاحبها مُسْتَغْنٍ عن غيره، غير محتاج إلى أحد. وهذه هي المرتبة التي تقدّم بيانها. الله غني عن العالمين: طائِعهم وعاصيهم.

والمرتبة الثانية العليا: بمعنى الإغناء للغير. وفرق كبير بين المرتبتين: أن تكون مستغنياً غير محتاج، وأن تكون غير محتاج ومُغْنِيّاً للآخرين تَسُدُّ حاجاتهم وتُفِيضُ عليهم بإحسانك إليهم.

وهذه المرتبة هي التي جاءت في النداء الإلهي التاسع:

«يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نَقَصَ ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُصُ المِخِيطُ إذا أُدْخِلَ البحر».

فالله سبحانه وتعالى مستغني ومُغْنٍ، وهذا هو كمال الغنى وتمامه، وليس هو إلا الله العلي العظيم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي: مُسْتَغْنٍ عن عبادتهم.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ الغني هنا يَشْمَلُ المعنيين: هو مستغني فليس محتاجاً إليكم، وهو مُغْنٍ لكم لأنكم فقراء

إليه، ولأنه حميدٌ في غناه، أي: محمودٌ على غناه، لأنه يُغني عباده: يَمْنَحُهُمْ وَيُعْطِيهِمْ وَيُفْضِلُ عَلَيْهِمْ وَيُعْدِقُ عَلَيْهِمْ إِحْسَانَهُ وخيراته.

وَأَيُّ غِنَىٍّ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا الْغِنَى! وَأَيُّ غِنَىٍّ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا الْغِنَى! سبحانه وتعالى. هو غنيٌّ عن كُلِّ خَلْقِهِ وعن كُلِّ مَا عِنْدَ خَلْقِهِ، ذلك لأنهم ولأن ما عندهم: مخلوق له. وهو الذي أمدَّ خَلْقَهُ بكلِّ هذه الإمدادات من يومَ خَلَقَهُمْ إلى هذه اللحظة، إلى يوم الدين، إلى ما بعده.

ولا يُقال: إن إمداداته لهم كانت على فترات: شيئاً فشيئاً.

لا، لذلك قال هنا في الحديث القدسي «قاموا» جميعهم في موقف ومقام واحد «في صعيدٍ واحد» أرضٍ واحدة ومكان واحد «فسألوني..» ما نَقَصَ ذلك مما عندي».

بل جاء في أثرٍ إسرائيليٍّ نَقَلَهُ الحافظ ابن رجب رحمه الله في «جامع العلوم» ص ٢٠١ أنقله بطوله، فيه بيان لغنى الله تعالى على وجهٍ أكمل مما تقدم، وهو دعوة من الله تعالى يدعو بها عباده أن يُقبلوا إليه ويسألوه.

قال ابن رجب: «وفي بعض الإسرائيليات: يقول الله عز وجل: أَيُؤْمَلُ غَيْرِي لِلشَّدَائِدِ، والشَّدَائِدُ بيدي وأنا الحيُّ القيوم؟ وَيُرْجَى غَيْرِي وَيُطْرَقُ بَابُهُ بِالْبُكْرَاتِ وَيَبْدِي مَفَاتِيحَ الْخَزَائِنِ وَبَابِي مَفْتُوحٌ لِمَنْ دَعَانِي؟ مَنْ ذَا الَّذِي أُمْلِنِي لِنَائِبَةٍ فَقَطَعْتُ بِهِ؟! أَوْ مَنْ ذَا الَّذِي رَجَّانِي لِعَظِيمٍ فَقَطَعْتُ بِهِ؟! أَوْ مَنْ ذَا الَّذِي طَرَقَ بَابِي فَلَمْ أَفْتَحْهُ لَهُ؟! أَنَا غَايَةُ الْأَمَالِ فَكَيْفَ تَنْقَطِعُ الْأَمَالُ دُونِي؟ أَبْخِيلُ أَنَا فَيُخْلَنِي عَبْدِي؟! أَلَيْسَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ وَالْكَرَمُ وَالْفَضْلُ كُلُّهُ لِي؟! فَمَا يَمْنَعُ الْمُؤْمِلِينَ أَنْ يُؤْمَلُونِي؟ لَوْ جَمَعْتُ أَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ أُعْطِيتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا أُعْطِيتُ الْجَمِيعَ، وَبَلَغْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَمَلَهُ: لَمْ يَنْقُصْ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي عَضْوَةً ذَرَّةً! كَيْفَ يَنْقُصُ مُلْكُ أَنَا قِيَمُهُ؟! فَيَا بُؤْسًا لِلْقَانِطِينَ مِنْ رَحْمَتِي، وَيَا بُؤْسًا لِمَنْ عَصَانِي وَتَوَثَّبَ عَلَى مُحَارَمِي! أَيُّ: تجاوز حدود شرعي.

فانظر قوله: لَوْ جَمَعْتُ أَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ أُعْطِيتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا

يا عبادي إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم، ثم أُوفِّيكم إياها، فمن وَجَدَ خيراً فليُحمد الله، ومن وَجَدَ غيرَ ذلك فلا يُلومَنَّ إلا نفسه .

أعطيت الجميع...، واستشعرَ هذا المعنى بقلبك حقاً لتعلمَ عظمةَ غنى الله عز وجل ربَّ الأرباب، وليُصغِرَ في عينك وقلبك ما في أيدي المخلوقين.

وهل ينقص ما عند الله تعالى لو أعطى كلَّ واحد مسألته؟ ولو كان نقصاناً خفيفاً طفيفاً كما ينقصُ البحرُ لو غُمِسَ فيه المِخيطُ - الإبرة -؟.

الجواب: لا ينقص، وما ذكره الله تعالى في الحديث إنما هو على سبيل ضَرْبِ المَثَلِ والتقريب لعقولنا. والإبرةُ مَعْدِنُ أَمْلَسٍ، رأسُها أَصْغَرُ مرثيٍّ - تقريباً - لو غُمِسَ في البحر - وهو أكبر مرثيٍّ - ثم نُظِرَ في البحر: هل نَقَصَ منه شيء، لما رأيناه نقص، فالنظر: إلى المأخوذ منه، لا إلى المأخوذ. فالتقدير: إلا كما ينقصُ المِخيطُ البحرَ إذا أُدْخِلَهُ.

والأمور التي يريد الله إيجادها: تكون بمجرد توجُّه إرادة الله تعالى إليها، ولا يتوقَّف وجودها على فترة زمنية قصيرة جداً بقدر كلمة «كن»، ومع ذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ذلك أن هذه أقصرُ فترةٍ زمنيةٍ تتسع لها عقول المخاطبين، لا أن الإيجاد يتأخَّر قدر هذه الكلمة زمناً.

وجاء النداء العاشر الأخير فيه شمولٌ لكل ما تقدَّم، فهو الخلاصة الجامعة.

«يا عبادي إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم، ثم أُوفِّيكم إياها، فمن وَجَدَ خيراً فليُحمد الله، ومن وَجَدَ غيرَ ذلك فلا يُلومَنَّ إلا نفسه».

الأعمال: تشمل ما يصدر عن الجوارح من أفعال، وما يصدر عن القلب من نيات.

فالأمر الأول في هذا الحديث: تحريم الظلم وهو يكون بالقلب وبالجوارح؛ ثم طلب الهداية ويكون بالقلب توجُّهاً وطلباً، وبالجوارح سلوكاً وتطبيقاً؛ ثم الافتقار إلى الله تعالى بطلب الغذاء والكساء وكلِّ حاجاته الظاهرة، وهذا يكون بالقلب توجُّهاً ودعاءً واستشعاراً بأن المعطي على الحقيقة هو الله، لا كسبه وعمله؛ ثم إن خطاياكم التي تصدر عنكم ليلَ نهار لا بدَّ لها من استغفار بالقلب واللسان، وإقلاع عنها بالجوارح.

وراء ذلك كله يجب على العباد أن يشعروا بالفقر المطلق الذاتي في أنفسهم، وبالغنى المطلق الذاتي لله تعالى، فإن هذا من حقائق الإيمان ومحضه وخالصة.

هذه الأمور القلبية والجارية يعلمها الله تعالى، ولولا علمه الكامل بها لما أحصاها، لأن الإحصاء هو العدُّ والحفظ لدقيق الأشياء وجليلها، ثم يكون الحساب والتوفية، «فمن وجد خيراً» وعاقبة حسنة ونعيماً مقيماً «فليحمد الله» على فضله وتوفيقه «ومن وجد غير ذلك» أي: شراً. قال ابن حجر المكي رحمه الله في «فتح المبين» ص ١٩٩: «ولم يذكره بلفظه، تعليماً لنا كيفية الأدب في النطق بالكناية عما يؤذي، ومثله ما يُستقبح أو يُستحى من ذكره، أو إشارة إلى أنه إذا اجتنب لفظه فكيف بالوقوع فيه».

«فلا يلومنَّ إلا نفسه» حين لا ينفعه لوم ولا ندم. و«الكيس»: العاقل الفطن «مَنْ دَانَ نَفْسَهُ» أي حاسبها «وعمل لما بعد الموت، والعاجز» وهو المقصّر في أموره «مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا» فأعطاه شهواتها «وتمنى على الله الأمانى».

* * *

٢ - عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان فيك ولا أبالي».

٢ - تخريجه: رواه الترمذي في كتاب الدعوات - باب غفران الذنوب مهما عظمت ٩: ١٩٤ (٣٥٣٤) = ٥: ٥٤٨ (٣٥٤٠) وفي كلتا الطبعين قال: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. ونقل الإمام النووي عنه في آخر «الأربعين النووية» أنه قال: حسن صحيح^(١).

غريبه: عَنان السماء: هو السحاب.
قَرَاب الأرض: ما يُقَارِبُ مَلَأَهَا.

معناه: هذا الحديث العظيم «حديث المغفرة»، فيه ثلاثة ندائات ربَّانِيَّة يدعو الله تعالى فيها ابنَ آدم ويُناديه لِيَسْتَغْفِرَهُ، فيَغْفِرَ لَهُ، ومع كل نداء دلالة وإرشاد إلى سبب عظيم من أسباب المغفرة، فما أرحمَ الله بعباده!.

١ - النداء الأول وسببه: «يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان فيك، ولا أبالي».

فدَلَّنَا سبحانه على سبب من أسباب المغفرة، هو الدعاء والرجاء، دعاؤك إياه بالمغفرة والتجاوز عما قَرُطَ منك، مع رجائك الإجابة منه وعدم القنوط إن تأخرت الإجابة.

(١) وهكذا نقل ابن رجب ص ٣٤١ عن النووي عن الترمذي، أما هو فنقل عن الترمذي ما نقلته: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ومثله عند ابن حجر المكي ص ٢٨٦ عن نسخة من «سنن الترمذي»، وفي نسخة أخرى: حسن، وأما نقله عن النووي عن الترمذي: ففيه: صحيح، فقط. والله أعلم.

يا ابن آدم لو بلغت ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي.

وجاء النصُّ الكريم يَقْرَنُ الرجاء بالدعاء، لأن الإنسان المذنب قَدْ يَتَعَاطَمُ ذُنُوبَهُ، فيبَاسُ أن يغفرها الله له، فلذلك قال الله له: «إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي».

أي: إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي، فإني غافرت لك ذُنُوبَكَ مهما بلغت كميتها، ومهما كانت كيفيتها، فلا يليق بالعبد المسلم أن يجد القنوط من رحمة الله تعالى إلى قلبه سبيلاً.

و«ما» في قوله «ما دَعَوْتَنِي» تُعَرِّبُ مصدرية ظرفية. والتقدير: مدة دوام دعائك، فيستفاد من هذا التقدير ضرورة المداومة على الدعاء والإلحاح به وأنت ترجو من الله الحصول على المطلوب، ذلك أن الله تعالى يقول في الحديث القدسي الآتي برقم ٥٩ ص ٢٥٣: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي». فَكُنْ لَهُ رَاجِئاً، يَكُنْ لَكَ مُعْطِياً.

ومعنى قوله «وَلَا أُبَالِي»: أي: لَا تَهْمُنِي كثرة ذُنُوبِكَ، وَلَا يَعْظُمُ عَلَيَّ مغفرتها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ إِلَّا الشَّرْكَ بِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

٢ - النداء الثاني وسببه: «يا ابن آدم لو بلغت ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي».

تقدم تفسير «دَعَوْتَنِي» في النداء الأول بالدعاء بالمغفرة، ويُشْكَلُ هنا قوله: «ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي» والاستغفار هو الدعاء بالمغفرة؟.

ولذا فسّر العلامة ابن حجر المكي رحمه الله قوله: «ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي» بالتوبة الصحيحة، وذكر شروطها، وإليه أدّى كلام ابن رجب رحمه الله، بعد أن تكلم كثيراً عن الاستغفار^(١).

ففي هذا النداء الربَّانِي يَفْتَحُ الله عز وجل لعبده باب الرجاء فتحاً كبيراً،

فيصور له كثرة ذنوبه كثرة فاحشة، بحيث إنها بلغت وعمت ما بينه وبين سحاب السماء، ثم تاب إلى الله تعالى توبةً صحيحةً صادقةً، فإن الله يغفر له هذه الذنوب الكثيرة ولا يُبالي سبحانه وتعالى بكثرتها.

والمغفرة: وقاية شرّ الذنوب مع سترها، كما قال ابن رجب.

وهذا تعريف ملاحظ فيه المعنى اللغوي بدقة واستيفاء، فالغفر في الأصل: معناه السّتر. والمغفر: هو الخوذة الحديدية التي يلبسها المقاتل على رأسه، يستره بها، ليتقي الضربات التي تصيب الرأس، فإنها قاتلة غالباً.

فالمغفرة من الله عز وجل: تقي صاحبها من شرّ الذنوب، وذلك بستر الله لها.

والتوبة: العودة والرجوع إلى الله عز وجل.

ولتكون توبة صادقة ينبغي أن تستوفي شروطها، وهي ثلاثة إن كانت توبة عن ذنب بينك وبين الله عز وجل، ويضاف إليها شرط رابع إن كانت عن ذنب بينك وبين إنسان آخر ولو كان غير مُسلم.

وهذه الشروط هي: - الإقلاع عن الذنب في الحاضر.

- والندم على ما فرط منه في الماضي.

- والعزم على أن لا يعود إليه في المستقبل.

والشرط الرابع: ردّ الحق إلى أهله، أو المسامحة منهم.

والاستغفار اللساني لا يتم إلا إذا قرّن بعدم الإصرار، وأما «مع إصرار القلب على الذنب فهو دعاء مجرّد: إن شاء الله أجابه، وإن شاء رده، وقد يكون الإصرار مانعاً من الإجابة، وفي «المسند» من حديث عبدالله بن عمرو مرفوعاً: «ويل للمصيرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون» كما قاله ابن رجب^(١).

١- في «جامع العلوم والحكم» ص ٣٤٥، والحديث في «المسند» ٢: ١٦٥، ٢١٩ بإسناد صحيح.

يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة».

والاستغفار الصادق المقرون بالتوبة: شعار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما هو ظاهر من آيات القرآن الكريم، وهو شعار سيدهم عليه أفضل الصلاة والسلام.

روى البخاري في «صحيحه» في كتاب الدعوات - باب استغفار النبي ﷺ في اليوم واللييلة ١١: ١٠١ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

وروى مسلم في كتاب الذكر - باب التوبة ١٧: ٢٤ عن الأغر المزني أنه قال: قال رسول الله رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة».

وروى أبو داود في أبواب الوتر ٢: ١٧٨ (١٥١٦) والترمذي في الدعوات ٩: ١٣١ (٣٤٣٠) وقال: حسن صحيح غريب، وابن ماجه في الأدب ٢: ١٢٥٣ (٣٨١٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن كنا لننعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة: «رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم». وهذا لفظ أبي داود.

٣ - النداء الثالث وسببه: «يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً: لأتيتك بقرابها مغفرة».

فالشرط في المغفرة الكبرى: لقاء الله عز وجل على التوحيد: «لقيتني لا تشرك بي شيئاً».

فحسن خاتمة العبد، ووفائه على الإيمان: سبب عظيم بل هو أعظم أسباب مغفرة الله له.

قال ابن بطال: «... ولا حسنة أعظم من التوحيد»^(١).

قال الله عز وجل: ﴿إِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ الْكَبِيرِ الَّذِي لَهُ لَا يَنْفَعُهُمْ إِتْرَاءُ اللَّهِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وسياقي برقم ٨٥ حديث الرجل الذي جاء بتسعة وتسعين سجلاً، كلُّ سَجَلٍ مَدُّ الْبَصَرِ، وجاء معها ببطاقة صغيرة مكتوبٌ فيها قوله «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» فَرَجَحَتْ عَلَى تِلْكَ السُّجُلَاتِ، وَأَدْخَلَتْ صَاحِبَهَا الْجَنَّةَ.

نعم، إن ذلك داخلٌ تحت مشيئة الله المذكورة في الآية الكريمة، فإنَّ تَمُّ لَهَا هَذَا الْفَضْلُ دَخَلَ الْجَنَّةَ مَعَ السَّابِقِينَ، وَإِلَّا فَيَدْخُلُهَا بَعْدُ. وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

* * *

٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه».

٣- تخريجه: رواه مسلم في الزهد والرقائق - باب تحريم الرياء ٤: ٢٢٨٩ (٤٦)، وشرح النووي ١٨: ١١٥.

معناه: إن الله سبحانه وتعالى متفرد بالوحدانية المطلقة في ألوهيته وذاته وصفاته وأفعاله، ويريد من عباده أن يُفردوه بالعبادة والتوجه إليه، ويوحدوه في القصد والعمل، ويُخلصوا له العبادة والدين: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾.

وفي هذا الحديث القدسي يبين تعالى بياناً ضمّنه الوعيد الشديد أنه من عمل شيئاً وقصد به الله تعالى وآخر معه: فإن الله تعالى يتركه وشركه أي: يتركه وهذه الجهة الأخرى التي أشركها مع الله عز وجل في القصد. وترك الله عز وجل له: معناه: أن يتركه ويتخلّى عنه ويكلّه إلى نفسه ومن قصده مع ربه، وقد خاب وخسر كلّ الخُسران من تخلّى الله عنه ووكله إلى نفسه أو إلى غيره.

ذلك أن الله تعالى من عزّته وعظمته: يَغَارُ أن يُقرن به غيره، ومن الذي يستحق أن يُقرن مع الله تعالى أو يُشرك معه في القصد والتوجه والعبادة...

وقدّم سبحانه على بيان هذه النتيجة بجملة يبين فيها حقيقة إفراده بالقصد، وغناه عن الشريك فقال: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك». والحقيقة أنه لا شريك له ولا شركاء، إنما هذا على حسب زعم الزاعمين، فإذا كان أولئك في زعم عابديهم أغنياء عن الشرك، فأنا أغنى منهم عن الشرك والشريك.

.....

أو أن (أغني) هنا ليست على بابها من التفضيل، والمعنى: أنا غني، وأولئك محتاجون فقراء إليّ.

وقال النووي في بيان المعنى العام للحديث: «أنا غنيٌّ عن المشاركة وغيرها، فمن عَمِلَ شيئاً لي ولغيري لم أقبّله، بل أتركه لذلك الغير. والمراد أن عملَ المرائي باطلٌ لا ثواب فيه ويأثم به».

* * *

٤ - عن شُفْيٍ الْأَصْبَحِيِّ أَنَّهُ دَخَلَ الْمَدِينَةَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: أَبُو هَرِيرَةَ، فَذَنُوتُ مِنْهُ حَتَّى قَعَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ يَحْدُثُ النَّاسَ، فَلَمَّا سَكَتَ وَخَلَا النَّاسُ قُلْتُ لَهُ: أَنْشُدْكَ بِحَقِّ وَبِحَقِّ لَمَّا حَدَّثْتَنِي حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَقَلْتُهُ وَعَلِمْتُهُ.

فَقَالَ أَبُو هَرِيرَةَ: أَفْعُلُ، لِأَحَدَثْنَكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَقَلْتُهُ وَعَلِمْتُهُ.

ثُمَّ نَشَخَ أَبُو هَرِيرَةَ نَشْغَةً، فَمَكَثَ قَلِيلًا، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: لِأَحَدَثْنَكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَا مَعْنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ.

ثُمَّ نَشَخَ أَبُو هَرِيرَةَ نَشْغَةً أُخْرَى، ثُمَّ أَفَاقَ، فَمَسَحَ وَجْهَهُ فَقَالَ: لِأَحَدَثْنَكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا وَهُوَ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَا مَعْنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ.

ثُمَّ نَشَخَ أَبُو هَرِيرَةَ نَشْغَةً أُخْرَى، ثُمَّ أَفَاقَ، وَمَسَحَ وَجْهَهُ فَقَالَ: أَفْعُلُ، لِأَحَدَثْنَكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا مَعَهُ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَا مَعْنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ.

ثُمَّ نَشَخَ أَبُو هَرِيرَةَ نَشْغَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ مَالَ خَارًا عَلَى وَجْهِهِ، فَأَسْنَدَتْهُ

٤ - تخريجه: رواه الترمذي بهذا اللفظ المطوّل في أبواب الزهد - باب الرياء والسُّمعة ٧: ١١٢ (٢٣٨٣) = ٤: ٥٩١ (٢٣٨٢) وقال: حديث حسن غريب.

وأصله في صحيح مسلم في كتاب الجهاد - باب من قاتل للرياء والسُّمعة

عليّ طويلاً، ثم أفاق، فقال: حدثني رسول الله ﷺ: أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم، وكلُّ أمة جاثية، فأول من يدعوه به: رجل جَمَعَ القرآن، ورجل يُقتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارىء: أَلَمْ أُعَلِّمَك ما أنزلت على رسولي؟! قال: بلى يا ربّ.

استحق النار ١٣ : ٥٠، والنسائي كتاب الجهاد - من قاتل ليقال فلان جريء ٦ : ٢٣ (٣١٣٧).

غريبه: أنشدك: أسألك وأقسم عليك، وأصل النُشدان يكون مع رفع الصوت، شأن المتلهّف.
لما: أي: إلا.
عقلته: وعيته.

نشخ: قال في «النهاية» ٥ : ٥٨: «النشخ: الشهيق حتى يكاد يبلغ به الغشي، وإنما يفعل الإنسان ذلك تشوّفاً إلى شيء فائتٍ وأسفاً عليه».
جاثية: مجتمعة، كل أمة جماعة.

معناه: هذا الحديث الشريف أصل أصيل في تنبيه العباد إلى ضرورة الإخلاص لله في القول والعمل، وأن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً له وابتغي به وجهه. وخصّ الحديث هذه الأصناف الثلاثة بالذكر: العلماء، وأصحاب الأموال (التجار)، والمجاهدين (الجيش): لأنهم أهمّ العاملين من الناس، وإلا فكلّ ذي عملٍ مطالب بإخلاص عمله لله رب العالمين.

فأول الثلاثة: رجل جَمَعَ القرآن فحفظه وعلمه، يقول الله تعالى له يوم القيامة - وهو أعلم بحاله -: «أَلَمْ أُعَلِّمَك ما أنزلت على رسولي؟» قال له ذلك تمهيداً لإقامة الحجة عليه، فيقول: «بلى، يا رب». وهذا إقرارٌ بنعمة عظيمة تستوجب منه شكراً عظيماً، هي نعمة العلم: العلم بالقرآن الكريم، كلام رب العالمين، الذي جمع الله فيه الخير من أطرافه، فما من خير في الدنيا والآخرة إلا ودلنا عليه القرآن الكريم.

قال: فماذا عَلِمْتَ فيما عَلِمْتَ؟ قال: كُنْتُ أَقُومُ به آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ، فيَقُولُ اللهُ له: كَذَبْتَ، وتَقُولُ له الملائكةُ: كَذَبْتَ، ويقولُ اللهُ: بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يُقَالَ: إِنْ فَلَانًا قَارِئٌ، فقد قيلَ ذاك.

إلا أن هذا الرجل لم يكن من الموفِّقين، ولم يَصُدِّقِ اللهُ في دُنيَاه، ولا في آخرته، فلما قال اللهُ له: «ماذا عَلِمْتَ فيما عَلِمْتَ؟ قال: كُنْتُ أَقُومُ به آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ». زعم أنه شَغَلَ نَفْسَه بِالْقُرْآنِ الكريمِ ساعاتِ اللَّيْلِ وساعاتِ النَّهَارِ كُلِّهَا، وَغَفَلَ هذا المسكينُ عن رُوحِ الاشتغالِ بِالْقُرْآنِ وتفسيره وُفقهِه، وعن المقصودِ الأكبرِ من ذلك! غَفَلَ عن أن اللهُ سبحانه يحبُّ من عبده أن يُطَهِّرَ قلبَه وقُصْدَه من كلِّ ما سواه، وأن واجبَ العبدِ إفرادُ اللهُ تعالى بالإرادة والتَّوجُّه.

وَمَنْ قرَأَ الْقُرْآنَ الكريمَ لا يَجْهَلُ هذه المعاني عِلْماً، لكنه قد يَجْهَلُهَا عملاً وسلوكاً، كهذا الصنف من القراء. نسأل اللهُ علماً نافعاً.

ولذلك «يقول اللهُ تعالى له: كَذَبْتَ، وتَقُولُ له الملائكةُ: كَذَبْتَ» ثم يبيِّن اللهُ له حقيقةَ دَخِيلَتِهِ فيقولُ له: «بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يُقَالَ: إِنْ فَلَانًا قَارِئٌ، فقد قيلَ ذلك» أي: قد وصلتَ إلى ما سَعَيْتَ إليه، وحصلتَ على ما ابتغيته، فلم يبقَ لك مطلوب آخر.

ثم يُؤمِّرُ به فيُسحبُ على وجهه ويُلقَى في النار، كما جاء في رواية مسلم.
فإن قيل: فما ينبغي أن يكون قصد طالب العالم؟
قلت: ينبغي أن يكون قصده اللهُ ومرضاته.

أن يكون قصده اللهُ: في تعلُّمه ودراسته وكلِّ وسائلِ العلم، حتى في ذهابه وإيابه وشرائه الكتب... واختياره الشيوخ الذين يَصْحَبُهُمْ، فيصحبُ من يَدُلُّه على اللهُ حاله ومقاله أكثر من غيره... حتى في زِيَّه وملبسه العلمي، يَصْحَحُ نيته ويُحسِنُ قصده.

وأما ابتغاؤه مرضاةَ اللهِ: ففي عمله بعلمه، وتطبيقه كلَّ خير يتعلَّمه، فما يمرُّ به أمرٌ إلهيٌّ أو نبويٌّ إلا بادر إلى تطبيقه، وما يمرُّ به نهْيٌ منهما إلا انتهى عنه.

فما تمضي عليه أيام إلا عُرفَ الخير في هَذِيهِ وسلوكه، وما تمضي عليه سنواتٌ قلائِلُ إلا وهو عالم عامل.

روى أبو داود ١ : ٥٤٢ (٨٧١) والترمذي ١ : ٣٥٢ (٢٦٢) وقال: حسن صحيح، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، أنه صَلَّى مع النبي ﷺ، فكان يقولُ في ركوعه: «سبحان ربي العظيم، وفي سجوده: سبحان ربي الأعلى» وما أتى على آيةٍ رحمَةٍ إلا وقف وسأل، وما أتى على آيةٍ عذابٍ إلا وقف وتعوذ.

وهذا هَدْيُ نبويٍّ عظيم، يعلّمنا المبادرةَ إلى امتثال أمر الله ورسوله، ومنه أخذَ سلفنا حرصهم على الإسراع بعمل ما يتعلمون.

روى الخطيبُ البغداديُّ رحمه الله في كتابه «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» ١ : ١٤٥ عن أبي عثمان الجريِّ الزاهد الكبير أنه خرج لصلاة العشاء في مسجده بإزار ورداء، فقال أبو عمرو بن أبي جعفر بن حمدان لأبيه: يا أبتِ أبو عثمان قد أحرمت؟ فقال: لا، ولكنه هو ذا يسمعُ مني «المسند الصحيح» الذي خرّجته على كتاب مسلم، فإذا سمع بسنةٍ لم يكن استعملها فيما مضى، أحبُّ أن يستعملها في يومه وليلته، وإنه سمع في جملة ما قرئ عليّ: أن النبي ﷺ صَلَّى في إزار ورداء، فاحبُّ أن يستعمل تلك السنة قبل أن يُصبح!

ومما يُحذّر منه طالب العلم في أيامنا هذه: انهماكُم في القيل والقال، وكثرة السؤال، والفضول في الكلام، والأخذ في الجدال والمراء، والإغراب في المسائل والمحفوظات، والنقول عن غير المتداول من الكتب لدى العلماء، والأخذ للعلم عن الكتب لا بالتلقي من أفواه العلماء عن طريق مصابحتهم ومزاحمتهم عليه بالركب.

وكذلك انصرافه عن أدب العلماء وأخلاقهم مع سلفهم وشيوخهم، بل الازدراء بمن يتأدّب بأدب العلماء، ووصفه بأوصاف مُزريّة تنفّر الناس منه، وظنُّ بعض الناس أن العلم ما هو إلا معلومات تُحفظ - أو تُحفظ أسماء المصادر التي تبحث في مسألة كذا وكذا - ويتشّدّق بها في المجالس، أو تُملأ حواشي الكتب وتعليقاتها بأسماء هذه المصادر، وحينئذ يدّعى صاحبها: بالعلامة المحقق، وعالم الوقت، ومحدث العصر...

وأبعدُ من هذا وذاك مَنْ لا يشتغل بشيء من العلم إلا بمعرفة ما طُبِع وما صدر

حديثاً، وَمَنْ حَقَّقَهُ، وَأَيْنَ مَخْطُوطَاتِهِ... وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ صَارَ مَرْجِعَ الْعُلَمَاءِ، وَمَحَطُّ الْفُضَلَاءِ..

وَالْعِلْمُ فَوْقَ هَذَا، وَغَيْرُ هَذَا. الْعِلْمُ: هُوَ الْحِفْظُ وَالْفَهْمُ، وَالْعَمَلُ وَالتَّطْبِيقُ، وَالتَّخَلُّقُ وَالتَّعَبُّدُ، وَالتَّصَوُّنُ وَالتَّحَقُّقُ، وَالْمَحَاسِبَةُ لِلنَّفْسِ وَالْمَرَاqَبَةُ لِلَّهِ، وَالْإِهْتِدَاءُ بِهَدْيِ سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، وَالْإِقْتِدَاءُ بِسِيرَةِ أَصْحَابِهِ وَتَابِعِيهِ بِإِحْسَانٍ.

وَلْيَقْرَأْ - بِشَكْلِ عَامٍ - سِيرَةَ السَّلَفِ وَتَرَاجِمَهُمْ وَحَيَاةَ الْأُئِمَّةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ، وَلْيَقْرَأْ - بِشَكْلِ خَاصٍّ -: «الْجَامِعُ لِأَخْلَاقِ الرَّوَائِي وَآدَابِ السَّامِعِ» لِلْخَطِيبِ الْبَغْدَادِيِّ، وَ«تَذَكُّرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» لِابْنِ جَمَاعَةَ، وَمَقْدَمَةُ «إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ» لِلْإِمَامِ الْغَزَالِيِّ، وَ«شَرْحُ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ: مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً» وَ«فَضْلُ عِلْمِ السَّلَفِ عَلَى الْخَلْفِ» كِلَاهُمَا لِابْنِ رَجَبٍ الْحَنْبَلِيِّ.

فَإِنَّهُ إِنْ قَرَأَ هَذَا وَاشْرَبَ قَلْبُهُ حَبًّا مَا يَقْرَأُ: كَانَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. عَلَى أَنَّهُ لَا يُغْنِيهِ شَيْءٌ عَنْ صَحْبَةِ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ، فَإِنَّهُمْ هُمُ الْكُتُبُ النَّاطِقَةُ.

فَإِنْ سَأَلَ سَائِلٌ: فَمَاذَا تُسَمِّي مَنْ يَحْفَظُ وَيُصَنِّفُ وَيُحَقِّقُ وَيُوصَفُ بِالعَالِمِ وَالْحَافِظِ وَالْفَقِيهِ.. وَهُوَ عَلَى غَيْرِ مَا رَسَمْتَ وَوَصَفْتَ؟.

فَأَقُولُ فِي الْجَوَابِ: أَسْمِيهِ بِمَا سَمَّاهُ بِهِ الْإِمَامُ الْوَرَعُ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي جَمْرَةَ الْأَنْدَلُسِيُّ صَاحِبُ «بَهْجَةِ النُّفُوسِ» الْمُتَوَفَى سَنَةَ ٦٩٩ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَذَلِكَ فِيمَا حَكَاهُ عَنْهُ تَلْمِيزُهُ ابْنَ الْحَاجِّ فِي كِتَابِهِ الشَّهِيرِ «الْمُدْخَلِ».

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي أَوَائِلِهِ ١ : ١٧ : «كَانَ سَيِّدِي أَبُو مُحَمَّدٍ - ابْنُ أَبِي جَمْرَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ إِذَا ذُكِرَ لَهُ وَاحِدٌ مِنْ عُلَمَاءِ وَقْتِهِ مِمَّنْ يُنْسَبُ إِلَى طَرَفٍ مِمَّا ذُكِرَ - أَيِ الْعِلْمِ وَقَلِيلٍ مِنَ الْعَمَلِ، بِالنِّسْبَةِ إِلَى ذَاكَ الزَّمَانِ: أَوَاخِرِ الْقَرْنِ السَّابِعِ - وَيُثْنَى عَلَيْهِ إِذْ ذَاكَ بِفَضِيلَةِ الْعِلْمِ، يَقُولُ: نَاقِلٌ، نَاقِلٌ، خَوْفاً مِنْهُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى مَنْصَبِ الْعِلْمِ أَنْ يُنْسَبَ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ، وَخَوْفاً مِنْهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَذِباً، لِأَنَّ النَّاقِلَ لَيْسَ بِعَالِمٍ فِي الْحَقِيقَةِ، وَإِنَّمَا هُوَ صَانِعٌ مِنَ الصَّنَاعِ!!».

وَيُؤْتِي بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أُوسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدْعُكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بلى يَا رَبِّ. قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ بِهِ الرَّحِمَ، وَأَتَصَدَّقُ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يَقَالَ: فَلَانُ جَوَادًا، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ.

وهذه استطرادة دَعَتْ إِلَيْهَا الْحَاجَةُ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَنْفَعَنِي بِهَا، وَأَعُودُ إِلَى شَرْحِ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ.

وَأَمَّا ثَانِي الثَّلَاثَةِ: فَصَاحِبُ الْمَالِ، يَعْرِفُهُ اللَّهُ بِنِعَمِهِ عَلَيْهِ فَيَقُولُ لَهُ: «أَلَمْ أُوسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدْعُكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟». وَهَذِهِ أَقْلُ نِعَمِ صَاحِبِ الْمَالِ، أَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ، وَأَنَّ اللَّهَ كَفَاهُ هَمُّ الْحَاجَةِ وَغَمُّ الْفَاقَةِ، وَكَرْبُ الْقَلَّةِ، وَرَفَعَهُ عَنْ ذُلِّ السُّؤَالِ، وَحَفِظَ يَدَهُ أَنْ تَكُونَ الْيَدَ السُّفْلَى، فَمَا أَعْظَمَهَا مِنْ نِعْمَةٍ! وَلِذَلِكَ خَصَّهَا اللَّهُ بِالذِّكْرِ، دُونَ سَائِرِ نِعَمِ الْغِنَى وَالْيَسَارِ.

وَلَا يَمْلِكُ هَذَا الْإِنْسَانُ جَوَاباً إِلَّا الْاعْتِرَافَ فَيَقُولُ: «بلى، يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ».

وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، يَعْلَمُ أَنَّ ظَاهِرَهُ كَذَلِكَ، وَأَنَّ فِي بَاطِنِهِ دَخِيلَةً تُفْسِدُ مَا عَمِلَ، وَهِيَ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِصِلَتِهِ الرَّحِمَ وَبِصَدَقَتِهِ وَجَهَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، إِنَّمَا أَرَادَ السَّمْعَةَ عِنْدَ النَّاسِ، وَثَنَاءَهُمْ عَلَيْهِ، وَوَضَفَهُمْ لَهُ بِصَالِحِ الْقَوْلِ، وَقَدْ حَصَلَ عَلَى مَا أَرَادَ، فَلَمْ يَبْتَغِ عِنْدَ اللَّهِ شَيْئاً آخَرَ؟!

وَلِذَلِكَ «يَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يَقَالَ: فَلَانُ جَوَادًا، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ».

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ الثَّالِثِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءَ عَنِ الشَّرِكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ».

وَإِنْ آفَاتِ الْمَالُ كَثِيرَةً: الطُّغْيَانُ وَالْبَطَرُ، وَالسَّرْفُ وَالتَّرَفُّ، وَالِاسْتِبْدَادُ وَالِاسْتِعْلَاءُ، وَالْغَفْلَةُ عَنِ الْحَقِّ، وَالتَّقْصِيرُ فِي وَاجِبِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَالدَّعَاوَى الْعَرِيضَةُ، وَنَسْيَانُ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِ.

وَيُؤْتِي بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: فِيمَاذَا قُتِلْتَ؟
 فيقول: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فيقول الله تعالى
 لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ:
 فَلَانْ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ.

وقصة الثلاثة من بني إسرائيل: الأبرص والأقرع والأعمى مشهورة معروفة،
 حاصلها أن اثنين من هؤلاء الثلاثة نسيًا فضل الله عليهما بالغنَى بعد الفقر، وتنكَّرا
 للحق الذي عليهما، فهذا حال الأكثر.

أما قصة قارون التي قصَّها الله تعالى علينا في سورة القصص: فهي عبرة
 العِبر، وما أُصْدِقَ أَنْ يُقَالَ فِيهَا: خَيْرُ الْعِبْرَةِ: مَا انْسَكَبَتْ عِنْدَهَا الْعِبْرَةُ.

وأما ثالث الثلاثة: فالمجاهد الشهيد في سَبِيلِ اللَّهِ يُؤْتَى بِهِ «فيقول الله لَهُ:
 فِيمَاذَا قُتِلْتَ؟ فيقول: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فيقول الله
 تعالى لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ:
 فَلَانْ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ».

نعم قاتل حتى قُتِلَ، ولكنه لم يَمَحُصْ نِيَّتَهُ، وَلَمْ يُخْلِصْهَا لِلَّهِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ
 يَقُولُ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى» فَمَنْ كَانَ تَعَلَّمَهُ وَتَعَلِيمَهُ،
 وَصِلَّتْهُ وَصِدْقَتُهُ، وَجِهَادُهُ وَاسْتِشْهَادُهُ: خَالِصاً لِلَّهِ، فَهُوَ لِلَّهِ، وَمَا كَانَ لِغَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ لِمَا
 نَوَاهُ.

ولقد كان المَخْلُصُونَ حَقّاً يَعْرِضُونَ فِي كَلَامِهِمْ وَيَتَنَكَّرُونَ لثَلَا يُعْرِفُوا
 فَيُذَكَّرُوا، فَكَانَ جِهَادُهُمْ وَبِلَاؤُهُمْ فِيهِ دَرْساً، وَإِخْلَاصُهُمْ دَرْساً آخَرُ هُوَ أَعْظَمُ مِنْ
 الدَّرْسِ الْأَوَّلِ.

قال ابن قتيبة في «عيون الأخبار» ١: ١٧٢: «حاصر مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ
 حِصْنًا، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْحِصْنِ نَقَبٌ - أَيِ فَتْحَةٍ فِي حَائِطِهِ - فَدَبَّ النَّاسُ إِلَى
 دُخُولِهِ، فَمَا دَخَلَهُ أَحَدٌ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ عُرْضِ الْجَيْشِ - مِنْ طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِهِ، لَا
 يُعْرِفُ - فَدَخَلَهُ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْحِصْنَ.

فنادى مَسْلَمَةُ: أَيْنَ صَاحِبُ النَّقَبِ؟ فَمَا جَاءَ أَحَدٌ.

ثم ضَرَبَ رسولُ الله ﷺ على ركبتي فقال: «يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أولُ خَلْقِ الله تَسْعَرُ بهم النارُ يومَ القيامة».

قال العلاء بن أبي حكيم - وكان سَيَافاً لمعاوية - : دَخَلَ عليه رجلٌ فأخبره بهذا عن أبي هريرة، فقال معاويةُ: قد فُعلَ بهؤلاءِ هذا، فكيف بمن بقي من الناس! ثم بكى معاويةُ بكاءً شديداً حتى ظَنَنَّا أنه هالكٌ وقلنا: قد جاءنا هذا الرجلُ بشرٌ، ثم أفاق معاوية وَمَسَحَ عن وجهه وقال: صَدَقَ الله ورسولُه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا، وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْخَسُونَ. أولئك الذينَ ليسَ لهم في الآخرةِ إلا النارُ، وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيهَا، وَبَاطَلَ ما كانوا يَعْمَلُونَ﴾.

فنادى: إني قد أمرتُ الأذنَ بِإدخاله ساعةً يأتي، فعزمت عليه إلا جاء.

فجاء رجل إلى الأذن فقال: استأذن لي على الأمير.

فقال له: أنت صاحب النقب؟ قال: أنا أخبركم عنه.

فأتى الأذن إلى مسلمة، فأخبره عنه، فأذن له.

فقال الرجل لمسلمة: إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً: أن لا تُسَوِّدوا

اسمه - أي لا تكتبوا اسمه - في صحيفة إلى الخليفة - ولا تأمروا له بشيء، ولا

تسألوه ممن هو؟ قال مسلمة: فذاك له. قال الرجل: أنا هو.

فكان مسلمة بعد هذه الحادثة لا يصلي صلاةً إلا قال: اللهم اجعلني مع

صاحب النقب».

٥ - عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى قال: لقد خلقت خلقاً ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرُّ من الصُّبر،

٥ - تخريجه: رواه الترمذي في أبواب الزهد - باب ٧: ١٢٧ (٢٤٠٧) وقال: حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر، لا نعرفه إلا من هذا الوجه = ٤: ٦٠٤ (٢٤٠٥) وفيه: حسن غريب، وروى نحوه قبله مباشرةً عن أبي هريرة وسكت عليه.

غريبه: لا يحنُّهم: لأنزلنَّ بهم.
الحليم: العاقل.

يجترئون: يتجاوزون حدودي ويستخفون بي.

معناه: يذمُّ الله تعالى طائفةً من الناس لا تصافهم بصفة النفاق والمكر، وهي صفة لا تتفق مع صفات المسلمين الصادقين، وقد قال ﷺ: «المكر والخداع في النار»^(١). وسواء كان مكرهم بالناس لإضرارهم، أو كان مكرهم بهم من باب تظاهروهم بالدين ليأكلوا به الدنيا.

وقد روى الترمذي قبل هذا الحديث مباشرة حديثاً بنحوه من رواية أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «يخرج في آخر الزمان رجالٌ يَخْتَلُونَ الدنيا بالدين، يَلْبَسُونَ للناس جلود الضأن من اللين، ألسنتهم أحلى من السكر...». فأفادت هذه الرواية أن الحديث وارد في ذم من يشتري الدنيا بالدين من علماء السوء في آخر الزمان. حفظنا الله من ذلك.

وصَفَهُم تعالى فقال: «ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرُّ من الصُّبر»

١ - حديث صحيح، انظر تخريجه في «الترغيب والترهيب» ٢: ٥٧٢، و«فتح الباري» ٤: ٣٥٦.

فِي حَلَفْتُ : لِأَتِيحَنَّهُمْ فَتْنَةً تَدْعُ الْحَلِيمَ حَيْرَانَ ، فِي يَغْتَرُونَ؟ أَمْ عَلِيٌّ يَجْتَرِثُونَ؟! .

والصَّبر: نباتٌ معروف شديد المرارة، فالسُّتْهُمْ أشدُّ حلاوةً من العسل تُغري بسماعها أن يستمع، كما قال تعالى في صفة المنافقين: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ﴾ إلا أنهم ﴿ حُشْبٌ مُسْنَدَةٌ ﴾ لا تُغني شيئاً ولا تفيد .

وكيف تصدر عنهم فائدة ولا وَزَنَ لدين الله في قلوبهم، إنما الدنيا عندهم أجلُّ منه، فهم يسرقون دنيا الناس بالدين (يُتَاجِرُونَ) به!! . أو كيف تصدر عنهم فائدة، أو يُرْجَى منهم خير وهم يحملون في قلوبهم الغِلَّ والحِقْدَ والبَغْضَاءَ للمسلمين؟! فلا يُرْجَى خيرٌ ممن لا يرجو للمسلمين الخير .

وجاءهم الوعيد الإلهي من رب العالمين العزيز الغالب، مع القَسَمِ بذاته المقدَّسة: «فِي حَلَفْتُ: لِأَتِيحَنَّهُمْ فَتْنَةً» لِأَنْزِلَنَّ بِهِمْ عَذَاباً وَنَقْمَةً: «تَدْعُ» أي تترك «الحليم» العاقل ذا الرأي منهم «حيران» لا يَدْرِي ماذا يَعْمَلُ، وكيف يتخلَّص من البلاء النازل به وبذويه .

«فِي يَغْتَرُونَ؟ أَمْ عَلِيٌّ يَجْتَرِثُونَ؟» إن كان قد غرَّهم حلمي عليهم وإمهالي لهم فاغترؤا وتجرؤوا على عصياني وإضرار عبادي، فما أجهلهم بالله في خلقه وتدبير كونه!! نسأل الله العافية .

٦- عن زيد بن خالد الجُهَنِيِّ رضي الله عنه قال: صَلَّى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصُّبْحِ بالحُدَيْيَةِ، على إثرِ سَمَاءٍ كانت من الليل، فلما انصرف النبي ﷺ أَقْبَلَ على الناس فقال لهم: «هل تَدْرُونَ ماذا قال ربُّكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ

٦- تخريجه: رواه الإمام مالك في «الموطأ» كتاب الصلاة- العمل في الاستسقاء: الاستمطار بالنجوم ١: ١٩٨. ومن طريقه البخاري في أبواب الاستسقاء- باب قول الله تعالى ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ ٢: ٥٢٢ (١٠٣٨)، ومسلم أيضاً في كتاب الإيمان- باب بيان كفر من قال مُطَرْنَا بالنَّوءِ ١: ٨٣ (١٢٥) وشرح النووي ٢: ٥٩. ثم رواه عن أبي هريرة بنحوه.

غريبه: صَلَّى لنا: قال في «الفتح» ٢: ٥٢٣: «أي: لأجلنا، أو اللام بمعنى الباء، أي: صَلَّى بنا، وفيه: جوازُ إطلاق ذلك مجازاً، وإنما الصلاة لله تعالى»، على أن لفظ مسلم في «شرح النووي»: صَلَّى بنا. في إثرِ سماءٍ: أي: عَقِبَ نزولِ مطرٍ، وأطلق عليه «سماء» لكونه ينزل من جهتها.

فلما انصرف النبي ﷺ: أي: فرَغَ من صلاته.

من عبادي: قال الحافظ: «هذه إضافة عموم، بدليل التقسيم إلى مؤمن وكافر» أي: وليست إضافة تشريف.

النَّوءُ: خلاصة ما في «النهاية» لابن الأثير ٥: ١٢٢، والنووي ٢: ٦١ وابن حجر أن (النوء) مصدر: ناء النجم يُنوءُ نُوءاً، إذا سقط، وإذا طَلَعَ، فهو من الأضداد، ومنازل القمر المذكورة في قوله تعالى ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ هي ثمانية وعشرون منزلاً، يَسْقُطُ في كل ثلاثة عَشْرَةَ ليلةً نجمٌ منها في المغرب يسمَّى

بي وكافر بي، فأما مَنْ قال: مُطِرْنَا بفضلِ الله ورحمته: فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب. وأما من قال: مُطِرْنَا بنوءٍ كذا وكذا: فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب».

الساقط، وَيَطْلُعُ آخَرُ مُقَابِلَ له فوراً في المشرق يسمَّى الطالع، وينتهي آخر نجم نزولاً وسقوطاً بانتهاء العام.

وكما أن النُّوء مصدر، فقد يُستعمل اسمَ فاعلٍ بصيغته، فيقال: نُوء كذا، ويراد به اسم الفاعل. وكان أهل الجاهلية يزعمون أن مع هذا السقوط والطلوع يكون مطر، فلذا ينسبونه إلى النوء ويقولون: مُطِرْنَا بنوء كذا. فالباء سببية.

معناه: جاء الإسلام الحنيفُ يربط عقيدة المسلم بربه في كلِّ مجالاته، ويبيِّن له أن الفاعلَ الحقيقيَّ ومسبَّب الأسباب هو الله عز وجل، وكل ما يجري في الكون فيإرادته، وإذا جرت عادة الله تعالى في أمرٍ ما أن يُحدِثه بقرينة دالة عليه فليس معنى ذلك أن القرينة هي المؤثرة في وجود ذلك الأمر، لا، إنما المؤثر في وجوده وفي وجود تلك القرينة، وفي وجود ذلك الأمر عند تلك القرينة إنما هو الله عز وجل.

وحصل انحرافٌ للجاهليين من جملة ما حَصَلَ لهم، أن ربطوا الأمور بقرائنها، فَنسَبوا ما يحصل عند ظهور القرينة إلى القرينة نفسها، واعتقدوا أنها هي المؤثرة فيه.

ومثال ذلك فيما نحن فيه: أن العادة الإلهية جرت أن يحصلَ مطر عند سقوط نجم وطلوع آخر، ومع استمرار الزمن واستحكام العادة - حسب استقراءهم - ظنوا أن النجم الساقط - أو الطالع، على اختلاف كلام العلماء - هو الذي ينزل المطر، وجعلوا أن ذاك النجم إن هو إلا قرينة وعلامة، وليس له من التأثير شيء، فما هو إلا كاستمرار حركة القلب دليل على استمرار حياته، ووقوفها دليل على انقطاع حياته.

ولهذا سمي الله تعالى اعتقاد ذلك كفراً فقال في هذا الحديث القدسي: «من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب».

وشهد سبحانه وتعالى بالإيمان به لمن ردَّ الأمور إليه وعرف الحقائق فقال: «من قال مطرنا بفضل الله ورحمته: فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب».

وبناءً على هذا: فمن عرف أن الله تعالى هو المسبَّب، وهو الخالق للقرائن وما يكون عندها: فلا يحكم عليه بالكفر وإن قال تلك الكلمة، إذ يكون مراده وتفسير كلامه أن المطر إنما حصل عند نوء كذا، فالباء (عندية) لا سببية، إنما نبيه إلى اجتناب هذا التعبير، لما فيه من اشتباه بقول أهل الجاهلية، ويكره للمسلم أن يتلفظ بالمشتبهات.

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في كتابه «الأم» ١ : ٢٥٢ : «وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا على ما كان بعض أهل الشرك يعنون من إضافة المطر إلى أنه أمطره نوء كذا: فذلك كفر، كما قال رسول الله ﷺ، لأن النوء وقت، والوقت مخلوق لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً، فأما من قال مطرنا بنوء كذا: على معنى: مطرنا بوقت كذا، فإنما ذلك كقوله: مُطرنا في شهر كذا، ولا يكون هذا كفراً، وغيره من الكلام أحبُّ إليَّ منه» نُبِّهني إلى هذا النقل الحافظ في «الفتح» ٢ : ٥٢٣. وعلّق على الجملة الأخيرة منه فقال: «يعني حسماً للمادة» أي: تجنباً للشبهة.

وفصّل هذا المعنى ابن الأثير والنووي، وقال - أعني النووي - : «اختلفوا في كراهته - أي التعبير نفسه مع الاعتقاد السليم - والأظهر كراهته، لكنها كراهة تنزيه لا إثم فيها، وسبب الكراهة أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره، فَيَسَاءُ الظَّنُّ بصاحبها، ولأنها شعار أهل الجاهلية ومن سلك مسلكهم».

وحينئذ فتأوّل كلمة «كافر» المذكورة في الحديث، على معنى: كافر بنعمتي، فهو كفر نعمة، لا كفر إيمان. ويشهد لهذا المعنى رواية مسلم المشار إليها في تخريج الحديث، عن ابن عباس قال: «مُطر الناس على عهد النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «أصبح من الناس شاكراً، ومنهم كافر. قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا..» فقابل الكافر بالشاكراً، فدلّ على أنه كفران نعمة.

وفي رواية أخرى عند مسلم أيضاً عن أبي هريرة: «ألم تروا إلى ما قال ربكم؟ قال: ما أنعمتُ على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين يقولون: الكواكب وبالكواكب» فقلوه «بها» يعود على النعمة، أي: كافرين بالنعمة. والله أعلم.

٧- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ،

٧- تخريجه: رواه البخاري في كتاب التفسير- تفسير سورة الجاثية ٥٧٤: ٨ (٤٨٢٦) وفي كتاب الأدب- باب لا تسبوا الدهر ٥٦٤: ١٠ (٦١٨١)، ومواضع أخرى، ورواه مسلم أول كتاب ألفاظ من الأدب وغيرها- باب النهي عن سب الدهر ٤: ١٧٦٢، وشرح النووي ١٥: ٢.

معناه: قال المناوي في «الفيض» ٤: ٤٨٠: «قال الطيبي: الإيذاء إيصال مكروه إلى الغير وإن لم يؤثر فيه، وإيذاؤه تعالى عبارة عن فعل ما لا يرضاه». وقال الحافظ في «الفتح» ١٠: ٥٦٦: «الدهر مدة زمان الدنيا، وعرفه بعضهم بأنه أمد مفعولات الله في الدنيا، أو فعله لما قبل الموت». وزاد ابن الأثير في «النهاية» ٢: ١٤٤: «الدهر: اسم للزمان الطويل».

فيكون معنى الحديث: يقول ابن آدم ما لا أَرْضَاهُ، فَيَغْصِبُنِي حِينَ يَنْسُبُ الأمور التي أَقْدَرُهَا عَلَيْهِ وَعَلَى غَيْرِهِ: إِلَى الدَّهْرِ، وَهَلِ الدَّهْرُ إِلَّا مَخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِي أَوْ ظَرْفٌ يَسْتَوْعِبُ أَقْدَارِي؟. ذَلِكَ أَنَّ الْأَمْرَ بِيَدِي أَصْرَفُ شُئُونِ عِبَادِي كَمَا أَشَاءُ، وَالْأَزْمَنَةُ مِنْ جَمَلَةِ ذَلِكَ

وإن من جهل العرب في جاهليتهم أنهم لا ينسبون إلى الدهر خيراً، مع أنه ظرف يستوعب ما يحبون وما لا يحبون، إنما يقتصرون على نسبة الشر والنكبات إليه، حتى حكى الله تعالى عنهم ذلك في القرآن العظيم ﴿... وما يهلكنا إلا الدهر﴾ وما عُرِفَ عنهم إضافة شيء من الخير إليه، فلذا خصه الله تعالى هنا في الحديث القدسي بذكر سبهم له.

وقوله «وأنا الدهر»: حاصل ما قيل في تفسيره، ثلاثة أوجه: أحدها: أن

بيدي الأمر، أَقْلَبُ الليل والنهار».

المراد به: المدبِّر للأمور الكائنة فيه. ثانيها: أنه على حذف مضاف، أي: أنا صاحبُ الدهر وخالقه، ثالثها: أن يُقَدَّر المضاف المحذوف: مَقْلَبُ الدهر، يدلُّ عليه قوله عَقِبَهُ: «بيدي الأمر أَقْلَبُ الليل والنهار».

ورواية الإمام أحمد ٤٩٦: ٢: «لا تَسُبُّوا الدهر، فإن الله عز وجل قال: أنا الدهر، الأيام والليالي لي، أجدُّها وأبْلِيها، وأتي بملوكٍ بعد ملوك». وسنده صحيح، كما قاله الحافظ ابن حجر في «الفتح» ١٠: ٥٦٥.

ثم نقل الحافظ عن القاضي عياض قوله: «زَعَمَ بعضُ مَنْ لا تحقيقَ له أن الدهر من أسماء الله، وهو غلطٌ، فإن الدهر مدة زمان الدنيا» فهو مخلوقٌ من مخلوقات الله، فكيف يكون اسماً من أسمائه!

وقال قبله بقليل: «قال المحققون: من نَسَبَ شيئاً من الأفعال إلى الدهر حقيقةً كَفَرَ، ومن جَرَى هذا اللفظ على لسانه غير معتقِدٍ لذلك فليس بكافر، لكنه يكره له ذلك، لشبهه بأهل الكفر في الإطلاق». وتقويم اللسان وتنزيهه عن المشتبهات أمر مطلوب شرعاً.

وقد ختم الإمام ابن أبي جمرة رحمه الله شرحه هذا الحديث بقوله في «بهجة النفوس» ٤: ١٨٠: «فيا هذا إذا تأملتَ مثلَ هذه الأمور وأدلةَ الشرع وجدتَ الدين من شيئين، ويدور على قاعدتين: الامتثال والأدب، فمن امتثل فقد وفَّى ما به أمر، ومن تأدَّب فقد نجا مما عنه نُهي، وله كُره. وفقنا الله وإياك لذلك الامتثال والأدب بمتنه» آمين.

٨- عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ».

٨- تخريجه: رواه البخاري في كتاب التفسير - تفسير سورة الإخلاص مرتين متتاليتين ٧٣٩: ٨ (٤٩٧٤ وهذا لفظه، ٤٩٧٥) ورواه قبل في تفسير سورة البقرة - عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، سبحانه﴾ ١٦٨: ٨ (٤٤٨٢)، ورواه من قبل أول كتاب بدء الخلق مختصراً ٢٨٧: ٦ (٣١٩٣).

غريبه: الشتم: هو الوصف بما يقتضي التنقيص.

ابن آدم: أطلق الكل وأراد البعض، فهو من العام الذي أريد به الخصوص، أو أراد به الجنس.

الأحد: هو الواحد المنفرد في ذاته وصفاته، فهو وصفٌ ينفي وجودَ نظير لله تعالى أو شريك أو مثيل في ذاته وصفاته، وينبئ عن تنزيه الله عن كل نقص، وإثبات كل كمال. كما قاله العلامة علي القاري في «المرقاة» ١: ٩٦.

الصمد: هو السيد والملجأ الذي لا يمكن الخروجُ عنه، لإحاطة أمره، فهو بمعنى: المقصود في الحوائج كلها.

كُفُوا: هو: الكُفُو، أي: المكافئ المماثل، فليس لله كفو، أي: لا يُشابهه الله عز وجل أحدٌ في ذاته أو صفاته أو أفعاله، بل ﴿ليس كمثله شيء﴾ وهو السميع البصير.

معناه: يحكي الله تعالى عن طائفتين من بني آدم اعتقاداتٍ مكفَّرة، حمَلهما على ذلك: الجهل، وتجاوز العبد حُدّه.

أما الطائفة الأولى: فهي التي تكذب على الله تعالى - وتكذبه في قوله - فتقول - كما حكى الله ذلك عنهم -: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا

فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي؛ وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا؛

الدَّهْرُ ﴿ وَتَقُولُ: ﴿ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا، ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ ﴾ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا، إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ .

مع أن الله سبحانه وتعالى قرَّر في كتبه السماوية، وفي القرآن العظيم خاصةً، بالبراهين الساطعة حقيقة اليوم الآخر، وأقام على ذلك الحجة. ومن جملة ذلك: ما قاله هنا: «وليس أولُ الخلقِ بأهونَ عليَّ من إعادته».

وبيان ذلك: أن الحجج قائمة على أن الله خالق الخلق، وذلك من خلال خلقه وموجوداته، فوجودها برهانٌ على الله تعالى، ونراها تنقُص - بموت بعضهم - وتزيد - بتوالد بعضهم - وقد شرَّع لهم الشرائع، وأخبرهم بالمحاسبة على تطبيقها، وإخباراته صادقة لا تتخلَّف، وبما أنه سبحانه هو الذي ابتداء خلقهم، فإن تنفيذ وعده بالإحياء بعد الإمامة سهل هين عليه، فإن من ابتداء صنَّع شيء هان عليه صنعه ثانية، بل إن من شأن البشر أن يكون الصنَّع الثاني أهونَ من الصنَّع الأول.

وعلى هذا المعنى جاء ظاهر قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ، وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وَإِلَّا فَالْخَلْقُ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي... كُلُّهُ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِأَنَّهُ يَكُونُ بِكَلِمَةٍ «كُنْ» لَا بِجَهْدٍ وَمُزَاوَلَةٍ وَتَجَرُّبَةٍ... معاذ الله وحاشاه، ولكن الله تعالى - من رأفته بعباده - يخاطبهم بما يعقلون، وهذا معنى قولهم إن «أفعل» هنا جاءت على غير بابها، أي: إن قوله تعالى ﴿ أَهْوَنُ ﴾ الذي هو على وزن «أفعل» التفضيل يفيد في أصل وضعه أن مقابلته يكون مفضولاً مرجوحاً، وهذا أفضل وأرجح، فأهون: يكون مقابلته «هين». فالمعنى: أن الخلق الأول هينٌ على الله تعالى وهذا - أي الخلق الثاني والإحياء ثانية بعد الإمامة - أهونٌ عليه.

وليس الأمر كذلك بالنسبة لله عز وجل، فالكُلُّ عليه سواء.

وخلاصة ذلك: أن طائفة من بني آدم تزعم عدم الإعادة بعد الإمامة، وفي هذا الزعم كذبٌ على الله تعالى، وتكذيبٌ له في قوله وإخباره: ﴿ قُلْ: بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبُّنَّ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

وأنا الأَحَدُ الصَّمَدُ، ولم أَلِدْ ولم أُوَلَدْ، ولم يكنْ لي كُفُوًا أَحَدٌ.

وأما الطائفةُ الثانيةُ التي تَصِفُ اللهَ عز وجل بما يُوجبُ نسبةَ النقصِ إليه جل وعلا: فهي التي حكى الله قولها في كتابه العظيم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، سُبْحَانَهُ، بَلْ لَهْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَه قَانِتُونَ﴾، وهو زَعَمُ الطائفةِ العُزَيْرِيَّةِ من اليهود، والنصارى، والعرب حيث نسبوا البناتِ إلى الله، تعالى الله عن ذلك.

وفي هذا القول من مستلزمات النقصِ لله عز وجل الشيءُ الكثير.

فَاتِّخَاذُ الولدِ: يَسْتَلْزِمُ الزَّوْجَةَ، وَيَسْتَلْزِمُ الْحَاجَةَ إِلَيْهَا، وَتَجَدُّدُ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، وَالشَّبِيهَ لله تعالى. وَيَسْتَلْزِمُ وَجُودَ قَدَمَاءَ مع الله تعالى، أو حاجتهِ إلى حوادث، . . . وما إلى ذلك.

ولهذا قال: «وأنا الأَحَدُ الصَّمَدُ»: ذكر اسم «الأَحَدُ» هنا، لأنه ينفي عنه وجودَ نظيرٍ أو شريكٍ أو شبيه، وكلُّ نقص، وذكر اسم «الصَّمَدُ» لأنه يُثَبِّتُ له تعالى الغنى المطلق، فكلُّ ما سِوَاهُ مُفْتَقِرٌ إليه محتَاجٌ، وهو المقصودُ من قِبَلِهِمْ، فلا حاجة به إلى أحد، بل الكلُّ إليه محتاجون، وله قاصدون.

وحاشاه أن يَلِدَ، لأنه غيرُ محتَاجٍ إلى ولد وما سِوَاهُ، وحاشاه أن يُولَدَ من أمٍ وأبٍ والكلُّ مفتقرون إليه فكيف يفتقر في وجوده إلى أمٍ وأبٍ.

وَجَهْلَتْ هذه الطائفةُ أنه ليس لي مماثلٌ أو شبيه أبداً. ختم تعالى حديثه بهذا النفي المستأصل للمكافئ المشابه له، لتقرير واقعٍ ثم رَدُّه: وهو أن الولدَ يُشَبِّهُ أباه ولا بدَّ، فنسبةُ الولدِ إليه: نسبةٌ شبيهٍ إليه، والله تعالى يقول عن نفسه - وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا -: «لَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ».

وأما بيانُ وجهِ تجاوزِ العبدِ حدَّه: فإن الله تعالى ذَكَرَ جهالةَ الطائفةِ الأولى وقال: «ولم يكنْ له ذلك»، وذكر جهالةَ الطائفةِ الثانيةِ وقال: «ولم يكنْ له ذلك» ومعنى هذه الجملة: ولم يكن ينبغي له ذلك، ولا ينبغي له ذلك، لأن قوله هذا قولٌ بجهلٍ وعن جهلٍ، ولا ينبغي للعاقل أن يتعدَّى طوره، فيتعاطى ما لا يعلمه، ويقول ما يجهله، ورحم الله امرأً عرف حدَّه ووقف عنده فلم يتجاوزه. وسبحان الله ربَّ العرش العظيم.

٩- عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار».

٩- تخريجه: رواه أبو داود في اللباس - باب ما جاء في الكبر ٤: ٣٥٠ (٤٠٩٠) وابن ماجه: كتاب الزهد - باب البراءة من الكبر ٢: ١٣٩٧ (٤١٧٤). وأحمد ٢: ٢٤٨ بلفظ «والعزة إزاري». ورواه ابن ماجه أيضاً عن ابن عباس (٤١٧٥). وعندهم جميعاً عطاء بن السائب، وهو مختلط، إلا أن الراوي عنه عند أحمد سفيان بن عيينة، وهو ممن سمع منه قبل الاختلاط، وتوقاه بعدما اختلط. انظر «الكواكب النيرات» لابن الكيال ص ٣٢٧، و«تهذيب التهذيب» ٢٠٥: ٧ - ٢٠٦.

معناه: «الكبرياء: الكبر، وهو الترفع على الغير، بأن يرى لنفسه عليه شرفاً، والعظمة: كون الشيء في نفسه كاملاً شريفاً مستغنياً. فالأول أرفع من الثاني، إذ هو غاية العظمة، فلذا مثله بالرداء. وقيل: الكبرياء: الترفع عن الانقياد، وذلك لا يستحقه إلا الحق» كما نقله المناوي ٤: ٨٤ عن القاضي البيضاوي في شرحه على «مصباح السنة» للبخاري.

ولعل القول الثاني لتعريف الكبرياء أقرب، فإنه بمعنى الحديث الآتي في تعريف الكبر وأنه: «بَطَر الحق وغمط الناس» وبطر الحق: هو دفعه ومعاندته، وهذا هو عدم الانقياد إليه.

وقال ابن الأثير في «النهاية» ٤: ١٤٠ عن الكبرياء: «قيل: هي عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود، ولا يُوصف بها إلا الله تعالى».

فالله سبحانه الكامل ذاتاً ووجوداً، والغني: المستغني والمُغني - كما تقدم بيانه

صفحة ٣٢- يحقُّ له أن يكون له الشرف على جميع مخلوقاته، لتفضُّله عليهم بالوجود بعد العدم، وبالإمداد بكلِّ ما يحتاجونه ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾.

أما الإنسان: فهو ناقصٌ ذاتاً بافتقاره إلى الله تعالى، وناقصٌ وجوداً لافتقاره في وجوده إلى الله تعالى، وهو مخلوق محدود ضعيف ﴿وُخْلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾. ويترقَّى من ضعف إلى قوة، ثم ينحدر من قوة إلى ضعف وشيئة، يعتريه الوجود والعدم، والحياة والموت وما إلى ذلك من أطوار في الدنيا والبرزخ والآخرة.

فمن كان هذا شأنه كيف يُنازِع الله ربَّ العالمين خالق كلِّ شيء في صفتين عظيمتين من صفاته - وكلُّ صفاته عظيمة - ويريد أن يتَّصف بهما - وهو ليس بأهل لذلك - أو يريد أن يعامل خلق الله وعبادته بمقتضاهما فيتكبَّر عليهم ويتعاضم!

إنما صفةُ الإنسان: العبدية، وكماله: أن يتحقَّق بها ليسعد برضاء الله وإحسانه.

روى مسلم في صحيحه ١: ٩٣ (١٤٨) في كتاب الإيمان - باب تحریم الكبير، عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ» فقال رجل: إن الرجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة! فقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ: بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ». أي: دَفْعُ الْحَقِّ وَمَعَانِدَتُهُ، وَاحْتِقَارُ النَّاسِ وَغَمْطُهُمْ حَقُوقَهُمْ وَأَقْدَارَهُمْ.

فمن كان فيه مثقال ذرة من بَطَرِ الْحَقِّ وَغَمْطِ النَّاسِ: لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ حَتَّى يَطْهَرَهُ اللَّهُ مِنْهُ، بِقَذْفِهِ إِيَّاهُ فِي النَّارِ، أَوْ أَنْ يَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُ إِنْ شَاءَ ذَلِكَ.

وَمَنْ تَعَاظَمَ عَلَى النَّاسِ وَرَأَى نَفْسَهُ خَيْرًا مِنْهُمْ فِي عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ وَتَقَوَّى: فَهُوَ دُونَهُمْ وَأَشَدُّهُمْ تَقْصِيرًا.

روى مسلم ٤: ٢٠٢٤ (١٣٩) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلُكُهُمْ». قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سَفْيَانَ رَاوِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ الْإِمَامِ مُسْلِمٍ: لَا أُدْرِي: أَهْلُكُهُمْ - بِالنَّصْبِ - أَوْ: أَهْلُكُهُمْ - بِالرَّفْعِ -.

قال الإمام النووي في «شرح» ١٦: ١٧٥: «الرفع أشهر، ويؤيده أنه جاء في رواية رؤيناها في «حلية الأولياء» في ترجمة سفيان الثوري - ١٤١: ٧ -: «فهو من أهلكتهم». قال الحميدي في «الجمع بين الصحيحين»: «الرفع أشهر، ومعناها أشدُّهم هلاكاً».

ثم قال النووي: «واففق العلماء على أن هذا الذم إنما هو فيمن قاله على سبيل الإضرار على الناس واحتقارهم وتفضيل نفسه عليهم وتقبيح أحوالهم، لأنه لا يعلم سرُّ الله في خلقه...».

فهذا كلُّه من الكبائر، وصاحبُه معرَّض لسخط الله وإلقائه في نار جهنم، فإنه داخل تحت قوله «فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار».

وقال النووي ١٦: ١٧٣: «وهذا وعيد شديد في الكبر، مصرَّح بتحريمه. وأما تسميته إزاراً ورداءً فمجازٌ واستعارةٌ حسنة، كما تقول العرب: فلانٌ شعارُه الزهد ودثارُه التقوى، لا يريدون الثوب الذي هو شعارٌ أو دثارٌ، بل معناه: صفته. كذا قال المازري. ومعنى الاستعارة هنا: أن الإزار والرداء يُلصقان بالإنسان ويلزمانه، وهما جمالٌ له، قال: فَضُربَ ذلك مثلاً لكون العزِّ والكبرياء بالله تعالى أحقَّ، وله ألزَمُ، واقتضاهما جلاله. ومن مشهور كلام العرب: فلانٌ واسعُ الرداء، وعَمَرُ الرداء: أي واسعُ العطية».

١٠ - عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أَنْفَقَ أَنْفَقَ عَلَيْكَ». وقال - ﷺ -: «يَدُ اللَّهِ مَلَأَى، لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةً،

١٠ - تخريجه: رواه البخاري في تفسير سورة هود - باب: وكان عرشه على الماء، ٨: ٣٥٢ (٤٦٨٤) بهذا اللفظ، والقدسي منه هو الجملة الأولى، وهي في مواضع أخرى من البخاري، وفي مسلم أيضاً في مواضع، منها: كتاب الزكاة - باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف ٢: ٦٩١ (٣٧) وشرح النووي ٧: ٨٠. غريبه: لا تَغِيضُهَا نَفَقَةً: لا تَنْقُصُهَا نَفَقَةً، ومثلها: لم يَغِيضْ: لم ينقص.

سَحَاءٌ: مِن: سَحَّ يَسْحُ: أي: صَبَّ على الدوام.
الليل والنهار: منصوبان على الظرفية.

معناه: يأمر الله سبحانه وتعالى عباده بالإنفاق، ولا يتحقق هذا الأمر إلا إذا كان إنفاقه في سُبُلِ الخيرات والمَبَرَّاتِ، وَوَعَدَ عَزَّ وَجَلَّ الْمُنْفِقُ في وجوه الخير بالخلف عليه فقال: «أَنْفَقَ عَلَيْكَ» فيكون مجمل المعنى: إِنْ تُنْفِقْ فيما يُرضيني: أَنْفَقَ عَلَيْكَ، أي أَخْلَفَ عَلَيْكَ. وعبر بلفظ «أَنْفَقَ»: من باب المشاكلة اللفظية.
فهو وعدٌ من الله عز وجل بالخلف، وَوَعَدَ اللَّهُ لا يَخْلَفُ: «إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ».

وبمناسبة حكاية النبي ﷺ عن ربه تعالى قوله: «أَنْفَقَ أَنْفَقَ عَلَيْكَ» بين عليه الصلاة والسلام كَرَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، واستدل على ذلك ببعض آثاره، فقال: «يَدُ اللَّهِ مَلَأَى» والعطاء لا يكون إلا باليد، ويده - سبحانه وتعالى - مليئة، ومهما أعطى فلن تَنْقُصَ «لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةً»: لا تَنْقُصُهَا نَفَقَةً، فالنفقات والعطيات الإلهية لا تَنْقُصُ ما عند الله عز وجل، مع علمنا بأن عطاء كل مُعْطٍ على حَسَبِهِ وَقَدْرِهِ، وعطيات الله تعالى تليق بعظمته وكرمه.

سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ . وقال - ﷺ - : «أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ،

وهذه المِنْعُ الإلهية ليست في ساعة من ليل أو نهار، لا، إنها دائمة مستمرة لا تقف، ولا تنحصر على فئة دون أخرى: على مؤمن دون كافر، ولا على أبيض دون أسود، ولا على متقدم دون متأخر، إنما هي «سَحَاءٌ» دائمة العطاء في كل حين وآبٍ: «اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ». وتقدم في الحديث الأول قوله: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فأعطيت كل إنسان مسألته: ما نَقَصَ ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُصُ المِخِيطُ إذا أُدْخِلَ البحرُ».

ثم استدلَّ ﷺ على ذلك بالإمدادات الإلهية لكل مخلوق بما ينفعه ويناسبه، فقال: «أَرَأَيْتُمْ» أي: ألا تَرَوْنَ إلى «ما أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ» من دُهور وقرون متطاولة لا يعلم أولها إلا الله، وهو يَمُدُّ كل مخلوق بما يليق به، فهو يَمُدُّ السَّمَاءَ بالبقاء بما يناسبها، ويَمُدُّ الأرض بالبقاء بما يناسبها، وكذلك الحيوان والنبات والجماد... كلُّ بما يناسبه، بل: كلُّ جزئية بما يناسبها من أجزاء الحيوان: كشعره وعظامه ودمه... والنبات: كجذع الشجرة، وأوراقها وثمارها... فالله سبحانه هو المانح الواهب لهذه الزهرة لين مَلَمَسَها، وجمالَ منظرها، وعِطَر رائحتها!.

وهو المُمِدُّ للكواكب السيَّارة ببقائها في العلوِّ باستمرار، وبالجري بانتظام، وبالنور النافع للأرض وأهلها.

وأمره لهذه المخلوقات متوجَّه إليها في كلِّ أقلِّ من طرفة عين: «كنْ» وأمره نافذ «فيكونْ» هذا الشيء المتوجَّه إليه هذا الخطاب، فإذا انقطع عنه أقلُّ من طرفة عين زالت عنه صفةُ الحياة والبقاء.

فأوامره تعالى هذه، المستمرة الدائمة، المانحة المعطية، ومع ذلك «فإنه لم يَغِضْ» لم يَنْقُصْ «ما في يده».

وكلُّ شيء في هذا الكون العظيم الذي نراه ولا نراه: إنما مستمِدُّ من الله عز وجل، ذلك لأنه مشمولٌ مُحَاطٌ بالسَّماءِ، والسَّماءُ مُحَاطَةٌ بالكُرْسِيِّ، والكُرْسِيُّ حوله ومحيطٌ به عرشُ الرحمن، وعرشُ الرحمن على الماء، وكلُّ هذه مخلوقات لله

وكان عرشه على الماء، وبيده الميزانُ يخفِضُ ويرفعُ».

تعالى، مستمدةً منه بقاءها وكونها، فأشار إلى هذا الشمول بقوله «وكان عرشه على الماء».

وهذا الماء: ليس هو الماء الذي نعهده ونشربه - مثلاً -، إنما هو ماء خاص لا نعرفه، قال الحافظ في «الفتح» ١٣ : ٤١٠ : «وليس المرادُ بالماء ماء البحر، بل هو ماء تحت العرش، كما شاء الله تعالى». وانظر لزماً الكلام على الحديث الآتي برقم ٩٥.

ثم نبّه ﷺ إلى أن هذا العطاء والإمداد قائمٌ على مقتضى الحكمة في مخلوقاته، فإذا اقتضت حكمته قطع الإمداد عن هذا الإنسان قطعاً، فلم يعد متصفاً بالبقاء والحياة، وكذلك هذا الحيوان والنبات والجماد. . وسائر مخلوقاته عز وجل.

نبّه إلى هذا المعنى بقوله «وبيده الميزانُ يخفِضُ ويرفعُ»: يُحيي ويُميت، يُضعِف ويُقَوِّي، يعطي ويمنع، يفعل ما يشاء وما تقتضيه حكمته جل جلاله. والله أعلم.

١١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ»

١١ - تخريجه: رواه البخاري في مواضع بالفاظ متعددة، منها في كتاب الدعوات - باب الدعاء في نصف الليل ١١ : ١٢٨ (٦٣٢١). ورواه مسلم - وهذا منه - بالفاظٍ مختلفةٍ أكثر في كتاب صلاة المسافرين - باب الترغيب في الدعاء والذكر آخر الليل ١ : ٥٢١ - ٥٢٣ (١٦٨ - ١٧٢) وشرح النووي ٦ : ٣٦ - ٣٩.

معناه: هذا الحديث من مشهور الأحاديث القدسية بين العامة والخاصة، ومن مشهورها بين الخاصة في الاختلاف في معنى الكلمة الأولى منه «ينزل ربنا». وهذا كلام الإمام النووي رحمه الله تعالى في المسألة. قال: «هذا الحديث من أحاديث الصفات، وفيه مذهبان مشهوران للعلماء:

أحدهما - وهو مذهب جمهور السلف^(١) وبعض المتكلمين - أنه يؤمن بأنها حق على ما يليق بالله تعالى، وأن ظاهرها المتعارف في حقنا غير مراد، ولا يتكلم في تأويلها، مع اعتقاد تنزيه الله تعالى عن صفات المخلوق، وعن الانتقال والحركات وسائر سمات الخلق.

والثاني - مذهب أكثر المتكلمين وجماعات من السلف^(١)، وهو محكي هنا

١ - يستفاد من هاتين الجملتين أن في السلف مؤولة، وليس الأمر كما اشتهر: أن جميع السلف على إثبات ما ورد صفةً لله تعالى. وأقدم من رأيته أول من رجال السلف: الإمام مجاهد بن جبر، المولود سنة ٢٠ تقريباً، والمتوفى أول القرن الثاني، ونحوه أبو صالح السمان الثقة المشهور، وهو قريب الولادة والوفاة من مجاهد، كلاهما أول قوله تعالى ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾: إلى ثواب ربها ناظرة، انظر حكاية ذلك عنهما في «تفسير ابن جرير» ٢٩ : ١٩٢، وخطأهما، و«مجموع فتاوى» ابن تيمية ٢٠ : ٣٣، و«فتح الباري» ١٣ : ٤٢٥.

ثم الإمام قتادة بن دعامه، وكانت وفاته بعدهما بنحو ١٥ سنة، انظر كلامه الآتي ص ٢٥٧.

ثم الأعمش المولود سنة ٦١، والمتوفى سنة ١٤٧، انظر «سنن الترمذي» ٩ : ٢٢٩ (٣٥٩٨)، وسيأتي نقل كلامه ص ٢٥٦. وهذا مالك والأوزاعي، والنضر بن شميل (١٢٢ - ٢٠٤)، بل الإمام أحمد رحمه الله نفسه قال في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي: جاء =

الآخر، فيقول: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ».

عن مالك^(١) والأوزاعي -: أنها تُتَأَوَّلُ على ما يليق بها، بحسب مواطنها. فعلى هذا تأولوا هذا الحديث تأويلين:

أحدهما - تأويل مالك بن أنس وغيره - معناه: تنزل رحمته وأمره وملائكته، كما يقال: فعل السلطان كذا، إذا فعله أتباعه بأمره.

والثاني: أنه على الاستعارة، ومعناه: الإقبال على الداعين بالإجابة واللفظ. والله أعلم.

ومتى يكون هذا التنزل؟ المشهور ما جاء في هذه الرواية، وهو ثلث الليل الآخر، وجاء غير ذلك. وللعلماء كلام في الجمع بين الروايات.

وطريق معرفة ثلث الليل الآخر أن يُقَسَّم الوقت الذي بين أول المغرب إلى طلوع الفجر على ثلاثة، ويضاف الحاصل على وقت المغرب، فيعلم الثلث الأول، وهكذا الثلث الثاني، والثالث.

وهذا الثلث الأخير هو وقت السَّحَر، وهو الوقت المبارك الذي يتجلى الله عز وجل فيه على عباده المقبلين عليه بالصلاة والدعاء والقرآن والاستغفار... فيعطيههم سُؤْلَهُمْ، ويقول لهم:

«مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟».

وفي رواية لمسلم: «أنا المَلِكُ، أنا المَلِكُ، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له، فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر».

وزاد مسلم في رواية أخرى: «ثم يقول: مَنْ يَقْرِضُ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلَا ظَلُومٍ؟».

= ثوابه، أسنده البيهقي وقال: «وهذا إسناد لا غبار عليه»، كما تجده في «البداية والنهاية» لابن كثير ١٠: ٣٤٢. وغير هذا.

١ - ونسبه إليه أيضاً القاضي عياض في «ترتيب المدارك» ١: ١٧٤، وفي سَقَطٍ وتحريف يصححان من الطبعة المغربية ٢: ٤٤.

وفي رواية له: «ثم يَسُطُّ يديه تبارك وتعالى يقول: من يُقرض غير عديم ولا ظلوم؟».

وذكر الحافظ في «الفتح» ٣: ٣١ رواية - عزاها من قبل للنسائي، ويريد: «السنن الكبرى» - بلفظ: «من ذا الذي يَسْتَرْزُقُنِي فَأَرْزُقَهُ؟ من ذا الذي يَسْتَكْشِفُ الضَّرَّ فَأَكْشِفَ عَنْهُ؟».

فهذه ندائَات الحق تبارك وتعالى تَتَرَى علينا كُلَّ لَيْلَةٍ لمدة ساعات، فما أَشدَّ حرمانَ الغافلين! على مختلف أنواع غفلتهم.

ولِمَا عَلَّمَهُ ﷺ من الخير العظيم في القيام في هذه الساعات المباركات قال: «أَفْضَلُ الصِّيَامِ بعد رمضان شهر الله المحَرَّم، وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بعد الفريضة صلاةُ الليل». رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً ٨: ٥٥.

ذلك لأن المصلِّي يُناجي رَبَّهُ، وَرَبُّهُ في تلك الساعة يُناديه، فيكون العبدُ مَقْبِلًا على ربه سبحانه، حين إقبال الله تعالى عليه.

ولأن «أَقْرَبُ ما يكونُ العبدُ من رَبِّهِ وهو ساجد»^(١) و«أَقْرَبُ ما يكونُ الربُّ من العبد في جوف الليل، فإن استطعت أن تكونَ ممن يذكرُ الله في تلك الساعة فكن»^(٢).

فإذا سجد العبدُ في جوف الليل فقد حَصَلَ له قَرَبُ الله سبحانه وتعالى منه، وقَرُبُهُ من الله جلَّ وعلا. نسأل الله التوفيق لذلك بفضلِهِ وعافيتِهِ.

فمَنْ كان يريد الله عز وجل فليَتَعَرَّضْ لِنَفْحَاتِهِ في هذه الساعات. ومنْ كانت له إلى الله حاجةٌ يريد منه قضاءها فليَقُمْ لمناجاةِ رَبِّهِ في هذه اللحظات، وَلْيَسْأَلِ الله ما يريد، فهذه لحظاتُ العطاء.

روى مسلم في «صحيحه» ٦: ٣٦ عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه

١ - رواه مسلم ٦: ٢٠٠ عن أبي هريرة مرفوعاً بزيادة: «فَأَكْثِرُوا الدَّعَاءَ».
٢ - رواه الترمذي ٩: ٢١٨ (٣٥٧٤) عن عمرو بن عَبَسَةَ رضي الله عنه مرفوعاً وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

قال: «إن في الليل لَسَاعَةً لا يُوافِقها رجل مسلم يَسْأَلُ الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه، وذلك كُلُّ ليلة»^(١).

وهذه ساعات المحسنين يقدّمون فيها بين يديهم إحسانهم، لينالوا مما عند الله ما يليق بكرمه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أي: في الحياة الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ ثم ذَكَرَ وجوه إحسانهم، وأولها: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. وقوله جل شأنه: «من يُقرض غير عديم ولا ظلوم» أي: من يُقرض غير فقير ولا ظالم.

قال الإمام النووي رحمه الله في «شرح مسلم»: «والمراد بالقرض - والله أعلم - عملُ الطاعة، سواءً فيه الصدقةُ والصلاةُ والصومُ والذكرُ وغيرها من الطاعات، وسماه سبحانه وتعالى قَرْضاً: ملاطفةً للعباد وتحريضاً لهم على المبادرة إلى الطاعة، فإن القرض إنما يكون ممن يعرفه المُقرض، وبينه وبينه مؤانسةٌ ومحبةٌ، فحين يتعرّض للقرض يبادر المطلوب منه بإجابته، لفرحه بتأهيله للاقتراض منه وإدلاله عليه وذكره له. وبالله التوفيق».

وأقربُ منه قولُ العلامة علي القاري رحمه الله في «شرح المشكاة» ٣: ١٤٦: «من يُقرض: أي من يُعطي العبادة البدنية أو المالية على سبيل القرض وأخذ العوض، غير عديم: أي رباً غنياً غير فقير عاجز عن العطاء، ولا ظلوم: بعدم الوفاء أو بنقص من الثواب والجزاء. يعني: مَنْ يَعْمَلُ في العاجلة رجاء الثواب في الآجلة، لغني لا يعجز عن أداء حقه، وعادل لا يظلم المُقرض بنقص ما أخذ، بل يضاعف له أضعافاً كثيرة. وإنما وَصَفَ ذاته تعالى بنفي هذين الوصفين، لأنهما المانعان غالباً عن الإقراض. فالمعنى: مَنْ يَعْمَلُ خيراً في الدنيا يجزّاء كاملاً عندي في العقبى». والله تعالى وليُّ التوفيق والإحسان.

١ - قال عليّ القاري رحمه الله تعالى في «المِرْقَاة» ٣: ١٤٦: «والحكمة في إيهام ساعة الليل - كساعة الجمعة، وليلة القدر، والصلاة الوسطى - للمبالغة في الاجتهاد لتحصيل المراء، وعدم اليأس من الفوت، وعدم الاقتصار على العبادة في وقت دون وقت، وتخليص القلب من العجب والغرور، وكون العبد بين الرجاء والخوف».

١٢ - قال عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ لابنه: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

١٢ - تخريجه: رواه أبو داود: كتاب السنة - باب في القَدَر ٥: ٧٦ (٤٧٠٠) والترمذي: في كتاب القدر - باب (رقم ١٧) ٦: ٣٢٥ - ٣٢٦ (٢١٥٦) وقال: حديث غريب، ثم رواه في التفسير تفسير سورة ن والقلم، بالإسناد نفسه (٣٣١٦) وقال: حديث حسن غريب صحيح = ٤: ٤٥٧ (٢١٥٥)، ٥: ٤٢٤ (٣٣١٩).

معناه: في أول هذا الحديث أنموذج من تعهد السلف رضي الله عنهم لعقائد أولادهم، ولم يَسْقِ الحديث سياقاً مجردة عن استنباط الفائدة منه والاعتبار، بل قدّم ذلك، ثم استدلّ له على وصيته بكلام النبي ﷺ.

والفائدة التي استنبطها سيدنا عُبَادَةُ هي عبرة إيمانية ودرس عملي لمن يخوض غَمْرَةَ الدُّنْيَا، فتتجاذبه سَرَائِهَا تَارَةً، وَضُرَائِهَا تَارَةً: «لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ...» وهذا لا يكون إلا بعد جهادٍ طويل، فلم يكتفِ بطعم الإيمان، بل نبّهه إلى أعلى من ذلك: طعم حقيقة الإيمان.

«حتى تعلم أن ما أصابك» من خير أو شر، خطأ أو صواب، ضرٌّ أو نفع «لم يكن» أبداً ولا يمكن «ليخطئك» أي: ليفوتك فينزل على غيرك ولا يُصِيبَكَ «وما أخطأك» أي: وما فاتك فنزل على غيرك «لم يكن ليُصِيبَكَ» إذ يلزم من ذلك عدم صحة العلم الإلهي، وعجز القدرة الإلهية! وهذا مُحَالٌ.

والدليل على ذلك: حديث رسول الله ﷺ الدالُّ على أن كل ذلك مقدّر مسطور قبل خلق السموات والأرضين بخمسين ألف سنة، كما جاء في صحيح مسلم في كتاب القَدَر ١٦: ٢٠٣ عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء».

«إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ ، فقال له : اكْتُبْ . قال : رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قال : أَكْتُبُ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ» .

وذلك «أَنْ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ ، فقال له : اكْتُبْ . قال : رَبِّ وَمَا أَكْتُبُ؟ قال : اكْتُبُ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ» .

والقلم : عالم من العوالم المخلوقة بأمر الله ، لا تُعَرَفُ ماهيته ولا صفاته .

وظاهر الحديث أنه أول ما خلق الله ، ومثله جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : «إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللَّهُ الْقَلَمَ ، وأمره أن يكتب كل شيء»^(١) .

مع أن حديث عمران بن حصين المروي في مواضع في البخاري ، منها في كتاب التوحيد - باب «وكان عرشه على الماء» ١٣ : ٤٠٣ ، وفيه أن أهل اليمن قالوا للنبي ﷺ : جئناك لتنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان؟ فقال لهم : «كان الله ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء» : فإنه يشير إلى أسبقية العرش والماء .

وفي «مجموع الفتاوى» لابن تيمية رحمه الله ٢ : ٢٧٥ : «ذهب كثير من السلف والخلف إلى أن العرش متقدم على القلم واللوح مستدلين بهذا الحديث» حديث عمران المذكور .

وفي «فتح الباري» ٦ : ٢٨٩ : «حكى أبو العلاء الهمداني أن للعلماء قولين في أيهما خلق أولاً : العرش أو القلم؟ قال : والأكثر على سبق خلق العرش ، واختار ابن جرير ومن تبعه الثاني» وأفاد ابن كثير في أول «البداية والنهاية» ١ : ٧ أن ابن الجوزي تبع ابن جرير ، وقال : «يحمل حديث القلم - «أول ما خلق الله القلم» - على أنه أول المخلوقات من هذا العالم» . فهي أولية مقيدة ، أما الأولوية المطلقة من بين المخلوقات فللعرش .

ولما خلق الله تعالى القلم وجه إليه الخطاب ، وكلفه بمهمته : «اكتب» فقال القلم : «رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟» ولكل مخلوق لُغته ونطقه ، وهذا محمول على الحقيقة لا مجاز ولا تأويل .

١ - قال الهيثمي رحمه الله في «المجمع» ٧ : ١٩٠ : «رواه البزار ورجاله ثقات» .

قال الله تعالى: «ثم استوى إلى السماء وهي دُخَانٌ فقال لها وللأرض: ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً، قالتا: أَتَيْنَا طَائِعِينَ».

وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وقال أيضاً: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ، إِنَّه كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

فالسَّمَوَاتُ والأَرْضُ تتكَلَّمُ، وتُسَبِّحُ، والأَيْدِي والأَرْجُلُ تتكَلَّمُ، وذلك بعد أن يختم الله على أفواه الكافرين التي هي محلُّ النُّطق والكلام، وكلُّ شيءٍ في هذا الكون يسبِّحُ الله إلا إذا كان في أصله رطباً ثم يبس، فلا، كما دلَّ عليه حديث ابن عباس عند أصحاب الكتب الستة - وهذا لفظ البخاري في كتاب الوضوء ١: ٣١٧ - قال: مرَّ النبي ﷺ بحائط - أي بستان - من جِيطان المدينة - أو مكة - فسمع صوتَ إنسانَيْنِ يعذِّبانِ في قبورهما، فقال النبي ﷺ: «يُعذِّبانِ، وما يعذِّبانِ في كبير» ثم قال: «بلى، كان أحدهما لا يَسْتَرُّ من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة». ثم دعا بجريدة - أي جريدة نخل لم يَبْتَثْ فيها خُوص - فكسرها كِسْرَتَيْنِ، فوضع على كلِّ قبرٍ منهما كِسْرَةً، فقليل له: يا رسول الله لمَ فعلتَ هذا؟ قال: «لعله أن يُخَفَّفَ عنهما ما لم تَيِّسَا» أو «إلى أن تَيِّسَا».

وذلك أن الرُّطب ما دام رَطْباً يُسَبِّحُ الله تعالى، فيخفَّفُ من عذابِ صاحِبِي القبرين بتسبيحه، إلى أن يبس.

ثم جاء البيان والتفصيل للأمر الأول: «اكتبْ مقاديرَ كلِّ شيءٍ حتى تقوم الساعة». ولا ريب أن القلم امتثلَ الأمرَ وكتب ما قدره الله تعالى من حين هذا الخطاب إلى أن تقوم الساعة، وينقضي أمر هذا العالم، أما ما بعد ذلك من عوالم الآخرة ومَشَاهِدِهَا ومواقِفِهَا ثم ما يكون من أهل الجنة بعدما يدخلونها، ومن أهل النار بعدما يدخلونها، ويكون خلودٌ بلا موت: فهذا مما لا علاقة للقلم به، فلم يكتب من ذلك شيئاً.

وعلى أيّش وقعت الكتابة؟ وقعت الكتابة على اللوح المحفوظ، وليس في اللوح شيء مما يكون بعد انقضاء الدنيا.

وهذه الكتابة عامةٌ شاملةٌ للكلّيات والجزئيات من أمور هذا الكون، إذ كلّ ما فيه سيقع ويكون في هذه الدنيا، ولا يكون فيها شيء أبداً مهماً جلّ أو دقّ إلا وهو مقدّر، وما قدره إلا وقد علّمه، وعلم الله تعالى شاملٌ للكلّيات والجزئيات، كما هو مقرّر عند أهل الحق، خلافاً لمن كَفَرَ من الفلاسفة بقولهم إن الله تعالى يعلم الكلّيات دون الجزئيات!.

﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾. ﴿إليه يُردُّ علم الساعة، وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمّل من أنثى، ولا تضع إلا بعلمه﴾.

والتقديرُ أزليٌّ قديمٌ يقدّم الله عز وجل، لأنه تابعٌ لعلم الله تعالى، وعلمه: صفةٌ أزلية، كباقي صفاته.

أما هذه الكتابة فحادثة، بحدوث القلم واللوح، ولكن ليس معنى حدوثها أنها تُسجّل في اللوح بعد وقوعها!!

لا، إنما حدّثنا رسول الله ﷺ عن تاريخ حدوثها، في الحديث الذي تقدّم نقله عن صحيح مسلم: «كُتِبَ الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرضَ بخمسين ألف سنة».

فَعَلِمَ الله تعالى ذلك وقدره أزلاً، ثم جاءت الكتابة بالقلم على اللوح المحفوظ حادثةً، ثم خلق السموات والأرض وما بينهما، وكان ما كان وما يكون وما سيكون، على وفق ما هو مسجّل مسطّر في اللوح، حتى إن خلق السموات والأرضين جاء كما هو مكتوب في اللوح، بل إن ما كان - مما لا يعلمه إلا الله - في هذه الخمسين ألف سنة بين كتابة المقادير وبين خلق السموات والأرض، كلّ قد كان وحصل على وفق ما سطر فيه.

والفرقة القدرية المعروفة في كُتب الفرق والمقالات: طائفتان، طائفة تزعم أن

يا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي».

«لَا قَدَرَ وَأَنْ أَمَرَ أَنْفُ» كما قال يحيى بن يَعْمَرُ أحد التابعين لعبدالله بن عمر رضي الله عنهما، وحديثه هو الحديث الأول في كتاب الإيمان من صحيح مسلم.

ومعناه: لم يقدر الله تعالى شيئاً على العباد أزلاً، ونفي تقديره: نفي علمه أزلاً أيضاً، فَتَقَوَّا الْعِلْمَ الْإِلَهِيَّ أَزْلاً بالكائنات والحوادث، وأن الأمر - أي علم الله تعالى بالأشياء - أنْفُ: جديدٌ حادث يستفيده ويعلمه الله تعالى بعد وقوعه.

وهذه الطائفة هي القَدَرِيَّة القديمة التي أدركها عدد كبير من الصحابة، وقال فيهم عبدالله بن عمر - في الحديث المشار إليه - ليحيى بن يَعْمَرُ: أَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَاءٌ مِنِّي، والذي يَحْلِفُ به عبدالله بنُ عمر لو أن لأحدهم مثلُ أَحَدٍ ذَهِباً فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، ثُمَّ حَدَّثَ بِحَدِيثِ جَبْرِيلَ الْمَشْهُورِ: أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ...

ونَقَلَ الإمام النووي في شرح مسلم ١: ١٥٦ عن القاضي عياض قوله «القائلُ بهذا كافرٌ بلا خلاف».

وقال النووي قبل قليل ١: ١٥٤: «وقد انقرضت القَدَرِيَّة القائلون بهذا القول الشنيع الباطل، ولم يَبْقَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ عَلَيْهِ».

قلت: وعليه يُحْمَلُ تَتِمَّةُ حَدِيثِ عِبَادَةِ الَّذِي نَشْرَحُهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي». أي: ليس على ملتي وديني الذي جثتُ به.

وأما الطائفة الثانية من القَدَرِيَّة: فقال النووي: «وصارت القَدَرِيَّة في الأزمان المتأخرة تعتقد إثبات القدر، ولكن يقولون: الخيرُ من الله والشرُّ من غيره، تعالى الله عن قولهم».

قلت: وهؤلاء هم الذين يعرفون في كتب العقائد والكلام بالمعتزلة، وليست كافرة، بل هي ضالَّةٌ مبتدعة.

نسأل الله أن يرزقنا الإيمان الكامل، وأن يتوفانا عليه.

١٣ - عن مسلم بن يسار الجُهني، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سُئِلَ عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟﴾ قالوا: بلى، شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ؟ فقال عمر بن الخطاب رضي

١٣ - تخريجه: رواه مالك في «الموطأ» كتاب الجامع - النهي عن القول بالقدر ٣: ٩٢، ومن طريقه: أبو داود: كتاب السنة - باب في القدر ٥: ٧٩ (٤٧٠٣)، والترمذي في كتاب التفسير - ومن سورة الأعراف ٨: ٢٣٣ (٣٠٧٧) = ٥: ٢٦٦ (٣٠٧٥) وقال: حديث حسن، وتتمه كلامه تُشعر أنه يريد الحسن لغيره.

معناه: الآية الكريمة من سورة الأعراف، ورقمها ١٧٢، ومعناه الإجمالي: أن الله تعالى أخرج ذرية آدم من ظهره على سبيل التوالد بعضهم من بعض، كما هو الحال في الدنيا، وأخذ عليهم الميثاق: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قالوا: بلى، أنت ربنا، شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا بِذَلِكَ. ثم حذّر تعالى بصيغة تعليل فقال: ﴿أَنْ تَقُولُوا...﴾ أي: لئلا تقولوا يوم القيامة...، والمعنى: أُنذِرْكُمْ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، فإني أرسلت إليكم رسلاً وأنزلت عليه هذا التذكير بذلك الموقف، كي لا تقولوا: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ.

روى الإمام أحمد في «المسند» ١: ٢٧٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنوعمان - يعني عرفة - فأخرج من صلبه كل ذرية ذراًها، فنثرهم بين يديه كالذرّ، ثم كلمهم قَبْلاً^(١)»، قال: أَلَسْتُ

١ - قال في «النهاية» ٤: ٨: «أي: عياناً ومقابلة لا من وراء حجاب، ومن غير أن يُؤلّي أمره أو كلامه أحداً من ملائكته».

بريكم؟ قالوا: بلى، شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل، وكنا ذرية من بعدهم^(١)، أفتهلكنا بما فعل المبطلون^(٢).

وروى عبدالله بن الإمام أحمد في زوائده على «المسند» ٥ : ١٣٥ عن أبي بن كعب رضي الله عنه من قوله في تفسير هذه الآية: «جَمَعَهُم - الله تعالى - فجعلهم أرواحاً، ثم صَوَّرَهُمْ، فاستنطقهم فتكلموا، ثم أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قال - الله -: إني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم عليه السلام: أن تقولوا يوم القيامة: لم نعلم بهذا، اعلّموا أنه لا إله غيري، ولا ربّ غيري، فلا تُشْرِكُوا بِي شَيْئاً، إني سأرسل إليكم رُسلي يُذَكِّرُونَكُمْ عَهْدِي وَمِيثَاقِي، وَأَنْزِلُ عَلَيْكُمْ كِتَابِي، قالوا: شهدنا بأنك ربُّنا وإلهُنا، لا ربّ لنا غيرك. فأقروا بذلك.

ورفع عليهم آدمَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، فرأى الغنيَّ والفقيرَ، وحَسَنَ الصُّورَةَ ودون ذلك، فقال: ربّ لولا سَوِّيتَ بَيْنَ عِبَادِكَ؟ قال: إني أَحْبَبْتُ أَنْ أَشْكُرَ.

ورأى الأنبياءَ فِيهِمْ مِثْلَ الشُّجْرِ، عليهم النورُ، خُصُّوا بِمِيثَاقٍ آخَرَ فِي الرِّسَالَةِ وَالنَّبُوءَةِ، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ كان في تلك الأرواح فأرسله إلى مريم^(٣).

قلت: وهذا وإن كان موقوفاً على أبي بن كعب إلا أنه مما لا يُدْرِكُ بِالرَّأْيِ والاجتهاد والفهم من الآيتين المذكورتين، وأبي لم يُعَرَفْ بِالْأَخْذِ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فهو مما يُجَزَّمُ بآن له حكم الرفع، وأنه سمعه من النبي ﷺ، وإن لم يُصَرِّحْ بِرَوَايَتِهِ عَنْهُ.

وفي الآية الكريمة كلامٌ وأقاويل أخرى لا حاجة إلى ذكرها.

١ - أي: أتباعاً لهم في الشرك.

٢ - قال الهيثمي في «المجمع» ٧ : ٢٥ : «رجال رجال الصحيح» لكن الحافظ ابن كثير أعله في تفسيره ٢ : ٢٦٢ ورجح وقفه على ابن عباس.

٣ - قال الهيثمي في «المجمع» ٧ : ١٢٥ فيه : «محمد بن يعقوب الربالي وهو مستور، وبقية رجاله رجال الصحيح» قلت: الربالي ليس بمستور، وانظر «تعجيل المنفعة» ص ٢٥٠ لزماً.

الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عنها، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه حتى استخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون».

وهذا الذي دلّت عليه الآية هو ما يُسمّيه العلماء رحمهم الله تعالى: عالم الذرّ. والله أعلم.

قال ﷺ: «إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه حتى استخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون...» ثم قال نحوه بالنسبة لأهل النار.

ويبدو أن ثمة إجمالاً في قوله: «استخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للجنة» بيّنه ويفضّله حديث ابن عباس المرفوع، وكلام أبي بن كعب السابقين، تقديره وتقديره - والله أعلم - استخرج منه ذرية فاستشهدهم على أنفسهم لنفسه بالربوبية، فمن أجاب طواعيةً جعله من أهل اليمين والجنة، ومن أجاب اضطراراً جعله من أهل الشمال والنار.

فسأل الرجل نفسه - كما يستفاد من رواية الترمذي - سؤالاً ثانياً: ففيم العمل يا رسول الله؟ فأجابه ﷺ جواباً مفصلاً، وأجاب عليه الصلاة والسلام عن الإشكال نفسه جواباً موجزاً في مواقف أخرى متعدّدة فقال: «اعملوا فكلّ مُيسّر لما خُلِق له»^(١).

وكلمة «مُيسّر»: كلمة جامعة لكلمتين تدرجان تحتها، هما الكلمتان الشائعتان على ألسن الناس: مسير ومخير، والإنسان ليس مسيراً فحسب، كما تقوله الجبرية، ولا مخيراً فحسب، كما تقوله المعتزلة، إنما هو مسير ومخير معاً، وبدلاً من أن

١ - رواه البخاري في مواضع، آخرها كتاب القدر - باب وكان أمر الله قدراً مقدوراً ١٣: ٤٩٤ وهنا شرحه ابن حجر، ومسلم: كتاب القدر أيضاً أوله ١٦: ١٩٥ كلاهما عن علي رضي الله عنه: كنا في جنازة في بقيع الغرقد...

فقال رجل: ففيمَ العملُ يا رسول الله؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا خَلَقَ العبدَ للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموتَ على عملٍ من أعمال أهل الجنة، فيُدخله به الجنة، وإذا خَلَقَ العبدَ

تقول كلمتين وكلُّ منهما تُؤهِم، فإننا نقول ما قاله عليه الصلاة والسلام: ميسر، فالله تعالى ييسره للخير ويسر الخير له - من حيث لا يشعر - فهو ميسر من هذه الناحية وهو يمشي في طريق هذا الخير باختياره دون عصا تلجته، فهو مخير من هذه الناحية.

وقد غيَّب الله تعالى عن عباده تلك النتائج المحتومة ليبقى للإنسان اختياره سلوك الطريق التي يريد، وهذا الاختيار هو مناط التكليف، ومحل الثواب والعقاب.

نقل النووي في شرح مسلم ١: ١٥٤ - ١٥٥ عن الخطابي رحمه الله تعالى قوله: «وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبارُ الله سبحانه وتعالى العبدَ وقهره على ما قدره وقضاه، وليس الأمرُ كما يتوهمونه، وإنما معناه الإخبارُ عن تقدُّم علم الله سبحانه وتعالى بما يكون من اكتساب العبد وصدورها عن تقدير منه وخلق لها: خيرها وشرها».

ونقل عنه ابن حجر في «الفتح» ١١: ٤٩٨ نصاً آخر، قال رحمه الله: «لما أخبر ﷺ عن سبق الكائنات رام من تمسك بالقدر أن يتخذ حجة في ترك العمل، فأعلمهم أن هنا أمرين لا يَطلُّ أحدهما بالآخر: باطن، وهو العلة الموجبة في حكم الربوبية، وظاهر، وهو العلامة اللازمة في حق العبودية، وإنما هي أمانة مُخيلة في مُطالعة علم العواقب غير مفيدة حقيقة، فبين لهم أن كلاً ميسر لما خُلق له، وأن عمله في العاجل دليل مصيره في الآجل، ونظير ذلك: الرزق - محتوم مقدَّر - مع الأمر بالكسب، والآجل - مقدَّر مسطر - مع الإذن في المعالجة».

وهذا كلام جيد وقوي. وتقرير هذا التنظير: أن الله تعالى قدر أرزاقنا فهي محدودة بما قدره، محتومة لن تتغير في علمه، ومع ذلك أمرنا بالكسب والسعي. وآجالنا كتبها الملائكة حين نفخت فينا أرواحنا ونحن في أرحام أمهاتنا، فهي معلومة محدودة، ومع ذلك قال ﷺ: «تداووا عباد الله» قال الترمذي: حسن صحيح.

للنار استعمله بعملِ أهلِ النار، حتى يموتَ على عملٍ من أعمالِ أهلِ النار، فَيُدْخِلْهُ به النارَ.

وهكذا خواتيمنا معلومةٌ عنده تعالى، ومع ذلك أَمَرْنَا بالعملِ الصالح، ونهانا عن العملِ الفاسد.

فيقال لمن يحتجُّ بالقدر - وهو مغيبٌ عنه - لَمْ لا تحتجُّ بالقدرِ المغيبِ عنك في مجالِ رزقك وأجلِّك، فاستسلمَ للفقر الذي تعيشه، وللمرضِ النازلِ بك!! وإلا فما الفرقُ بين هذا وذاك؟!

ولهذا فإنه لا يجوز للعبد أن يحتجَّ بما هو مغيبٌ عنه ليسوِّغَ أعماله الشريرة، لأنه من تسويلِ الشيطان له ووسوسته؛ فإذا عُوتِبَ على تركِ الصلاة والزكاة... وشربِ الخمر وفعلِ المنكرات... قال: هكذا قَدَّرَ الله عليَّ.

فإن هذا الأحقُّ الأثِمُّ: يُسوِّغُ لنفسه البقاءَ على منكراته، وبدلاً من أن يوبَّخَ نفسه وَيُعْتَبَ عليها إذا به يُوجَّه العتبُ على الله سبحانه وتعالى: هكذا قَدَّرَ الله عليَّ!.

وفي كلامه هذا من الضلالِ الكبير ما لو عَقَلَهُ لأَقْلَعَ عنه وعن معاصيه، ذلك أن مؤدَّى الشعور بالجبر، وأن الله قَدَّرَ عليه كذا فهو مستسلم له، وسيفعله قبل علمه بما قَدَّرَ عليه، مؤدَّى ذلك: تعطيلُ الشرائعِ وإلغاؤها، وإلا: فلمَ أَمَرَهُ تعالى ونهاه، وأوجبَ عليه وحَرَّمَ، وأثابَ وعاقب... ما دام هناك قدرٌ ملزِمٌ للعبد ينزع منه اختياره، ويسلبه عقله؟!

وكم وكم في القرآن الكريم من كلمات تنسب الأعمال إلى العباد أنهم عملوها، فلو كان هناك إجبار من الله تعالى لما نَسَبَ الأعمال إلى العباد، بل كان يَنْسِبُها إلى نفسه، كما يَنْسَبُ الأعمال الكونية إلى نفسه.

فهو سبحانه يقول: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ. أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾. ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ. أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾. ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ. أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾.

فهو سبحانه ينسب خَلْقَ السموات والأرض وما بينهما إليه، وجَعَلَ السموات

بناء، والأرض مهاداً، والكواكب زينةً، والجبال أوتاداً... كلُّ هذا ينسبُه إلى نفسه، أما الأعمالُ التكليفية: فينسبُها إلى العباد، وما من أسطرٍ قليلة في القرآن تقرأها إلا وتجدُ فيها ذلك.

وإن شئتَ فاقرا الأسطر الأولى من سورة البقرة: ﴿الذين يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ، وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. فنسب إليهم الإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة، والإنفاق، والإيمان بالكتب كلها، والإيقان بالآخرة.

أما إنزالُ الكتب ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ، وَمَا أُنزِلَ...﴾: فلم ينسبُه إليهم، بل هو من الله وهو معلوم، وإن لم يصرَّح به في الآية.

والذي سَوَّغَ نسبةَ هذه الأعمال إليهم: أنهم ما عملوها إلا باختيارهم، واختيارهم جزءٌ من تكوينهم وفطرتهم التي كوَّنهم الله بها وفطرهم عليها.

فكما أن الله تعالى جعلك سمياً بصيراً عاقلاً... كذلك جعلك مختاراً، وهذا هو مراد علماء الكلام في قولهم: الجزء الاختياري، أي الاختيار الذي هو جزء مما خُلِقَتْ عليه، كما قرَّره العلامة الشيخ عبد الغني النابلسي رحمه الله في رسالته «الكوكب الساري في حقيقة الجزء الاختياري».

ولتُحَسِّنَ الاختيار أكرمك بالعقل، وبما أن العقل البشري ليس كافياً في كل المجالات، وقد يؤثر عليه الهوى النفساني في بعض الحالات، لذلك نُورِّثُكَ العقل بالتشريع السماوي، فبيِّنْ لك الحلال والحرام، والخير والشر، والعاقبة الحسنة والسيئة... وكُلِّفَكَ.

مع العلم أن اختيارك ليس هو الأول والأخير، فورا اختيارك: إرادة الله ومشيتته، وعلمه في خلقه وحكمته، لأنك لست الوحيد في الكون، فقد تتعارض مصالحك مع مصالح الآخرين، لذلك فإن حكمة الله جل جلاله وعلمه لتسيير الكون كله على نظام حكيم، تُراعى فيه المصالحُ من خالقها جميعاً. فسبحانه وتعالى وهو الفَعَّال لما يريد.

على أن عقلاء هذه الأمة وصلحاءها لم يتخذوا هذا الكتاب السابق - المغيّب - ذريعةً لتسويغ المنكرات، بل اتَّخذوه وسيلةً للخوف الشديد أن يكونوا من غير أهل اليمين والنجاة! فله درهم ما أعقلهم!

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى في آخر شرح الحديث الرابع من «جامع العلوم والحكم» ص ٥٠: «وفي الجملة: فالخواتيم ميراثُ السوابق^(١)، فكلُّ ذلك سَبَقَ في الكتاب السابق، ومن هنا كان يشتدُّ خوفُ السلف من سوء الخواتيم، ومنهم من كان يَقلُّ من ذكر السوابق. وقد قيل: إن قلوب الأبرار معلقةٌ بالخواتيم يقولون: بماذا يُختم لنا؟ وقلوب المقرَّين - وهم أعلى من الأبرار - معلقةٌ بالسوابق يقولون: ماذا سَبَقَ لنا؟»

ويكى بعضُ الصحابة عند موته، فسئل عن ذلك؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى قبضَ خَلْقَهُ قبضتين فقال: هؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النار» ولا أدري في أي القبضتين كنت^(٢)؟.

«وقال بعضُ السلف: ما أبكى العيون ما أبكاها الكتابُ السابق. وقال سفيان - الثوري - لبعض الصالحين: هل أبكاك قطُّ علم الله فيك؟ فقال له ذلك الرجل: تَرَكْنِي لا أفرح أبداً. وكان سفيان يشتدُّ قلقه من السوابق والخواتيم، فكان يبكي ويقول: أخاف أن أكون في أم الكتاب شقياً، ويبكي ويقول: أخاف أن أسلب الإيمان عند الموت.

«وكان مالك بن دينار يقوم طولَ ليله قابضاً على لحيته ويقول: يا رب قد علمت ساكنَ الجنة من ساكن النار، ففي أيِّ الدارين منزلُ مالك؟» إلى آخر كلامه النفيس الرقيق رحمه الله تعالى.

١ - يريد: خاتمة الإنسان بالوفاة على الإيمان، أو غير ذلك - والعياذ بالله - نتيجة لما سبق له في علم الله وقدره.

٢ - هذه رواية بالمعنى والاختصار، وأصل الحديث في «المسند» ٥: ٦٨، قال الهيثمي ٧: ١٨٦: «رجاله رجال الصحيح». ومثل هذه القصة ما حصل لمعاذ بن جبل حين احتضر: بكى وروى مثل هذا الحديث. ذكره الهيثمي ٧: ١٨٧ وعزاه إلى الطبراني وضعفه.

١٤ - عن أنس بن مالك رضي الله عنه، يرفعه: «إن الله عز وجل يقول لأهون أهل النار عذاباً: لو أن لك ما في الأرض من شيء، كنت تفتدي به؟ قال: نعم، قال: فقد سألتك ما هو أهون من ذلك وأنت في صلب آدم: أن لا تُشرك بي، فأبئت إلا الشرك».

١٤ - تخريجه: رواه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء - باب خلق آدم وذريته ٣٦٣ : ٦ (٣٣٣٤)، وفي كتاب الرقاق - باب صفة الجنة والنار ٤١٦ : ٤ (٦٥٥٧). ورواه مسلم: كتاب صفات المنافقين - باب طلب الكافر الفداء: ٤ : ٢١٦٠ (٥١) وشرح النووي ١٧ : ١٤٧.

غريبه: «يرفعه»: قال في «فتح الباري» ٦ : ٣٦٩: «هي لفظة يستعملها المحدثون في موضع: قال رسول الله ﷺ، ونحو ذلك». لكنه لم يذكر هنا أسباب عدولهم عن هذه الصيغة الصريحة إلى هذه الكلمة المحتملة، ويبيّن في «النكت على ابن الصلاح» ٢ : ٥٣٧ أسباب ذلك، وخلاصتها:

١ - شك الراوي في الصيغة التي سمعها من شيخه - الصحابي فمن دونه - هل هي: قال رسول الله ﷺ، أو: سمعت رسول الله ﷺ، أو غير ذلك.

٢ - الاختصار. قلت: وهذا - فيما أرى - حال المصنفين في كتبهم.

٣ - شك الراوي في ثبوت رفع الحديث إلى النبي ﷺ. ويصلح مثلاً لذلك: أن يكون الحديث عند هذا الراوي من وجهين فأكثر، بعضها موقوف، وبعضها مرفوع، فأورث هذا الاختلاف شكاً في نفس الراوي، فلما رواه من طريق من رفعه لم يأت بالصيغة الصريحة الجازمة: قال رسول الله ﷺ، بل عدل إلى قوله: رفعه، أو يرفعه، أو ينميه، ونحو ذلك.

وهناك احتمالٌ رابع: أن يكون من ورع هذا الراوي في الرواية، حيث عَلِمَ أن في الرواية بالمعنى خلافاً، فجاء بهذه العبارة - «يرفعه» - ليخرج من الخلاف، فلا يجزَمَ في موضع الخلاف. والله أعلم.

معناه: أورد الإمام البخاري رحمه الله تعالى هذا الحديث تحت باب خَلَقَ آدم وذريته، إشارةً منه إلى الربط بين قوله في الحديث هنا «وأنت في صلب آدم» وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَىٰ﴾ وهذا ما يُسَمَّى على لسان بعض أهل العلم بعالم الذرِّ. وارجع إلى الحديث السابق برقم ١٣.

قال في «الفتح» ١١: ٤٠٣: «قال عياض: فهذا الميثاق الذي أُخِذَ عليهم في صلب آدم، فمن وفى به بعد وجوده في الدنيا فهو مؤمن، ومن لم يُوفِّ به فهو الكافر. فمراد الحديث: أردت منك حين أخذت الميثاق فأبيتَ إذ أخرجتكَ إلى الدنيا إلا الشرك».

والإرادة هنا: إرادة تكليفٍ لا إرادة تكوين، وإرادة التكليف قد تتخلف، أي: لا تُوجَد، بمعنى أن العبد المكلف يتقاعس عن تنفيذ أمر الله تعالى وتكليفه الشرعي.

أما إرادة التكوين: فهذه لا تتخلف أبداً، وهي المرادة بقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُنَا لَشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ﴾.

إلا أن هذا الكافر قد فَرَطَ أمره، ولاتَ حينَ مناصٍ ولا مندَم، فلا حَسْرَةَ تَنَفَّعه، ولا افتدَاء يُنْقِذه، وقد أعذر الله إليه فيما عَمَّرَه من عُمر: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ، لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا، كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافُورٍ. وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ. أَوْ لِمَ نُعَمَّرُكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ، وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ، فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾.

اللهم إنا نعوذ بك من النار وأسبابها.

١٥ - عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ، وَطَوَّلَهُ سِتُّونَ ذِرَاعاً، ثُمَّ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلَئِكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَاسْتَمَعَ مَا يُحْيِيُونَكَ، فَإِنِهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ، فزادوه (ورحمة الله)،

١٥ - تخريجه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء - باب خلق آدم ٦ : ٣٦٢ (٣٣٢٦) وفي الاستئذان - باب بدء السلام ١١ : ٣ (٦٢٢٧). ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها - باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير ٤ : ٢١٨٣ (٢٨)، وشرح النووي ١٧ : ١٧٧.

معناه: خلق الله تعالى آدم عليه الصلاة والسلام خلقاً مَبْتَدَأً - لا متسلسلاً متطوراً - كما قال جل شأنه: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ وكان طوله عليه السلام ستين ذراعاً في سبعة أذرع عَرَضاً، كما في «المسند» ٢ : ٥٣٥ من رواية علي بن زيد بن جُدعان^(١).

قال الحافظ في تقدير الذراع ٦ : ٣٦٦: «يَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ بِقَدْرِ ذِرَاعِ نَفْسِهِ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ بِقَدْرِ الذِّرَاعِ الْمُتَعَارَفِ يَوْمَئِذٍ عِنْدَ الْمُخَاطَبِينَ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ»^(٢).

وهل المراد أن (السلام عليكم) تحية ذرية آدم جميعهم، أو من العام الذي أريد به الخصوص؟.

١ - وهو ضعيف عند الجمهور، وبعض الأئمة يحسن حديثه، كما تجده آخر «مسند عمر بن عبد العزيز» للباغندي بتحقيقي ص ٢٨٦، وفي تعليلاتي على «الكاشف» للذهبي رقم الترجمة ٣٩١٦.

٢ - سقطت كلمات من أول هذا النص من الطبعة السلفية التي أنقل عنها، واستدركتها من طبعة البابي الحلبي ٧ : ١٧٥ فلتستدرك.

فكلُّ من يدخُل الجنة على صورةِ آدمَ، فلم يَزَل الخَلْقُ ينقُصُ حتى الآن».

قال في «الفتح» ١١ : ٤ : «أخرج البخاري في «الأدب المفرد» - ٢ : ٢٦٢ (٩٨٨) - وابن ماجه - ١ : ٢٧٨ - وصححه ابن خزيمة - ٢ : ٢٨٨ بمعناه - من طريق سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن عائشة مرفوعاً: «ما حَسَدَتْكُمْ اليهودُ على شيءٍ ما حَسَدَوْكُمْ على السلام والتَّأمين» وهذا يدلُّ على أنه شُرِعَ لهذه الأمةِ دونهم» ثم ساق أدلةً أخرى.

وقوله ﷺ: «فكلُّ من يدخُل الجنة..» هذا من باب الاستثنافِ والإخبار بخبر جديد، لا التفريع، أخبرنا أن كلَّ من يدخُل الجنة فهو على طول آدم وعرضه وحسنه وجماله.

ثم قال ﷺ من باب دفع الإشكال قبل إيرادهِ: «فلم يَزَل الخَلْقُ ينقُصُ حتى الآن». كأنه قيل: إن النسل يتوارث من أصلهِ صفاتِهِ، ومنها: الطولُ، فأين نحن من ذاك الطول؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «لم يزل الخلق ينقُص..».

أما الألوان والأخلاق: فهي متوارثةٌ من آدم عليه السلام نفسه، كما قال ﷺ: «إن الله تعالى خَلَقَ آدمَ من قبضةٍ قَبَضَهَا من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك، والسُّهْلُ والحَزْنُ، والخيث والطيب» رواه أبو داود ٥ : ٦٧ (٤٦٩٣) والترمذي أول تفسير البقرة ٨ : ١٥٤ (٢٩٥٨) وقال: حسن صحيح.

١٦ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدمَ ونَفَخَ فيه الروحَ عَطَسَ فقال: الحمد لله، فحمد الله بإذنه، فقال له ربُّه: رَحِمَكَ الله يا آدمَ،

١٦ - تخريجه: رواه الترمذي آخر كتاب التفسير باب [الأمر بالكتابة والشهود] ٨٨: ٩ (٣٣٦٥) = ٥: ٤٥٣ (٣٣٦٨) وقال: حديث حسن غريب.

وابن حبان في «صحيحه» ٨: ١٤ (٦١٣٤) من طبعة الحوت، عن ابن خزيمة، عن محمد بن بشار شيخ الترمذي، بمثله، ورواه نحوه الإمام أحمد ٢: ٢٥٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، قال الهيثمي ٨: ٢٠٦ «فيه علي بن زيد ضعفه الجمهور». وانظر ما تقدم تعليقا ص ٨٥.

معناه: «لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح» فبلغ الروح رأسه، كما جاء في رواية ابن حبان: «موارد الظمان» صفحة ٥٠٨ (٢٠٨١)، عَطَسَ آدم عليه السلام حينئذ، فألهمه ربه أن يقول: الحمد لله، كما في رواية ابن حبان أيضاً (٢٠٨٠)، وَلَفَظُ حَمْدِهِ في هذه الرواية الثانية: الحمد لله، وفي الرواية الأولى: الحمد لله رب العالمين، وكلاهما جائز، وهذا اللفظ التام أولى^(١).

وقوله هنا «فحمد الله بإذنه»: يحتمل أن يكون معناه: بإلهامه، كما تقدم في رواية ابن حبان، فشمتته ربه سبحانه وقال له: «رَحِمَكَ الله».

قال الحافظ في «الفتح» ١٠: ٦٠٢: «قال الحليمي: الحكمة في مشروعية الحمد للعاطس: أن العُطَّاسَ يدفع الأذى من الدماغ الذي فيه قوة الفكر، ومنه منشأ الأعصاب التي هي معدن الحس، وبسلامته تسلم الأعضاء، فظهر بهذا أنها نعمة جليلة، فناسب أن تقابل بالحمد لله».

اذهب إلى هؤلاء الملائكة - إلى ملائمتهم جلوس - فقل: السلام عليكم، قالوا: وعليك السلام ورحمة الله، ثم رَجَعَ إلى ربِّه فقال: هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم.

فقال الله له - ويدها مقبوضتان -: اختر أيهما شئت، قال: اخترت يميني - وكلتا يدي ربي يمين مباركة - ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته فقال: أي رب ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك. فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه، فإذا فيهم رجل أضوئهم - أو: من أضوئهم - قال: يارب من هذا؟ قال: هذا ابنك داود، وقد كتبت له عمر أربعين سنة، قال: يارب زده في عمره، قال: ذاك الذي كتبت له، قال: أي رب فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة. قال: أنت وذاك.

قال: ثم أسكن الجنة ما شاء الله، ثم أهرط منها، فكان آدم يعد نفسه. قال: فأتاه ملك الموت، فقال له آدم: قد عجلت، قد كتبت لي ألف سنة! قال: بلى، ولكنك جعلت لابنك داود ستين سنة! فَجَحَدَ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، ونسي فنسيت ذريته.

وأما مناسبة الدعاء للعطاس بالرحمة فنقل الحافظ أيضاً قبل ١٠ : ٦٠١ عن القاضي ابن العربي قوله: «إن العطاس ينحل كل عضو في رأسه وما يتصل به من العنق ونحوه، فكان إذا قيل له: رحمك الله، كان معناه: أعطاه الله رحمة يرجع بها بذلك العضو إلى حاله قبل العطاس ويُقيم على حاله من غير تغيير».

ثم إن الله تعالى قال لآدم: «اذهب إلى هؤلاء الملائكة: إلى ملائمتهم جلوس، فقل: السلام عليكم»^(١) فامثل أمر ربِّه، فأجابته الملائكة بقولهم: «وعليك السلام ورحمة الله» فزادوه وردوا عليه بأحسن من تحيته، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾.

١ - وغاب عن الحافظ رحمه الله لفظ هذه الرواية فقال في «الفتح» ١١ : ٤ : «لعل الله ألهمه أيضاً صفة السلام» مع أنها صريحة في ذلك.

قال: فمن يومئذٍ أمر بالكتاب والشهود.

ثم خيّر الله عز وجل بين قَبَضَتَيْنِ فاختار اليمنى فإذا فيها آدمُ وذريته، وبين عَيْنَيَّ كل واحدٍ منهم عُمره، «فرأى فيهم رجلاً يَزْهَرُ» كما في رواية ابن عباس في «المسند» وتقدمت الإشارة إليها في التخريج، فإذا هو داود عليه السلام، فأحبه آدم عليه السلام، وسأل الله تعالى أن يزيد في عمره، لأنه استقل ما رآه مكتوباً عليه: أربعين سنة فقط، ولآدم ألف سنة، فقال آدم: «أني ربّ فلاني قد جعلتُ له من عُمرِي ستين سنة» وذلك بعد أن أشار الله تعالى إليه بذلك فقال له - كما في «المسند» ١: ٣٧١ -: «لا، إلا أن تزيد من عُمرِكَ».

فوهبه آدمُ ستين سنةً من عُمره، فكان لآدم أربعون وتسعمائة سنة، ولداود مائة سنة. وفي رواية «المسند» المشار إليها: «فكتب الله عز وجل عليه كتاباً، وأشهد عليه الملائكة» ثم كان ما كان، وهذه الزيادة تُظهر مناسبة قوله آخر الحديث: «فمن يومئذٍ أمر بالكتاب والشهود».

والجحود: معناه في الأصل: الإنكار بعد علم، لكنك ترى في الحديث صراحة أن جحود آدم عليه السلام لم يكن من هذا القبيل، بل كان عن نسيان: «ونسي فنسيت ذريته». ومعاذ الله أن يقع ذلك من نبيٍّ معصوم.

١٧- عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَجِيءُ نوحٌ وأُمتهُ، فيقول الله تعالى: هل بَلَّغْتَ؟ فيقول: نعم

١٧- تخريجه: رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء - باب ﴿إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه...﴾ ٦: ٣٧١ (٣٣٣٩)، وفي تفسير سورة البقرة - باب ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً﴾ ٨: ١٧١ (٤٤٨٧) وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً﴾ أيضاً ١٣: ٣١٦ (٧٣٤٩).

معناه: من مشاهد القيامة ومواقفها: إظهار الله عز وجل فضيلة محمد ﷺ، وفضيلة أمة محمد ﷺ، وإقامته الحجة على الكافرين المنكرين من الأمم الأخرى.

يقول عليه الصلاة والسلام: «يَجِيءُ نوحٌ وأُمتهُ..» وهذا ذكرٌ لموقفٍ واحد على سبيل المثال، لا لأنه موقفٌ واحدٌ لا يتكرر، وليس خاصاً بنوح وأمه، لا. والآية الكريمة المذكورة آخر الحديث تُشير إلى العموم: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ فلم يخص من بينهم نوحاً وأمه.

وجاءت رواية الإمام أحمد ٣: ٥٨ وابن ماجه ٢: ١٤٣٢ بإسناد صحيح صريحة في العموم، ولفظ أحمد^(١): «يَجِيءُ النبي يوم القيامة ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، وأكثر من ذلك، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بَلَّغْتُمْ هذا؟ فيقولون: لا، فيقال له: هل بَلَّغْتَ قومك؟ فيقول: نعم، فيقال له: من يَشْهَدُ لك؟ فيقول: محمد وأمه، فيدعى محمد وأمه، فيقال لهم: هل بَلَّغْتَ هذا قومه؟ فيقولون: نعم. فيقال: وما عِلْمُكُمْ؟ فيقولون: جاءنا نبيُّنا فَأَخْبَرَنَا أن الرسل قد بَلَّغُوا [فصدّقناه]. فذلك قوله: ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً﴾ قال: يقول: عدلاً ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾.

فالوسط: العَدْلُ بنص قول رسول الله ﷺ، كما تراه في هذا الحديث: «قال - أي الصحابي راوي الحديث وهو أبو سعيد الخدري -: يقول - أي رسول

١ - إلا كلمة «فصدّقناه» فمن عند ابن ماجه، لذا وضعتها بين معكوفين.

أَيُّ رَبٍّ، فيقول لأُمَّته: هل بَلَّغَكُمْ؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبيٍّ.
 فيقول لنوح: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فيقول: محمد - ﷺ - وأُمَّته، فنشهد أنه قد
 بَلَّغَ. وهو قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ
 عَلَى النَّاسِ﴾. وَالْوَسْطُ: الْعَدْلُ.

الله ﷻ -: عدلاً. وكما تراه في آخر الحديث الذي نحن بصدد شرحه: «وَالْوَسْطُ:
 الْعَدْلُ» فقد حَقَّقَ في «الفتح» أنه مرفوع من كلام رسول الله ﷺ، لا مُدْرَج في
 الحديث من كلام بعض الرواة للتفسير.

وهل جميعُ أفرادِ الأُمَّةِ سَتَشْهَدُ للأنبياء على أُمَّمِهِمْ، أو العدولُ منهم، كما
 يقتضيه لفظ «وَسَطًا»؟ وإذا كان العدولُ منهم فقط فما معنى ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾
 فإن ظاهره يقتضي جميع الأُمَّة؟.

والجواب: أنه من المعلوم أن الشهادة لا تُقبل إلا من عدل، ولا يُرجع إلى
 غير العدل في الشهادات، وكذلك: من المعلوم المشهور أن العلماء يَقْسِمُونَ الأُمَّةَ
 المحمدية إلى قسمين: أُمَّةٌ دعوة وهي كل من بَلَّغَتْهُ دعوة النبي ﷺ وسمع بدين
 الإسلام، سواء أسلم أو لم يُسلم، فمن أسلم منهم سُمِّيَ بأُمَّة الإجابة، أي:
 استجاب لدعوة النبي ﷺ، ودخل دين الإسلام.

وهناك من يجعلُ التقسيم ثلاثياً: أُمَّة دعوة، وأُمَّة إجابة، وأُمَّة اتِّباع، ذلك أن
 أفراد أُمَّة الإجابة يقع للواحد منهم ما يخرجُه عن مقتضى العدالة، كما نشهده في
 الواقع، فالصالحون الصادقون في استجابتهم لله ورسوله هم خيار هذه الأُمَّة
 المتبعون المستمسكون بالهدي المحمدي.

وقد رأيتُ هذا التقسيم الثلاثي لأبي بكر الكلاباذي المتوفى سنة ٣٨٠ - أو
 ٣٨٤ - في كتابه «بحر الفوائد» المشهور بـ «معاني الأخبار»، نقله عنه الحافظ في
 «فتح الباري» ١١: ٤١١ عند كلامه على حديث «سَبَقْتُ بِهَا عُكَّاشَةً» قال: «قال
 الكلاباذي: المراد بالأُمَّة أولاً - في حديث ذكره هناك - أُمَّة الإجابة، ويقول آخرُ
 «أمتي»: أُمَّة الاتِّباع، فإن أُمَّته ﷺ على ثلاثة أقسام، أحدها أُخِصَّ من الآخر: أُمَّة
 الاتِّباع، ثم أُمَّة الإجابة، ثم أُمَّة الدعوة، فالأولى: أهل العمل الصالح، والثانية:
 مطلق المسلمين، والثالثة: مَنْ عداهم ممن بُعِثَ إليهم».

وبهذا يزول الإشكال: كيف يَشْهَدُ من ليس عدلاً، ويقبل الله شهادته!!

١٨ - عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يَلْقَى إبراهيمُ أباه آزرَ يومَ القيامة - وعلى وجه آزرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ - فيقول له إبراهيم: أَلَمْ أَقُلْ لك: لا تَعْصِنِي! فيقولُ أبوه: فاليومَ لا أَعْصِيكَ، فيقولُ إبراهيم: يا ربِّ إنك وَعَدْتَنِي أن لا تُخْزِنِي يومَ يُعْثُونَ، وأَيُّ

١٨ - تخريجه: رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء - باب قوله تعالى ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ ٦: ٣٨٧ (٣٣٥٠). وفي كتاب التفسير - سورة الشعراء: باب ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ٨: ٤٩٩ (٤٧٦٨، ٤٧٦٩) مختصراً، وهنا شَرَحَه ابن حجر.

غريبه: قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ: قال الإمام البخاري في تفسير سورة الشعراء: الغَبَرَةُ هي القَتَرَةُ، فتكون الواو هنا من عطف التفسير، وجَعَلَه بعضهم عطفَ مغايرة، فالغَبَرَةُ: الغُبار الذي يعلق بالأشياء، والقَتَرَةُ: شِبُه دُخَان يَغْشَى الوجه من الكرب^(١)، كما في «مفردات» الراغب ص ٣٥٧، ٣٩٣.

لا تُخْزِنِي: الخِزْي: إنكسارٌ يلحق الإنسان من غيره، كما قاله الراغب أيضاً ص ١٤٧.

الأبعد: بمعنى: البعيد، وهو الهالك، كما يؤخذ من «النهاية» ١: ١٣٩، وهو في «الفتح» وقال: هي صفةٌ لإبراهيم عليه الصلاة والسلام وَصَفَ بها نفسه «على طريق القَرَض إذا لم تقبل شفاعته في أبيه» وقيل: الأبعد: صفةُ أبيه، أي: إنه شديد البعد من رحمة الله، لأن الفاسق بعيد منها، فالكافر أبعد. وَرَجَّح الاحتمال الأول.

ذِيخ: الضُّبُع الذَّكْر.

ملتطخ: ملتوثٌ بدم أو رجيع، أو طين، أو غير ذلك.

١ - في «المفردات»: من الكذب، والظاهر: من الكرب، كما أثبتته عن «الفتح».

خِزْيٍ أُخْزِيَ مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟! فيقول الله تعالى: إني حرمتُ الجنةَ على الكافرين، ثم يُقال: يا إبراهيم ما تحت رِجْلَيْكَ؟ فينظر، فإذا هو بِذِيخٍ مُلْتَطِحٍ، فيؤخذُ بقوائمه، فيُلْقَى في النارِ.

معناه: من أوصاف يوم القيامة أنه يوم لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون، إلا مَنْ أتى الله بقلب سليم. وهذا الموقف الذي يحكيه لنا النبي ﷺ يصوّر لنا هذه الحقائق.

فآزَرَ: لم ينفعه في ذاك اليوم شيء، بل مُسِخٌ على هيئةٍ أحمقٍ حيوانٍ وعلى حالةٍ قذرةٍ: ضُبعٌ متلوثٌ بماله رائحة نتنه، كما أفادته بعض الروايات، ثم أخذ بقوائمه وألقى في النار! وهذه نتيجة كل من كان على شاكلته، وإن اختلفت المقدمات.

ونَدِمَهُ لم ينفعه، لأنه نَدِمَ حين رأى العذاب وعَيْن النار، فقال: اليوم لا أعصيك. أما في الدنيا: فكان إبراهيم عليه السلام يتلطّف به ويُقيم عليه الحجة بأبسط ما تكونُ وأوضح، وآزَرَ يُغلظ عليه ويقول له: ﴿لئن لم تنتهِ لأَرْجُمَنَّكَ واهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ أي: هجراً طويلاً.

وندِمَ آزَرَ لم ينفعه لأنه حَقَّ القولُ من الله العظيم: إني حرمتُ الجنةَ على الكافرين. وحينئذ تبرأ منه إبراهيم التبرؤ النهائي الأخير، أما تبرؤه الأول فذاك يوم ترك الاستغفار له، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾.

ولئن كان الكافر لا يتعظُّ بهذه المواعظ، لأنه لا يؤمن بها، فلا أقل من أن يتعظَّ المؤمن بها فيقلع عن معاصيه التي تؤدي إلى مواقف الذل والخسران يوم القيامة، ومنها إلى عذاب النار، ولا ينفعه ندم ولا توبة حينئذ: ﴿ولات حين مناص﴾.

١٩ - عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربّه، قال: «لا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: إِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى». وَنَسَبَهُ إِلَى أَبِيهِ.

١٩ - تخريجه: رواه البخاري في كتاب التوحيد - باب ذِكر النبي ﷺ وروايته عن ربه ١٣ : ٥١٢ (٧٥٣٩)، ومسلم في كتاب الفضائل - باب في ذكر يونس عليه السلام ٤ : ١٨٤٦ (١٦٦) وشرح النووي ١٥ : ١٣٣، ولفظه: «عن النبي ﷺ أنه قال - يعني الله تبارك وتعالى - : لا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ لِي . وقال ابن المثنى : لعبدي»^(١).

معناه: «لا يَنْبَغِي» أي: لا يَلِيقُ ولا يَحِقُّ «لِعَبْدٍ» من عباد الله تعالى الذين اتَّصَفُوا بِصِفَةِ الْعَبْدِيَّةِ، وَعَرَفُوا حُدُودَهُمْ وَمَقَامَهُمْ؛ لا يَحِقُّ لَهُؤُلَاءِ أَنْ يَتَجَرَّؤُوا عَلَى أَمْرِ مِنْ أُمُورِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّهُ هُوَ الْمُعْطِي وَالتَّفَضُّلُ عَلَى عَامَةِ عِبَادِهِ، وَعَلَى خَاصَّةِ عِبَادِهِ - كَالْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ - بِالْمَقَامَاتِ الْعَالِيَةِ وَالِاخْتِصَاصَاتِ دُونَ سَائِرِ الْبَشَرِ.

ومن تَجَرَّؤُهُمُ الْمَمْنُوعُ: أَنْ يُفَضَّلَ أَحَدُهُمْ نَفْسَهُ عَلَى بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ الْكَرَامِ، كَيُونُسَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَيَقُولَ عَنْ نَفْسِهِ: إِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ.

وقد قيل: إنما خَصَّ يُونُسَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ الْآخَرِينَ «لَمَّا يُخَشِّي عَلَى مَنْ سَمِعَ قِصَّتَهُ أَنْ يَقَعَ فِي نَفْسِهِ تَنْقِصٌ لَهُ، فَبَالِغٌ - ﷺ - فِي ذِكْرِ فَضْلِهِ، لِسُدِّ هَذِهِ الذَّرِيعَةِ»^(٢).

وكان من قصته: أَنَّهُ تَوَعَّدَ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ بِالْعَذَابِ، فَلَمَّا رَأَوْا آثَارَ الْعَذَابِ كَمَا تَوَعَّدَهُمْ يُونُسَ آمَنُوا، فَكَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ يُونُسَ وَلَمْ يَرَ الْعَذَابَ

١ - وكلتاها من رواية شعبة، فقول الحافظ في «الفتح» ١٣ : ٥١٥: «لم أرَ في شيء من الطرق عن شعبة فيه «عن ربه» ولا «عن الله عز وجل...»: فيه نظر.

٢ - انظر «فتح الباري» ٦ : ٤٥٢.

وقع عليهم - وكان في شريعتهم أن من كَذَب قُتِلَ - فانطلق مُغاضِباً لقومه، أنفَهُ من ظهورِ خُلْفِ وعِدِهِ لهم، وأن يُسَمَّى كذاباً، لا كراهيةً لحكم الله تعالى إذ رَفَعَ عنهم العذاب وهو قد توَعَّدَهم به! مَعَاذَ الله.

حتى ركب سفينة، وقال لأهلها: إن معهم عبداً أبقاً من ربِّه، وإنها لا تسير حتى تُلقوه، فقالوا: لا نُلقِيكَ يا نبي الله أبداً، قال: فاقترعوا، فخرج عليه ثلاث مرات، فألقوه فالتقمه الحوت، فبلغ به قرار الأرض، فسمع تسبيح الحصى، فنادى في الظلمات: أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين^(١).

ثم إن هذا التأديب الإلهي: «لا ينبغي...»: عامٌ لجميع عباد الله تعالى يشمل الأنبياء وغيرهم، فلا ينبغي لنبي ولا رسول أن يقول ذلك، كما جاء في رواية الطبراني «لا ينبغي لنبي أن يقول...». ذكرها الحافظ في «الفتح» ٦: ٤٥١.

قال: «وفي رواية للطحاوي: «إنه سَبَّحَ الله في الظلمات» فأشار إلى جهة الخيرية المذكورة».

وليس معنى هذا أن يونس عليه الصلاة والسلام أفضل من جميع الأنبياء والمرسلين أو أنه يساوي أفضلهم في الرتبة، وهو نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

إنما معناه ما قاله الإمام النووي رحمه الله في «شرح صحيح مسلم» ١٥: ١٣٢: «قال العلماء: هذه الأحاديث تحتمل وجهين، أحدهما: أنه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم أنه أفضل من يونس، فلما علم ذلك قال: «أنا سيد ولد آدم»...»
«الثاني: أنه ﷺ قال هذا زجراً عن أن يتخيل أحد من الجاهلين شيئاً من حط مرتبة يونس ﷺ من أجل ما في القرآن العزيز من قصته.

قال العلماء: وما جرى ليونس ﷺ لم يحطه من النبوة مثقال ذرة».

* * *

٢٠ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام فقال له: أُجِبْ ربك، قال: فَلَطَمَ موسى عليه السلام عين مَلِكِ الموتِ فَفَقَّأَهَا، قال: فرجع المَلَكُ إلى الله تعالى فقال: إنك أرسلتني إلى عبدٍ لك لا يريدُ الموت وقد فَقَّأَ عيني! قال: فَرَدَّ الله إليه عينَه وقال: ارجعْ إلى عبدي فَقُلْ: الحياة تُريد؟ فإن كنتَ تريد الحياة فَضَعْ يَدَكَ على مَتْنِ ثورٍ، فَمَا تَوَارَتْ يَدُكَ من شَعْرِهِ فإنك تعيشُ بها سنة. قال: ثم مَهْ؟ قال: ثم تموت، قال: فالآن من قريب، رَبِّ أُمِيتني من الأرض المقدَّسة رميةً بحجر».

٢٠ - تخريجه: رواه البخاري في الجناز - باب من أحب أن يدفن في الأرض المقدسة أو نحوها ٣: ٢٠٦ (١٣٣٩)، وفي بدء الخلق - باب وفاة موسى عليه السلام ٦: ٤٤٠ (٣٤٠٧). ورواه مسلم في - كتاب الفضائل - باب من فضائل موسى عليه السلام ٤: ١٨٤٣ (١٥٨)، وشرح النووي ١٥: ١٢٨، وهذا لفظ مسلم. وأما لفظه في البخاري - وفي مسلم قبل الرقم المذكور - فنحو هذا لكنه لم يصرِّح أبو هريرة برفعه إلى النبي ﷺ، إلا البخاري فإنه قال عقب الموضع الثاني: «وأخبرنا معمر، عن همام، حدثنا أبو هريرة، عن النبي ﷺ نحوه» فأشار إلى رفعه ووصله، ولا ريب أن مثل هذا لا يقال من قِبَل الرأي حتى لو لم يصرح أبو هريرة - أو الراوي - بذلك.

غريبه: متن ثور: ظهر ثور.

الكثيب: الرمل المستطيل المُحدَوْدِب.

معناه: في هذا الحديث حكاية قصة جرت لملك الموت مع موسى عليه الصلاة والسلام، وذلك: أن ملك الموت جاء إلى موسى ليقبض روحه، فغضب

قال رسول الله ﷺ: «والله لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر».

موسى فَلَطَمَهُ لَطْمَةً شَدِيدَةً، وموسى عليه الصلاة والسلام معروفٌ بغضبه، ذُكِرَ في القرآن الكريم بذلك في أكثر من موضع.

فرجع ملك الموت إلى ربه وذَكَرَ له ما جرى له من موسى - والله أعلم بما جرى - فقال الله له: ارجع إلى موسى، وقل له: نَمُدُّ له في أجله مدًّا كبيراً، وذلك بأن يضع يده على ظهر ثور - الحيوان المعروف - فإن لموسى من العُمر والحياة مقدار سنة كاملة مقابل كل شعرة تدخل تحت يده!

فقال موسى - وقد بلغه ملك الموت ذلك -: يا ربِّ وما بعد ذلك العُمر المديد؟ قال: ثم الموت. قال موسى: فالآن يا ربِّ.

إلا أنه عليه الصلاة والسلام نبّه إلى أمرٍ هامٍ تَطْمَحُ إليه نفوسُ عباد الله الصالحين، هو أن يكون - وهو ميت - بجوار أرض مباركة، فسأل عليه السلام ربّه أن يقربه من بيت المقدس رَمِيَةً بحجر، أي: أن لا يكون بينه وبين بيت المقدس مسافة بعيدة، بل قدر رَمِيَةِ حَجَرٍ.

ولم يسأل الله تعالى أن يجعل موته في بيت المقدس لئلا يُعرف قبره فَيُفْتَنَ به الجاهل من أهل ملته، كما نقله النووي وابن حجر في شرحيهما^(١).

فيكون نبيُّ الله موسى عليه الصلاة والسلام قد راعى الأمرين: مصلحته: أن يُدفن بجوار مبارك، ومصلحة قومه من بعده: أن لا يَعْبُدُوا قبره من بعده.

وقد رأى سيدنا رسول الله ﷺ ليلة الإسراء موسى قائماً في قبره يصلّي عند الكثيب الأحمر، فعرف ذلك المكانَ وضَبَطَهُ، فلذلك قال هنا: «لو أني عنده لأريتكم قبره...».

وقد بَوَّب البخاري - كما ذكرتُ لفظه في التخریج -: «باب مَنْ أَحَبَّ الدفنَ في الأرض المقدسة أو نحوها». وعلّق عليه الزينُ ابنُ المنير رحمه الله فقال:

١ - من «الفتح» ٣: ٢٠٧ عن ابن بَطَّال، والنووي على مسلم ١٥: ١٢٨.

«المرأء بقول البخاري «أو نحوها»: بقيّة ما تُشَدُّ إليه الرحال من الحرمين الشريفين، وكذلك ما يُمكن من مدافن الأنبياء وقبور الشهداء والأولياء، تَيْمُّناً بالجوار، وتعرّضاً للرحمة النازلة عليهم، اقتداءً بموسى عليه السلام». كما في «الفتح» ٣: ٢٠٧، و«عمدة القاري» ٧: ٦٣.

وفي الحديث أن عين ملك الموت قد انفقات من جرّاء صلّك موسى له، عليهما الصلاة والسلام، فلما رَجَعَ إلى الله تعالى شكّا إليه ذلك فردّ الله عليه عينه. وفي هذا إشكالٌ ظاهر: كيف تَجَرَّأ موسى عليه السلام على ذلك؟ وكيف انفقات عينُ الملك والملائكة غيرُ البشر من هذه الحيثية؟ وكيف لم يَقْتَصَّ الله لملك الموت؟.

والجواب عن الأول والثالث: أن موسى عليه السلام لم يعرف ملك الموت، ولا غرابة منه في ذلك، فإبراهيم ولو طُ عليهما الصلاة والسلام من قَبْل موسى لم يعرفا الملائكة الذين دخلوا عليهما، والشرعُ يُبيحُ قتلَ من دَخَلَ على دارٍ غيره بغير إذنه، وأباح فقء عين الناظر من خَلَلَ الباب على بيت غيره، وحَصَلَ لداود من بعد موسى - عليهما الصلاة والسلام - مثل ذلك، لما دخل عليه الخصمان^(١). بل قد تخفى معرفة الملك على ملك آخر مثله، كما حصل هذا لملائكة الرحمة وملائكة العذاب حين اختصموا في الرجل الذي قتل مائة نفس، ثم مات في وسط الطريق بين قريته والقرية التي خرج إليها، فأرسل الله تعالى إليهم ملكاً بصورة إنسان ليحكم بينهم، ولو عرفوه ملكاً لما كان من تشكُّله بصورة إنسان فائدة.

والجواب عن الثاني: أن الملائكة تتمثل بالبشر، فيرى الإنسان صورةَ بشرٍ مثله أمامه، إلا أن هذا (المثال) لا تثبت له أحكامٌ ولوازمُ المتمثل به، وهو البشر.

أعني: أن هذا المثال لا تكون له خصائص البشر وحاجاته: من أكل وشرب ونوم، فإبراهيم عليه السلام قدّم الطعام لضيفانه، وهم ملائكة لم يعرفهم: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ فلم يَمْدُوا إليه أيديهم ﴿قَالَ: أَلَا تَأْكُلُونَ؟﴾ قالوا: لا ﴿فَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ قالوا: لا تخفْ.

١ - انظر «أعلام الحديث» للخطابي ١: ٦٩٦.

.....

وكذلك ضيفان لوط عليه السلام، وهم ملائكة لم يعرفهم، جاءوه بصورة جميلة، فخاف عليهم من قومه فطمأنوه: ﴿إنا رسل ربك﴾ أي: لا قدرة لهم علينا، ولا يصلوا إلينا.

فالملائكة - وإن تمثلوا بهيئة البشر - ليس لهم ما للبشر، وكذلك أمر ملك الموت مع موسى، وإن ضربه وفقاً عينه، فهذه هي العين البشرية التي تمثل بصورتها ملك الموت، وليست عينه الملكية.

«قال ابن قتيبة: إنما فقا موسى العين التي هي تخيل وتمثيل، وليست عيناً حقيقية، ومعنى رد الله عينه أي أعاده إلى خلقته الحقيقية، وقيل: على ظاهره، ورد الله إلى ملك الموت عينه البشرية ليرجع إلى موسى على كمال الصورة، فيكون ذلك أقوى في اعتباره. وهذا هو المعتمد»^(١).

* * *

٢١- عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «بينا أيوب يغتسل عُريَاناً، خرَّ عليه رجل جَرَادٍ من ذهبٍ، فجعل أيوب يحثي في

٢١- تخريجه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء - باب قول الله تعالى: ﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾ ٦: ٤٢٠ (٣٣٩١). ورواه من قبل في كتاب الغسل - باب من اغتسل عُريَاناً ١: ٣٨٧ (٢٧٩)، ورواه بعد في كتاب التوحيد - باب ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ ١٣: ٤٦٤ (٧٤٩٣).

غريه: رجل جَرَاد: جماعة جَرَاد.

يحثي في ثوبه: يأخذ بكلتا يديه ويجمع في ثوبه.

معناه: في الحديث بيان فضل الله تعالى وكرمه علي سيدنا أيوب النبي الصابر، وقد تفضل الله عليه بما ذكر هنا في الحديث لما تفضل عليه بالعافية مما ابتلاه، كما جاءت رواية الإمام أحمد وابن حبان من طريق بشير بن نَهِيك، عن أبي هريرة مرفوعاً: «لما عافى الله أيوب أمطر عليه جراداً من ذهب»^(١).

وفي هذا درس عظيم، وموعظة كبرى للمُبتَلِّين أن يصبروا وإن طال عليهم البلاء، فإن ما يستقبلهم من رحمة الله وروحه وريحانه وعظيم فرجه: ما ينسيهم البلاء الشديد الطويل، من فضل الله وكرمه، ونسأل الله العافية.

وقد لبث أيوب عليه الصلاة والسلام في بلائه ثمانين سنةً على ما في صحيح ابن حبان ٧: ١٥٨ (٢٨٩٨)^(٢). وكان ابتلاؤه هذا في شيخوخته وهو ابن

١- ذكر ذلك في «الفتح» ٦: ٤٢٠، ولم أره في «المستدرک» ولا «صحيح ابن حبان» ولا «مجمع الزوائد»، إنما رواه الحاكم في «المستدرک» ٢: ٥٨٢ وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي، واقتصر ابن كثير في تفسير سورة الأنبياء على عزوه إلى ابن أبي حاتم.

٢- ومثله في «موارد الظمان» ص ٥١١، وتفسير ابن كثير - سورة الأنبياء -، وفي مطبوعة «المستدرک» ٢: ٥٨١: خمسة عشر سنة، وفي مطبوعة «فتح الباري» ٦: ٤٢٠ منسوباً إلى ابن حبان: ثلاث عشرة سنة؟.

ثوبه، فناداه ربُّه: يا أيوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتَكَ عما تَرَى؟ قال: بلى وعزَّتكَ، ولكن لا غنى بي عن بَرَكَتِكَ».

سبعين عاماً! فشدَّةُ البلاء وثقلُه يتضاعف على الإنسان في هذه السنِّ المتأخرة. ومع ذلك صَبَرَ وصَابَرَ، فكان من فضل الله عليه أن عافاه معافاةً عجيبية في سرعتها وتماهما، وأغدقَ عليه من المال ما قصَّه علينا هذا الحديث الشريف. ﴿وبشِّر الصَّابِرِينَ﴾.

أرسل الله تعالى على أيوب رجلاً من جراد من ذهب، وأنى يُعهد أن يكون الجراد ذهباً! لكنَّ الله خالقُ كلِّ شيء، وقادرٌ على كلِّ شيء. سبحانه وتعالى. وكان ذلك كان كثيراً، كما تُفيده الرواية التي نقلتها عن «الفتح» قريباً: «لما عافى الله أيوب أمطر عليه جراداً من ذهب».

وإنَّ صح ما نُقل عن ابن عباس فيكونُ الله قد أكرمه إكراماً ثالثاً أجلاً من اللذَّين قبله، وذلك أنه قال: «ألبسه الله حُلَّةً من حُلل الجنة». أسنده ابن أبي حاتم في «تفسيره» عنه، فيما نقله عنه ابن كثير ٣: ١٦٥.

ولما رأى أيوبُ هذا الفضلَ الإلهي «جعل يَخني» الجرادَ بكلتا يديه ويجمعه «في ثوبه» فناداه الله تعالى اختباراً له - وهو سبحانه أعلم بعباده جميعاً - وتعلماً لنا أن نلاحظ النيةَ الحسنةَ في كلِّ عملٍ نقوم به: «أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتَكَ عما تَرَى؟!» فهو امتحانٌ ماديٌّ بعد ذاك الامتحان الجَسديِّ.

قال أيوب: «بلى» يا رب، فقد أغنيتني عن كلِّ ما أرى، لكنه لما كان إكراماً منك على هذا الوجه الخارق للعادة - مما يدلُّ على أنه فضلٌ منك وبركة - فإنه لا غنى بي عن بركتك.

وكان إغناء الله تعالى له المشارَ إليه في هذا الحديث هو ما جاء في رواية ابن حبان التي أشرت إليها قبل قليل، ففي «صحيح ابن حبان» ٤: ٢٤٤ عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أيوب نبيُّ الله لَبِثَ في بلائه ثمانينَ عَشْرَةَ سنة، فَرَفَضَهُ القريب والبعيد... وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده، فلما كان ذاتَ يوم أبطأَ عليها، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسِلٌ باردٌ وشرابٌ﴾ فاستبطأته، فَبَلَّغَتْه - أي ذهبَتْ إليه -

فأقبلَ عليها قد أذهبَ الله ما به من البلاء، فهو أحسنُ ما كان، فلما رَأَتْه قالت: أَيْ بَارِكَ اللهُ فِيكَ، هل رَأَيْتَ نَبِيَّ الله هذا المَبْتَلَى؟ والله - على ذلك - ما رَأَيْتُ أَحَدًا كان أَشْبَهَ به منك إِذْ كان صحيحًا. قال: إِنِّي أَنَا هُوَ.

وكان له أَنْدَرَان - أَي بَيْدَرَان - أَنْدَرُ القمح، وَأَنْدَرُ الشعير، فَبَعَثَ اللهُ سَحَابَتَيْنِ، فلما كانت إِحْدَاهُمَا على أَنْدَرِ القمح أَفْرَغَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى فاضت، وَأَفْرَغَتْ الأُخْرَى على أَنْدَرِ الشعيرِ الْوَرَقَ - الفضة - حَتَّى فاضت». وهو في «المستدرک» ٢ : ٥٨١ وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي.

فكأن هذا هو الإغناء المشار إليه، وكأنه كان عقبَ معافاته وقبلَ رجل الجراد من الذهب. والله أعلم.

* * *

٢٢ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ اللَّهَ؟!».

٢٢ - تخريجه: رواه البخاري في كتاب الجهاد - باب (بعد باب إذا حُرِّقَ المسلمُ المشرك هل يُحْرَقُ) ٦: ١٥٤ (٣٠١٩). وفي بدء الخلق - باب إذا وقع الذباب... وخمس من الفواسق ٦: ٣٥٦ (٣٣١٩). ورواه مسلم في كتاب السلام - باب النهي عن قتل النمل ٤: ١٧٥٩ (١٥٠) وشرح النووي ١٤: ٢٣٨.

غريبه: قرية النمل: بيت النمل.

معناه: نزل نبي من الأنبياء تحت ظل شجرة - كما في رواية البخاري الثانية ورواية لمسلم - وهذا النبي: قيل هو موسى عليه الصلاة والسلام، وقيل: العزير. فقرصته نملة، فأمر بجهازه فأخرج من تحت الشجرة، وأمر ببيت النمل فأحرق.

فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَأَوْحَى إِلَيْهِ: أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ وَاحِدَةٌ أَمَرْتَ بِإِحْرَاقِ الْجَمِيعِ، «فَهَلَّا نَمْلَةٌ وَاحِدَةٌ» كما في رواية عندهما، أما علمت أن النمل أمة من الأمم تُسَبِّحُ اللَّهَ تَعَالَى.

وتسبيح النمل: تسبيح على الحقيقة لا على المجاز، كما تقدم تقريره في شرح الحديث (١٢) وقوله تعالى هنا «فَهَلَّا نَمْلَةٌ وَاحِدَةٌ» معناه: فهل أحرق نملة واحدة وهي التي قرصتك، وليس معناه إحراق واحدة لا على التعيين، بل: أحرقت التي آذنتك، فيكون المراد: إن استطعت تعيين التي قرصتك فأحرقها، فهو القدر المأذون فيه لك، وإن لم تستطع تعيينها فلا تحرق غيرها. فيكون تعليقاً على أمر بعيد متعذر، وكأنه يدعو ضمناً إلى الصفح والصبر.

ومن الناحية الفقهية: فإن في قوله تعالى: «فهلأ نملة واحدة» دلالة على أن إحراق النمل جائز في شرعهم، ولكن هل هو جائز في شرعنا؟ وسواء بعد ذلك كان الإحراق بالنار أو بهذه المبيدات الكيماوية؟.

قال الإمام النووي رحمه الله في «شرح مسلم» ١٤: ٢٣٩: «أما في شرعنا: فلا يجوز الإحراق بالنار للحيوان، إلا إذا أحرقت إنساناً فمات بالإحراق فلوليّه الاقتصاصُ بإحراق الجاني، وسواء في منع الإحراق بالنار القمل وغيره، للحديث المشهور: «لا يُعَذَّبُ بالنار إلا الله» وأما قتل النمل - أي بغير الإحراق، كالذُّهْس مثلاً - فمذهبنا - أي الشافعية - أنه لا يجوز، واحتج أصحابنا فيه بحديث ابن عباس أن النبي ﷺ نهى عن قتل أربع من الدواب: النملة، والنحلة، والهُذُودُ والصُّرَدُ^(١). رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم».

قلت: أما الحديث المشهور: فهو في البخاري: كتاب الجهاد - باب لا يُعَذَّبُ بعذاب الله ٦: ١٤٩ وهو جزء من الحديث، ولفظه: «... وإن النار لا يُعَذَّبُ بها إلا الله».

وأما حديث ابن عباس: فرواه عنه أبو داود في كتاب الأدب ٥: ٤١٨، وابن ماجه في كتاب الصيد ٢: ١٠٧٤.

وقد روى أبو داود حديثاً صريحاً في النهي عن إحراق النمل، ففي كتاب الجهاد منه ٣: ١٢٥ (٢٦٧٥)، وكتاب الأدب ٥: ٤١٩ (٥٢٦٨)^(٢)، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سَفَرٍ، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمرة معها فَرَّخَان، فأخذنا فَرَّخَيْهَا، فجاءتِ الحُمرة فجعلت تُعَرِّش^(٣)، فجاء النبي ﷺ فقال: «مَنْ فَجَعَ هذه بولدها؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا». ورأى قرية نملٍ قد حَرَّقْنَاهَا فقال: «مَنْ حَرَّقَ هذه؟» قلنا: نحن. قال: «إنه لا ينبغي أن يُعَذَّبَ بالنار إلا ربُّ النار».

١ - قال في «النهاية» ٣: ٢١: الصرد «طائر ضخم الرأس والمنقار، له ريش عظيم، نصفه أبيض ونصفه أسود».

٢ - وهو من رواية عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، وفي سماعه منه خلاف، وقد أثبتته البخاري وغيره، انظر التعليق على «الكاشف» (٣٢٤٤).

٣ - قال في «النهاية» ٣: ٢٠٨: «أي: ترتفع وتظلل بجناحيها على من تحتها».

فَتَحْصُلُ أَنْ قَتَلَ النَّمْلَ مُطْلَقاً بِالْحَرَقِ وَالذَّهْسِ وَنَحْوِهِمَا مِنْهُيٌّ عَنْهُ، نَعَمْ خَصَّ
 الْخَطَابِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ النَّهْيَ بِالنَّمْلِ الْكِبَارِ ذَوَاتِ الْأَرْجُلِ الطَّوَالِ، كَمَا فِي «مَعَالِمِ
 السَّنَنِ» الْمَطْبُوعِ مَعَ سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ، وَأَفَادَ ابْنَ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ» ٦ : ٣٥٨
 أَنَّ النَّمْلَ الَّذِي بِهَذَا الْوَصْفِ يَعْرِفُ بِالسُّلَيْمَانِيِّ. ثُمَّ قَالَ: «قَالَ الْبَغَوِيُّ: النَّمْلُ
 الصَّغِيرُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ الذَّرُّ يَجُوزُ قَتْلُهُ، وَنَقَلَهُ صَاحِبُ «الاسْتِقْصَاءِ» عَنِ الصَّيْمَرِيِّ،
 وَبِهِ جَزَمَ الْخَطَابِيُّ».

* * *

٢٣ - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه ذَكَرَ رجلاً فيمن سَلَفَ - أو: فيمن كان قبلكم، يعني أعطاه الله مالاً

٢٣ - تخريجه: رواه البخاري كتاب التوحيد - باب ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ ١٣: ٤٦٦ (٧٥٠٨) ورواه البخاري أيضاً بالفاظ أخرى في مواضع متعددة؛ وهو في مسلم نحوه في كتاب التوبة - باب في سَعَةِ رحمة الله تعالى ٤: ٢١١٠ (٢٥). وشرح النووي ١٧: ٧١.

غريبه: لم يَبْتَثِرْ: لم يقدّم ولم يدخر. وأما «يبتثر»: فقالوا: هي شك من الراوي، ولم أرهم ذكروا لها معنى.
فما تلافاه: فما تداركه.

معناه: من القصص النبوية ذات العِبَر والعِظَات: قصة الرجل الذي أسرف على نفسه طَوَالَ حياته، ثم أدركه خوف الله وخشيته، فتداركه الله بالمغفرة والرحمة. وكان ﷺ يَتَخَوَّل أصحابه بما جَرَى لبني إسرائيل، إذ الأحداث الواقعة ذات أثر في النفس كبير، يَفُوق التحدُّث بالموعظة المستفادة من الحادثة إذا لم تكن مع الحادثة.

فلو قلتَ لآخر: من مات خائفاً من الله غَفَرَ الله له، كان لقولك أثر في نفسه، وقد أفدته فائدة.

أما لو قصصْتَ عليه قصةَ هذا الرجل من بني إسرائيل، لكان الأثر في نفسه أكبر.

فلذا كان ﷺ يقصُّ على أصحابه أخبارَ من مضى.

رجلٌ أعطاه الله مالاً وولداً، وبارك له فيهما ووسَّع عليه منهما، وهذا معنى الرواية الأخرى لمسلم: «رَغَسَهُ الله مالاً وولداً».

وولداً - فلما حَضَرَتِ الوفاة قال لبنيه: أَيُّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قالوا: خيرَ أَبٍ، قال: فإنه لم يَبْتَئِرْ - أو: لم يَبْتَئِرْ - عندَ الله خيراً، وإنَّ يَقْدِرَ الله عليه يَعَذُّبُهُ، فانظروا إِذَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي، حتى إِذَا صِرْتُ فحماً فَاسْحَقُونِي

فهو يَتَقَلَّبُ فِي نِعَمِ الله كيف يشاء، إلا أَنه لم يشْكُرِ الله على هذه النعم - وشكَّرها: صَرَفَهَا فيما يُرْضِي الله تعالى - ولم يفعل شيئاً من ذلك.

فلما حضرته الوفاة أوصى أولاده وصيةً يَعْلَمُ أَنَّها وصيةٌ غريبة، وَلِيَضْمَنَ منهم تنفيذها قال لهم: «أَيُّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟». قالوا: خيرَ أَبٍ. قال الرجل عن نفسه: «إنه» ولم يقل ﷺ: إني، تنزيهاً لنفسه أن يَنْسَبَ إليها ولو بالكلام ما لا يليق، وهذه عادةُ العرب كذلك.

قال: إنه إنسانٌ ضَيِّعُ حَيَاتِهِ فيما لا يَرْضِي الله، فهو لم يَقْدَمْ لنفسه في الآخرة خيراً، ولم يَذْخِرْ عندَ رَبِّهِ صالِحاً، من أعمالِ الجوارح^(١)، ولئن قَدَّرَ الله عليه ليعَذِّبَنَّهُ عذاباً شديداً.

قال ذلك وهو معتقداً أَنَّ الله قادرٌ عليه، وأنه سيحييه بعد موته وَيُوقِفُهُ للحساب، لكنها كلمةُ اليائس الذي لا يدري كيف ينجو.

قال الإمام النووي رحمه الله: قال الرجل هذا القول «وهو غيرُ ضابطٍ لكلامه ولا قاصدٍ لحقيقة معناه ومعتقدٍ لها، بل قاله في حالةٍ غلب عليه فيها الدَّهْشُ والخوفُ وشدةُ الجزع، بحيث ذهب تيقُّظُهُ وتدبُّرُ ما يقوله، فصار في معنى الغافل والناسي^(٢)».

وقالت طائفة: هذا من مجازِ كلام العرب وبديع استعمالها، يُسَمُّونه: مزج الشكِّ باليقين، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَوْ يَاكُمْ لَعَلَّى هَدَى﴾ فصورته صورةُ شكٍّ، والمرادُ به اليقين.

وقد أشكل قوله: «إِنَّ يَقْدِرَ الله عليه يُعَذِّبُهُ»، بناءً على أن معنى يقدر هو

١ - انظر «التخويف من النار» ص ٢٠٤ للحافظ ابن رجب رحمه الله.

٢ - ومثله قول الإمام ابن أبي جمرة ٤ : ٤٨ : «وقد يكون ذلك عن حال خوفٍ غَلَبَ عليه حتى أخرجه عن حال التمييز، وهو أظهرها. والله أعلم». أي: أظهر الأقوال والتوجيهات. وانظر بعد قليل.

- أو قال: فاستحكوني - فإذا كان يومَ ريحٍ عاصفٍ فأدروني فيها، فقال نبيُّ الله ﷺ: «فأخذَ مواليقَهُم على ذلك ورَّي، ففعلوا، ثم أَدَرُوهُ في يومٍ عاصفٍ، فقال الله عز وجل: كنْ، فإذا هو رجلٌ قائمٌ، قال الله: أيُّ عبيدي ما حَمَلَك على أنْ فعلتَ ما فعلتَ؟ قال: مخافتُك - أو: فَرَقُ منك - قال: فما تَلَفَاهُ أَنْ رَحِمَهُ عندها. وقال مرةً: فما تَلَفَاهُ غيرها».

المعنى المتبادر من القدرة، فيكون كلامه كلامَ شاكٍّ في اتصاف الله عز وجل بصفة القدرة، مع أنها ثابتة لله عز وجل دون أي ريب. وعلى هذا جاء كلام الإمام النووي وغيره -: إن الرجل كان في حال دَهَش ولا يريد معناها.

وقد ذكر النووي قبلَ هذا - وغيره - معنى آخرَ لهذه الكلمة، قال ابن أبي جمرة رحمه الله تعالى ٤ : ٤٨ من «بهجة النفوس»: «يحتمل أن يكون المراد بقوله «لئن قَدَّرَ الله عليّ» بمعنى: لئن ضَيَّقَ الله عليّ بإقامة عدله سبحانه وتعالى، فيكون مثلُ قوله تعالى: ﴿فَقَظَنَ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، معناه: أَنْ لَنْ نُضَيِّقَ عَلَيْهِ^(١)، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أي: ضَيَّقَ عليه. وهذا هو الظاهر. والله عز وجل أعلم».

ثم أوصاهم بإحراقه ثم سَخِّقَهُ وَدَّقَهُ حتى يصير رماداً، ثم تحيِّن يومٍ عاصفٍ ليُذَرُّوه في البحر - كما في رواية في الصحيحين - ففعلوا.

«فأمر الله البرَّ فجمع ما فيه، وأمر البحرَ فجمع ما فيه» - كما في رواية مسلم - ثم قال الله عز وجل له: كنْ، فإذا هو رجلٌ قائمٌ، مجتمِعُ الذرَّاتِ!

فسأله ربُّه - وهو أعلم به - لِمَ أوصى بما أوصى به؟ فأفصح عن مكنون صدره، وندبه على إسرافه، وعن آخر حالة عرضت له قبلَ الوفاة فقال: خشيتك يا رب.

فتداركه الله تعالى بالرحمة لِمَا علِمَ من صدقه في حاله ومقاله، كما في رواية للبخاري ومسلم: «من خشيتك وأنت أعلم».

١ - أفاد النووي ١٧ : ٧١ أن هذا أحد الأقوال في تفسير الآية الكريمة، وانظر «تفسير الطبري» ١٧ : ٧٨، وقال ابن كثير ٣ : ١٦٧: «يروي نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم، واختاره ابن جرير».

.....

فهذا يفيدُ أن الخوفَ من الله تعالى سببٌ للمغفرة والرحمة، والخوفُ عملٌ قلبيٌّ لا يُضَيِّعُه الله تعالى هَدْرًا، بل يحفظُه لصاحبه، ويعاملُه بمقتضاه، وأعمالُ القلوب لا يُشترطُ لقبولها اقترانُ أفعالِ الجوارحِ بها، وبما أن هذا الإنسانُ خُتِمَ له بهذا الخوفِ الشديدِ فإن الله عز وجل تداركه بالمغفرة والرحمة، أما غيره من العباد فقد يكون لهم مثلُ هذه المعاملة من الله تعالى، وقد يكون لهم غيرها، وهم في المشيئة الإلهية.

نسأل الله الكريم أن يتداركنا برحمته ومغفرته .



٢٤ - عن عِيَاضِ بْنِ جِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا:

٢٤ - تخریجه: رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها - باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ٤: ٢١٩٧ - ٢١٩٨ (٦٣ - ٦٥) وشرح النووي ١٧: ١٩٧ - ٢٠٠.

غريبه: نَحَلْتُهُ: أعطيتُهُ. حنفاء: على الفطرة والاستقامة.
اجْتَالْتُهُمْ: أَخَذْتُهُمْ عن الفطرة والاستقامة.
سلطاناً: حجة وبرهاناً.
مَقَّتَهُم: المَقَّت: البُغْض الشديد.
يَتَلَغَّوْا: يَشْجُوا رَأْسِي.
لَا زَبَرَ لَهُ: لَا عَقْلَ لَهُ يَزْبُرُهُ أَي يَرْدَعُهُ.
السُّنْظِير: الفَحَّاش، كما ذكره، السَّيِّءُ الْخُلُق.

معناه: هذا الحديث من جوامع الأحاديث القدسية، ويمكن تلخيصه إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: أسباب البعثة المحمدية. القسم الثاني: أحداث البعثة المحمدية. القسم الثالث: نتائج البعثة المحمدية. وهو في كل ذلك يتحدث عن أهم ما يتعلق بكل قسم.

أما القسم الأول: فأسباب البعثة المحمدية: إنقاذ الناس من أيدي الشياطين الذين اختطفوا قلوب الناس وعقائدهم، وأمالوها عن فطرتها الحنيفية، فأحدثت فيهم الجَنَفَ بعد الحَنَفِ.

قال العلامة الراغب الأصفهاني رحمه الله في «مفرداته» ص ١٣٣: «الْحَنَفُ: هو ميلٌ عن الضلال إلى الاستقامة، والجَنَفُ: ميلٌ عن الاستقامة إلى الضلال».

كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُفَاءَ كُلِّهِمْ،
وإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ
لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا.

وإن الله عز وجل خَلَقَ العباد على الحنيفية مستقيمين، فجاءت الشياطين
فأملوهم عن الحنيفية إلى الضلال، وهذا هو الجَنَفُ، إلى أَنْ تَمَكَّنَ الميلُ فيهم
فانحرفوا تماماً، واتخذوا أرباباً غيرَ رب العالمين.

واستمرَّ الانحراف في معتقدات الناس بتسويل من الشياطين إلى أَنْ دخل ذلك
في معتقداتهم الدينية - فاتخذوا أرباباً غير الله - وفي تصرفاتهم المالية - وغيرها -
فحَرَّمُوا ما أَحَلَّ الله. وذلك أَنَّ الله تعالى أَباح لعباده التملك عن الطريق المشروعة
فجاءت الشياطينُ وأمرتهم أَنْ يحَرِّمُوا السَّائِبَةَ وَالْبَحِيرَةَ وَالْوَصِيلَةَ وَالْحَامِيَّ^(١) وغيرَ
ذلك.

ولهذا افتتح الحديث بقوله: «كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ»: أي: إن أصل ما
مَلَكَتْهُ عِبَادِي وَأَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهُ: حَلَالٌ خَالِصٌ لَهُمْ، ليس فيه حرام، ولا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ
ما أَعْطَيْتُهُمْ، إنما حَرَّمُوا على أنفسهم ما حَرَّمُوهُ بِتأثير الشياطين عليهم.
وإنما افتتح الحديث بهذه الجملة: تمهيداً لبيان مدى ما أَثَرَتْ عَلَيْهِمْ
الشياطين.

وقوله تعالى: «وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا»: فيه توبيخ
وتقريع للمشركين، وبيانٌ لَسُخْفِ عقولهم، إِذْ كَيْفَ يَعْتَقِدُونَ شَيْئاً ليس فيه حجة
باهرة قاطعة مُلْزِمةٌ باعْتِقَادٍ ما فيها، كما يُلْزَمُ السُّلْطَانُ رَعِيَّتَهُ باتِّباعِ أوامره؟.

لأن قوله «سُلْطَانًا»: معناه: حجة وبرهاناً. وما وجهُ تسمية الحجة بالسُلْطَانِ؟

١ - السائبة: هي الناقة التي وَلَدَتْ عشر إناث متتابعة، فلا تُركب حينئذ وتترك مسيبة، فما وَلَدَتْ
بعد ذلك إن كان أنثى شقوا أذنهما وَسُمِّيَتْ أيضاً وَسُمِّيَتْ بحيرة. والوصيلة: الشاة إذا وَلَدَتْ ستة
أبطن كل بطن شاتان شاتان، فإذا وَلَدَتْ في السابعة ذكراً وأنثى قالوا: وَصَلَتْ أَخَاهَا، فَأَحْلَوْا
لبنها للرجال فقط. كما في «النهاية» ١: ١٠٠، ٥: ١٩٢. والحامي: هو الفحل من الإبل إذا
ضَرَبَ عشرة أبطن يُحْمَى ظهره فلا يُركب. كما في «المفردات» للراغب ص ١٣٣.

وإن الله نَظَرَ إلى أهل الأرضِ فَمَقَّتَهُمْ: عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا

وجه ذلك: أن الحجة تكون ملزمة لسامعها بالانصياع إليها وأتباع مقتضاها ومدلولها، فإذا كانت الحجة بهذه القوة الملزمة، سُمِّيت سلطاناً، كما أن السلطان يتَّصف بصفة السلطة الملزمة للرعية بتنفيذ أوامره وأتباعها كما يريد.

فالله تعالى يعيب على المشركين عقولهم السخيفة التي تقبل الانصياع والاتباع لعقائد غير ملزمة، وإذا كانت غير ملزمة فهي غير قوية الحجية، والعاقل لا يكون كذلك.

وفي هذه القول الإلهي «وأمرتهم أن يشركوا...»: دليلٌ ضمنيٌّ على أن عقائد الإسلام كلها مبنية على (سلطان) من الأدلة والبراهين الملزمة للإنسان أن يتَّبعها ويتَّقاد إليها، فإنه تعالى لا يُنزل إلا ما به سلطان.

ولما تمَّ هذا الانحرافُ البشريُّ عن الحنيفية السمحة، بوساوس الشياطين، وبسَخافة العقول، حلَّ سَخَطُ الله الجبار على هؤلاء المشركين فمَقَّتَهُمْ وأبغَضَهُمْ أشدَّ البغض، ولم يَنْجُ من سَخَطه تعالى إلا قليل جداً ممن تمسَّك بالكتاب الذي كان بين يديه.

فهذا هو واقعُ الناس في تلك الفترة، وخلاصته: إشراكٌ وكفر بالله، وأتباعٌ للشيطان، وزيفٌ في العقائد، وانحرافٌ في المفاهيم، حتى دخل في تصرفاتهم المالية ومع حيواناتهم وبهائمهم، ومَقَّتُ إلهي وسُخِطَ ربَّاني...

وها هنا تقتضي الحكمة الإلهية إنقاذ البشرية المنحرفة الضالة الممقوتة، إنقاذها بنور ربَّاني، ورحمة إلهية - مع هذا المَقَّت والسَخَط - لأن رحمة الله عز وجل تغلب غضبه وتَسْبِقُه.

وهنا يجيء الحديث عن القسم الثاني.

أرسل الله تعالى محمداً صلوات الله وسلامه عليه رحمةً لأولئك الناس ومن بعدهم إلى يوم الدين، لينقذهم من مقت الله وغضبه، ويصحح لهم عقائدهم وأفهامهم، ويبصِّرهم الطريق القويم في معاملاتهم وتصرفاتهم، وينهض بهم من وهدة الفكر السخيف إلى العقل السليم....

من أهل الكتاب، وقال: إنما بَعَثْتُكَ لَأَبْتَلِيكَ وَأَبْتَلِيَّ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرُوهُ نَائِمًا وَيَقْظَانُ.

كل ذلك مبني ومتصل بقانون سماوي وكتاب رباني، وتشريع خالد دائم ثابت، ليس كتلك الأديان والتشريعات السابقة، إذ كانت محللاً للتبديل والتحريف، والتأقيت والنسخ.

وذلك في قوله «إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك».

والابتلاء والفتنة والامتحان والاختبار كلمات كلها ذات مدلول واحد هنا.

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى ١٧ : ١٩٨ : «معناه: لأمتحنك بما يظهر منك من قيامك بما أمرتك به: من تبليغ الرسالة وغير ذلك، والجهاد في الله حق جهاده، والصبر في الله تعالى وغير ذلك. وأبتلي بك مَنْ أَرْسَلْتُكَ إِلَيْهِمْ، فمنهم من يُظهر إيمانه ويُخلص في طاعته، ومن يتخلف ويتأبد بالعداوة والكفر، ومن يُنافق».

«والمراد: أنه يمتحنه ليصير ذلك واقعاً بارزاً، فإن الله تعالى إنما يُعاقب العباد على ما وقع منهم، لا على ما يَعْلَمُه قبل وقوعه، وإلا فهو سبحانه عالمٌ بجميع الأشياء قبل وقوعها. وهذا نحو قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ أي: نَعْلَمُهُمْ فاعلين متصفين به».

ولقد أيد الله تعالى نبيه ﷺ بكتاب من لَدُنْه، فيه تشريع خالد مؤبد، وهذا معنى قوله «وَأَنْزَلْتُ عَلَيْهِ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ» إذ المراد بقوله «لا يغسله الماء»: ثباته ودوامه، وحفظه واستمراره، وليس المراد أنك إذا كتبت كلماته على لوح - مثلاً - لا يُمحي بالماء لو غسلته به.

بل المراد كما قلت: أن هذا الكتاب يختلف عن الكتب السماوية السابقة عليه، فهذا محفوظ بحفظ الله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَمُحَافِظُونَ﴾ فلا يذهب به، ولا يغير ولا يُبدل ولا يُزاد فيه ولا يُنقص منه. على خلاف ما حصل لتلك الكتب، فإنهم استَحَفُّوا عليها، أي: وُكِّلَ إِلَيْهِمْ حفظها.

وهذا دائم لا يُنسخ ولا يُغير حكمه، على خلاف ما حصل لتلك الكتب، فإن تشريعها مؤقت.

وإن الله أمرني أن أُحَرِّق قريشاً، فقلت: رب إذا يَثْلُغُوا رأسي، فَيَدْعُوهُ خُبْزَةً! قال: اسْتَخْرِجْهُمْ كما استخرجوك، واغْزُهُمْ نُغْزِكَ،

ثم إن من مزايا هذا الكتاب العظيم الَّذِي أَيْدِ الله به سيدنا محمداً ﷺ: أنه كتاب ميسر للحفظ والفهم والعمل به. وهذا معنى قوله «تَقْرُوهُ نَائِماً وَيَقْظَانِ»، وكما قال جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾.

على خلاف واقع الكتب الأخرى وأصحابها، فإنه لا يُعرف عن واحد منهم أنه حفظ التوراة أو الإنجيل أو الزبور كما أنزلت من الله سبحانه.

وبعد أن أيد الله سبحانه نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام بالقرآن العظيم أمره بدعوة قريش إلى اتباعه وتبذ ما كانوا عليه من قبل، وفي دعوتهم هذه هلاكهم إن لم يستجيبوا له، ولذلك عبّر عن ذلك بالإحراق المستلزم للهلاك^(١)، وفي قريش عناة طغاة، فلذلك قال ﷺ: «رَبُّ إِذَا يَثْلُغُوا رَأْسِي» وتعبيره بـ«إذا» بيان لنتيجة حتمية عنده ﷺ، لعلمه بما جُبِلَتْ عليه نفوس قريش.

قال في «النهاية» ١: ٢٢٠: «الثَّلْغُ: الشَّدْحُ» ثم فُسِّر الشَّدْحُ في ٢: ٤٥١ فقال: «الشَّدْحُ: كسر الشيء الأجوف». وهذا غايَةُ الشَّجِّ، لذلك شَبَّهه بالخُبْزَةِ المنكسرة المنقسمة.

إلا أن الله عز وجل أعلمه بأن العاقبة له، بما أعد له من الإمدادات الإلهية التي لا يقوم لها بشر.

أعلمه بأن العاقبة له، وذلك في قوله تعالى له: «استخرجهم كما استخرجوك» من مكة، وكيف لا، ومن سنة الله في خلقه أن العاقبة الحسنة دائماً وأبداً للمتقين؟.

وأعلمه بما أعد له من إمدادات إلهية: «اغْزُهُمْ نُغْزِكَ» أي: نكن عوناً لك على غزوهم، ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ ﴿سَالِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرِّعْبُ﴾ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾...

١ - ذَكَرَ الْحَدِيثُ فِي «النهاية» ١: ٣٧١ وفسره بالهلاك.

وَأَنْفِقْ فَسَنْتَفِقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشاً نَبِّعْتُ خَمْسَةَ مِثْلِهِ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ.

وهذه الإمدادات مضاعفة بالنظر إلى ما يكون من قوة مادية يُعِدُّها رسول الله ﷺ لمقاتلتهم: «ابْعَثْ جَيْشاً نَبِّعْتُ خَمْسَةَ مِثْلِهِ».

وَرَسَمَ لَهُ ﷺ مِنْهَجاً: «قَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ» ففي ذلك فائدة لك ولهم، فإن هذا المنهج برهان صادق على صدق إسلام من أطاعك، إذ لا تُبْذَل الروح العزيزة إلا في سبيل ما هو أعزُّ منها.

وأما قوله تعالى: «وَأَنْفِقْ فَسَنْتَفِقَ عَلَيْكَ»: فقد ورد حديثاً قدسياً جملةً مستقلةً عند البخاري أول كتاب النفقات ٩: ٩٧ ولفظه: «قال الله: يا ابن آدم أَنْفِقْ أَنْفِقْ عَلَيْكَ».

وورد جملة قدسية أول حديث نبوي، وقد تقدم برقم ١٠.

ووردت هذه الجملة هنا في حديث عياض الذي نشرحه، وهي أمرٌ بالإِنْفَاق عامةٌ دون تحديد جهةٍ مُنْفَقٍ عليها، أو سببٍ يكون الإِنْفَاقُ من أجله، وقد تقدم شرحها على هذا النحو العام، لكن جاءت رواية الإمام أحمد ٤: ١٦٢ تحدد جهةً مُنْفَقاً عليها، ولفظ الحديث عنده: «وَأَنْفِقْ عَلَيْهِمْ فَسَنْتَفِقَ عَلَيْكَ».

فَيَحْتَمِلُ المعنى حينئذ أن يكون أمراً بالإِنْفَاق على الجيوش الغازية مع النبي ﷺ، وَيَحْتَمِلُ أن يكون أمراً بالإِنْفَاق على أولئك المعاندين، ليكون تألفاً لقلوبهم. أو أن يجمع بين الاحتمالين، وهو الأولى. والله أعلم.

وَيَلَاخِظُ من التأمل في الأمر بالمقاتلة والإِنْفَاق: أن الله تعالى جَمَعَ بين الجهادين: الجهاد يبذل النفس، والجهاد يبذل المال، كما قال الله تعالى في وصف المؤمنين الصادقين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

وخلاصة الحديث عن أحداث البعثة المحمدية: بيانٌ للمقصود من بعثة النبي ﷺ، وهو امتحانه وامتحان أمته: «لَأَبْتَلِيكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ».

- تأييده بالقرآن العظيم والشرعة الخالدة المؤبدة.

- دعوة قريش إلى الله تعالى مع الوعد بالإمدادات الإلهية.

قال: وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطانٍ مُقسِطٌ متصدِّقٌ موفِّقٌ؛

- تقديمُ الأرواحِ والأموالِ في سبيلِ الدعوةِ إلى الله.

أما الحديثُ عن نتائجِ هذه البعثةِ النورانية: ففي الحديثِ عن أوصافِ أتباعها ومآلهم، وعن أوصافِ مخالفيها ومعانديها ومصيرهم.

«وأهلُ الجنةِ ثلاثةٌ» ومعلومُ أن الجنةَ «أَعِدَّتْ للمُتقين» وهم أتباعُ الرسلِ عامة، وأتباعُ هذا النبي ﷺ خاصةً.

ثم قال «وأهلُ النارِ خمسةٌ»، ومعلومُ أن النارَ «أَعِدَّتْ للكافرين» وهم أعداءُ الرسلِ عامةً، وهذا النبي ﷺ خاصةً.

والأصنافُ الثلاثة:

أولهم «ذو سلطانٍ، مُقسِطٌ، متصدِّقٌ، موفِّقٌ».

فالوُصفُ للصنفِ الأول: أنه حاكمٌ سلطانٌ، ولأه الله عز وجل أمر الرعية، وجَعَلَهُ خليفةً عنه في تنفيذِ أحكامه فيهم أمراً ونهياً، فاستجاب لذلك، وهذا هو:

الوصفُ الثاني له: «مُقسِطٌ» أي: عادلٌ، ولا يتحقَّقُ العدلُ إلا بالحكم بما أنزل الله.

والوصفُ الثالث له: أنه «متصدِّقٌ»: لا يَسْتَأْثِرُ على رعيته بالدنيا التي تأتيه، بل لا يَدَّخِرُ وُسْعاً في التوسعة عليهم والعطاء والإنفاق.

والوصفُ الرابع له - وهو الوصفُ المَجْمُلُ لما تقدم - أنه رجلٌ «موفِّقٌ» للخيرات، ولتحبيبِ شريعةِ الله إلى قلوبِ الناس، وذلك بتطبيقها تطبيقاً حكيماً، لا بتطبيقها تطبيقاً منقراً منها. و«موفِّقٌ» مسدِّدٌ في أحكامه وأقضيته بين الناس، وكلُّ ما هنالك، مما يَعْرِضُ لمن يَقُومُ هذا المقام، فهي كلمةٌ عامة تدلُّ على أنه إنسانٌ يُسَرُّ للخير ويُسَرُّ له الخير.

والحقُّ أن هاتين الصفتين «متصدِّقٌ، موفِّقٌ»: صفتان زائدتان على مقتضى الصفتين الأوليين: «ذو سلطانٍ مقسطٍ»، فهما زائدتان مجملتان محببتان فيه.

فإذا كان «الإمام العادل» هو أولُ مذكور في «السبعة الذين يُظِلُّهم الله في ظلِّه

ورجلٌ رحيماً رقيق القلبٍ لكلِّ ذي قُرْبى ومسلم ؛ وعفيفٌ متعففٌ ذو عيالٍ .

يَوْمَ لَا ظِلٌّ إِلَّا ظِلُّهُ، فكيف بمن كان إماماً عادلاً مِعْطَاءً مَوْفَقاً في كلِّ أموره للخيرات؟

- والصنف الثاني من أهل الجنة: «رجلٌ رحيماً رقيق القلبٍ لكلِّ ذي قُرْبى ومسلم» .

والرحمة صفةٌ تَحْمِلُ صاحبها على إرادة كلِّ خير للعباد، فإن قَدَرَ على تَنْفِيزِهِ وتحصيله لهم فَعَلَهُ، وإلاَّ أَرَادَهُ لهم بقلبه ودعا لهم به، وَيَنْطَبِقُ عليه قوله ﷺ: «الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ، وَأَحِبُّهُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ»^(١). وهذه خَصْلَةٌ من أعظم خصال الإيمان، وما أحوَجُ المسلمين اليومَ إليها!

وأما «رقيق القلب لكل..»: فهذه هي صفةُ الصديقين. قالت السيدة عائشة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ لما قال وهو في مرض وفاته: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيَصِلْ بِالنَّاسِ» فقالت له السيدة عائشة: «إنه رجلٌ رقيقٌ، إذا قام مَقَامَكَ لم يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ». قال ابن الأثير في «النهاية» ٢ : ٢٥٢: «أَي: هَيِّنْ لِيْن» .

فيكون المعنى: رجلٌ رحيماً يُحِبُّ كلَّ خير للناس، وهو هَيِّنُ الجانب، لِيْنُ الخُلُقِ، حَسَنُ العِشْرَةِ مع الناس عامةً قَرِيبِهِمْ وَبَعِيدِهِمْ مادام مسلماً. وما أعظم ذلك!

والصنف الثالث من أهل الجنة: «عفيفٌ متعففٌ ذو عيالٍ» أَيْ كَرِيمُ النَّفْسِ مُتَجَمِّلٌ في مظهره، مُتَحَمِّلٌ لمرارة الصبر على الفقر مع الحاجة والخِصَاصَةِ: وإذا تُصِبَكَ خِصَاصَةٌ فَتَحَمَّلْ

أو: فَتَجَمَّلْ . ومما يَزِيدُ صَبْرَهُ مرارةُ أنه ذو عيالٍ، فالإنسانُ قد يَصْبِرُ فيما بينه وبين نفسه، ويتصَبَّرُ، ويَصْبِرُ نفسه، ويصابِرُها، أما العيالُ فلا يصبرون، ولئن صَبِرَتِ الزوجةُ فالأولادُ الناشئون المراهِقون لا يصبرون، والأطفال الصغار لا يُدْرِكُونَ ما بأبيهم فيطلبون ويَطالِبُونَ، ومع ذلك فهو صابر في نفسه مصابِرٌ لِعِيَالِهِ، مُتَجَمِّلٌ مُتَعَفِّفٌ. فهو من أهل الجنة.

١ - حَسَنُهُ بعضهم لكثرة طرقه وشواهد العامة. وانظر التعليق على صفحة ٣٤١.

قال: وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له، الذين هم فيكم تَبَعاً، لا يبتغون أهلاً ولا مالاً؛ والخائن الذي لا يَخْفَى له طمع وإن دَقَّ إلا خانته؛ ورجلٌ لا يُصْبِحُ ولا يمسي إلا وهو يُخَادِعُك عن أهلِكَ ومالك.

ولا ريب أن كل هذه الصفات مقرونة بالإيمان.

وأما أهل النار المشاقون لله ورسوله فخمسة أصناف:

أولهم: «الضعيف الذي لا زَبْرَ له» أي: لا رادَع له يَحْجُزه، وذلك هو العقل السليم الذي يَصْصِرُ صاحبه بالأمور، إنما فيه العقلُ التكليفي، أما العقلُ الذي (يَعْقِلُه) ويردعه عن التبعية لكل ناعق: فلا، ولشدة ضعفه العقلي، وتمكّن التبعية فيه وصفه الله تعالى: «لا يبتغون أهلاً ولا مالاً» إلا التبعية والإمعة للآخرين.

ثانيهم: «الخائن» والخيانة لا تَقْتَصِرُ على خيانة الأمانة والمال، بل تشملها وتشمل نقض العهد والذمة، ولذلك كان وزرها عند الله عظيماً، وجاء فيها الوعيد الشديد، قال ﷺ: «يُطَبِّعُ المؤمن على كل شيء إلا الخيانة والكذب»^(١).

وهي هنا شاملة للمعنى العام، لأنه «الذي لا يَخْفَى له طمع وإن دَقَّ إلا خانته» فقلوه: «لا يخفى» أي لا يظهر. قال الإمام النووي رحمه الله ١٧: ١٩٩: «معنى لا يخفى: لا يظهر، قال أهل اللغة: يقال: خَفِيتُ الشيء: إذا أظهرته، وأخفيته: إذا سَتَرْتَهُ وكتمته».

فالمعنى: الخائن الذي لا يظهر له مطمع وإن كان قليلاً دقيقاً إلا خانته.

وقوله «طمع»: أي مَطْمَع، وهو الأمر الذي يكون محلاً للطمع. وهذا المطمع قد يكون مادياً يُوصَلُ إليه مباشرة، كاختلاس مال وخيانة أمانة، وقد لا يُوصَلُ إليه مباشرة إلا بخيانة أخلاقية كنفوذ عهدٍ وكذب، فيكون قد جمع الرذيلتين.

ثالثهم: «رجل لا يُصْبِحُ ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلِكَ ومالك»

١ - قال الهيثمي في «المجمع» ١: ٩٢: «رواه البزار وأبو يعلى - عن سعد بن أبي وقاص - ورجاله رجال الصحيح» لكن انظر «الترغيب» للمنذري ٣: ٥٩٥ و«الفتح» ١٠: ٥٠٨، ورواه أحمد ٥: ٢٦٢ عن أبي أمامة منقطعاً، ورواه الطبراني في الكبير موقوفاً على ابن مسعود ورجاله ثقات، كما قال الهيثمي.

وذكر البخل - أو الكذب -

فالمخادعة صفة لازمة متمكنة في كل حركة وسكنة منه، وفي كل مجال: في الأهل والعرض والنساء، وفي المال. والخداع في النار، وأهله في النار، وقد روى ابن حبان ٤٣٤: ٧ - من طبعة الحوت - عن النبي ﷺ: «المكر والخداع في النار». فكيف بمن تمكنت هذه الصفة الذميمة في تصرفاته كل هذا التمكن؟! نعوذ بالله.

رابعهم: «البخل، أو الكذب». أي المتئسف بإحدى هاتين الصفتين: البخل أو الكذاب. أما الكذب: فقد تقدّم قبل أسطر قوله عليه الصلاة والسلام: «يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذْبَ» وهو بابُ المآثم، كما يُفِيدُهُ قَوْلُهُ ﷺ فيما رواه البخاري عن ابن مسعود عن النبي ﷺ: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ صَدِيقًا، وَإِنَّ الْكَذْبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَكْذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَابًا» رواه البخاري ١٠: ٥٠٧، ومسلم ١٦: ١٥٩.

فتأمل قوله ﷺ «يهدي إلى الفجور»: أي يدلُّ ويوصلُ إلى كلِّ فسق ومعصية. وتذكّر قصة كعب بن مالك رضي الله عنه وحديث توبته وتوبية الله عز وجل عليه، لكونه صدّق الحديث مع رسول الله ﷺ. وقد رأى النبي ﷺ مناماً فيه بيان عذاب الكذاب في عالم البرزخ، فأخبرنا به، ورؤيا الأنبياء جميعهم من الوحي الإلهي.

روى البخاري في صحيحه في آخر كتاب التعبير ١٢: ٤٣٨ عن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لِأَصْحَابِهِ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا؟» وَإِنَّهُ قَالَ لَنَا ذَاتَ غَدَاةٍ - أَي: صَبَاحاً -: «إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِنَهُمَا قَالَا لِي: انْطَلِقْ، وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا... فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكُلُوبٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقِّي وَجْهَهُ، فَيُشْرِشِرُ - أَي: يُشَقِّقُ وَيَقْطَعُ - شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخَرَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ - أَي: الشِّدْقِ الثَّانِي - فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الْأَوَّلِ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ حَتَّى يَصْحَ ذَلِكَ الْجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى.

«قال: قلت: سبحان الله! ما هذان؟ قالاً لي: انطلق انطلق...».

ثم قال لهما عليه الصلاة والسلام في آخر الرؤيا: «إني قد رأيت منذ الليلة عَجَباً، فما هذا الذي رأيت؟ قال: قالاً لي: أَمَا إِنَّا سُنْخِرُكَ... وأما الرجل الذي أتيت عليه يُشْرِشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ: فإنه الرجل يَغْدُو من بيته فيكذبُ الكَذْبَةَ تَبْلُغُ الْآفَاقَ».

وفي رواية البخاري في كتاب الجنائز ٣: ٢٥١ زيادة: «يُصْنَعُ به ما رأيت إلى يوم القيامة».

وقد صحَّ عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه قوله: «الكذب يُجَانِبُ الْإِيمَانَ»^(١).

والنصوص في هذا الصدد كثيرة.

وأما البخلُ: فكذلك جاء عن سيدنا رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة في ذمِّه، ومنها: حديث الترمذي ٦: ١٩٢ (١٩٦٤) عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة خَبٌّ، ولا مَنَانٌ، ولا بخيلٌ». والخَبُّ: هو الخُدَاع الذي يُفْسِدُ فيما بين الناس.

وروى الطبراني في «الكبير» ١٢: ١٤٧ (١٢٧٢٣) و«الأوسط» عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ: «خلق الله جنَّةً عدنٍ بيده، ودَلَّى فيها ثمارها، وشقَّ فيها أنهارها، ثم نظر إليها فقال لها: تكلمي، فقالت: «قد أفلح المؤمنون» فقال: وعزتي وجلالي لا يُجَاوِرُنِي فِيكَ بَخِيلٌ»^(٢).

وقد أخبر عليه الصلاة والسلام أن الله عز وجل يُبْغِضُ البَخِيلَ!

فروى ابن حبان في «صحيحه» ٥: ١٤٥ (٣٣٣٨) من طبعة الحوت، عن أبي ذر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللَّهُ، وَثَلَاثَةٌ يُبْغِضُهُمُ اللَّهُ»

١- «الترغيب» ٣: ٥٩٥، و«الفتح» ١٠: ٥٠٨.

٢- قال المنذري ٣: ٣٨١ والهيتمي ١٠: ٣٩٧ عن أحد إسنادي الطبراني في الأوسط: جيد.

وَالسَّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ.

وذكر الثلاثة الأول ثم قال: «وَيُبْغِضُ الشَّيْخَ الزَّانِي، وَالْبَخِيلَ، وَالْمُتَكَبِّرَ» فانظر كيف قرن بين هؤلاء الثلاثة!!.

وكما أن الكذب يُجانب الإيمان، كما تقدّم عن سيدنا الصديق الأكبر رضي الله عنه، فكذلك الشُّحُّ يجانب الإيمان، والشُّحُّ والبخل شيء واحد، أو هما من وإد واحد.

فروى النسائي ٦: ١٣ (٣١١٠ وما بعده) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يَجْتَمِعُ غِبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانٌ جَهَنَّمَ فِي جَوْفِ عَبْدٍ أَبَدًا، وَلَا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالْإِيمَانُ فِي قَلْبِ عَبْدٍ أَبَدًا».

خامسهم: «السَّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ» وهو السَّيِّءُ الْخُلُقُ.

وفي ذمّ الفحش والفاحش والفحّاش، وسوء الخُلُقِ والسَّيِّءِ الْخُلُقِ: أحاديث كثيرة، وأكثر من هذا وذاك الأحاديث التي فيها الثناء على الخُلُقِ الحسن وحسن الخُلُقِ.

وقد بَوَّبَ البخاري رحمه الله تعالى في كتاب الأدب «باب لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا مُتَفَاحِشاً» ١٠: ٥٢ وأورد تحته أحاديث، منها: حديث عائشة رضي الله عنها أن «يهوداً أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: السَّأْمُ عَلَيْكُمْ - يعنون: الموت عليكم - فقالت عائشة: عليكم، وَلَعَنَكُمْ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْكُمْ. قال - ﷺ - هو بأبي وأمي -: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكَ بِالرَّفْقِ، وَإِيَّاكَ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ» قالت: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟! قال: «أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟»، رددتُ عليهم، فَيَسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ» ﷺ تسليمًا كثيرًا.

ثم ساق حديثاً آخر لعائشة: «أن رجلاً استأذن على رسول الله ﷺ، فلما رآه قال: «بَشْرُ أَخُو الْعَشِيرَةِ، وَبَشْرُ ابْنِ الْعَشِيرَةِ». فلما جلس تَطَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة: يا رسول الله حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ! فقال رسول الله ﷺ: «يَا عَائِشَةُ مَتَى عَهْدَتَنِي فَاحِشاً؟! إِنْ شَرَّ النَّاسُ عِنْدَ اللَّهِ مِزْلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ تَرْكِهِ النَّاسَ اتِّقَاءَ شَرِّهِ».

ورواه تحت باب ما يجوز من اغتيال أهل الفساد والريب ١٠ : ٤٧١ بلفظ :
«أي عائشة، إن شر الناس من تركه الناس - أو ودَّعه الناس - اتقاء فُحْشه».

ورواه أبو داود في كتاب الأدب أيضاً تحت باب في حسن العشرة ٥ : ١٤٥
(٤٧٩٢) ولفظه : «يا عائشة إن الله لا يحبُّ الفاحشَ المتفحشَ».

وروى الإمام أحمد بإسناد جيد في «مسنده» ٥ : ٨٩ وابنه عبدالله في الزوائد
٥ : ٩٩ عن جابر بن سمرة رضي الله عنهما أنه قال : كنتُ في مجلس فيه النبي ﷺ
وأبي سمرة جالسٌ أمامي، فقال رسول الله ﷺ : «إن الفحشَ والتفحشَ ليسا من
الإسلام في شيء، وإن أحسنَ الناسِ إسلاماً أحسنهم خلقاً». إلى غير ذلك من
الأحاديث الكثيرة.

فإذا كان الفحشُ ليس من الإسلام في شيء، وشرُّ الناسِ من اتقاءه الناس
لفُحْشه، وإن الفاحشَ لا يُحبُّه الله تعالى : إذا كان كذلك أدركنا حقيقة أن الشنظير
الفحاش من أهل النار.

وأشدُّ ما يكون الفحش وبالأعلى صاحبُه : إذا صدرَ ممن يتزياً بزِيٍّ أهل
العلم، ويتنسب إلى كريم مقامهم. عافانا الله بمنه وكرمه.

وبعدُ : فهذه صفاتُ أهلِ الجنة وأهلِ النار، وتلك نتائجُ البعثة المحمدية :
أن نتعرَّفَ من هم أهل الجنة، ولماذا؟، ومن هم أهل النار، ولماذا؟ حتى نعملَ
بأوصاف هؤلاء، ونتجنبَ أوصاف أولئك.

والحمد لله الذي أوحى إلى نبيِّنا محمد ﷺ بهذا، وجزى الله عنا نبيِّنا
محمدًا ﷺ كلَّ خير على تبليغه هذا إلينا، ونسألُ الله التوفيقَ إلى العملِ بمحابه،
والاجتنابِ لمساخطه. إنه ولي التوفيق.

٢٥ - عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أُتِيْتُ بِالْبُرَاقِ - وهو دَابَّةٌ أبيضُ طويلٌ، فوقَ الحمارِ ودونَ البغلِ، يَضَعُ حافِرَه عند مُنتَهَى طَرَفِه - قال: فركبته حتى أتيتُ بيتَ المقدسِ، قال: فربطته بالحَلَقَةِ التي يَرَبِطُ بها الأنبياء، قال: ثم دخلتُ المسجدَ، فصليتُ فيه ركعتين، ثم خرجتُ، فجاءني جبريلُ عليه السلام بإناءٍ من خمر، وإناء من لبن، فاخترتُ اللبن، فقال جبريلُ ﷺ: اخترتَ الفِطْرَةَ.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء، فاستفتح جبريلُ فقيل: مَنْ أَنْتَ؟ قال: جبريلُ، قيل: وَمَنْ مَعَكَ؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، فَفُتِحَ لَنَا، فإذا أنا بآدمَ، فَرَحَّبَ بي، ودعا لي بخير.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريلُ عليه السلام، فقيل: مَنْ أَنْتَ؟ قال: جبريلُ، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل:

٢٥ - تخريجه: هذا لفظ مسلم في كتاب الإيمان - باب الإسراء برسول الله ﷺ وفرض الصلوات ١: ١٤٥ (٢٥٩)، وشرح النووي ٢: ٢٠٩. والحديث في «صحيح البخاري» أول كتاب الصلاة - باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء ١: ٤٥٨ (٣٤٩). وقد اعتمد القاضي عياض رحمه الله في «الشفاء» وغيره سياقة مسلم لحديث الإسراء فتبعته.

غريبه: القِلال: جمع قَلَّة، وهي الجَرَّة العظيمة تَسْعُ قَرَبَتَيْنِ أو أكثر. قاله النووي.

يَنْعَتُهَا: يَصِفُهَا.

بَلَوْتُ: خَبَرْتُ.

وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بابْنِي الخالة: عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا، صلوات الله عليهما، فرَحَّباً ودَعَواً لي بخير.

ثم عَرَجَ بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريلُ، فقيل: مَنْ أَنْتَ؟ قال: جبريلُ، قيل: وَمَنْ مَعَكَ؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بيوسف ﷺ، إذا هو قد أُعْطِيَ شَطَرَ الحُسْنِ، فرَحَّبَ ودعا لي بخير.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام، قيل: مَنْ هَذَا؟ قال: جبريلُ، قيل: وَمَنْ مَعَكَ؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بإدريسَ، فرَحَّبَ ودعا لي بخير. قال الله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريلُ، قيل: مَنْ هَذَا؟ قال: جبريلُ، قيل: وَمَنْ مَعَكَ؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بهارونَ ﷺ، فرَحَّبَ ودعا لي بخير.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل عليه السلام، قيل: مَنْ هَذَا؟ قال: جبريلُ، قيل: وَمَنْ مَعَكَ؟ قال: محمد، قيل: وقد

معناه: الكلام على حديث الإسراء والمعراج طويل جداً، وأفردت فيه كتب كبيرة ورسائل لطيفة، ومن أوسع من تكلم فيه - وكتابه مطبوع متداول - العلامة الصالحي رحمه الله تعالى في سيرته الشامية «سُبُل الهدى والرشاد»، كتب فيه قرابة ٢٤٠ صفحة من القطع الكبير من الجزء الثالث، وهذا خلاصة كتابه «الفضل الفائق في معراج خير الخلائق» ﷺ، ذكر ذلك في مقدمة كلامه المشار إليه ٣: ١١.

بُعْثْ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفَتَحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى ﷺ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عَرَجَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جَبْرِيلَ، فَقِيلَ: مِنْ هَذَا؟ قَالَ: جَبْرِيلَ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ مُسْنِداً ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ.

ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى السُّدْرَةِ الْمُنتَهَى، وَإِذَا وَرَقُهَا كَأَذَانِ الْفِيلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقَلَالِ، قَالَ: فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حَسَنَاتِهَا، فَأَوْحَى إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ.

فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ، فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَيَّ أَمْتُكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنْ أَمْتُكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ.

قَالَ: فَارْجِعْتُ إِلَى رَبِّي، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ خَفِّفْ عَلَيَّ أَمْتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا. فَارْجِعْتُ إِلَى مُوسَى فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، قَالَ: إِنْ أَمْتُكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ.

قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعْ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَبَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلُّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً. وَمَنْ هُمْ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ

كما أسهب الزرقاني رحمه الله تعالى في «شرح المواهب» على ذلك في أول الجزء الخامس منه، وجل اعتماده على الصالح المذکور، كما هو معلوم.

والقدسي من هذا الحديث: آخره، وأنبه إلى شيء في جملة منه، وهي قوله

حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ لَهُ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ.

قال: فنزلتُ حتى انتهيتُ إلى موسى ﷺ فأخبرته، فقال: ارجعْ إلى ربك فاسأله التخفيف، فقال رسول الله ﷺ: فقلت: قد رجعتُ إلى ربي حتى استخيتُ منه».

تعالى: «ومن همَّ بسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا» مع أنه في الحديث الآتي برقم ٨٢ أنه تكتب له حسنة.

والجواب - والله أعلم - أن قوله هنا «لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا» معناه: لَمْ تَكْتَبْ عَلَيْهِ سَيِّئَةٌ، ولكن هل تكتب له حسنة أولاً؟ أمر مسكوت عنه هنا، وصرَّح به هناك أنها تُكْتَبْ حسنة إن كان تركُّه لها خوفاً من الله عز وجل، ولا تكتب شيئاً لا حسنة ولا سَيِّئَةٌ إن كان تركُّه لها لغير ذلك. والله أعلم.

٢٦ - عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي...﴾ الآية، وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ، وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فَرَفَعَ

٢٦ - تخريجه: رواه مسلم في كتاب الإيمان - باب دعاء النبي ﷺ لأمته ١ : ١٩١ (٣٤٦) وشرح النووي ٣ : ٧٧.

معناه: مدار هذا الحديث الشريف على مَكْرُمَتَيْنِ للنبي ﷺ، الأولى: شَفَقَتُهُ على أمتة واهتمامه بأمورها ومصيرها. والثانية: مكانته عند الله عز وجل التي جاء التعبير عنها بـ «إِنَّا سَنَرْضِيكَ فِي أَمْرِكَ وَلَا نُسْؤُكَ»! ﷺ.

وكان سبب ذلك ما يحكيه سيدنا عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ تلا آيتين كريمتين فيهما موقف بعض النبيين من أممهم.

فالآية الأولى: قول الله تعالى على لسان خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام في سورة إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ، فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

والآية الثانية: قول الله تعالى على لسان كلمته عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام في آخر سورة المائدة: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ، وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ففيهما استرحام لله عز وجل من إبراهيم وعيسى لأمتهم، ولكن ليس فيهما بيان نتيجة أو استجابة.

واتساء منه ﷺ بهما، وعملاً بقول الله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ، فَبِهْدَاهُمْ أَقْبَدَهُ﴾: فإنه دعا لأمته، ورجا ربّه بكلمة عامة شاملة لكل وجوه الإحسان

يَدِيهِ وقال: «اللهم أُمَّتِي، أُمَّتِي» وبكى، فقال الله عز وجل: «يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله ما يُبْكِيكَ؟» فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك».

إليها فقال: «اللهم أُمَّتِي، أُمَّتِي».

وهو يحتمل معنى: تدارك أمتي، ارحم أمتي، أحسن إليها، الطف بها، اغفر لها، وما شاكل هذه التقديرات. فكان من حسن اختياره صلوات الله عليه وسلامه، أن دعا بكلمة جامعة لكل هذه الوجوه والاحتمالات.

وقد جمع ﷺ بين دعائه هذا - ودعاؤه لا يُرد ولا يُخيب - وبكائه الذي يستنزل من الله تعالى كل خير ورحمة ورضوان، ليكون أسرع إجابةً، وأكثر إكراماً من الله تعالى.

فأمر الله سبحانه أمين وحيه جبريل أن يسأل النبي عليه الصلاة والسلام عن سبب بكائه، والله تعالى أعلم بالأمر. ولمزيد التكريم وإظهار المزية، ورفع شأن ما سيكون من عطاء وإكرام، أرسله إليه أولاً للسؤال، وثانياً للجواب.

قال الإمام النووي رحمه الله في «شرح مسلم»: «والحكمة في إرسال جبريل لسؤاله ﷺ إظهار شرف النبي ﷺ، وأنه بالمحل الأعلى فيسترضى ويكرم بما يرضيه».

ثم جاء الجواب الإلهي الكريم: «يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك».

وفيه لطيفتان: الأولى: التعبير بـ «إنا» التي يُعبر بها من جانب الحق سبحانه وتعالى دائماً في مقام الدلالة على العظمة، ولكل مقام عظمته المناسبة له، كقوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ ﴿إنا مرسلو الناقة فتنة لهم﴾ ﴿وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرماً﴾ وهكذا، وهو كثير جداً في القرآن الكريم.

فيكون المعنى هنا: إنا بعظمتنا وقدرتنا وسلطاننا، وكرمنا ورحمتنا... سنرضيك.

واللطيفة الثانية: نَقَلَهَا النووي عن «التحرير في شرح صحيح مسلم»^(١) فقال: «وأما قوله تعالى «ولا نسوءك» فقال صاحب التحرير: هو تأكيد للمعنى، أي: لا نُحْزَنُكَ، لأن الإرضاء قد يحصل في حق البعض بالعفو عنهم، ويُدْخِلُ الباقي النار، فقال تعالى: نُرْضِيكَ وَلَا تُدْخِلُ عَلَيْكَ حَزْناً، بَلْ نُنْجِي الْجَمِيعَ». اللهم حقق ذلك.

لذلك قال النووي رحمه الله قبل أسطر: «هذا الحديث من أرجى الأحاديث لهذه الأمة، أو أرجاها».

هذا، ومعلوم أن حرف السين يستعمل للزمن المستقبل القريب، و«سوف» للمستقبل البعيد، فقد يُسأل حينئذ: لَمَ جَاءَتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ بـ«سوف» في قوله تعالى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ وهنا في الحديث: «سنرضيك»؟.

والجواب - والله أعلم -: أن الإمام الفخر الرازي رحمه الله تعالى قال ٣١: ٢١٤ عن المجيء بـ«سوف»: «يدلُّ على أنه ما قَرُبَ أَجَلُهُ، بَلْ يَعِيشُ بَعْدَ ذَلِكَ زَمَانًا»، ولعل هذا يزداد وضوحاً إذا قلنا: إن قريشاً كانوا يتمنون موت محمد - ﷺ - كما هو معلوم، فالإتيان بـ«سوف» المؤذنة بالزمن البعيد فيها إغاطة لقلوبهم، وأن محمداً ﷺ بعيدُ زمن وفاته.

ثم إن العطاء الموعود به هناك ﴿يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾: منه الدنيوي: كالنصر والظهور عليهم، ومنه الآخروي: كالمقام المحمود والدرجات العلى في الجنة، فحتى لا يضيّق صدرُ النبي ﷺ إذا تأخّر نصره وظهوره عليهم عن الوقت الذي يتوقَّعه، قيل له: ولسوف، فإن الأمر حاصل ولا بدّ، وهو مؤكّد باللام: ولسوف، فلا تتعجّل، واطمئنّ.

١ - انظر اسمه كاملاً عند أول موضع نقل عنه النووي ١: ١٤٥، وهو ابن صاحب «الترغيب والترهيب» الذي غمِلَ المنذريُّ كتابه على منواله.

.....

أما الحديث الشريف الذي نحن فيه: فإن استعمال «سوف» فيه غير مناسب للمقام أبداً، ذلك أنه مقام دعاء من محمد ﷺ وبكاء، فكيف يليق التسويف البعيد! ثم إن الطلب كان مُتَمَحِّضاً لحال الآخرة ومواقفها، ومع ذلك جاء الوعد بحرف السين القريب، في ذلك الزمن البعيد عن وقت الدعاء والرجاء.

فسبحان الله والحمد لله على كرمه، وصلى الله وسلّم على النبي الرؤوف الرحيم.

* * *

٢٧ - عن ثوبان مولى النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله

٢٧ - تخريجه: رواه مسلم في كتاب الفتن - باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ٤: ٢٢١٥ (١٩). والنووي ١٨: ١٣.

غريبه: زَوَى: جَمَعَ.

المشارك والمغرب: هاتان الكلمتان تَرَدَان في النصوص الشرعية بلفظ الإفراد والثنائية والجمع. قال الراغب في «مفرداته» ص ٢٥٩: «إذا قيلاً بالإنفراد فإشارة إلى ناحيتي الشرق والغرب، وإذا قيلاً بلفظ الثنائية فإشارة إلى مطلعي ومغربي الشتاء والصيف، وإذا قيلاً بلفظ الجمع فاعتبار بمطلع كل يوم ومغربه، أو بمطلع كل فصل ومغربه».

الأحمر والأبيض: الذهب والفضة.

السنة العامة: القحط العام المهلك لبلاد الإسلام.

بيضتهم: قال في «النهاية» ١: ١٧٢: «أي: مجتمعهم وموضع سلطانهم ومستقر دعوتهم. أراد: عدواً يستأصلهم ويهلكهم جميعهم».

قضيت قضاء: حكمت حكماً وأبرمت أمراً.

من سوى أنفسهم: المراد: عدو خارجي.

معناه: في هذا الحديث بيان عظيم مقام النبي ﷺ عند ربه سبحانه وتعالى، وذكر بشارات لهذه الأمة المحمدية.

أما مقام النبي ﷺ: ففي إطلاع الله تعالى له على مشارق الأرض ومغاربها، وفي إعطائه الكثرين: الذهب والفضة، وفي استجابة الله تعالى دعاءه.

أما الأول: فإن الله تعالى جمع لرسوله عليه الصلاة والسلام الأرض فرأى مشارقها ومغاربها، وهذا كناية عن رؤيته للأرض جميعها، وهذه الرؤية العامة الشاملة تكسبه علماً عظيماً واسعاً لا يدرك له مدى.

زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنْ أُمْتِي سَيَّلْنُ مُلْكُهَا مَا

وَجَاءَتْهُ الْبَشَارَةُ مَعَ هَذَا الْإِطْلَاعِ: «وَإِنْ أُمْتِي سَيَّلْنُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا». فَبَشَّرَ بِامْتِدَادِ مَلِكِ أُمْتِهِ، وَامْتِدَادِ مَلِكِ أُمْتِهِ: يَعْنِي انْتِشَارَ الْإِسْلَامِ.

وَأَمَّا الثَّانِي: فَقَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ الْعُلَمَاءُ: الْمَرَادُ بِالْكَتْرَيْنِ: الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، وَالْمَرَادُ: كَنْزَا كَسْرَى وَقِصْرَ مَلِكِي الْعِرَاقِ وَالشَّامِ».

قُلْتُ: وَالْأَمْرُ أَعْمُ مِنْ هَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ، فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْمَغَازِي - بَابِ أُحُدِ جَبَلٍ يَحْبِنَا وَنَحْبُهُ ٧: ٣٧٧ عَنْ عَقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ يَوْمًا فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمَنْبِرِ فَقَالَ: «إِنِّي فَرَطُ لَكُمْ، وَإِنِّي شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ - أَوْ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ...».

وَفِي الْبُخَارِيِّ أَيْضًا: كِتَابُ الْجِهَادِ - بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ «نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ» مَسِيرَةَ شَهْرٍ ٦: ١٢٨ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرَّعْبِ، فَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدِي».

وَفِي «الْمُسْنَدِ» ٤: ٣٠٣ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَمَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ، قَالَ: وَعَرَّضَ لَنَا صَخْرَةً فِي مَكَانٍ مِنَ الْخَنْدَقِ لَا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ، قَالَ: فَشَكَّوْهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - قَالَ عَوْفُ أَحَدِ الرِّوَاةِ: وَأَحْسَبُهُ قَالَ: وَضَعَ ثَوْبَهُ ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ - فَأَخَذَ الْمِعْوِلَ فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، وَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللَّهُ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا، ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، وَضَرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارَسَ، وَاللَّهُ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ، وَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا. ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ، فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللَّهُ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا^(١).

١ - قَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «الْمَجْمَعِ» ٦: ١٣١: «فِيهِ مَيِّمُونَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، وَثَقَّةُ ابْنِ حَبَانَ وَضَعَفَهُ جَمَاعَةٌ وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ ثِقَاتٌ» ثُمَّ ذَكَرَ عَقْبَهُ حَدِيثًا بِمَعْنَاهُ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، وَقَالَ: رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ بِإِسْنَادَيْنِ فِي أَحَدِهِمَا حُيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَثَقَّةُ ابْنِ مَعِينٍ وَضَعَفَهُ جَمَاعَةٌ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ رِجَالُ الصَّحِيحِ». فَمَثَلُ هَذَا الْحَدِيثِ يَكُونُ حَسَنًا لَغَيْرِهِ.

زُويَ لي منها، وأُعْطِيتُ الكثرين: الأحمرَ والأبيضَ، ولاني سألتُ ربي
لأمتي أن لا يُهْلِكها بسنةٍ عامَةٍ، وأن لا يُسَلِّطَ عليهم عدوًّا من سِوى
أنفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بِيضَتَهُمْ.

وإن ربي قال: يا محمدُ إنني إذا قَضَيْتُ قضاءً فإنه لا يُردُّ، ولاني
أُعْطَيْتُكَ لَأَمَّتِكَ أن لا أَهْلِكَهم بسنةٍ عامَةٍ، وأن لا أُسَلِّطَ عليهم عدوًّا من
سِوى أنفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بِيضَتَهُمْ ولو اجتمع عليهم مَنْ بأَقْطَارِها - أو قال:
مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِها - حتى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ
بَعْضًا».

فعلى مقتضى الحديثين اللذين في البخاري: حديث عُقبة وأبي هريرة: يكون
الأمر عامًا، ويكون قوله عليه الصلاة والسلام: «أُعْطِيتُ الكثرين»: كنايةً عن كنوز
الأرض جميعاً. ولهذا كان أبو هريرة رضي الله عنه يقول عقب روايته لحديثه
السابق: «وقد ذهب رسول الله ﷺ وأنتم تَنْتَبِلُونَهَا» أي: تَسْتَخْرِجُونَ الأموال والكنوز
وما فُتِحَ عليكم من زهرة الحياة الدنيا.

وأما الأمر الثالث: فواضح في هذا الموقف وغيره من مواقفه الكريمة عليه
الصلاة والسلام وهي كثيرةٌ كثيرةٌ، استجاب الله فيها دعاء نبيه عليه الصلاة والسلام.
أما الدعوة الأولى: فإن لا يُهْلِكُ الله هذه الأمة بقحط عام، والمراد: هلاك
استئصالٍ لها يستأصلها عن بكرة أبيها، أما الإهلاك الجزئي: فجائز واقع.

وأما الدعوة الثانية: فإن يحفظ الله هذه الأمة من تسلط أجنبي عنها يُنزل بها
البأس والهوان، ويكسر منها المُلْكَ والسلطان. وما ذاك إلا كرامةٌ لهذه الأمة عند
ربها، فلأن تهلك هذه الأمة بسبب داخلي منها أعزُّ وأكرمُ لها من أن يتسلط عليها
متسلطون من الأمم الأخرى فيُهْلِكوها.

فيكون عزُّ الأمة المسلمة برجالاتها المستقلِّين، كما أن هلاكها برجالاتها
المستأجرين، ولا شأن ليدٍ أجنبية عنها بها.

ولقد أكَّد الله عز وجل هذا الوعد على نفسه بقوله «ولو اجتمع عليهم مَنْ
بأَقْطَارِها» يريد: ولو أن أهل الأرض قاطبةً اجتمعوا على إهلاك الأمة وتدميرها لن
يستطيعوا ولن يجدوا إلى ذلك سبيلاً.

٢٨ - عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنه سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيَمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ: أُوتِيَ أَهْلُ التَّوْرَةِ التَّوْرَةَ، فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ النَّهَارُ عَجَزُوا، فَأَعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا؛ ثُمَّ أُوتِيَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ الْإِنْجِيلَ،

٢٨ - تخريجه: رواه البخاري في مواضع وهذا لفظه في كتاب مواقيت الصلاة - باب من أدرك من العصر قبل الغروب ٢: ٣٨ (٥٥٧).

غريبه: بقاؤكم فيما سلف: أي: بقاؤكم بالنسبة إلى ما سلف.

قيراطاً قيراطاً: «القيراط: جزء من أجزاء الدينار، وهو نصف عُشره في أكثر البلاد، وأهل الشام يجعلونه جزءاً من أربعة وعشرين». قاله ابن الأثير.

معناه: مدار هذا الحديث الشريف على بيان فضل الله على هذه الأمة المحمدية، إذ ضاعف لها أجر عملها مع قلته.

وفي صدر الحديث أشار النبي ﷺ إلى قصر مدة هذه الأمة في الحياة الدنيا بالنسبة إلى مدة بقاء الأمم الأخرى، فشبه مدة بقائنا بوقت صلاة العصر: من أوله إلى آخره، وبقاء الأمم الأخرى بمنزلة بقية النهار.

ووصف ﷺ ضعف اليهود أهل التوراة عن القيام بواجبهم تجاه ربهم فقال: «أُوتِيَ أَهْلُ التَّوْرَةِ التَّوْرَةَ، فَعَمِلُوا، حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ النَّهَارُ عَجَزُوا» وفي هذا التعبير إشارة إلى أنهم كُلُّوا عَمَلَ النَّهَارِ كُلَّهُ فَعَجَزُوا عنه.

ثم وصف ضعف النصارى أهل الإنجيل عن القيام بواجبهم أيضاً، وعبر في حقهم كما عبر في حق أهل التوراة، فوصفهم بالعجز.

أما نحن فأوتينا القرآن العظيم خير الكتب، وعَمِلْنَا وَقْتًا أَقْصَرَ مِنْ وَقْتِهِمْ، وَأَعْطَيْنَا مِنَ الْأَجْرِ ضِعْفَ مَا أَعْطُوا، وَلَمْ نُذَكَّرْ بِصِفَةِ الْعِجْزِ كَمَا ذُكِّرُوا.

فَعَمِلُوا إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ ثُمَّ عَجَزُوا، فَأَعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا؛ ثُمَّ أُوتِينَا الْقُرْآنَ فَعَمِلْنَا إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَأَعْطَيْنَا قِيرَاطِينَ قِيرَاطِينَ.

فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ: أَيُّ رَبَّنَا أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطِينَ، وَأَعْطَيْنَا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، وَنَحْنُ كُنَّا أَكْثَرَ عَمَلًا؟! قَالَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: هَلْ ظَلَمْتُمْكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَهُوَ فَضْلِي أُوتِيَهُ مَنْ أَشَاءَ».

ومن المعلوم أن الله تعالى تفضل علينا فخصَّ أمكنةً وأزمنةً بمضاعفة الأجر للعاملين فيها بالصالحات، زيادةً في اعتنام الأجر، كما هو الحال في ليلة القدر مثلاً، وكالصلاة في الحرمين الشريفين.

ولما اعترض أهل الكتابين بقولهم: «أَيُّ رَبَّنَا» والمعنى: يَا رَبَّنَا «أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطِينَ، وَأَعْطَيْنَا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، وَنَحْنُ كُنَّا أَكْثَرَ عَمَلًا؟!» أجابهم الله العليم الحكيم: «هَلْ ظَلَمْتُمْكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟» قَالُوا: لَا، فَأَجَابَهُمْ بِإِظْهَارِ حُكْمِهِ مَعَهُمْ، وَفَضْلِهِ عَلَيْنَا، وَأَنَّهُ الْفَعَالُ لِمَا يَرِيدُ فَقَالَ: «هُوَ فَضْلِي أُوتِيَهُ مَنْ أَشَاءَ».

فَنَحْنُ مَعَاشِرَ الْأُمَّةِ الْمَحْمُودِيَةِ مُحِطُّ فَضْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

٢٩ - عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ قال: دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مِنْ شَيْءٍ! فقال النبي ﷺ: «قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا، قال: فَأَلْقَى اللَّهُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَأَنْزَلَ

٢٩ - تخريجه: رواه مسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان - باب بيان تجاوز الله عن حديث النفس... ١ : ١١٦ (٢٠٠)، و«شرح النووي» ٢ : ١٤٦، وأخرجه قبله مطوَّلاً من حديث أبي هريرة، ولفظ الجملة القدسية منه: «قال: نعم». وفيه قوله ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: نعم.

معناه: يحكي عبدالله بن عباس عن الصحابة رضي الله عنهم حالهم لما نزلت الآية الأولى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ وأنهم قد أخذهم الْوَجَلُ الشَّدِيدُ واستصعَابُ الْأَمْرِ جَدًّا، لَأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَمْلِكُ خَوَاطِرَهُ الْمَخْفِيَّةَ فِي صَدْرِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُخَبِّرُ أَنَّهَا مَعْرُوضَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ، وَلِلَّهِ سُبْحَانَهُ الْمَشِيئَةُ الْمَطْلُوقَةُ فَيَمْنُ يَعْذِبُهُ وَفِيْمَنْ يَغْفِرُ لَهُ! فَقَالُوا - كَمَا فِي الرِّوَايَةِ الَّتِي قَبْلَهَا -: كُلُّنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُنْطِيقُ، وَقَدْ أَنْزَلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُنْطِيقُهَا!.

ولكن النبي ﷺ أرشدهم إلى السلامة في أمرهم، فقال لهم: «قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا» لئلا يكونوا كغيرهم من أهل الكتاب ممن أَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمْ حَبَّ الْعِجْلِ فيقولوا: سمعنا وعصينا؛ فقالوا ما أمرهم به.

فأنزل الله تعالى ثناءه عليهم: ﴿... وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾، وَخَفَّفَ عَنْهُمْ مَا ثَقُلَ عَلَيْهِمْ - وَعَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ بَابِ أُولَى - فَأَنْزَلَ قَوْلَهُ الْكَرِيمِ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ وَتَكَرَّمَ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ - وَعَلَى مَنْ

الله تعالى: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: قد فعلتُ، ﴿رَبَّنَا

بعدهم - بأن أنزل في هذه الآية الدعوات المذكورة، فلما قرأها عليهم رسول الله ﷺ أعلمهم أن الله تعالى قد أجاب دعاءكم بها فقال: «قد فعلت».

وليس هذا قاصراً عليهم، بل هو عامٌ بإذن الله ومشيتته لكل من دعا بها.

وقد أعقب الإمام مسلم رحمه الله رواية هذا الحديث بحديث أبي هريرة مرفوعاً: «إن الله تجاوزَ لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به». وبحديثه القدسيّ الآتي برقم ٨٢: «قال الله عز وجل: إذا همَّ عبدي بسيئة...»، والمناسبة واضحة تماماً.

وانظر قوله: فألقى الله الإيمان في قلوبهم، يُرشدك إلى أن الإيمان نورٌ يقذفه الله في قلوب من يشاء من عباده، ثم يكون التصديق بالجنان، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان - أي الجوارح -.

وبإزالة الله تعالى قوله الكريم ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾: «انكشفت الكربة عن المسلمين في تأويلهم أمر الخواطر» كما قاله الإمام ابن عطية رحمه الله في تفسيره «المحرر الوجيز» ٢ : ٥٣٩.

ومما يُستفاد للوقوف على دقائق التعبير في القرآن العظيم: التنبيه على ما وراء التفرقة اللفظية بين: كَسَبَتْ، واكْتَسَبَتْ، فأقول:

جاءت الآية الكريمة بـ «لَهَا مَا كَسَبَتْ» و«عَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ»، فاستعمل اللام مع: كَسَبَ، وهي تستعمل في مجال الغنم والاستفادة، فيقول القائل: لي حق، ولي دين، ولي مال، ومنفعة، ونحو هذا.

واستعمل «على» مع: اكْتَسَبَ، وهي تُستعمل في حال الغرم والمسؤولية، فيقول القائل: عليّ لفلان حق، ودين، ومال، ونحو هذا.

وهذا كثير في القرآن الكريم، وما جاء على خلاف هذا فمأول، كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ بأن هذه اللام هي لام الاستحقاق، كقوله ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أو اللام بمعنى إلى، أي: فالإساءة راجعة

وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴿١﴾ قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ،
﴿٢﴾ وَاعْفُ عَنَّا، وَاعْفِرْ لَنَا، وَارْحَمْنَا، أَنْتَ مَوْلَانَا ﴿٣﴾ قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ.

إليها، وجاءت بمعنى إلى في قوله ﴿بأن ربك أوحى لها﴾، أو بمعنى على كقول
الشاعر:

فخرٌ صريعاً لليدين والقم^(١)

والأصل في استعمال هذين الحرفين ما قدمته، فلما استعمل اللام مع كَسَبَ،
علمنا أن معناها فيما هو غُثْمٌ وخير لها، وكذلك في استعماله على مع: اكتسبت،
أي: فيما هو ضررٌ وشرٌ عليها، وليس هذا من باب التفنن في التعبير، كما قاله
بعضهم، وحكاه ابن عطية ٢: ٥٤٤، إنما هو كما ارتضاه ابن عطية فقال: «الذي
يظهر لي في هذا أن الحسنات هي ما كُسِبَ دون تكلف، إذ كاسِبُها على جادة أمر
الله ورسم شرعه، والسيئات تُكْتَسَبُ ببناء المبالغة - أي زيادة حروف في الكلمة - إذ
كاسِبُها يتكلف في أمرها خرق حجاب نهي الله تعالى ويتخطاه إليها، فحُسْنُ^(٢) في
الآية مجيء التصريفيين إحرازاً لهذا المعنى».

وخلاصة هذا: أن زيادة المَبْنَى تدلُّ على زيادة المعنى، فاكْتَسَبَ فيها تكلفٌ
وزيادةٌ ليخرج الإنسان عن فطرته حين عمل الشر الذي يجلب عليه وزره.
أما كَسَبَ فالخيرات تتمشى مع فطرة الإنسان، ولا يحتاج الإنسان إلى زيادة
تَعَمَّلَ وتكلف فيها ليخرج عن طبعه.

وتوجيه آخر للزمخشري في «الكشاف» ١: ١٧٢ قال: «في الاكتساب
اعتماد، فلما كان الشرُّ مما تشتهي النفس وهي منجذبةٌ إليه وأُمارةٌ به كانت في
تحصيله أعملٌ وأجَدُّ، فَجُعِلَتْ لذلك مكتسبةً، ولما لم تكن كذلك في باب الخير
وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتماد».

ثم بعد هذا جاء الأمر الإلهي بالدعاء: قولوا: ﴿ربَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ
أَخْطَاْنَا﴾.

١- انظر تفسير الآية أول سورة الإسراء في تفسير الرازي، وأبي حيان، والألوسي.

٢- في المصدر المنقول منه: فيحسن، ولعل صوابها ما أثبت.

ومن النسيان ما يُؤاخذ عليه صاحبه، كمن حفظ القرآن الكريم ثم أهمل مذكرته حتى نسيه، ذلك أنه أهمل ما وجب عليه تعهده، أو يكون النسيان بمعنى الترك، كقوله عز وجل: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: تركوا أمر الله، فتركهم الله من رحمته.

ومن الخطأ ما يُؤاخذ عليه فاعله، وذلك: «أن يأتي العبد ما نُهي عنه بقصد وإرادة، فذلك خطأ منه، وهو به مأخوذ، فيحسن طلبُ العفو والغفران لذلك الفعل الذي ارتكبه»^(١) أما إذا كان «على سبيل الجهل والظن بأن له فعله، كمن ظن أن وقت الصلاة لم يدخل، وهو في يوم غيم، فأخرها حتى خرج وقتها، فهذا من الخطأ الموضوع عن العبد، لكن طلبُ العفو والغفران لسبب تقصيره»^(٢).

فتحصل من هذا أن الدعاء بعدم المؤاخذه على الخطأ: إما الخطأ في الفعل، وإما الخطأ في سببه.

وسبحان المتفضل على عباده بدعوتهم إلى الدعاء، وبإجابة الدعاء. أمرهم وعلمهم الدعاء، وتفضل عليهم بإجابته فقال: قد فعلت.

وأما الإضر: فهو في قول ابن عباس وآخرين: العهد والميثاق الغليظ، ونحوه قول الإمام مالك: الأمر الغليظ الصعب، وقال غيرهم: الذنب الذي لا كفارة فيه.

والفرق بين هذا الدعاء، والدعاء الذي يليه: أن المدعوه به في هذه الجملة أمر خاص، وهو الذي يُشبه ما كان على الأمم من قبلنا، أما الدعاء الآتي: فهو أن لا يُحْمَلنا ما لا طاقة لنا به عامة، مما لا علاقة لمن قبلنا به.

ثم علمنا سبحانه أن نسأله النصر على القوم الكافرين، لكن علمنا قبله أن ندعوه بممهّدات النصر ومقدّماته: واعفُ عنا، واغفر لنا، وارحمنا.

١ - من «تفسير الخازن» ١: ٢٢٧، وهو من أجود التفاسير وأسهلها لئيسر الحصول على الفائدة منه، لكن شَوْه بعضهم سمعته وصورته بما فيه من إسرائيليات، يبين هو ما فيها من مخالفات لشرعنا، ويسكت عما سوى ذلك، إلا ما لا يخلو عنه الطبع البشري، فهو جدير بأن يُلقب بـ «التفسير المظلوم».

العفو عن الذنب: يكون بإسقاط العقوبة عليه، والمسامحة بها.

والمغفرة: تكون بستر الذنب على صاحبه، فلا فضيحة.

والرحمة: بالإحسان إلينا، ويكون ذلك بإعطاء كلِّ مقام ما يناسبه من الإحسان، ونحن نرجوك وندعوك ياربنا بهذه الأمور، لأنها بيدك، ونحن تحت سلطانك وتديبرك، فأنت مولانا، وأنت مولانا وناصرنا، فانصرنا على القوم الكافرين، ولا نصر لنا على القوم الكافرين إلا من عندك.

وهذه الذنوب إن لم يعف عنها ربنا، ويغفرها لنا فإنها عَثَرَاتٌ في طريق النصر، وعَثَرَاتٌ في طريق رفع البلاء. وقد قال الصحابي ابن الصحابي النعمان بن بشير رضي الله عنهما: «إِنَّ الْهَلَكَةَ كُلَّ الْهَلَكَةِ أَنْ تُعْمَلَ السِّئَاتُ فِي أَيَّامِ الْبَلَاءِ»^(١).

وما تسبب في تسلط الكافرين على المسلمين إلا ذنوبهم، بل إن الذنوب سبب لنزول كلِّ بلاء.

وقد قال أحدُ صلحاء الأندلس وزهادها: ابنُ العَسَال، لما سقطت إشبيلية بيد النصارى وأُخذت من المسلمين، قال أبياتاً، منها:

لولا ذنوبُ المسلمين وأنهم ركبوا الكبائر ما لهنَّ خَفَاءُ
ما كان يُنصرُ للنصارى فارسُ أبداً عليهم، فالذنوبُ الداءُ

وإذا كانت الذنوبُ هي الداءُ، فإن الدواء هو التوبة والاستغفار.

قال التابعي الجليل قتادة بن دُعامة السُّدُوسِيُّ رحمه الله تعالى: ألا أدلكم على دائعكم ودوائكم؟ ألا إن داءكم الذنوب، ودواءكم الاستغفار^(٢).

ومن روائع القول والتشبيه: دَاوِ بِمَرَاهِمِ التَّوْبَةِ جِرْحَ دِينِكَ، فَبَرِّوْهَا أَسْرِعُ مِنْ طَرَفَةِ الْعَيْنِ^(٣).

١ - كما في ترجمته من «البداية والنهاية» لابن كثير ٨ : ٢٤٨.

٢ - ذكره المنذري في «الترغيب» ٢ : ٤٦٨ حديثاً مرفوعاً وصدره بـ «رُوي» وقال: «رواه البيهقي، وقد رُوي عن قتادة من قوله، وهو أشبه بالصواب» لذلك نسبته إلى قتادة.

٣ - «بهجة النفوس» للإمام ابن أبي جمرة رحمه الله تعالى ٤ : ٤٩، وصدره بقوله: «وقد قال» ولم يسبق ذكر لقائل، ليعود الضمير عليه هنا، فالله أعلم.

وهذا الاستغفار مطلوب للاستنصار، وكذلك هو مطلوب بعد النصر علامةً على الشكر. تأمل قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

فمقابل فضل الله عليك بالنصر في المواقف كلها، وبفتح مكة الذي هو تاج هذه المواقف وإكليلها، وبإقبال الناس على الإسلام أفواجاً أفواجا، مقابل هذا: عليك يا رسول الله - ﷺ - أن تقدس الله وتحمده، وعليك أن تستغفره. فامثل ﷺ الأمر فكان يُكثِر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي». والركوع والسجود هما غاية الخضوع لله العزيز الكبير. فسبحانك اللهم ربنا، وبحمدك، اللهم اغفر لي وللمسلمين.

* * *

٣٠- عن أبي طريف عدي بن حاتم الطائي رضي الله تعالى عنه قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل، فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر

٣٠- تخريجه: رواه البخاري في كتاب المناقب - باب علامات النبوة في الإسلام ٦: ٦١٠ (٣٥٩٥)، وأخرجه مختصراً قبل في كتاب الزكاة - باب الصدقة قبل الرد ٣: ٢٨١ (١٤١٣).

غريبه: الفاقة: الفقر والحاجة.

الجيرة: بلد بالعراق، وهي بكسر الحاء المهملة.

الظعينة: هي هنا المرأة المسافرة.

دُعَار: جمع داعر، وهو الرجل الخبيث المفسد. والمراد: قطاع الطرق.

سَمَرُوا: قال في «مقدمة الفتح» ص ١٣٢: «بتشديد العين، وحكى أبو حاتم - السجستاني - التخفيف، أي: ألهبوها كالتهاب السعير». والسعير: النار الموقدة. ونحو هذا المعنى في «الفتح» ٦: ٦١٣ ولكنه لم يضبط العين. فليتنبه، فإن في «المقدمة» من الفوائد ما ليس في الشرح.

معناه: في هذا الحديث الشريف عَلم من أعلام النبوة، وقد كتب فيها أئمة كثر باسم: أعلام النبوة، ودلائل النبوة، جمعوا هذه الإخبارات النبوية، وما شاكلها. وهذا الحديث الشريف واحد منها.

أسلم عدي رضي الله عنه سنة تسع أو عشر من الهجرة، فهذا الحديث كان في أواخر حياة النبي ﷺ، ومع ذلك استغرب عدي بشارة النبي ﷺ بفتح خزائن كسرى وحصول المسلمين على كنوزها! فكيف به لو سمع النبي ﷺ يقول لسراقَة ابن مالك يوم الهجرة وهو في أول الطريق من مكة: كيف بك إذا لبست سِوَارِي كسرى ومِنَطَقَتَه وتاجَه؟ قال له ذلك وهو مخنف من قومه مهاجرٌ يترقب!.

فَشَكَا إِلَيْهِ قَطَعَ السَّبِيلَ، فَقَالَ: «يَا عَدِيُّ هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ؟» قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا، قَالَ:

«إِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيْنَ الظُّعَيْنَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ!». .

قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي: فَأَيْنَ دُعَارُ طِيٍّ الَّذِينَ قَدْ سَعَرُوا الْبِلَادَ؟ .

«وَلَيْتُنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كَنُوزُ كَسْرَى». قُلْتُ: كَسْرَى بِنِ

وقد أراد رسول الله ﷺ أن يُطْمِئِنَّ السَّائِلَ وَجَلِيسَهُ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ أَنَّ نِظَامَ الْإِسْلَامِ كَفِيلٌ بِأَنْ يَحَقُقَ لِأَتْبَاعِهِ الْأَمْنُ وَالطَّمَانِينَةُ، وَالْعِيْشَ الْهَنِيءَ، أَرَادَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ وَخَصَّهْمَا بِالذِّكْرِ مُقَابِلَ الشُّكَايَتَيْنِ: الْفَاقَةِ، وَقَطْعِ السَّبِيلِ.

وَسَأَلَ عَدِيًّا: «يَا عَدِيُّ هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ؟» وَهِيَ بَلَدٌ قُرْبَ الْكَوْفَةِ، فَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ الْمَنُورَةِ - الْمَوْضِعِ الَّذِي يُتَكَلَّمُ مِنْهُ - مَسِيرَةُ أَيَّامٍ وَلَيَالٍ طَوِيلَةٍ، وَمَعَ هَذَا جَاءَتْ الْبَشَارَةُ النَّبَوِيَّةُ لِمَنْ لَا يَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهِ قَطَعَ السَّبِيلَ وَهُوَ فِي بَلَدِهِ أَوْ الْبُلْدَانِ الْمَجَاوِرَةِ: إِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيْنَ الْمَرْأَةَ الضَّعِيفَةَ الْمَظْنَةَ الْإِعْدَاءِ عَلَى مَالِهَا وَعَرَضِهَا تُسَافِرُ مِنْ بَلَدِهَا الْحِيرَةَ حَاجَّةً أَوْ مَعْتَمِرَةً، فَتَصِلُ إِلَى الْكَعْبَةِ وَتَطُوفُ حَوْلَهَا وَهِيَ فِي تَمَامِ الْأَمْنِ عَلَى مَالِهَا وَعَرَضِهَا وَنَفْسِهَا، لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ!! .

فَأَثَارَتْ هَذِهِ الْبَشَارَةُ فِي نَفْسِ عَدِيٍّ الْإِسْتِغْرَابَ فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: أَيْنَ دُعَارُ طِيٍّ الَّذِينَ سَعَرُوا الْبِلَادَ، فَمَلَأُوهَا شَرًّا وَفُسَادًا؟! .

وَبَشَارَةُ أُخْرَى، جَوَابًا عَنْ شَاكِي الْفَقْرِ: «لَيْتُنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كَنُوزُ كَسْرَى». فَقَالَ عَدِيٌّ مُتَعَجِّبًا: كَسْرَى بْنُ هُرْمُزٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ نَعَمْ هُوَ كَسْرَى بْنُ هَرْمَزٍ صَاحِبُ تِلْكَ الْقُوَى الضَّارِبَةِ فِي شَرْقِ الْمَعْمُورَةِ آنَذَاكَ، سَوْفَ يَفْتَحُهَا أَوْلَئِكَ الْأَعْرَابُ آكِلُو الْجُفْلَانَ وَالْحَيَّاتِ، فِيمَا سَبَقَ، بُنَاةُ صَرْحِ الْعِلْمِ وَالْحَضَارَةِ وَالْأَخْلَاقِ بَعْدَ دُخُولِهِمْ تَحْتَ رَايَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ .

قال فيلسوف التاريخ ابنُ خلدونٍ رحمه الله تعالى في «مقدمته» الشهيرة ٢:

٥١٨ هـ في «فصلٍ في أن العرب أبعدُ الأمم عن سياسة الملك»: «كَانَ رُسُومُ إِذَا رَأَى

هُرْمُزُ؟ قال: «كسرى بن هُرْمُز. ولئن طالَّتْ بك حياة لَتَرَيْنَ الرجلَ يُخرج مِلءَ كَفِّه من ذهبٍ أو فضةً، يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ منه فلا يجدُ أحداً يقبلُهُ منه.

المسلمين يجتمعون للصلاة يقول: أكلَ عُمر كَبدي! يَعْلَمُ الكلابُ الآداب!»^(١). ذلك لأنه يعرف ما كان عليه العرب قبل سنوات قليلة خَلَّتْ، ثم هم الآن يجتثون عروشَ كسرى وحاشيته من جذورها.

ويزيد الله تعالى فَتَحَ الدنيا عليكم، ولن تَقَفَ عند حدٍّ أخذكم كنوزَ كسرى، فالدنيا فيها كنوز أخرى، وسوف يُعْمُ الغنى الناسَ جميعاً، حتى إن الرجل يريد أن يُخرج زكاةَ ماله فلا يجدُ لها مستحِقاً شرعياً يكون لها مَصْرِفاً من مصارف الزكاة المذكورة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَساكِينِ...﴾.

وليس هذا الحَدَثُ العظيم بعيدَ عهد عن وقت هذا النبأ، لا، إنما هو وشيكُ الحدوث: «لئن طالَّتْ بك حياة - يا عدي - لَتَرَيْنَ الرجلَ يُخرج مِلءَ كَفِّه من ذهب أو فضة يطلبُ من يقبلُهُ منه فلا يجدُ أحداً يقبلُهُ منه». فهذا ليس إخباراً عن شَرَطٍ من أشراف الساعة، بل يخاطبُ به صحابياً لو طالَّتْ حياته لراه.

وقد حَصَلَ هذا، وحَقَّقَ الله تعالى خير نبيِّه ﷺ في خاتمة القرن الذي كان فيه، كما حَصَلَ الأمر الأول والثاني: أَمِنُ المرأةُ على نفسها، وفتَحَ كنوزَ كسرى، وشَهِدَها عديُّ نفسه.

ففي «المعرفة والتاريخ» ليعقوب بن سفيان ١: ٥٩٩ بسنده إلى عمر بن أسيل^(٢) بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال: «إنما ولي عمر بن عبد العزيز ستين ونصفاً: ثلاثين شهراً. لا والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جَعَلَ الرجلُ يَأْتِينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيثُ تَرَوْنَ من الفقراء، فما يبرحُ حتى يرجعُ بماله، يتذكَّرُ من يَضَعُهُ فيهم فلا يجدُهُ، فيرجعُ بماله. قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس!».

١ - وانظر يوم أُرْمات من أيام القادسية، في «تاريخ الطبري» ٢: ٤٠٨.

٢ - هكذا في المصدر المذكور، وفي «فتح الباري» ٦: ٦١٣: عمر بن أسيد، وهو المعروف في هذا الرسم، فلعله الصواب، والخبر الآتي هو في «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن عبد الحكم ص ١٢٨ عن «رجل من ولد زيد بن الخطاب».

وَلْيَلْقَيْنَ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمان يُترجم له
فيقولن: أَلَمْ أبعث إليك رسولا فَيَلْغَك؟ فيقول: بلى، فيقول: أَلَمْ
أعطك مالا وَأُفْضِلَ عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا
جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم!».!

وفي «سيرته» لابن عبد الحكم ص ٦٩: «قال يحيى بن سعيد: بعثني عمر
ابن عبد العزيز على صدقات إفريقية، فاقترضتها، وطلبت فقراء نعطها لهم فلم نجد
بها فقيرا، ولم نجد من يأخذها مني. قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس، فاشتريت
بها رقابا فاعتقتهم، وولاؤهم للمسلمين».

ولكن ماذا بعد هذا الغنى؟.

بعده التخلي الكامل عنه من كل إنسان باختياره أو اضطراره، والانتقال عنه
إلى بيت الوحدة وصندوق العمل: إلى القبر!.

ثم من القبر إلى لقاء الله عز وجل والوقوف بين يديه للحساب والجزاء كفاحا
دون واسطة ولا حاجز: «وَلْيَلْقَيْنَ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمان
يترجم له» إنما الله العليم الخبير هو السائل، وأنت أيها العبد الضعيف الجاني
المستول!.

«أَلَمْ أبعث إليك رسولا فَيَلْغَك؟ فيقول - العبد -: بلى. فيقول: أَلَمْ أعطك
مالا وَأُفْضِلَ عليك؟ فيقول: بلى». إذا فما عملت فيما علمت ورزقت؟

وكما أن من الأجوبة ما يسمى: أجوبة مُسَكَّنة، كذلك هناك أسئلة مُسَكَّنة،
فاحرص أيها المسلم على أن لا تكون ممن يُسأل أسئلة مسكَّنة، فهي أسئلة لإقامة
الحجة على العبد المقصر. لذلك يقع هذا العبد في الحرج، فيلتفت يَمَنَةً وَيسرةً
ليرى مهربا فلا يرى إلا ما يسوءه غاية السوء، لا يرى إلا جهنم! فأين المهرب؟ فما
هو إلا أسوأ حالا من المُسْتَجِير من الرُمضاء بالنار.

إلا أن سيدنا رسول الله ﷺ الرؤوف الرحيم بالمؤمنين، لم يتركنا خيارى في

قال عدي: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ».

هذا الموقف الرهيب، بل دللنا على النجاة منه بما لا يضرُّنا، فقال: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ...». والرواية المذكورة فوق تُوهِم أنه حديث آخر لا ارتباط بين هذه الجملة والتي قبلها، لكن الرواية الأخرى في كتاب الزكاة الارتباط بينهما واضح، وأنهما حديث واحد، جاء ذلك بحرف الفاء التي تفيد تفریع ما بعدها عما قبلها: «فَلْيَتَّقِينَ أَحَدُكُم النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ...».

ذلك أن النار مظهرُ غضبِ الربِّ جل جلاله، والصدقة تُطفئُ غضبَ الربِّ^(١)، فلذلك جاء الإرشاد النبويُّ إلى اتِّقاء نار جهنم بالصدقات ولو قلَّت وخَفَّت فإنها في ميزان الله تعالى كبيرةٌ ثقيلة، حتى لو كانت شِقَّ تَمْرَةٍ، فإنها بالنظر إلى ما عند المتصدِّق بها كثيرة، ويزيدها كثرةً إخلاصه، وعظمُ موقعها لدى المتصدِّق عليه، فقد تسدُّ منه رَمَقًا، وتسدُّ أزرًا.

ففي «المسند» ٦: ٧٩ «يا عائشةُ استتري من النار ولو بشق تَمْرَةٍ، فإنها تسدُّ

١- ورد ذلك في عدة أحاديث تؤيِّد بعضها بعضاً، منها عند الترمذي ٣: ٢٦ (٦٦٤) وقال: حسن غريب، وخولف، والطبراني في «الكبير» ٨: ٢٦١ (٨٠١٤) عن أبي أمامة، وحسنه الهيثمي في «المجمع» ٣: ١١٥، وعند ابن عساكر عن عبدالله عباس، وهو في «الجامع الصغير» للسيوطي ٢: ٤٥٦ بشرحه للمناوي، وحديث عبدالله بن جعفر، عند الطبراني في «الأوسط»، وضعفه الهيثمي ٣: ١١٠، ومعاوية بن حنيفة في «الأوسط» أيضاً، وضعفه المناوي ٢: ٤٥٧ في الشرح، وليس في المتن، وحديث أبي سعيد الخدري عند أبي أحمد العسكري في «السرائر»، ذكره السيوطي في «الجامع» أيضاً ٤: ١٩٣ بشرحه، وعند الطبراني في (الكبير) ١٧: ٢٨٦ (٧٨٧) عن عقبة بن عامر بلفظ: «إن الصدقة لتُطفئُ من حرِّ القبور» و(٧٨٨) بلفظ: «إن الصدقة لتُطفئُ عن أهلها حرَّ القبور».

وفي إسناده الرواية الأولى الحكم بن يعلى بن عطاء: متروك الحديث، منكر الحديث، عند أبي حاتم، ونحوه عند أبي زرعة، انظر «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم ٣: ١٣٠ (٥٨٩)، وفي إسناده الثانية: رشدين بن سعد، ضعيف الحديث مع صلاحه في دينه. وإعلال الهيثمي له بابن لهيعة - ومتابعة ناشر «المعجم الكبير» له -: فيه نظر، فإن ابن لهيعة مقرون في الإسناد برجلين: عمرو بن الحارث وهو ثقة فقيه حافظ، والحسن بن ثوبان، وهو صدوق فاضل، كما في «تقريب التهذيب». فلا يستحق الحديث أن يُعلَّ به. وعلى كل: فالمعنى ثابتٌ بجملة هذه الأحاديث.

قال عدي: فرأيت الظعينة تَرْتَحِلُ من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخافُ إلا الله، وكنتُ فيمن افتتح كنوز كسرى بن هُرْمَز، ولئن طالت بكم حياة لَتَرَوُنَّ ما قال النبي أبو القاسم ﷺ: «يُخْرِجُ مِلءَ كَفِّهِ».

من الجائع مسدّها من الشبعان» وإسناده حسن، كما في «فتح الباري» ٣: ٢٨٤. ولا يعجبني القاريء أو السامع من مثل هذه الافتراضات من النبي ﷺ فيقول: هل يُتَصَوَّرُ أَنْ يَضِيقَ الأمر على إنسان فلا يجد ما يتصدَّقُ به إلا شقُّ تمره!.

لقد حَصَلَ هذا في بيت النبوة، في بيت سيّد ولدِ آدمَ عليهما الصلاة والسلام! فقد روى البخاري في «صحيحه» ٣: ٢٨٣ (١٤١٨) - من «فتح الباري» - عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت امرأة معها ابنتان تسأل، فلم تجد عندي شيئاً غير تمره! فأعطيتها إياها، فقسّمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها، ثم قامت وخرجت، فدخل النبي ﷺ علينا فأخبرته فقال: «مَنْ ابْتُلِيَ مِنْ هذه البنات بشيء كُنْ له سِتْراً من النار».

وَرَوَى قبله بحديث عن أبي مسعود الأنصاري البصري رضي الله عنه قوله: كان رسول الله ﷺ إذا أمرنا بالصدقة انطلق أحدنا إلى السوق فَتَحَامَل، فَيُصِيبُ المُدَّ، وإنَّ لبعضهم اليوم مائة ألف. ولو كان يجد تمره أو شقّها لتصدَّقَ به، وأغنى نفسه عن مشقة مؤاجرة ظهره للحُمولة بِمُدٍّ من طعام ليتصدَّقَ به. وانظر عِظَمَ أجر الصدقة! وانظر حرصَ الصحابة رضي الله عنهم على كسب الثواب!.

ثم لو ضاقت عليه الصدقة فلم يجد شقَّ تمره، أو بصله ونحوهما: فإنه لا يَعدُّ لساناً ناطقاً أو إشارةً مُفهِمةً فيها دلالةٌ على خير، أو إرشاد إلى برٍّ، أو إشارةً إلى معروف، أو نحو ذلك مما يدخل تحت قوله ﷺ: «فمن لم يجد شقَّ تمره فبكلمة طيبة» أي: فليقلِّق النار بكلمة طيبة، ولا يليقُ بعاقِلٍ عَرَفَ نار جهنم وأهوالها أن يُقَصِّرَ في اتقانها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، قبل أن يتلفَتَ يميناً ويساراً فلا يرى سواها. اللهم أجِرنا من النار وأسبابها برحمة منك يا أرحم الراحمين.

٣١- عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَعْجَبُ رَبُّكُمْ مِنْ رَاعِي غَنَمٍ فِي رَأْسِ شَظِيَّةٍ بِجَبَلٍ،

٣١- تخريجه: رواه أبو داود في كتاب الصلاة - باب الأذان في السفر ٢ : ٩ (١٢٠٣). والنسائي في باب الأذان لمن يصلي وحده ٢ : ٢٠ (٦٦٦).

وقال المنذري في «تهذيب سنن أبي داود» ٢ : ٥٠ : «إسناده ثقات». غريبه : شَظِيَّةٌ : قطعة مرتفعة في أعلى الجبل.

معناه: هذا مثال من أمثلة الخوف من الله عز وجل، يكون سبباً لنجاة صاحبه من النار، ودخوله الجنة.

فصاحبه في مكانٍ منعزلٍ قاصٍ عن الناس، لا يراه أحدٌ منهم فيخاف أمره ونهيهِ ولومهِ، يعلم أنه لا يراه أحدٌ إلا الله، فيقوم لأداء حقِّ الله عليه، إعظاماً لهذا الحق، وإخلاصاً لله، وإلا فما الدافع له وهو في هذه الحال؟!.

فيقوم: يكبر الله، ويشهد له بالوحدانية، ولنبيِّه محمد ﷺ بالرسالة، ويُنادي مَنْ يسمعه من سكان المكان وعامريهِ إلى الصلاة والفلاح، ثم يُثني فيكبر الله ويهلِّله، ثم يجيبُ نفسه بنفسه إلى الصلاة فيؤدِّيها.

فهو موقف يُرضي الله سبحانه، ويُعظم صاحبه عليه، إنه موقف مراقبة لله وإخلاص له، لا يحمل صاحبه عليه إلا شهوده حقَّ الله عليه وخوفه المقام بين يديه، وإن الله عز وجل أكرم من أن يجمع على عبده خوفين: خوفه الله في الدنيا، وخوفه عذابه في الآخرة. بل إن خافه العبدُ في الدنيا أمَّنه في الآخرة، وإن أمَّنه العبدُ في الدنيا أحافه الله في الآخرة.

قال الله تعالى على لسان الأبرار: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا غَنُوسًا قَمَطِرِياً. فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾.

يُؤذَنُ بالصلاة وَيُصَلِّي، فيقول الله عز وجل: انظروا إلى عبدي هذا، يُؤذَنُ وَيُقِيمُ الصلاة، يخافُ مني، قد غَفَرْتُ لعبدي وأَدْخَلْتُهُ الجنةَ».

فمن خاف الله في الدنيا حَفِظَهُ الله في الآخرة من مكارهها، وَأَنَالَهُ نعيمها وسرورها. نسأل الله ذلك من فضله.

وِثْمَةٌ دَقِيقَةٌ في الحديث، يقول الله فيه: «قد غَفَرْتُ لعبدي...»، وهذا تنبيه إلى أن العبدَ الذي لم يَذْكُرِ الله من شأنه إلا الخير، لا يخلو من هَفَوَات ومؤاخذات، لكن الله الرحمن الرحيم يَغْفِرُها له ولا يؤاخذُه عليها، ويدخلُه الجنةَ.



٣٢ - عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَلَّى صلاةً لم يقرأ فيها بأَمِّ القرآن فهي خِدَاجٌ - ثلاثاً - غيرَ تَمَامٍ».

فَقِيلَ لأبي هريرة: إنا نَكُونُ وراءَ الإمام؟ فقال: أَقْرَأُ بها في نَفْسِكَ، فَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:

«قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصلاةَ بيني وبين عبدِي نصفين، ولعبدِي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الحمد لله ربَّ العالمين﴾ قال الله تعالى: حَمَدَنِي عبدِي، وإذا قال: ﴿الرحمن الرحيم﴾ قال الله تعالى: أَثْنَى

٣٢ - تخريجه: رواه مسلم: كتاب الصلاة - باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة ١: ٢٩٦ (٣٨). والنووي ٤: ١٠١.

غريبه: خِدَاج: غير تمام، كما فُسِّرَتْ في الحديث.
قسمت الصلاة: قسمت الفاتحة. ومن أسماء الفاتحة: الصلاة، أخذاً من هذا الحديث.
مَجْدَنِي: عَظَّمَنِي.

معناه: في هذا الخبر حديثان يرويهما أبو هريرة رضي الله عنه، أولهما حديث نبوي، وثانيهما هو الحديث القدسي.

وفي الأول يقول عليه الصلاة والسلام: من لم يقرأ الفاتحة في صلاته فصلَّاته ناقصةٌ غيرُ تامة. والنقصانُ غيرُ الفساد.

وفي الثاني: يقول الله تعالى: جَعَلْتُ الفاتحةَ نصفين نصفاً لي، فيه الثناء والحمدُ والتمجيدُ، ونصفاً لعبدي فيه الدعاءُ له، ومنى الإجابة والعطاء.

عليَّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ قال الله: مَجْدُنِي عبدي - وقال مرةً: فَوُضَ إِلَيَّ عبدي -.

«فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولِعَبْدِي ما سَأَلَ، فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ. غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضَّالِّينَ﴾ قال: هذا لعبدي، ولعبدِي ما سَأَلَ».

قال الإمام النووي رحمه الله: «وقوله تعالى: حَمْدُنِي عبدي، وأثنى عليَّ، ومَجْدُنِي، إنما قاله لأن التَّحْمِيدَ: الثَّناءُ بِجَمِيلِ الْفِعَالِ، والتَّمَجِيدُ: الثَّناءُ بِصِفَاتِ الْجَلَالِ، ويقال «أثنى عليه» في ذلك كُلِّهِ، ولهذا جاء جواباً للرحمن الرحيم، لاشتغال اللفظين على الصفات الذاتية والفعلية.

«وقوله: وربما قال: فَوُضَ إِلَيَّ عبدي»: وَجْهُ مُطَابَقَةٌ هَذَا لِقَوْلِهِ ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾: أن الله تعالى هو المنفردُ بِالْمَلِكِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وبِجَزَاءِ الْعِبَادِ وَحَسَابِهِمْ - وَالدِّينِ: الْحِسَابُ، وقيل: الْجَزَاءُ - وَلَا دَعْوَى لِأَحَدٍ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَلَا مَجَازَ، وَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَلِبَعْضِ الْعِبَادِ مَلِكٌ مُجَازِيٌّ، وَيَدْعِي بَعْضُهُمْ دَعْوَى بَاطِلَةٍ، وَهَذَا كُلُّهُ يَنْقُطِعُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ. هَذَا مَعْنَاهُ.

«وإلا فالله سبحانه وتعالى هو المَالِكُ وَالْمَلِكُ^(١) على الحقيقة للدارين وما فيهما وَمَنْ فِيهِمَا، وَكُلٌّ مِنْ سِوَاهِ مَرْبُوبٌ لَهُ، عَبْدٌ مُسَخَّرٌ، ثُمَّ فِي هَذَا اعْتِرَافٌ مِنَ التَّعْظِيمِ وَالتَّحْمِيدِ وَتَفْوِضُ الْأَمْرِ مَا لَا يَخْفَى».

* * *

١ - يشير رحمه الله إلى القراءتين المتواترتين: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾، و﴿مَلِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾.

٣٣- عن حُرَيْثِ بْنِ قَبِيصَةَ قَالَ: قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ يَسِّرْ لِي جَلِيساً صَالِحاً، قَالَ: فَجَلَسْتُ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقُلْتُ:

٣٣- تخريجه: رواه الترمذي في كتاب الصلاة - باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة ٢: ١٣٧ (٤١٣)، وقال: حسن غريب، وهذا لفظه = ٢: ٢٦٩ (٤١٣)، ورواه النسائي في كتاب الصلاة - باب المحاسبة علي الصلاة ١: ٢٣٢ (٤٦٥)، ورواه أبو داود في كتاب الصلاة - باب قول النبي ﷺ: كل صلاة لا يُتمها صاحبها تَمُّ من تطوُّعه ١: ٥٤٠ (٨٦٤) عن أبي هريرة، ثم رواه نحوه ١: ٥٤١ (٨٦٦) عن تميم الداري، وذكر جملة واحدة من آخره، ورواه ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة - باب ما جاء في أول ما يحاسب به العبد الصلاة ١: ٤٥٨ (١٤٢٥) عن أبي هريرة، ثم رواه نحوه عن تميم الداري.

معناه: في صدر هذا الحديث تنبيهٌ عظيمٌ الأهمية لكل مسلم، يتعلَّق بسلوكه العام، وبحالٍ خاصةٍ من أحواله، هو قولُ راوي الحديث: إني دعوتُ الله عز وجل أن يرزقني جليساً صالحاً، فحدَّثني...

فاختيارُ الجليس، وسؤالُ الله تعالى أن يكون جليساً صالحاً: أمرٌ هامٌ في حياة كلِّ مسلم، ولا مجالَ الآن للإفاضة فيه، لكن الذي يلفتُ النظر في كلام هذا التابعي رحمه الله تعالى أنه قال: قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ، وذكرُوا في ترجمته أنه بصريٌّ، فيكون قد قَدِمَ الْمَدِينَةَ مسافراً إليها من البصرة، وبما أنه غريبٌ البلد رَغِبَ إلى الله عز وجل أن يُهيِّئَ له جليساً صالحاً يستفيد منه.

وفائدة أخرى في كلامه رحمه الله تعالى، وهي أنه فور جلوسه إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال له: إني دعوتُ الله أن يرزقني جليساً صالحاً فحدَّثني...، فعجَّلَ بطلب الفائدة العلمية من هدي سيدنا رسول الله ﷺ. فهكذا فليكن المسلم، حِرْصاً على الجليس الصالح، ومبادرةً إلى الاستفادة من العلم والخير.

إني سألتُ الله عز وجل أن يرزقني جليساً صالحاً، فحدّثني بحديثٍ سمعته من رسول الله ﷺ، لعل الله أن ينفعني به، فقال: سمعت رسول

ولم يكن هذا الخلق شأنَ هذا الرجل حسب، بل نُقِلَ مثله عمن هو أجلُّ منه، ففي « صحيح البخاري » ٧ : ٩٠ (٣٧٤٢) عن علقمة بن قيس أنه قال : قدمت الشام فصليت ركعتين ثم قلت : اللهم يسر لي جليساً صالحاً ، وذكر حديثه مع أبي الدرداء والحديث عند مسلم دون هذه الجملة ٦ : ١٠٩ . وعند الترمذي ٩ : ٣٥٥ (٣٨١٣) وقال : حسن غريب صحيح ، عن خيثمة بن أبي سبرة أنه قال : أتيت المدينة فسألت الله أن يسّر لي جليساً صالحاً ، فيسّر لي أبا هريرة .

أما معنى الحديث الشريف: ففيه الدلالة على أهمية الصلاة في الإسلام، وعلى لطف الله بعبده، وعلى الترغيب بفعل نوافل العبادات.

أما أهمية الصلاة ومكانتها في الإسلام: فتستفاد من تقديم الله عز وجل لها بالمحاسبة عليها، فإنها أول ما يُحاسب عليه العبد، وفوزُه في هذا الحساب علامة على فوزه فيما بعده.

ومعلوم أن الحقوق قسمان، حقوقُ الله تعالى، وحقوقُ لعباده بين بعضهم بعضاً، فهذه الأوليّة: إنما هي بالنسبة لحقوق الله سبحانه، وأما أول ما يُحاسب عليه العبد من بين حقوق العباد، فهو الدماء.

روى البخاري في الرقاق ١١ : ٣٩٥ (٦٥٣٣) وأول الديات ١٢ : ١٨٧ (٦٨٦٤)، ومسلم في كتاب القسامة - باب المُجازاة بالدماء في الآخرة ١١ : ١٦٧ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة الدماء».

ولا ريب أن الأوليّة دليلُ الأهمية.

وأما لطفُ الله بعبده: ففي تداركه تقصير العبد في هذا الركن الركين من أعمال الإسلام، وهو الصلاة، فإنه سبحانه لم يُؤاخذ العبد لأول وهلةً ظهر فيها نقصه، بل أمر ملائكته أن تنظر في نوافله من جنسها، فإن وُجدت له نوافل جعلتها الملائكة جوائز للفرائض الناقصة.

وهل النوافل تجبر الصلاة التي أخل المصلّي بسننها مثلاً وخشوعها، فقط، أو

الله ﷺ يقول: «إن أول ما يُحاسبُ به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صَلَحَتْ فقد أَفْلَحَ وأنجح، وإن فَسَدَتْ فقد خاب وخسر، فإن انتقصَ من فريضته شيءٌ قال الرب عز وجل: انظروا هل لعبدي من تطوُّع، فيكْمُلُ بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائرُ عمله على ذلك».

أنها تجبر هذا النوع وتجبر أيضاً وتُسَدُّ مسدَّ الصلاة التي لم يُصلِّها أبداً؟ قولان للعلماء، انظرهما في «حاشية السيوطي» على «سنن النسائي».

وظاهرُ كلامهم أن سائر الأعمال من الزكاة والصيام والحج يجري فيها الخلاف على هذا النحو، لقوله آخر الحديث: «ثم يكون سائرُ عمله كذلك».

وأما الترغيب بالقيام بالنوافل: فواضح من قول الله عز وجل للملائكة: «انظروا هل لعبدي من تطوُّع»، فلا ينبغي للمسلم التهاون بها، والنظرُ إليها نظرة العمل (الثانوي)، فإنه سيندم على تقصيره بها أحوَج ما يكونُ إليها، لِتُتِمَّ له فرائضه، فإن تمت له فرائضه: فقد أَفْلَحَ وأنجح، كما قال ﷺ في الحديث: «فإن صَلَحَتْ فقد أَفْلَحَ وأنجح» وإلا فيا خسارته ويا ندمه!

وهل يليقُ بمسلم أن يتهاون بركعتي سنة الفجر - مثلاً - وهو يسمعُ قول رسول الله ﷺ: «ركعتا الفجر خيرٌ من الدنيا وما فيها؟» والحديث رواه مسلم ٦: ٥.

أو هل يليقُ به التهاون بأربع ركعاتٍ قبل فريضة الظهر وأربع بعدها وهو يسمعُ قول رسول الله ﷺ: «من صَلَّى قبلَ الظهر أربعاً وبعدها أربعاً حرَّمه الله على النار» رواه أصحاب السنن وقال الترمذي ٢: ١٥٣ (٤٢٧): «حسن غريب» ثم رواه بلفظ: «من حافَظَ على أربع ركعات..» وقال: «حسن صحيح غريب».

وروى الترمذي أيضاً - وغيره - ٢: ١٥٥ (٤٣٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: «رحم الله امرأً صَلَّى قبلَ العصر أربعاً» وقال: «غريب حسن». ومن منا غيرُ مفتقرٍ إلى رحمة الله تعالى، لا سيما والداعي لك بالرحمة هو سيدنا رسول الله ﷺ؟!.

والركعتان اللتان بعد المغرب من جملة اثنتي عشرة ركعة حَضَّ النبي ﷺ

عليها مع المواظبة والمثابرة، في كل يوم وليلة، ووَعَدَ من ثابر عليها بيتُ في الجنة. والحديث في «صحيح مسلم» دون تعداد لركعات النوافل، وجاء بيانها وتعدادها في رواية الترمذي - وغيره - ٢: ١٤٠ (٤١٥) وقال: حسن صحيح، ولفظه: «من صَلَّى في يومٍ وليلةٍ ثنتي عشرة ركعةً بُني له بيتٌ في الجنة: أربعاً قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء، وركعتين قبل صلاة الفجر».

وهذا ما يُسمّيه العلماء بالنوافل الراتبّة، أي: الدائمة الثابتة ذات الوقت المعيّن.

وهناك النوافل المطلقة التي لا تحدّد بوقت: كهذه، ولا بسبب: كتحية المسجد، وسنة الوضوء، إنما هي تطوُّع محض لله عز وجل.

والنوافل - جميعها - تدخل تحت قوله تعالى في الحديث القدسي التالي رقم (٣٤): «وما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بالنوافل حتى أُحِبَّهُ...». وفيه: أن من أسباب إجابة الدعاء الإكثار من النوافل.

فهل يليقُ بمسلم أن يتهاون بالنوافل وينظر إليها تلك النظرة التي تُهَوِّنُ عليه تَرْكُهَا؟!.

فإن قال قائل: إذا كنا نحافظ على القيام بالنوافل كمحافظتنا على الفرائض، فما الفرق بينهما من الناحية العملية؟.

أقول في الجواب: إن السلف الصالح رضي الله عنهم لم يكونوا يفرّقون من الناحية العملية بين أشدّ الفرائض الإسلامية - كفريضة الصلاة مثلاً - وبين أدنى السنن العملية الفقهية، بل كانوا يحرصون - عملاً - على هذا وذاك، إنما التفرقة من حيث الاعتقاد، كانوا يعتقدون أن هذا سنة، وهذا فرض، ويحكمون - ويعتقدون - على من أنكر فريضة بالكفر، ولا يحكمون به على من أنكر سنة غير معلومة من الدين بالضرورة.

قال القرطبي: «من داوم على ترك السنن كان نقصاً في دينه، فإن كان تَرْكُهَا تهانواً بها ورغبةً عنها كان ذلك فسقاً - يعني لورود الوعيد عليه حيث قال ﷺ: «من

رغب عن ستي فليس مني» - وقد كان صدر الصحابة ومن تبعهم يواظبون على السنن مواظبتهم على الفرائض، ولا يفرقون بينهما في اغتنام ثوابهما، وإنما احتاج الفقهاء إلى التفرقة لما يترتب عليه من وجوب الإعادة وتركها، وجوب العقاب على الترك ونفيه. نقله عنه الحافظ في «فتح الباري» ٣: ٢٦٥.

ومن هذا المنطلق أوصى بعض العلماء أصحابه فقال: «اجعلوا النوافل كالفرائض، والمعاصي كالكفر» أي: من حيث الحرص على الأداء للنوافل، والترك والاجتناب للمعاصي.

وإن فقهاءنا رحمهم الله تعالى وهم الذين يرتبون هذه المراتب - هذا مستحب، وهذا سنة، وهذا واجب، وهذا فرض، وذاك حرام، ومكروه، وخلاف الأولى - لم يكونوا في تطبيقهم العملي إلا على هذي السلف الذي شرخته، ومعاذ الله أن يكونوا متهاونين في أداء النوافل، متساهلين في ارتكاب المكروهات، كما قد يفهم هذا عنهم بسبب تقسيماتهم المذكورة!

ولا مجال الآن للإفاضة في الحديث عن ورعهم، وزهدهم، وتحريهم للحلال، ومحاسبتهم لأنفسهم، وإكثارهم من النوافل وألوان العبادات، رضي الله عنهم، فكتب الطبقات والتراجم مستفيضة بأخبارهم في هذا الصدد، مما يجعلهم منارات يسترشد بها السالكون.

اللهم وفقنا لكل خير يرضيك عنا يا أكرم الأكرمين.



٣٤- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل قال: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ،

٣٤- تخريجه: رواه البخاري في كتاب الرقاق - باب التواضع ١١: ٣٤٠ (٦٥٠٢).

معناه: هذا الحديث الشريف من مشهور الأحاديث القدسية، ومن أشدها هيبة وجلالة في نفس سامعه والمتدبر لمعانيه.

وفيه حضٌ أكيدٌ ودعوةٌ لازمة، إلى تقوى الله عز وجل وملازمتها والازدياد منها ما استطاع العبد المسلم، ليحظى بحبِّ الله له.

يقول الله تعالى فيه: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ».

من هو الولي؟ وما مُعَادَاتِهِ المرادة هنا؟ وكيف تكون الحرب من الله لمن عادى ولياً من أوليائه؟.

الولي: هو كلُّ مؤمنٍ تقيٍّ. قال الله عز وجل: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾. فعرف القرآن الكريم الوليَّ الله بأنه مؤمنٌ تقيٍّ. ولا بدُّ لكلِّ مؤمن أن يكون تقيًّا، مهما كان غارقاً في معاصيه، على معنى أنه آمنٌ فاتقى الشرك والكفر، فهو تقيٌّ تقوى عامة، وبهذا المعنى تكون ولايته عامةً.

أما الوليُّ المذكورُ هنا في الحديث: فهو الوليُّ بالمعنى الخاص، فتقواه تقوى أهلِ الخصوص، وأهلِ الخصوص على مراتب متفاوتة، فتقواهم الله عز وجل متفاوتة، وجميعهم وصلوا إلى رتبة الولاية الخاصة.

فهؤلاء هم الذين يتصبرُ الله تعالى لهم إذا أُوذوا، ويدافع عنهم إذا اعتدي عليهم، فيرضى لرضاهم ويغضب لغضبهم، ويتنقم ممن أساء إليهم، ويحسن إلى

من أحسن إليهم. ذلك لأنهم وآلوا الله في دينه وأحكامه، فَطَبَّقُوا دَعْوَا إِلَيْهَا وَعَلَّمُوا النَّاسَ، فوالاهم الله تعالى في أمورهم الدنيوية والأخروية.

ومن معاني الموالات: المناصرة.

أو على معنى: أنهم تَوَلَّوْا الله. أي: أَقْبَلُوا عليه وأعرضوا عما سواه، فتولاهم الله. أي: أَقْبَلَ عليهم الله ربُّ العالمين، فكان لهم عوناً ونصيراً، ولم يتركهم لأنفسهم أو للناس، فتولَّى شؤونهم كلها بالتدبير الخاص.

والأولياء على هذا المعنى: هم صفوة المؤمنين، ولا ريب أنهم على مراتب متفاوتة كثيرة جداً. وكلما عُلِّتْ مرتبةُ هذا الرجل الصالح: كلما ازداد انتصار الله له.

أما معاداة الوليِّ المذمومة، وهي المراتدة في الحديث: فهي ما لم تكن لله، بل لمارب شخصية دنيوية، ولم تكن ناشئة عن اختلاف وجهات النظر.

أما إذا كانت المعاداة لله وفي الله: فلا يترتب عليها الوعيد المذكور، وقد جرى بين بعض الصحابة رضوان الله عليهم مشاجرة لله تعالى، فلا يدخلون تحت هذا الوعيد.

إنما المعاداة في دنيا يُيسِّرُها الله لهذا الولي الصالح، فيحسده عليها غيره، أو إقبال من الناس عليه ينتفعون بعلمه وتعليمه، فيُبَغِّضُ على ذلك من قبل بعض الناس الهلكي، فينفِرون الناس عنه ويُشيعون عليه الإشاعات الكاذبة... أو جاء ومكانة عند ذي سلطان يستخدمه الولي في قضاء حوائج المسلمين، فتَحْمِلُ النفس الشريرة صاحبها على بغض هذا الصالح، لما يُجرِّيه الله على يديه من منافع للمسلمين... وما إلى ذلك.

والمعاداة في ظاهرها تكون من طرفين: من طرف المِبْغِضِ المُعَادِي، ومن طرف الوليِّ. إنما يَخْتَلِفُ المَنْزَعُ الذي يَنْشَأُ عنه العداة، فالوليُّ يُعَادِي مِبْغِضَ الله لا لحظ نفسي دنيوي، وذاك: يُبْغِضُ الوليُّ بدافع شيطاني نفسي دنيوي. فاختلفاً، فأحدهما مأجور - وهو الوليُّ -، والثاني مأزور - وهو المعادي له.

وأما محاربة الله لمعادي أوليائه: فالمراد منها لازم الحرب، أي: ما ينتج عن

وما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مما افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ،

الحرب وما ينشأ عنها، وهو إهلاك الله عز وجل الغالب القاهر لكل من يُعادي ولياً له، إذ المخلوقات كلها في أسر الله وتحت تصرفه، فكيف يُحاربونه؟ إنما هو سبحانه يُحاربهم فيهِلِكُهم. وإن جنود الله التي يحارب بها أعداء أوليائه كثيرة لا تدخل تحت الحصر: ﴿وما يَعْلَمُ جنودَ رَبِّكَ إلا هو﴾.

ومما ينبغي أن يُتأمل في هذا التعبير العظيم: «مَنْ عادى لي ولياً..» تقديم الجار على متعلقه فقال: لي ولياً، ولم يقل: من عادى ولياً لي، وهذا معروف في أساليب لغة العرب، يُراد منه مزيد اختصاص الله لهذا الولي.

وقوله: «أَذَنَّهُ بالحرب» أي: أعلمته بها وأنذرته، فسيبدأ نزول البلاء به، فإن كان عاقلاً حكيماً اتَّعَظَ واعتبر، وانزجر عما هو واقع فيه، فإن هؤلاء خاصتي من خلقي، وعلى سائر خلقي حبهم لا مُعاداتهم. قال العلامة ابن حجر المكي في «فتح المبين» ص ٢٧٠: «وإذا عُلِمَ ما في معاداة الولي من عظيم الوعيد والتهديد: عُلِمَ ما في مَوالاته من جسيم الثواب وباهر التوفيق، والهداية والقرب والتأييد».

ثم بين سبحانه طريق الولاية. فأشار إلى أنها ذات مرتبتين: طريق الفرائض وطريق النوافل، أو إن شئت قلت: قرب الفرائض، وقرب النوافل.

قال سبحانه: «وما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مما افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ». فأحب ما يُتَقَرَّبُ به إلى الله عز وجل: أداء فرائضه على اختلاف أنواعها: البدنية كالصلاة والصيام، والمالية كالزكاة، وما يجمع بينهما كالحج والجهاد، والقلبية كذكر الله تعالى، والقلبية واللسانية كذكر الله - أيضاً - وتلاوة القرآن.

ويدخل في الفروض: ما كان تركاً كترك السرقة والخمر.. والغيبة والحقد والحسد... وما إلى ذلك.

ولا ريب أن هذه الأعمال تُحِبُّ صاحبها إلى الله عز وجل. إلا أن الحديث ذكر حباً خاصاً من قِبَلِ الله عز وجل للعبد، وذلك في قوله:

«وما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ».

وذلك هو قربُ النوافل الذي ينشأ عنه حبُّ الله عز وجل لصاحبه، وهذا هو الحبُّ الخاص.

وسببه: أن لسان حال صاحب النوافل يقول: اللهم إنك تحبُّ من الأعمال كذا وكذا، فأنا سأعملُها وأداومُ عليها وأكثُر منها، ابتغاءَ قُربك ورضاك، ولأنك تحبُّها، فأنا ما حييتُ ساع في محابِّك وما يزيدني قرباً إليك ورضاءً عني... وإن الله أكرم من أن يخيبَ من هذا رجاؤه ومُنَاه.

قال سيدنا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «إنك ما كنتَ في صلاةٍ فإنك تَقْرَعُ بابَ المَلِكِ، ومن يُكثِرُ قَرَعَ بابِ المَلِكِ يُوشِكُ أن يُفْتَحَ له»^(١).

والدليل على أن صاحب النوافل عازمٌ على دوامِ النوافل والإكثارِ منها: التعبير بـ «وما يزال عبيدي» فإنها تفيد الدوام والاستمرار.

والدليل على أن قَصْدَ المتنفلِ التحبُّبُ إلى الله عز وجل: روايةُ الطبراني - على ضعفٍ فيها - عن أبي أمامة رضي الله عنه، وفيها: «ولا يزالُ عبيدي يتحبَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتى أحبه»^(٢).

والنوافلُ: هي الطاعاتُ الزائدةُ على الفرائض، فالصلواتُ الزائدةُ على الصلوات المفروضة، والصدقاتُ الزائدةُ على الزكاة المفروضة، والصيام والحج... وحفظ القرآن الكريم - ما زاد منه على المفروضِ حفظه للصلاة - وهكذا، كلُّها نوافلٌ يَتَقَرَّبُ بها العبدُ إلى ربه سبحانه، ويُسمَّى: قربُ النوافل.

وهذه الفرائضُ ينبغي أن يُلاحَظَ فيها الفرائضُ العينيةُ المتوجِّبةُ على كل مسلم بعينه، والفرائضُ الكفائيةُ التي تجبُ أولَ ما تجبُ على جماعة المسلمين، فإذا قصرَ بها كثيرون وبقيت ثلَّةٌ من المسلمين تعمل بهذا الفرض الكفائي، وكان بحيث إذا تخلف بعضهم لا يَتِمُّ القيامُ به، فقد انقلب الكفائيُّ إلى فرض عيني، وإذا وُجد جماعةٌ من المسلمين قائمةٌ به وسُدَّت الحاجةُ بها: صار هذا الفرض الكفائي سنَّةً

١ - قال الهيثمي في «المجمع» ٢: ٢٥٧: «رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح».

٢ - انظر «المعجم الكبير» للطبراني ٨: ٢٦٤ (٧٨٨٠) و«مجمع الزوائد» ٢: ٢٤٨ و«الفتح»

عينية في حق باقي المسلمين. فالفرض الكفائي: إما أن ينقلب إلى فرض عيني، وإما أن ينقلب إلى سنة عينية.

وحفظ القرآن الكريم كله من هذا القبيل.

وهل قُربُ الفرائضِ أعلى درجةً أو قرب النوافل؟

والجواب: أن قرب الفرائض أعلى درجة، لأنه لا تكون نوافل إلا بعد أداء الفرائض، فبالفرائض كانت النوافل، فهي قاعدتها وأساسها، أما أن يأتي الإنسان بالنوافل دون الفرائض فهذا أحمق مغرور على شفا جُرُف.

والنوافل متممة مكملة للفرائض، كما روى الترمذي ٢: ١٣٧ (٤١٣) وحسنه، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله: صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيء قال الرب عز وجل: انظروا، هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك» وتقدم شرحه برقم ٣٣.

فالنوافل شُرعت لتكميل ما يخل به العبد في الفرائض. ولذلك كان قرب الفرائض أعلى رتبة.

وقد يُخَيَّل إلى بعض الناس أن قُرب النوافل أعلى درجة، أخذاً من ظاهر لفظ هذا الحديث: كنت سَمَعَه الذي يسمع به...، ومن ظواهر أحاديث أخرى تقدم بعضها في شرح الحديث ٣٣: ركعتا سنة الفجر خير من الدنيا وما فيها، صلاة أربع ركعات قبل فرض الظهر وأربع بعده تُحرّم صاحبها على النار، و«رحم الله امرأً صلى قبل العصر أربعاً»، وهكذا مما لم يرد مثله في الفرائض.

وجوابه: توضيحُ قلبي السابق: لا تكون نوافل إلا بعد أداء الفرائض، وأن الفرائض أساس النوافل، ويكون ذلك بالمثل.

إن منزلة النوافل من الفرائض: منزلة الزخرفة والزينة للبيت، فالبناء من جدران وأرض وسقف: هو الأساس الذي يقوم به كيان البيت، ثم تأتي ألوان الزخارف والتجميل بعد ذلك، ولولا ذلك الحجر لما كانت ألوان الزينة، فعلى أي

فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلْنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلِئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ،

شيء ترتكز الدّهانات والرسوم والتشكيلات، وبِم تتعلّق القناديل...؟؟

فَالْأَسَاسُ هُوَ الْفَرَائِضُ، وَزَخَارِفُهُ هِيَ النَّوَافِلُ، وَلَوْلَا الْأَسَاسُ وَالْفَرَائِضُ، لَمَا كَانَتِ الزَّخَارِفُ وَلَمَا سُمِّيَتْ نَوَافِلُ.

ومع ذلك فإن نتيجة قرب النوافل حبّ الله عز وجل لعبده، ويا له من شرف لا يُعَدُّله شرف!

ثم بيّن سبحانه ما يتّجّع عن حبّ لعبده فقال: «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلْتَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلِئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ».

قال الحافظ في «الفتح» ١١: ٣٤٤: «قال الطّوفيّ: اتفق العلماء ممن يُعْتَدُّ بقوله أن هذا مجاز وكناية عن نُصرة العبد وتأييده وإعانتته، حتى كأنه سبحانه يُنْزِلُ نفسه من عبده منزلة الآلات التي يَسْتَعِينُ بِهَا، ولهذا وقع في رواية: «فَبِئْسَ سَمْعٌ، وَبِئْسَ بَصَرٌ، وَبِئْسَ يَبْطِشُ، وَبِئْسَ يَمْشِي».

ونقله ابن حجر الهيتمي في «شرح الأربعين» صفحة ٢٧٢ دون عزو لقائل، وصدّره بقوله: «والتحقيق أنه مجاز وكناية...» وفسّر الهيتمي الرواية التي ذكرها الطّوفيّ: «فَبِئْسَ يَسْمَعُ وَبِئْسَ يَبْصِرُ...» بقوله: «أي: أنا الله الذي أَقْدَرْتُهُ عَلَى هَذِهِ الْأَفْعَالِ وَخَلَقْتُهَا فِيهِ، فَأَنَا الْفَاعِلُ لِذَلِكَ، لَا أَنَّهُ يَخْلُقُ أَفْعَالًا نَفْسَهُ - سِوَاءِ الْجَزْئِيَّاتِ وَالْكُلِّيَّاتِ - خِلَافًا لِمَا زَعَمْتَهُ الْمَعْتَزِلَةُ مِنْ خَلْقِهِ - أَيِ الْعَبْدِ - لِلْجَزْئِيَّاتِ، وَهَذَا الْحَدِيثُ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ».

قلت: ويؤيّد هذا القول تنمّة الحديث: «وَإِنْ سَأَلْتَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلِئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ»، ففيها تمامُ نُصرة الله للعبد وتأييده وإعانتته.

وخلاصةُ المراد من هذه الكلمات: أن الله تعالى يتولّاه في كل تصرّفاته التي يتصرف فيها بكل جارحة من جوارحه، ولا يَرُدُّ لَهُ دَعْوَةٌ وَلَا سُؤَالٌ وَلَا اسْتِعَاذَةٌ، ذَلِكَ لِأَنَّهُ صَارَ حَبِيبَ اللَّهِ.

وما تَرَدَّدْتُ عن شيء أنا فاعله تَرَدَّدِي عن نفسِ المؤمنِ: يَكْرَهُ الموتَ، وأنا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ.

وهذا إكرامٌ من الله تعالى لا يكون من غير الله، فسبحان الله الكريم الوهاب. ومما يُستفاد من هذا الحديث: أن المحافظةَ على النوافل سببٌ رئيسي لاستجابة دعاء صاحبه، فقد وَعَدَ الله تعالى صاحبه وعداً مؤكداً بالإجابة: «وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه».

ثم قال تعالى مبيناً تمامَ إكرامه لهذا العبد: أنه تعالى لا يريد إنفاذ أمرٍ بهذا العبد فيه شيء من الإساءة إليه، لكنَّ حكمه الله وقدره لا بدُّ من نفاذ آثارهما في هذا العبد وغيره.

قال: «وما تَرَدَّدْتُ عن شيء أنا فاعله تَرَدَّدِي عن نفسِ المؤمن: يكره الموت، وأنا أكره مساءته».

فقوله «تَرَدَّدِي عن نفسِ المؤمن»: أي: عن قبضِ نفسِ المؤمن.

والتردد: إحجامٌ عن أمر بعد الإقدام على فعله، لمصلحة تبدو لصاحبه، فهو صفةٌ نقصٍ وبداءٍ، لذلك قال الإمام ابن الصلاح - كما في «فتح المبین» ص ٢٧٣ -: «ليس المراد بالتردد هنا حقيقته المعروفة منا، بل أنه يفعل به كفعل المتردد الكاره». وعلّق عليه ابن حجر الهيتمي بقوله: «فهو لمحبه له يكره مساءته بالموت... وفيه إشعارٌ بأنه لا يفعلُ به ذلك مريداً إهانتَه، بل رَفَعَتَه، إذ هو طريق انتقاله إلى دار الكرامة والنعيم».

ونقل الحافظ في «الفتح» ١١: ٣٤٥ - ٣٤٦ عن الخطابي كلاماً في تأويل التردد، منه قوله: «الثاني: أن يكون معناه ما رَدَّدْتُ رُسُلِي - أي ملائكتي - في شيء أنا فاعله كترديدي إياهم في نفسِ المؤمن».

وهذا معناه: تفسير «ترددت» بـ «رَدَّدْتُ» ولما كان الظاهرُ اختلافاً، نقل الحافظ بعد قليل عن الكلاباذي قوله: «وقد وَرَدَ أي في اللغة - تَفَعَّلَ بمعنى فَعَّلَ، مثل: تَفَكَّرَ وفَكَّرَ، وتَدَبَّرَ وَدَبَّرَ، وتهَدَّدَ وهَدَّدَ». فيسوغُ حينئذٍ تفسير تَرَدَّدَ بـ: رَدَّدَ. والله أعلم.

٣٥- عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

٣٥- تخريجه: رواه البخاري في مواضع من «صحيحه»، منها: كتاب مواقيت الصلاة - باب فضل صلاة العصر ٢: ٣٣ (٥٥٥) وهذا لفظه، وكتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة ٦: ٣٠٦ (٣٢٢٣) ولفظ «كانوا فيكم» منه. ورواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ١: ٤٣٩ (٦٣٢)، ومن «شرح النووي» ٥: ١٣٣.

ورواه آخرون، منهم ابن خزيمة في «صحيحه» ١: ١٦٥ (٣٢١) وجاءت روايته مفصلة أكثر من سائر الروايات الأخرى، ولفظه: «إن الله ملائكة يتعاقبون فيكم، فإذا كان صلاة الفجر نزلت ملائكة النهار، فشهدوا معكم الصلاة جميعاً، ثم صعدت ملائكة الليل، ومكثت معكم ملائكة النهار، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: ما تركتم عبادي يصنعون؟ فيقولون: جئنا وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون.

«فإذا كان صلاة العصر نزلت ملائكة الليل فشهدوا معكم الصلاة جميعاً، ثم صعدت ملائكة النهار، ومكثت معكم ملائكة الليل، قال: فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم، فيقول: ما تركتم عبادي يصنعون؟ قال: فيقولون: جئنا وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون. قال: فحسبت أنهم يقولون: فاغفر لهم يوم الدين».

وجاءت هذه الجملة الأخيرة مجزوماً بها في الرواية الثانية عنده برقم (٣٢٢) دون قوله: «فحسبت أنهم يقولون».

معناه: في الحديث الشريف إخبار عن قَوْجَيْنِ من الملائكة الكرام عليهم السلام جميعاً، قَوْجٌ يحفُّ بالإنسان من أول النهار الشرعي: صلاة الفجر، إلى صلاة العصر، ولعل ذلك يكون إلى حين أدائه إياها، فيمتدُّ ذلك معه إلى صلاة المغرب، فيجتمع ملائكة هذا القَوْج مع ملائكة القَوْج الثاني الذين يحفُّون به من

أول الليل: وقت صلاة المغرب، إلى آخره وأول النهار، وذلك عند الفجر. فيكون منهم اجتماعان ولقاءن، وتوضيحهما في رواية ابن خزيمة: «إذا كان صلاة الفجر نزلت ملائكة النهار فشهدوا معكم الصلاة جميعاً» أي: شهدت ملائكة الليل الذين انتهت مهمتهم الليلية مع هذا الإنسان، وشهدت معهم ملائكة النهار الذين سيبدؤون مهمتهم الآن، هذا معنى قوله ﷺ: «شهدوا معكم الصلاة جميعاً».

ثم تصعد الملائكة الليليون الذين انتهت مهمتهم، وتبقى ملائكة النهار، فيسأل المولى العليم الخبير ملائكة الليل المُغادرين: «كيف تركتم عبادي؟» وعلى أي حال كانوا؟، فتجيبه الملائكة الكرام جواباً فيه غاية الرحمة للمؤمنين: ربنا تركناهم وهم يصلون، والظاهر أن ينتهي الجواب هنا. لأن السؤال عن حالهم التي تركوهم عليها فقط، لكنهم يزيدون في الثناء على العباد زيادةً في استرحام الله لهم فيقولون: وأتيناهم وهم يصلون.

ويزيدون في الاسترحام لهم تقديم الرجاء إلى رب العزة أن يتدارك هؤلاء الأقوام بالمغفرة يوم الجزاء والحساب، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، فيقولون: «فاغفر لهم يوم الدين».

فجزى الله عنا الملائكة الكرام كل خير.

وهكذا تنتهي مهمة كل فوج، ويجتمع من بعده به قبل المغادرة، وهكذا يكون السؤال، وهكذا يكون الجواب منهم مع رجاء المغفرة.

فعلى المسلم العاقل أن يحرص على أوقاته كلها، خاصةً منها ما يكون هذا فضله، وهذا مشهده، وهذا شهوده، وهذا هو السؤال عن حاله فيه من قبل رب العزة سبحانه وتعالى.

فهذا وقت مشهود، يشهده ويحضره مع الإنسان من ملائكة الله عز وجل وجنوده ما لا يعلم عددهم إلا الله، فهم حاضرون معه، شاهدون عليه أمام الله عز وجل بما يفعله، فإن كان في المسجد - أو في البيت - في صلاة وعبادة، شهدوا عليه بذلك، وزادوا له في الاسترحام والاستعطاف ورجاء المغفرة.

«يَتَعَاقِبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَخْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا - أَوْ: كَانُوا - فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ -: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟»

وإن كان حاله على غير ذلك، وأدنى، وأدنى . . - والعياذ بالله -: فليعلم أن عليه شهوداً صادقين مصدقين، سيرفعون عمله إلى الله تعالى بعد ساعة أو سُويعات، ويحييون عن سؤاله: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركنا فلاناً وفلاناً على كذا وكذا مما لا يرضيك يا رب!.

فلا بد للمسلم من مراقبة أحواله، ومحاسبة نفسه في كل أوقاته.

ثم إن هؤلاء الملائكة هم الحَفَظَةُ في قول الأكثر من أهل العلم. وقيل: إنما هم موكلون برفع أعمال اليوم واللييلة.

وهذا الرفع هو المذكور في حديث أبي موسى الأشعري الذي رواه مسلم في «صحيحه» ٣: ١٢، قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن الله تعالى لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرْفَعُ إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُُبُحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

ويُستفاد من الحديث المشروح: فضيلة وقت الفجر والعصر، فإنهما الوقتان اللذان اختارهما الله تعالى لرفع أعمال النهار، وأعمال الليل. واختار العلامة ابن أبي جمرة رحمه الله في «بهجة النفوس» ١: ٢٠٣ أن الصلاة الوسطى التي أمرنا بالمحافظة عليها هي صلاتان: وسطى النهار، وهي العصر، ووسطى الليل، وهي الفجر.

وأما وقتُ عروج كل طائفة: فقد جاء في الرواية: «ثم يَخْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا» والمبيت وقته من المغرب إلى الفجر، فهذا فيه إخبار عن ملائكة الليل، إذا أخذنا بهذه الرواية، فأين الحديث عن ملائكة النهار؟.

لذلك أشرتُ إلى رواية «ثم يعرج الذين كانوا فيكم»، أي: تعرج الطائفة الأولى: النهارية أو الليلية التي كانت، بعد صلاة الفجر أو العصر، وتبقى الطائفة الثانية.

فيقولون: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يَصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ».

وأما قول الملائكة الكرام في جوابهم لله عز وجل: «أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يَصَلُّونَ، وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يَصَلُّونَ»: فلا يلزم من هذا أن يكونوا أَتَوْا بني آدم وهم مباشرين لفعل الصلاة، وتركوهم وهم مباشرين لها أيضاً، بل المراد: أنهم في حال صلاة فعلاً، أو استعداداً، أو انتظاراً لصلاة آتية - وإن الرجل في صلاة مادام ينتظر الصلاة - وهكذا، فهو في صلاة أو في متعلقاتها.

وكما أن النبي ﷺ حذّرنا أن نكون من الثلاثة الذين لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ، ولا ينظر إليهم، ولا يذكّيهم، ولهم عذاب أليم، ومنهم: «رَجُلٌ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كاذبة بعد العصر ليقطع بها مَالَ رجل مسلم» كما سيأتي الحديث برقم ٥٤ مراعاةً منه ﷺ لحرمة هذا الوقت، لمثل هذا الحَدِّثِ الهامُّ الذي يخصُّ الإنسانَ، فكذلك ينبغي القول: إن الحلفَ الكاذبَ بعد الفجر ليقطعَ به مَالُ رجل مسلم، يُدْخِلُ صاحبه بمثل هذا الوعيد، والله أعلم. ذلك أن الحرمة مشتركة بين الوقتين، لالتحادهما في السبب، وإن كان وقتُ ما بعد العصر يزيد بأنه نهايةُ العمل اليومي للإنسان، فيكون قد خَتَمَ صحيفته بهذا المنكر، نسأل الله العافية.

٣٦- عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: احتبسَ عنا رسول الله ﷺ ذاتَ غداةٍ عن صلاة الصبح، حتى كِدْنَا نَرَأَى عَيْنَ الشَّمْسِ، فخرج سريعاً فثُوبٌ بالصلاة، فصلَّى رسول الله ﷺ وَتَجَوَّزَ فِي صَلَاتِهِ، فلما سَلَّمَ دَعَا بِصَوْتِهِ قَالَ لَنَا: «عَلَى مَصَافِكُمْ كَمَا أَنْتُمْ»، ثُمَّ انْفَقَلَ إِلَيْنَا،

٣٦- تخريجه: رواه الترمذي: أبواب تفسير القرآن - باب سورة ص ٨: ٣٦٥ (٣٢٣٣) = ٥: ٣٦٨ (٣٢٣٥) وقال: حديث حسن صحيح. وللحديث ألفاظ وروايات كثيرة، ورواه من الصحابة كثيرون، وخرَّجَه كثيرون من أئمة الحديث، وقد استقصى ذلك شيخنا العلامة المفسر المحدث الشيخ عبدالله سراج الدين حفظه الله تعالى، في كتابه «صعود الأقوال ورفع الأعمال» ص ١١١ - ١٢٣.

ولحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله رسالة مطبوعة في شرحه سماها «اختيار الأولى في اختصام الملاء الأعلى».

غريبه: الغداة: الصباح، وهو وقت غدوهم - أي: رَوَّاحهم - إلى أعمالهم. نَرَأَى: نحاول وتكلف رؤية عين الشمس.

ثُوبٌ بالصلاة: أقامها.

تَجَوَّزَ: خَفَّفَ.

على مَصَافِكُمْ: يريد: الزموا أماكنكم.

فَاسْتَقْبَلْتُ: عَلَّبَنِي النَّعَاسُ وصار ثقيلاً. فهي رؤيا منامية.

الملاء الأعلى: طائفة خاصة من الملائكة المقربين.

يختصم: يختلف.

معناه: هذا الحديث الشريف من أعظم الأحاديث جمعاً لأعمالٍ صالحةٍ تكفِّر الخطيئات، وأعمالٍ أخرى ترفع الدرجات، ودعواتٍ جامعةٍ أَلْهِمَهَا رسول الله عليه أفضل الصلوات والتسليمات، في هذا الموقف العظيم.

فقال: «أما إني سأحدثُكم ما حَبَسَني عنكم الغدَاةُ. إني قمتُ من الليل فتوضأتُ فصَلَّيتُ ما قُدِّرَ لي، فنَعَسْتُ في صلاتي فاستثقلتُ، فإذا أنا برَبِّي تبارك وتعالى في أحسن صورة، فقال: يا محمدُ، قلت: ربِّ ليبيك، قال: فيمَ يختصِمُ المَلَأُ الأعلى؟ قلت: لا أدري ربِّ - قالها ثلاثاً -.

ورؤيا الأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام وحي من الله وحق، فلا يقال عن هذا الحديث: إنه رؤيا منامية! ذريعة لعدم الاهتمام بشأنه وبما فيه.

فالله عز وجل قد تجلَّى لحبيبه ﷺ في هذا المشهد، فتجلَّى له كلُّ شيء وعَلِمَه، لذلك كرَّرَ عليه السؤال، فلما سأله المرة الأولى قال: «لا أدري» ثلاثاً، كما جاء في الآية الكريمة على لسان النبي ﷺ: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

فلما تجلَّى الله له، تجلَّى للنبي ﷺ كلُّ شيء وعرفه، وفي رواية للترمذي ٨: ٣٦٢ (٣٢٣١) «فعلمتُ ما في السموات وما في الأرض». فأجاب حينئذ عن اختصاص المَلَأِ الأعلى. واختصاصهم: اختلافهم فيما بينهم في تقدير أجور أعمال معيَّنة، فقسَّم منهم يقدِّرُ لهذا العمل أجرَ كذا وكذا، وبعضُ آخرُ يقدِّرُ أكثر من ذلك، وهكذا، يختلفون في ثواب أعمال معيَّنة لبني آدم، وإعطائها ما تستحقُّ من مكافآت.

والأمر الأول الذي يختلفون فيه: الكفارات، أي: الأعمال الصالحة التي إذا عملها ابنُ آدم كفر الله عنه بها من خطاياهم، فالكفارات: هي مكفَّرات الذنوب والخطايا. وقد عدَّد رسول الله ﷺ منها هنا ثلاثة أعمال: المشي إلى صلاة الجماعة، وانتظار صلاة فريضة بعد أداء فريضة قبلها، وإسباغ الوضوء بالماء البارد في أيام البرد.

والأمر الثاني: في الدرجات، كما وُصِفَتْ بذلك في رواية الترمذي التي برقم ٣٢٣١ و ٣٢٣٢^(١)، أما الرواية التي تقدَّم نصُّها فلم تردَّ هذه اللفظة فيها. والمراد

١ - وسقطت كلمة «الدرجات» من «المسند» ٥: ٢٤٣ من رواية معاذ بن جبل، لكن سياقه واضح في ثبوتها، وأن سقوطها خطأ مطبعي.

قال: فرأيتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيْ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيْ، فتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ، فقال: يا مُحَمَّدُ، قلت: لَبَّيْكَ رَبُّ، قال:

بالدرجات: تقدِيرُ ثَوَابِ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي إِذَا عَمَلَهَا ابْنُ آدَمَ رَفَعَ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتِهِ فِي الْجَنَّةِ.

وَعَدُّ مِنْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُنَا ثَلَاثَةُ أَعْمَالٍ أَيْضاً: إِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَلَبْسُ الْكَلَامِ، وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسِ نِيَامٍ. وَهِيَ دَاخِلَةٌ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ تَحْتَ الْكُفَّارَاتِ.

١ - فالعمل الأول من الأمر الأول: الخُطَا الَّتِي يَخْطُوهَا الْمُسْلِمُ إِلَى صَلَاةِ الْجُمُعَةِ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ ٢: ١٣١ (٦٤٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي الْجُمُعَةِ تُضَعَّفُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَسُوقِهِ خَمْساً وَعِشْرِينَ ضِعْفًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، لَمْ يَخْطُ خُطْوَةً إِلَّا رُفِعَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، فَإِذَا صَلَّى لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تَصَلِّي عَلَيْهِ مَا دَامَ فِي مَصَلَّاهُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، وَلَا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ مَا أَنْتَظِرَ الصَّلَاةَ».

فَقَوْلُهُ «حُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ» يَجْعَلُ الْمَشْيَ إِلَى الْجُمُعَاتِ مِنَ الْكُفَّارَاتِ، لَكِنْ قَوْلُهُ «رُفِعَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ» يَجْعَلُهُ مِنَ الْأَمْرِ الثَّانِي، وَهُوَ الدَّرَجَاتُ، فَيَحْصُلُ إِشْكَالٌ، وَجَوَابُهُ: أَنَّ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَا لَهُ اعْتِبَارٌ وَاحِدٌ، إِمَّا مِنَ الدَّرَجَاتِ، وَإِمَّا مِنَ الْكُفَّارَاتِ، وَمِنْهَا مَا لَهُ اعْتِبَارَانِ مُخْتَلِفَانِ، يُغْلَبُ أَحَدُهُمَا فَيُلْحَقُ الْعَمَلُ بِالدَّرَجَاتِ، أَوْ يُلْحَقُهُ بِالْكَفَّارَاتِ.

كَالصَّلَاةِ، فِيهَا مُجَاهَدَةٌ لِلنَّفْسِ عَلَى أَدَائِهَا وَالْمَوَاطَنَةِ عَلَيْهَا، وَكَوْنِهَا فِي وَقْتٍ مُخْصَوْصٍ، فَهَذَا يُلْحَقُهَا بِالْكَفَّارَاتِ. وَفِيهَا عِبَادَةٌ وَمَنَاجَاةٌ، وَتَسْبِيحٌ وَتَحْمِيدٌ وَدُعَاءٌ، فَهِيَ بِهَذَا الْاعْتِبَارِ مِنَ الدَّرَجَاتِ.

وَعَلَى الْاعْتِبَارِ الْأَوَّلِ - كَوْنِ الصَّلَاةِ مِنَ الْكُفَّارَاتِ - جَاءَ قَوْلُهُ ﷺ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ: مَكْفَرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتَنَبْتَ الْكِبَائِرَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ ٣: ١١٧، وَرَوَاهُ قَبْلَهُ بِلَفْظٍ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ».

فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قلت: في الكفارات، قال: ما هن؟ قلت: مَشْيُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَالْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكْرُوهَاتِ.

وعلى الاعتبار الثاني - كونها من الدرجات - جاء قوله ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثَرُوا الدُّعَاءَ». رواه مسلم أيضاً ٦: ٢٠٠.

وبمراعاة الاعتبارين: جاء قوله ﷺ: «مَنْ رَكَعَ رُكْعَةً أَوْ سَجَدَ سَجْدَةً رُفِعَ بِهَا دَرَجَةٌ وَحُطَّتْ عَنْهَا خَطِيئَةٌ»^(١).

وهذا الإشكال يَرِدُ فِي أَعْمَالٍ أُخْرَى، وَجَوَابُهُ كَمَا ذَكَرْتُ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى تَكَرَّارِهِ.

٢ - وَالْعَمَلُ الثَّانِي مِنَ الْأَمْرِ الْأَوَّلِ - وَهُوَ الْكُفَّارَاتُ -: هُوَ الْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، بَنِيَّةٌ أَنْتَظَارُ الصَّلَاةِ الْأُخْرَى الْلاحِقَةِ.

وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي بَعْدَ هَذَا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُبَاهِي بِهَؤُلَاءِ الْجَالِسِينَ الْمُنْتَظَرِينَ مَلَائِكَتَهُ الْكَرَامَ يَقُولُ لَهُمْ: «انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي قَدْ قَضَوْا فَرِيضَةً، وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ أُخْرَى».

٣ - وَأَمَّا إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكْرُوهَاتِ - أَيِ إِمْتَامِهِ وَاسْتِعَابِ أَعْضَائِهِ مَسْحاً وَغَسْلاً، وَاسْتِيفَاءُ سُنَّتِهِ، فِي حَالَةِ الْبَرْدِ الشَّدِيدِ مَعَ التَّوَضُّؤِ بِمَاءٍ بَارِدٍ.

فَقَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ إِسْبَاغَ الْوُضُوءِ وَحْدَهُ مِنَ الْكُفَّارَاتِ، فَكَيْفَ فِي الْمَكَارِهِ؟ رَوَى مُسْلِمٌ ٣: ١١٣ عَنْ حُمْرَانَ مَوْلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ عُثْمَانَ بَوْضُوءٍ، فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ قَالَ: إِنْ نَاسَأَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَادِيثَ لَا أَدْرِي مَا هِيَ؟ إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَوَضَّأَ مِثْلَ وُضُوءِي هَذَا ثُمَّ قَالَ: «مَنْ تَوَضَّأَ هَكَذَا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَكَانَتْ صَلَاتُهُ وَمِثْلُهُ إِلَى الْمَسْجِدِ نَافِلَةً».

١ - رَوَاهُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ ٥: ١٤٧ وَلَهُ قِصَّةٌ ٥: ١٤٨، قَالَ الْهَيْثَمِيُّ ٢: ٢٤٨ - ٢٤٩: «رَوَاهُ كُلُّ أَحْمَدَ، وَالْبَزَارِ بِنَحْوِهِ، بِأَسَانِيدَ وَبَعْضُهَا رِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ، وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ».

هذا، وقد روى مسلم أن هذه الأعمال الثلاثة التي تقدمت هي كفارات ودرجات، وشبهها رسول الله ﷺ بالمرابطة في سبيل الله، ومعلوم أن الرباط كالجهاد، وأن المرابط مجاهد.

ففي صحيح مسلم ٣: ١٤١ عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة. فذلكم الرباط».

وقد بين لنا النبي ﷺ فائدة هذه الكفارات في الدنيا والبرزخ والآخرة فقال - كما في رواية الترمذي (٣٢٣١) وغيره -: «من فعل ذلك عاش بخير، ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه».

وهذه نتيجة طبيعية لكون هذه الأعمال الثلاثة كفارات للذنوب.

لكن رواية الترمذي الأخرى برقم (٣٢٣٢) جاءت بلفظ: «من يحافظ عليهن عاش...» فالفعل لها مرة أو مرتين أو مرات لا يُسمى محافظة ومداومة، بل لا بد من كثرة الفعل لها بحيث يقال عن صاحبها: إنه محافظ مداوم عليها، ولو تخلل ذلك انقطاعه عنها في بعض الأحيان، فإنه ذلك لا يضره إن شاء الله.

٤ - وأما أول أعمال الأمر الثاني - وهي الدرجات -: فهو إطعام الطعام وبذله، وكونه لمستحق فقير أولى وأحب، وسبب لرفع درجات أكثر مما لو كان مبدولاً لغير فقير.

روى البخاري ١: ٨٢ (٢٨) و ١١: ٢١ (٦٢٣٦) عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أي الإسلام خير؟ فقال له عليه الصلاة والسلام: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف».

فإطعام الطعام من خير أعمال الإسلام وأفضلها.

وروى الترمذي ٦: ١٣٥ (١٨٥٦) عن عبدالله بن عمرو أيضاً، عن رسول

الله ﷺ أنه قال: «اعبدوا الرحمن، وأطعموا الطعام، وأفشوا السلام، تدخلوا الجنة بسلام». قال الترمذي: حسن صحيح.

وروى الترمذي أيضاً وصححه ٧: ١٨٢ (٢٤٨٧) عن عبدالله بن سلام رضي الله عنه قصة إسلامه، يقول فيها: لما قدم رسول الله ﷺ انجفل - أي: أسرع - الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله ﷺ! قدم رسول الله ﷺ! قدم رسول الله ﷺ! فجنحت في الناس لأنظر إليه، فلما استثبت وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: «أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

ودخول الجنة بسلام: معناه - والله أعلم -: دخولها من غير حساب ولا عذاب. وهذا ترغيب عظيم، لا ينبغي للقادر عليه أن يغفل عنه. وفقنا الله لما يرضيه عنا.

بل لقد ثبت عن النبي ﷺ أن لصاحب هذه الخصال الثلاثة مرتبة خاصة في الجنة غير دخوله إياها بسلام.

فقد روى الطبراني في «معجمه الكبير» بإسناد حسن - كما قال المنذري ٢: ٦٣، والهيتمي ٢: ٢٥٤ - عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها» فقال أبو مالك الأشعري: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وبات قائماً والناس نيام»^(١).

وهذه الأحاديث وغيرها كثير تدل على أن هذه الخصلة من شرائف الخصال التي يترتب عليها رفع درجات العبد المسلم عنده.

١ - ورواه الإمام أحمد ١: ١٥٦، والترمذي ٦: ٢٠٢ (١٩٨٥)، ٧: ٢١٢ (٢٥٢٩) عن علي رضي الله عنه، وفي إسنادهما عبد الرحمن بن إسحاق، ضعف الترمذي الحديث بسببه. ورواه عبدالله بن أحمد في «زوائد المسند» ٥: ٣٤٣ عن أبي مالك الأشعري المذكور في حديث ابن عمرو، وفيه شيء، فالحديث ثابت.

وقد ذكر الله عز وجل هذه المكرمة في خصال (الأبرار) المذكورة في سورة الدهر: ﴿هل أتى على الإنسان﴾، وذلك عند قوله تعالى: ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً، عينا يشرب بها عباد الله يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا، يُوفُونَ بالنَّذر، ويخافون يوماً كان شره مستطيراً، ويُطْعَمُونَ الطعامَ على حبه مسكناً ويتيمماً وأسيراً، إنما نُطْعِمُكُمْ لوجه الله، لا نريدُ منكم جزاءً ولا شكوراً، إنا نخافُ من ربِّنا يوماً عبوساً قمطريراً، فوقاهم الله شرَّ ذلك اليوم ولقاهم نضرةً وسروراً...﴾.

فإطعامُ الطعام لمستحقِّه مع الإخلاص لله عز وجل من صفات الأبرار، وإن الله تعالى يقول: ﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾.

وأما ما رواه الحاكم ٤ : ١٢٠ عن أبي هريرة مرفوعاً: «الكفارات: إطعامُ الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام»، ففيه راو متروك شديد الضعف، فلا يُلتفت إليه.

٥ - وأما الأمر الثاني من أعمال الدرجات: فهو لين الكلام.

وهو داخل في الأحاديث السابقة، وهو المعبر عنه في الحديث السابق: «لمن أطاب الكلام» فليُنِ القول وطيبه شيء واحد، وكذلك القول المعروف، والقول الكريم. وإن البر الذي يجعل صاحبه من الأبرار قائم علي شيئين، جَمَعَهُما ابن عمر رضي الله عنهما، كما في «عيون الأخبار» ٢ : ٣٦٢ : «البر شيء هين : وجه طليق وكلام لين» ثم جُعِلَ شعراً .

بُنِيَ إِنْ الْبِرُّ شَيْءٌ هَيِّنٌ وَجْهٌ طَلِيقٌ وَكَلَامٌ لَيِّنٌ وَلِيْنُ الْقَوْلِ سِمَةٌ لِلْمُسْلِمِ حَتَّى مَعَ أَعْدَائِهِ! حَتَّى فِي حَالِ مَخَاصِمَتِهِ!.

أما مع أعدائه: فقد روى البخاري في كتاب الأدب ١١ : ٤١ (٦٣٥٦) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: دخل رَهْطٌ من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السامُ عليك، ففهمتها. فقلت: عليكم السامُ واللعنة. فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة، فإن الله يحبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ» فقلت: يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: «فقد قلتُ: عليكم».

ثم أسند إلى أنس - وابن عمر نحوه - عن النبي ﷺ: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم». فجعل ذلك ﷺ حكماً عاماً سنةً لأمته من بعده.

ولفظ حديث عائشة في كتاب الأدب ١٠: ٤٥٢ (٦٠٣٠): أن يهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: السام عليكم. فقالت عائشة: عليكم، ولعنكم الله وغضب الله عليكم! قال: «مهلاً يا عائشة، عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش» قلت: أولم تسمع ما قالوا؟ قال: «أولم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم، فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم في».

ولمناسبة قوله: إياك والعنف والفحش: أخرج البخاري حديثاً قبله فيه وصف عبدالله بن عمرو للنبي ﷺ بقوله: لم يكن ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً.

أما في حال مخاصمته للآخرين: فذلك فيما رواه البخاري أوائل صحيحه ١: ٨٩ عن عبدالله بن عمرو أيضاً، عن النبي ﷺ قال: «أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

ففي قوله ﷺ: «وإذا خاصم فجر»: تنبيه للمسلم أن يحفظ لسانه فلا يخرج عن طوره في الخصومة، وعن حدِّ الأدب في القول، والنصفة في الانتصار لنفسه، بحجة أن هذا خصمه! يسؤل له الشيطان كلَّ رذيلة ليتنصر عليه! فإن ذلك من خصال النفاق!.

٦ - وأما الأمر الثالث من أعمال الدرجات: فهو صلاة الليل.

والحديث عن صلاة الليل طويل جداً، لكثرة ما في صلاة الليل من آيات كريمة، وأحاديث نبوية شريفة، وأقوال وأفعال عن السلف الصالح رضي الله عنهم حولها. وفي كتاب «قيام الليل» لمحمد بن نصر المروزي، المطبوع «مختصره» للمقرزي، و«الترغيب والترهيب» للمندري ١: ٤٢٢ - ٤٤٦ شيء كثير وفير، لا سيما الكتاب الأول ففيه من آثار السلف ما يشرح الصدر ويُنور القلب.

وقد أشار الحديث الذي نحن بصدد شرحه إلى سبب من أسباب فضيلة صلاة

قال: ثم فيم؟ قلت: إطعامُ الطعام، ولينُ الكلام، والصلاةُ بالليل والناسُ نيام.

قال: سل، قلت: اللهم إني أسألك فعلَ الخيرات، وتركِ المنكرات، وحبَّ المساكين، وأن تغفرَ لي وترحمَني، وإذا أردت فتنةً في

الليل، وذلك في قوله «والصلاةُ بالليل والناسُ نيام» فأشار إلى أن الليل وقتُ غفلةِ الناس ونومهم، أما هذا الإنسانُ طالبُ الدرجات عند ربه تعالى فهو منتصبٌ قائم بين يدي الله عز وجل يُناجيه ويُناديه: يا رب يا رب. ويستمع بقلبه هو كذلك إلى مناجاةِ الله لعباده ومناداته لهم: هل من مستغفرٍ فأغفرَ له؟ هل من مسترزقٍ فأرزقه؟.

وقد روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة يحبُّهم الله ويضحكُ إليهم، ويستبشرُ بهم: الذي إذا انكشفت فتةٌ قاتل وراءها بنفسه الله عز وجل، فإما أن يُقتل، وإما أن ينصره الله عز وجل ويكفيه، فيقول: انظروا إلى عبدي هذا كيف صبر لي بنفسه. والذي له امرأةٌ حسنة، و فراشٌ لينٌ حسن، فيقومُ من الليل، فيقول: يَذُرْ شهوته ويذكرني، ولو شاء رَقَد. والذي إذا كان في سفر - وكان معه ركب - فسهرُوا ثم هَجَعُوا، فقام من السحر في ضراءٍ وسراءٍ»^(١).

وفي صحيح مسلم ٨: ٥٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضلُ الصيامِ بعد رمضان شهرُ الله المحرم، وأفضلُ الصلاة بعد الفريضة صلاةُ الليل».

وروى الطبراني في «الأوسط» بإسناد حسن - كما قال المنذري ١: ٤٣١ - عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنهما قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: «يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مَجْزِيٌّ به، وأحب من شئت فإنك مفارقه، واعلم أن شرفَ المؤمن قيامُ الليل، وعزه استغناؤه عن الناس».

وفي ختام هذه المقام العظيم الذي أفاض الله تعالى فيه على حبيبه المصطفى ﷺ بما أفاض من علومٍ ومعارف، قال الله تعالى له: «سل» وكأنه يقول

١ - قال المنذري ١: ٤٣٥: «رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن» وقال الهيثمي ٢: ٢٥٥: «رجاله ثقات». وذكرنا بعده حديثاً آخر نحو هذا عن ابن مسعود، وإسناده حسن أيضاً. وهذا حديث قدسي.

قوم فتوفني غير مفتونٍ، وأسألك حبك، وحب من يحبك، وحب عملٍ يقرب إلى حبك».

قال رسول الله ﷺ: «إنها حق، فادرُسوها، ثم تعلّموها».

له: إنك في مقام إجابة فاسأل وادع، كما في رواية البغوي في «شرح السنة» عن ثوبان رضي الله عنه، وفيها: «يا محمد قل يسمع، وسل تعط». فدعا رسول الله ﷺ في هذا المقام بعد أن تجلّى له كل شيء وعرفه، وبعد أن تجلّى له كل ما في السموات والأرض، فهو في مقام إفاضات علمية عظيمة جداً لا يعلم حقيقته من البشر إلا هو ﷺ، في هذا المقام دعا عليه الصلاة والسلام بهذه الدعوات الجامعة العظيمة.

وهذه الرواية هي أوفى الروايات الجامعة للدعوات، ففيها الدعاء بتسعة أمور، وجاء في بعضها أربعة، وفي أخرى ستة، وفي رواية عبد الرحمن بن عائش الحضرمي رضي الله عنه عند البغوي في «شرح السنة» ٤: ٣٦ الدعاء بسبعة أمور، وفيها زيادة واحدة على التسعة المذكورة هنا، وهي قوله: «وتتوب عليّ» مع قوله «وأن تغفر لي وترحمني».

ومغايرة أخرى، جاءت في رواية البغوي في «شرح السنة» ٤: ٣٩ عن ثوبان رضي الله عنه في آخر الدعاء: «وحباً يبلغني حبك».

فيكون ﷺ قد سأل حسب الروايات المشهورة - حب أعمال تقرب إلى حب الله له. أما في هذه الرواية فإنه يسأل الله تعالى أن يرزقه حباً لله يوصله إلى حب الله له، فهو قرب بالحب لا بالعمل، وهذا أعلى من الأول.

وقد حدّدت بعض الروايات وقت هذه الدعوات، أن تكون عقب الصلوات. ففي رواية الترمذي وغيره: «وقال: يا محمد إذا صليت فقل: اللهم إني أسألك فعل الخيرات...».

وإنه لا ينبغي لمن علم بهذه الدعوات أن يتخلف عن جعلها هجيراً وديّنه بعدما يسمع رسول الله ﷺ يختمها بقوله: «إنها حق، فادرُسوها ثم تعلّموها». نسأل الله التوفيق لذلك، والإجابة. آمين.

٣٧- عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: صلينا مع رسول الله ﷺ المغرب، فرجع من رجع، وعقب من عقب، فجاء رسول الله ﷺ مُسْرِعاً قَدْ حَفَزَهُ النَّفْسُ، وقد حَسَرَ عن ركبتيه، فقال: «أُبَشِّرُوا، هذا ربُّكم قد فَتَحَ باباً من السماء يُبَاهِي بكم الملائكة يقول: انظروا إلى عبادي قد قَضَوْا فريضةً وهم يَنْتَظِرُونَ أخرى».

٣٧- تخريجه: رواه ابن ماجه: كتاب المساجد والجماعات - باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة: ١: ٢٦٢ (٨٠١)، وصححه الشهاب البوصيري في «مصباح الزجاجة» ١: ١٧٠ (٣٠٣).

غريبه: عقب: أقام في المسجد بعدما فرغ من الصلاة.

حَفَزَهُ النَّفْسُ: قال الإمام النووي في «شرح مسلم» ٥: ٩٧: «أي: ضَغَطَهُ لِسُرْعَتِهِ».

معناه: هذه مباهاة إلهية أخرى، وعمل من أعمال البر يتسابق فيه البرة في حَلْبَةِ مِيدَانِ الخيرات والأعمال الفاضلة. وَلَيَتَصَوَّرُ أَحَدُنَا أَنَّهُ يَسْمَعُ هَذَا النداء الإلهي للملائكة الكرام الأطهار: «انظروا إلى عبادي» وأنت فيهم يفاخر بك الله عز وجل، فما أعظمه من شرف! وما أعظمها من بشارة!

لذلك رَجَعَ سَيِّدُنَا رسول الله ﷺ إلى من بقي في المسجد ينتظر أداء فريضة أخرى، رَجَعَ إِلَيْهِمْ مُسْرِعاً بالبشارة، قد أثقله نفسه من السرعة، قال لهم: «أُبَشِّرُوا، هذا ربكم... يُبَاهِي بكم الملائكة...».

والطاعة التي تَوْهَّلَكَ لهذا المقام الرفيع: أنك إذا صليت فريضة مكثت في مسجدك أو مصلاًك، تَنْتَظِرُ دخولَ وقت فريضة أخرى لتصلِّيها أيضاً. كمن صلى المغرب في المسجد، وجلس ينتظر العشاء ليؤدِّيها، ففي انتظاره مباهاة الله تعالى به

.....

الملائكة، ثم إن منتظر الصلاة كأنه في صلاة، والملائكة تستغفر له ما دام كذلك.

روى البخاري - وغيره - ٢ : ١٤٢ (٦٥٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه، ما لم يحدث: اللهم اغفر له اللهم ارحمه، لا يزال أحدكم في صلاة ما دامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب - أي: يرجع - إلى أهله إلا الصلاة».

لذلك كره السادة الحنفية تنزيهاً السلام على الجالس ينتظر الصلاة. ذكره ابن عابدين في «حاشيته» ١ : ٤١٥.



٣٨- عن أبي الدرداء، وأبي ذر رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ، عن الله عز وجل أنه قال: «ابن آدَمَ اركع لي من أول النهار أربع ركعات أكفك آخره».

٣٨- تخريجه: رواه الترمذي في أبواب الصلاة - باب صلاة الضحى ٢: ١٩٧ (٤٧٥) = ٢: ٣٤٠ (٤٧٥) وفيهما قول الترمذي: حسن غريب، ونحوه في أبي داود: كتاب الصلاة - باب صلاة الضحى ٢: ٦٣ (١٢٨٩). وصح عن غيرهما من الصحابة رضي الله عنهم. انظر «الترغيب والترهيب» ١: ٤٦٤ و«مجمع الزوائد» ٢: ٢٣٥، إلا حديث أبي مرة الطائفي فقد ذكر الحافظ في ترجمته في «الإصابة» ٧: ٧٤ أنه شاذ.

معناه: يرغب الله تعالى عباده بصلاة أربع ركعات في وقت الضحوة، ويعدّهم عليها بما يرغب به كل عاقل، هو كفاية الله تعالى لهم من هموم بقية يومهم وشروبه ومكآرهه.

وسبب ذلك أن وقت الضحى وقت انهماك الناس في أعمالهم، وغفلتهم عن التوجه إلى ربهم سبحانه، فيقوم هذا الإنسان ويصلي لله ويذكره ويدعوه، فيقابل الله تعالى بأفضل مما عمل، هو حفظه بقية يومه، كفاء توجهه إليه دقائق معدودة.

ولذلك سمى رسول الله ﷺ صلاة الضحى هذه بصلاة الأوابين، والأواب: صيغة مبالغة من: أيب، وهو الراجع إلى ربه بالطاعة والتوبة والإجابة...

فقال ﷺ فيما رواه مسلم ٦: ٣٠: «صلاة الأوابين حين ترمض الفصال».

قال النووي رحمه الله: «رمض يرمض: كعلم يعلم، والرمضاء: الرمل الذي اشتدت حرارته بالشمس. أي [صلاة الأوابين] حين تحترق أخفاف الفصال - وهي الصغار من أولاد الإبل، جمع فصيل - من شدة حر الرمل. والأواب: المطيع،

وقيل: الراجع إلى الطاعة. وفيه: فضيلة الصلاة هذا الوقت، قال أصحابنا - الشافعية -: هو أفضل وقت صلاة الضحى، وإن كانت تجوز من طلوع الشمس إلى الزوال».

فصلاة الضحى: صلاة الأوابين إلى ربهم، لذلك يكون لهم من الله تعالى حفظ وكفاية خاصة.

وكما أن صلاة الضحى سبب للكفاية من الهموم والشور، هي كذلك كفاية عن أمور أخرى كثيرة يُطالب بها المسلم.

روى مسلم ٥: ٢٣٣ عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «يُصبح على كل سُلامى من أحدكم صدقة، فكلُّ تسبيحة صدقة، وكلُّ تحميدة صدقة، وكلُّ تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة. ويجزىء من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى».

وسُلاميات الإنسان - كما جاء في الحديث عند مسلم ٧: ٩٣ عن عائشة مرفوعاً - ستون وثلاثمائة، فصلاة ركعتين في الضحى تقوم مقام ستين وثلاثمائة صدقة!! فهي الصلاة الكافية، فإذا صلاها ركعتين كَفَّته عن متطلبات كثيرة، وإذا صلاها أربعاً كَفَّته شروراً ومكارة كثيرة.

٣٩- عن بُسْرِ بْنِ جَحَّاشٍ الْقُرَشِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَرَّقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي كَفِّهِ، ثُمَّ وَضَعَ إِصْبَعَهُ السَّبَابَةَ وَقَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

٣٩- تخريجه: رواه ابن ماجه: كتاب الوصايا - باب النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت ٢: ٩٠٣ (٢٧٠٧). وصححه الشهاب البوصيري في «مصباح الزجاجة» ٢: ٩٧ (٩٦١).

معناه: في هذا الحديث القدسي تنبيهٌ إلهيٌّ للعباد، وإيقاظهم من طُول الرُّقاد، وَزَجْرٌ لَهُمْ عَنِ الاسْتِرْسَالِ وَرَاءَ الْأَمَلِ، وَقَلَّةُ الْعَمَلِ مَعَ الزُّلْلِ وَالْخَلَلِ! وفيه تذكيرهم بأصل الخَلْقَةِ، لِيَرْتَدَّعَ الْمُتَكَبِّرُ الْمُتَطَاوِلُ، الْمَغْرُورُ الْجَشِعُ!.

فأصلُ الإنسان من نطفة وماءٍ مهين، إن لم تكن رأيتَه فهو كَالْبَصْقَةِ، مَا أَحْقَرُهَا! فهي حقاً - كما قال عز وجل - ﴿ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَأَنْتَى يُعْجِزُ رَبُّهُ وَخَالَقَهُ!.

ولمَ هذا الانغماسُ الشديد، والغرقُ في الدنيا والغفلةُ بها عن الله والآخرة، ولمَ هذا التكالُبُ على الدنيا وهي فانية زائلة من بين يديك رَضِيتَ أم كرهتَ! فما تَصْحُو من غفلتها وسيطرتها على قلبك إلا لحظةً مفارقتها لك وانصرافها عنك، وزوالها من بين يديك، وهي لحظةٌ وقوعك في أحضان الآخرة والقبر!.

فحين إدبارها عنك، ومفارقتك لها قَسْرًا عنك: تَذَكَّرْتَ وصحوتَ! فَرُحْتَ تقول: أَعْطُوا فَلَانًا كَذَا، وفَلَانًا كَذَا!.. فهذه صدقةُ الغافلين المَكْرَهين.

روى الإمام مسلم في «صحيحه» ٧: ١٢٣ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رسولُ الله ﷺ رجلٌ فقال: يا رسولَ الله أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ؟ فقال: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبٌ شَاحِحٌ، تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلَا تَمُهِلُ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْحُلُقُومَ قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا، أَلَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ!». .

أَنِّي تُعْجِزُنِي - ابن آدم - وقد خَلَقْتَك من مثل هذه؟! فإذا بَلَغْتَ نَفْسَكَ هذه - وأشار إلى حَلَقِهِ - قَلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّى أُوَانُ الصَّدَقَةَ! ».

ورواه النسائي ٦: ٢٣٧ (٣٦١١) مثله، ورواه مختصراً قبل ٥: ٦٨ (٢٥٤٢)، ورواه ابن ماجه أيضاً ١: ٩٠٣ (٢٧٠٦) وزاد آخره: «قَلْتَ: ما لي لفلان، وما لي لفلان، وهو لهم وإن كرهت».

وقد أمرنا عز وجل في كتابه الكريم بالانتباه من هذه الغفلة قبل الوقوع في عواقبها الوخيمة فقال عز شأنه: ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ: رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فیردُ الله عليه بقوله: ﴿ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

ولا يقولنَّ قائلٌ جاهلٌ غافلٌ: هذه الآياتُ في حق الكافرين، فكيف تُنزلُها على المؤمنين^(١)! ذلك أن الآياتِ مصدرةٌ بالخطاب للمؤمنين: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ... ﴾.

فالسعيد من تقدَّم في الخيرات، وقَدَّمَ لآخرته بين يديه خيرات. والله وليُّ التوفيق.



١ - وهذا غير جائز، بل إن شأن الخوارج الذين وصفهم رسول الله ﷺ في حديث أبي ذر عند مسلم ٧: ١٧٤: «هم شرُّ الخلق والخليقة» أي: الآدميين والبهائم. وقد حكى عنهم هذه الصفة عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فيما علَّقه عنه البخاري في «صحيحه» ١٢: ٢٨٢ قال: «باب قتل الخوارج والملحدین... وكان ابن عمر يراهم شِرَارَ خُلُقٍ الله، وقال: إنهم انطلقوا إلى آياتٍ نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين».

٤٠ - عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لما خَلَقَ اللهُ الأَرْضَ جَعَلَتْ تَمِيدٌ، فخلق الجبالَ، فعاد بها عليها، فاستقرَّتْ، فَعَجِبَتِ الملائكةُ من شِدَّةِ الجبالِ، قالوا: يا ربُّ هل من خَلَقِكَ شيءٌ أَشَدُّ من الجبالِ؟ قال: نعم، الحديدُ، قالوا: يا رب، فهل من خَلَقِكَ شيءٌ أَشَدُّ من الحديدِ؟ قال: نعم، النارُ، فقالوا: يا ربُّ فهل

٤٠ - تخريجه: رواه الإمام أحمد ٣: ١٢٤، والترمذي آخر كتاب تفسير القرآن ٩: ٨٩ (٣٣٦٦) = ٥: ٤٥٤ (٣٣٦٩) وقال: حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وعزاه الحافظ في «فتح الباري» ٢: ١٤٧ إلى أحمد فقط وقال: «بإسناد حسن».

غريبه: تَمِيد: تتحرك وتضطرب.

بها عليها: بالجبال على الأرض.

معناه: قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾. وجاء صدر الحديث مصرحاً بما أشارت إليه الآية الكريمة، وذلك: أن الله تعالى خَلَقَ الأرضَ أولاً، فلما مَادَتْ أَرَسَها وثَبَّتَها بالجبال.

«فَعَجِبَتِ الملائكةُ من شِدَّةِ الجبالِ، قالوا: يا ربُّ هل من خَلَقِكَ شيءٌ أَشَدُّ من الجبالِ؟ قال: نعم، الحديدُ» فَبِه تَنْحَتِ البيوت من الجبال، وتَقْطَعُ منها الصخور، وتُفْتَحُ فيها الأنفاق، بل تُزَالُ الجبال من أماكنها بالحديد.

وكرَّرت الملائكةُ الكرامُ السؤال: «هل من خَلَقِكَ شيءٌ أَشَدُّ من الحديدِ؟ قال: نعم، النارُ» فَبِهَا يُلَانَ الحديدُ وَيَكَيَّفُ كما يريد الإنسان، وعليها يُحْمَى وَيَحْمَرُّ، وبِهَا يُضْهِرُ حتى يُدَوِّبَ وَيَنْمَاعَ - يصير مائعاً -.

ويشتدُّ العجبُ لدى كُلِّ سامع.

مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: نَعَمْ، الْمَاءُ، قَالُوا: يَا رَبِّ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الْمَاءِ؟ قَالَ: نَعَمْ، الرِّيحُ، قَالُوا: يَا رَبِّ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الرِّيحِ؟ قَالَ: نَعَمْ، ابْنُ آدَمَ تَصَدَّقْ بِصَدَقَةٍ يَمِينِهِ، يُخْفِيهَا مِنْ شِمَالِهِ».

وتسأل الملائكة: «هل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم، الماء» فإن النار مهما اضطربت وتأججت وارتفعت وأكلت الأخضر واليابس فإن الماء تطفئها وتتغلب عليها، فلا تبقى لها أثراً.

«قالوا: يا رب، فهل من خلقك شيء أشد من الماء؟ قال: نعم، الريح» فإنها تجفف الماء وتذهب به، وإذا كانت الريح تحمل رائحة طيبة ومرت بماء جعلت الماء طيبة الرائحة، وكذلك العكس، والماء حين يكون في السحاب فإن الريح تُسِرُّه يَمَنَةً وَيَسْرَةً.

ولا ريب أن الأمر قد تعاضل على الملائكة، فسألوا: «هل من خلقك شيء أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم تصدق بصدقة يمينه، يخفيها من شماله».

فالأرض، وما أدراك ما الأرض، هذا المخلوق العظيم، وأعظم منها الجبال، وأعظم منها الحديد، ثم أعظم منه النار، وأعظم منها الماء، وأعظم من الماء الريح، وأعظم من الريح إخفاء ابن آدم لصدقته إخفاءً مبالغاً فيه بحيث إن شماله لا تعلم بما تنفق يمينه.

فإخفاء الصدقة يجيء في المرحلة السابعة من حيث عظمه عند رب العالمين وقوة تأثيره.

ولذلك كان صاحب هذه الخصلة الصالحة في ظل الله تعالى يوم القيامة، يوم يخوض الناس في عرقهم خوضاً، من شدة دنو الشمس من رؤوس الخلائق، وبعضهم يلجئه العرق فيصل إلى فيه حتى يكاد يغرقه - لكن لا موت هناك! -.

في تلك الحال الشديدة الرهيبة يكون هذا الصنف من الناس - من أسر بصدقته - وأصناف أخرى معروفة: آمنين في ظل الله لا بمسهم نصب ولا لغوب، ولا حرارة شمس ولا مكروه.

وَحَقِيقُ بَطَاعَةٍ يَكُونُ هَذَا أَثَرُهَا فِي صَاحِبِهَا: أَنْ تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْأَرْضِ
وَالْجِبَالِ وَالْحَدِيدِ...

رَوَى الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ ٢: ١٤٣ - مِنْ «الْفَتْحِ» وَمُسْلِمٌ - مِنَ النَّوَوِيِّ ٧: ١٢٠ عَنْ
أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُطْلَهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا
ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مَعْلُوقٌ فِي الْمَسَاجِدِ،
وَرَجُلَانِ تَخَابَا فِي اللَّهِ: اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ
وَجَمَالٍ فَقَالَتْ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ
بِمِينِهِ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ففَاضَتْ عَيْنَاهُ».

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ ٤: ١٤٧ - ١٤٨ مِنْ طَرِيقِ أَبِي الْخَيْرِ الْيَزَنِيِّ، عَنْ عَقْبَةَ
ابْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ أَمْرٍ فِي
ظِلِّ صِدْقَتِهِ حَتَّى يُفْضَلَ بَيْنَ النَّاسِ» - أَوْ قَالَ: يُحْكَمُ بَيْنَ النَّاسِ - . قَالَ: فَكَانَ أَبُو
الْخَيْرِ الْيَزَنِيُّ لَا يُخْطِئُهُ يَوْمٌ إِلَّا تَصَدَّقَ فِيهِ بِشَيْءٍ وَلَوْ كَعَمَكَةٍ أَوْ بَصْلَةٍ أَوْ كَذَا^(١).

وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ» ٨: ٢٦١ (٨٠١٤) عَنْ أَبِي أَمَامَةَ
الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ،
وَصَدَقَةُ السَّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ، وَصَلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ»^(٢).

فَإِذَا كَانَتْ صَدَقَةُ السَّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ أَشَدُّ مِنْ كُلِّ شَدِيدٍ
مَذْكُورٍ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي نَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ كَانَتْ أَشَدُّ مِنَ الرِّيحِ الَّتِي هِيَ
أَشَدُّ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي يُطْفِئُ النَّارَ فَيَتَغَلَّبُ عَلَيْهَا.

* * *

١ - قَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «الْمَجْمَعِ» ٣: ١١٠: «رَجَالُهُ ثَقَاتٌ». وَمَعْنَى: لَا يُخْطِئُهُ: لَا يَفُوتُهُ. وَكَلِمَةُ
«كَذَا» هُنَا كُنَايَةٌ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ قَلِيلٍ تَأْفَهُ الثَّمَنُ.

٢ - قَالَ الْهَيْثَمِيُّ ٣: ١١٥: «إِسْنَادُهُ حَسَنٌ». وَانْظُرِ التَّعْلِيقَ صَفْحَةَ ١٤٦.

٤١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي، وأنا أجزي به،

٤١ - تخريجه: رواه البخاري في «صحيحه» بالفاظ كثيرة، ومواضع متعددة، أولها في كتاب الصوم - باب فضل الصوم ٤: ١٠٣ (١٨٩٤) - وانظر أطرافه هناك - ورواه مسلم أيضاً بالفاظ متعددة في كتاب الصيام - باب فضل الصيام ٢: ٨٠٧ (١٦٣)، وشرح النووي ٨: ٣٠، وهذا لفظه. وقد جمع الإمام المنذري له ألفاظاً كثيرة أول كتاب الصوم من كتابه «الترغيب والترهيب» ٢: ٧٩.

غريبه: جنة: وقاية يتقى بها.

لا يرفث: لا يتكلم بكلام قبيح مطلقاً.

لا يسخب: لا يصيح ولا يرفع صوته بصُراخ على وجه يُعَدُّ قلة أدب، وفي رواية البخاري التي أشرت إليها، ومسلم ٨: ٢٨: «ولا يَجْهَل» وهي تُشير إلى المعنى الذي ذكرته.

خُلُوف: بضم الخاء، وجُوز بعضهم فتحها لكن عدّه آخرون خطأ، ومعناه: تَغْيِير رائحة فم الصائم.

معناه: واضح أن الجزء الأول من الحديث قدسي، وأن الجزء الأخير من قوله «والذي نفس محمد بيده...»: نبوي لا قدسي، ولكن أين ينتهي القدسي، ويبدأ النبوي؟ لم أر تنبيهاً على ذلك.

ثم إن الحديث دالٌّ على عِظَم فضل الصوم وأجر الصائم، وعلى إرشاد أدبي وتوجيه خلقي للصائم ليحصل هذه الفضيلة.

أما قوله تعالى: «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي» ففيه إشكال ظاهر، وهو: أن جميع الطاعات والقربات التي يعملها العبد هي لله عز وجل وحده، فلماذا

والصيامُ جُنَّةٌ، فإذا كان يومُ صومِ أحدكم فلا يَرُقْثُ يومئذٍ ولا يَسْخَبْ،

خصَّ تعالى الصيامَ من بينها؟ وأقدمُ من رأيتُه تعرَّضَ للإشكالِ والجوابُ عنه بما يأتي: الإمامُ أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله في «غريب الحديث» ١: ٣٢٥.

وقد أجاب العلماء عنه بأجوبة، ذكر منها الإمام النووي في شرح مسلم ٨: ٢٩ ستة، وأوصلها الحافظ في «الفتح» ٤: ١٠٧ - ١٠٩ إلى عشرة وقال في آخرها: «هذا ما وقفت عليه من الأجوبة، وقد بَلَغَنِي أن بعض العلماء بَلَغَهَا إلى أكثر من هذا، وهو الطالقاني في «حظائر القدس» له، ولم أقف عليه».

وعبارَةُ المناوي في «فيض القدير» ٤: ٤٧١: «وللطالقاني في ذلك جزء مفرد، جمع فيه نحوَ خمسين قولاً».

وقبل ذِكرِ الجواب لا بدُّ من التنبيه إلى ركيزة أساسية هي: أن الصوم الذي هذا فضله وجزاؤه عند ربِّ العالمين، وهذا مقامُ صاحبه، إنما هو الصومُ الخالصُ لله عز وجل، السالم من شائبة المعاصي القولية والفعلية.

أما أنه خالص لله عز وجل: فلقوله في روايةٍ من رواياته - وهي في البخاري (١٨٩٤) ومسلم ٨: ٣١ - : «يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي» وهذا لفظ البخاري.

فقلوه «من أجلي» نصٌّ صريح في أن إكرام الله تعالى ناله لإخلاصه.

وأما أنه سالمٌ من شوائب المعاصي مطلقاً: فلقوله في الحديث الذي نشرحه: «والصيامُ جُنَّةٌ فإذا كان يومُ صومِ أحدكم فلا يَرُقْثُ ولا يَصْخَبُ...»، فقلوه «جُنَّةٌ» أي: وقايةٌ وحِصْنٌ لصاحبه، يقيه من عذاب الله في الآخرة، ويقيه من الوقوع في المآثم في الدنيا، ولقوله ﷺ في حديث النسائي ٤: ١٦٧ (٢٢٣٤): «الصيامُ جُنَّةٌ من النار، فمن أصبح صائماً فلا يجهل...»، فرُتِبَ النهي عن الجهل على كون الصيام جُنَّةً، وفي حديث عنده قبله وبعده: «الصومُ جُنَّةٌ ما لم يخرقها»، وعند الطبراني في «المعجم الأوسط» عن أبي هريرة: «الصيامُ جُنَّةٌ ما لم يخرقها» قيل: وبِمَ يخرقُها؟ قال: «بكذب أو غيبة»^(١).

وروى البيهقي في «شعب الإيمان» ٧: ١٧٢، ١٨٧، من حديث ابن

١ - قال في «مجمع الزوائد» ٣: ١٧١: «فيه الربيع بن بدر، وهو ضعيف».

وهب، عن ابن لهيعة: «قال ربنا: الصيام جُنَّةٌ يَسْتَجِنُّ بها العبد من النار، وهو لي وأنا أجزي به». وهو في «المسند» ٣: ٣٤١ لكن من حديث الحسن بن موسى الأشيب، عن ابن لهيعة. وفيه «يستجير» وهو تحريف عن: يَسْتَجِنُّ.

أما الجواب: فاختره مما ذكره ابن حجر في «الفتح»، وقد ذكرتُ قبل قليل أنه ذكر عشرة أقوال، وختمها بقوله: «أقربُ الأجوبة التي ذكرتها إلى الصواب الأول والثاني»^(١).

والأول: أن الصوم لا يقع فيه الرياء، كما يقع في غيره من الأعمال، لذلك تكفل الله عز وجل بإثابة الصائم المُخْلِصِ إثابةً لا يعلم قَدْرُها إلا هو سبحانه. ففعل الصيام لا يدخله رياء، لأنه كَفَّ عن محظورات خاصة به، وليس مباشرةً عمل ما، وإن كان قد يدخله رياء قولِي، بأن يُخبر عن نفسه أنه صائم! أما سائر العبادات الأخرى فيدخلها الرياء فعلاً وقولاً، كما أوضحه الحافظ ابن حجر.

وأقدم من قال هذا: الإمام أبو عبيد رحمه الله في «غريب الحديث» وهذا لفظه: «قد علمنا أن أعمال البر كلها لله تعالى، وهو يجزي بها، فَنرى - والله أعلم - أنه إنما خصَّ الصوم بأن يكون هو الذي يتولَّى جزاءه، لأن الصوم لا يظهر من ابن آدم بلسانٍ ولا فعل فتكتبه الحَفَظَة، وإنما هو نِيَّةٌ بالقلب وإمساكٌ عن حركة المَطْعَم والمَشْرَب والنكاح، يقول: فأنا أتولَّى جزاءه على ما أحبُّ من التضعيف، وليس على كتاب كتب له. ومما يبيِّن ذلك قوله عليه السلام: «ليس في الصوم رياء». - حَدَّثَنِي شَبَابَة، عن ليث، عن عُقَيْل، عن ابن شهاب، يرفعه^(٢) -.

١ - وقال: «ويقرب منهما الثامن والتاسع»، ولدى مراجعة كلامه فيهما يرى أنه أورد عليهما اعتراضات، فلذا لم أذكرهما.

٢ - ما بين المعترضتين ثابت في إحدى النسخ الخطية التي طبع عنها كتاب «غريب الحديث»، كما أفاده محققه، ونقله كذلك الحافظ في «الفتح» ٤: ١٠٧، وسقط منه قوله «عن ليث»، فيصحح، ثم خرَّجه عن «الشَّعْب» للبيهقي ٧: ٢٠١ من مراسيل الزهري، كما هنا، ومن مسند أبي هريرة - من طريق الزهري - بإسناد ضعيف، وقال: «لو صحَّ لكان قاطعاً للنزاع». وكان هذا السَّقَط من قلم الحافظ وليس مطبعياً، فقد جاء كذلك - ساقطاً - في «عمدة القاري» ٩: ١٠.

فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إني امرؤ صائم، والذي نفس محمد بيده

وذلك أن الأعمال كلها لا تكون إلا بالحركات، إلا الصوم خاصة، فإنما هو بالنية التي قد خفيت على الناس، فإذا نواها فكيف يكون ها هنا رياء؟! هذا عندي - والله أعلم - وجه الحديث.

وهذا القول ارتضاه - بعد أبي عبيد - المازري، والقرطبي صاحب «المفهم»، وصدر به الأقوال: النووي وابن حجر والعيني وغيرهم، وظاهر نقل ابن حجر عن ابن الجوزي أنه يعتمد عليه أيضاً.

أما الثاني: فهو «أن المراد بقوله «وأنا أجزي به»: أنني أنفرد بعلم مقدار ثوابه وتضعيف حسناته، وأما غيره من العبادات فقد أطلع عليها بعض الناس». وأيد هذا بروايات وأخبار، فانظر «الفتح» ٤: ١٠٨.

وسبق إلى نحو هذا: سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى، فقد نقل عنه أبو عبيد في «غريبه» ١: ٣٢٦ أنه علل ذلك بقوله: «لأن الصوم هو الصبر، يصبر الإنسان عن المطعم والمشرب والنكاح، ثم قرأ: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾. فتواب الصبر ليس له حساب يعلم، من كثرت».

قلت: القول الأول يتناسب تماماً مع الرواية المذكورة أعلاه، والقول الثاني يتناسب تماماً مع رواية مسلم ٨: ٣١: «كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله عز وجل: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي».

فانظر موقع قوله «فإنه لي وأنا أجزي به» بين سباقه ولحاقه، تتضح لك المناسبة. والله أعلم.

وإرشاد النبي ﷺ الصائم المخاصم إلى أن يقول «إني امرؤ صائم»^(١): فيه تنبيه للصائم أن لا يجاوز حده، ولا يقابل خصمه بمثل فعله، وفيه زجر للمخاصم الشايم أن يرتدع عن سوء فعله.

١ - بلسانه، وبقلبه، في صيام الفرض أو النفل، وانظر «فتح الباري».

ذلك أن الصيامَ وشهرَه (دورة) تدريبية عملية على الترقّي في مكارم الأخلاق لمن كان من أهلها متدرّجاً في معاليها.

و (دورة) تدريبية عملية على الدخول في سلوكها، والانتظام في أهلها، ويكون ذلك بحبس النفس عن الانطلاق معها في سَفَه الكلام، وبذاءة اللسان، وسُورة الغضب، وما إلى ذلك من مظاهر الجهل الخُلقي.

وشهر رمضان فترة زمنية تكفي لهذه (الدورة) العملية على التحصّن من هذه المنزَلقات، وعلى التدرّج في تلك الكمالات: المخاصم يحفظ نفسه وترفّع بها عن مقابلة السيئة بسيئة، فيذكر نفسه بأنه صائم، ويذكر مخاصمه أيضاً بأن كليهما في صيامٍ وحبسٍ نفسٍ عن شهوتي البطن والفرج، وبأنهما في صيام، والنصيام جنةٌ ووقاية من عذاب الله وناره الجهنمية، فلا يليق بهما أن يخرقاها بالملاحاة والمخاصمة، وقد كانت الملاحاة في ساعة من الساعات سبباً في حجب ليلة القدر.

روى البخاري ٤ : ٢٦٧ (٢٠٢٣) - بشرح «الفتح» - عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: خَرَجَ النبي ﷺ لِيُخْبِرَنَا بَلِيلَةَ الْقَدْرِ، فَتَلَاخَى رَجُلَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: «خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بَلِيلَةَ الْقَدْرِ، فَتَلَاخَى فُلَانٌ وَفُلَانٌ قَرُفَتِ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ، فَالْتَمَسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ».

فحينما يقول الصائم المخاصم: إني امرؤ صائم - ويكرره، كما في بعض الروايات - يكون في قوله هذا تذكيرٌ لنفسه، لتبقى مستعصمة برزانتها وخُلُقها الحسن، وتذكيرٌ لمخاصمه، ليكفّ عن خصامه، وإن الذكرى تنفع المؤمنين، فإن لم يكفّ يكون قد أظهر الصائم فضلَ صيامه، وأنه هو السبب في اعتصامه بالسكوت، وأن ترفّعه عن مجارة السفه: من فضل تلبّسه بعبادة الله تعالى، لا عن ضعف وجبن.

فالصوم حاجز بين الصائم وبين آفات اللسان خاصة، وبينه وبين الآفات المهلكات - المعاصي - عامة. وهذا ما عبّر عنه النبي صلوات الله وسلامه عليه: «الصيام جنةٌ» أي: وقاية تحوّل بينه وبين الوقوع في الآثام عامة.

ومن جعل بينه وبين الآثام حائلاً: جنبه الله تعالى بفضلله النارَ وعذابها. وعلى

لَخُلُوفٍ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ،

هذا المعنى جاءت الرواية الأخرى: «الصَّيَامُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ كَجُنَّةِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْقِتَالِ».

فالصَّيَامُ جُنَّةٌ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَعَاصِي، وَجُنَّةٌ مِنَ النَّارِ. وَقَانَا اللَّهُ ذَلِكَ بِفَضْلِهِ.

وَمِنْ قَبِيلِ دَفْعِ التَّوَهُّمِ وَالْإِشْكَالِ: قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا يُفْهَمُ مِنْ هَذَا أَنْ غَيْرَ الصَّوْمِ يُبَاحُ فِيهِ مَا ذَكَرَ - مِنَ الرَّفَثِ وَالصَّخَبِ وَ... - وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَنْ الْمَنْعُ مِنْ ذَلِكَ يَتَأَكَّدُ بِالصَّوْمِ»^(١). ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يُفَارِقُ مَالُوفَهُ فِي حَالِ الصَّيَامِ، فَهُوَ فِي حَالٍ غُرْضَةٍ لِتَغْيِيرِ مَزَاجِهِ، فَجَاءَ التَّنْبِيهُ النَّبَوِيُّ الْكَرِيمُ إِلَى التَّحْفُظِ وَالتَّصَوُّنِ. وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُعِينُهُ عَلَى الدَّخُولِ فِي سَلَكِ ذَوِي الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ، وَعَلَى التَّرَقِّيِّ وَالتَّنَدُّجِ فِي كِمَالَاتِهَا.

أَمَّا خُلُوفٌ فَمِ الصَّائِمِ: فَقَالَ الْقَاضِي عِيَاضُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَجَازِيهِ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فِي الْآخِرَةِ، فَتَكُونُ نَكْهَتُهُ أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ، وَقِيلَ: لِكثْرَةِ ثَوَابِهِ وَأَجْرِهِ، وَقِيلَ: يَغْبَقُ فِي الْآخِرَةِ أَطْيَبُ مِنْ عَبَقِ الْمَسْكِ، وَقِيلَ: طِيبُهُ عِنْدَ اللَّهِ رِضَاهُ بِهِ وَثَنَاؤُهُ الْجَمِيلُ وَثَوَابُهُ. وَقِيلَ: إِنْ الْمُرَادُ أَنَّ ذَلِكَ فِي حَقِّ الْمَلَائِكَةِ وَأَنَّهُمْ يَسْتَطِيعُونَ رِيحَ الْخُلُوفِ أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَطِيعُونَ رِيحَ الْمَسْكِ...». نَقْلُهُ الْعَيْنِيُّ ٩: ٩.

وَهَذِهِ الْأُطْيَبِيَّةُ لَرِيحِ خُلُوفِ الصَّائِمِ حَاصِلَةٌ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، جَمْعاً بَيْنَ أَدْلَةِ الْإِمَامِ الْعِزَّازِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ الَّذِي رَجَّحَ أَنَّهَا فِي الْآخِرَةِ - وَأَدْلَةِ الْإِمَامِ ابْنِ الصَّلَاحِ الَّذِي رَجَّحَ أَنَّهَا فِي الدُّنْيَا. وَإِنْ كَانَ قَوْلُهُ هُنَا «... عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» يُؤَيِّدُ قَوْلَ ابْنِ عَبْدِ السَّلَامِ^(٢).

وَمِنَ الْمَقَارَنَةِ بَيْنَ قَوْلِهِ ﷺ هُنَا «لَخُلُوفٍ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ، وَبَيْنَ قَوْلِهِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْجِهَادِ ٦: ٢٠ (٢٨٠٣): «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُكَلِّمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ - إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ، وَالرَّيْحُ رِيحُ الْمَسْكِ»: مِنَ الْمَقَارَنَةِ

١ - نَقْلُهُ عَنْهُ الْعَيْنِيُّ ٩: ٨.

٢ - انْظُرْ «فَتْحُ الْبَارِي» ٤: ١٠٦، وَ«عَمْدَةُ الْقَارِي» ٩: ٩.

وللصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه».

بينهما ينتج أن رائحة خلوف الصائم «أعظم من دم الشهادة، لأن دم الشهيد شبه ريحه بريح المسك، والخلوف وصف بأنه أطيب»^(١) ومع ذلك «فلا يلزم من ذلك أن يكون الصيام أفضل من الشهادة»^(٢) فرائحة أثر عمل من الأعمال لا تقتضي أفضلية العمل.

ولماذا كان لهذه الرائحة تلك الأهمية؟ قال العلامة الفقيه ابن حجر الهيثمي رحمه الله في «إتحاف أهل الإسلام بخصوصيات الصيام» ص ٤١ - ٤٢: «إما لكون صيامه سرّاً بينه وبين ربه في الدنيا، فأحب أن يظهره بإظهار أثره في الآخرة علانية للخلق، ليشتهر فضل الصوم، وتمتاز مراتبهم، جزاءً لإخفائهم صيامهم في الدنيا...، وقيل: إنه إشارة إلى أن من عبد الله وأطاعه وطلب رضاه في الدنيا بعمل: ينشأ من عمله آثار مكروهة للنفس في الدنيا، وهي محبوبة لله وطيبة عنده، لأنها نشأت عن طاعته، فإخباره بذلك للعالمين في الدنيا فيه تطيب لقلوبهم، لئلا يكره منهم ما وجد في الدنيا» ثم أيد القول الأول.

ومما حكاه أن «عبد الله بن غالب أحد العبّاد المجتهدين في الصلاة والصوم، فاح من تراب قبره رائحة المسك، فرُئي في المنام فسئل عنها؟ فقال: تلك رائحة التلاوة والظما».

وأما قوله «للصائم فرحتان...»: فقال النووي رحمه الله ٨: ٣١: «قال العلماء: أما فرحته عند لقاء ربه: فيما يراه من جزائه وتذكّر نعمة الله تعالى عليه، بتوفيقه لذلك، وأما عند فطره: فسيبها تمام عبادته وسلامتها من المفسدات وما يرجوه من ثوابها» وانظر «الفتح» ٤: ١١٨.

كما أن من دواعي فرح الصائم عند فطره: إجابة الله تعالى دعاءه.

روى الترمذي أواخر كتاب الدعوات ٩: ٢٢٥ (٣٥٩٢) - وقال: حديث حسن - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا تُردُّ

دعوتهم: الصائم حين يُفْطِر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب: وعزتي لأنصرك ولو بعد حين.

هذا لفظ الترمذي «الصائم حين يُفْطِر». أما لفظ الإمام أحمد ٢ : ٣٠٥، ٤٤٥، وابن ماجه ١ : ٥٥٧ (١٧٥٢): «الصائم حتى يفطر». أي: إن دعاءه مستجاب ما دام صائماً، فإذا أفطر توقفت الخصوصية. ولا تعارض، إنما هي زيادة في الوقت الذي يستجاب فيه دعاء الصائم، هل هو عند فطره فقط، أو من أول صومه إلى حين فطره. والله أعلم. ونسأل الله أن يكرمنا بما هو أهله.

* * *

٤٢ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : أحبُّ عبادي إليَّ : أعجلُهُم فِطْراً » .

٤٢ - تخريجه : رواه الترمذي : كتاب الصوم - باب ما جاء في تعجيل الإفطار ٥٦ : ٣ (٧٠٠) = ٨٣ : ٣ (٧٠٠) وقال : حديث حسن غريب ، ورواه أحمد في «المسند» ٣٢٩ : ٢ . وتضعيف المناوي له في «فيض القدير» ٤ : ٤٨٥ في غير محله^(١) .

معناه : يخبرنا الله عز وجل عن عباده الذين استجابوا لأمره بالصيام فصاموا ، وبالإفطار فأفطروا : أنهم كلُّهم أحبُّ الله تعالى ، لكنَّ أحبُّهم إليه من بادر إلى الفطر قبل غيره - بعد الاطمئنان إلى غروب الشمس - .

ذلك أن في الإمساك وفي الإفطار معنى عظيماً من معاني العبودية لله العظيم . فمن أمسك : أمسك امتثالاً لأمر الله ، ومن أفطر : أفطر امتثالاً لأمره أيضاً ، فهو في كلتا الحالتين متقلِّبٌ في الانقياد لأمر الله ، ممثِّلٌ له ، عبدٌ بين يديه ، لسانُ حاله يناجي ربَّه : يا رب أمرتني بالإمساك عن شهواتي البشرية ، فأنا ممثِّلٌ ، ثم إنك أذنت لي ورغبت مني بتناولها : فأنا لك عبد مطَّوع ، مبادر لأمرك ، أحبُّ أن تَراني حيث تحبُّ يا رب .

١ - وسبب وُهمه في هذا الحديث وأمثاله : أنه كان عمل فُهرساً لأحاديث «مِيزان الاعتدال» و«لسان المِيزان» ، فكان يكشف فيه عن الحديث ، فيجده فيه ، فينقل كلام الذهبي أو ابن حجر في الراوي الذي ذكر الحديث في ترجمته ، ظناً منه رحمه الله أن هذا الراوي مذكور في سند من عزا السيوطي الحديث إلى كتابه ، وقد يكون الأمر كذلك ، وقد لا يكون ، كما هو الحال في حديثنا هذا ، فإن الذهبي ذكره في «المِيزان» ٤ : ١١٠ في ترجمة مسلمة بن عُلي الحُشَني أحد الضعفاء .

.....

فلهذا المعنى كان أحبَّ عباد الله الصائمين أعجلهم فطراً. والله أعلم.

يضاف إلى هذا الملحظ: مخالفة المسلمين لليهود والنصارى، إذ يؤخرون فطرمهم، كما صَحَّ عند أبي داود ٢ : ٧٦٣ (٢٣٥٣) عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزال الدين ظاهراً ما عجل الناس الفطر، لأن اليهود والنصارى يؤخرون». وهذه الأمة المحمدية هي أحبُّ الأمم إلى الله تعالى، بفضل نبيها الكريم ﷺ، وأحبهم إلى الله من كان ممثلاً لأوامره، مخالفاً لليهود والنصارى.

* * *

٤٣ - عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: إن رسول الله ﷺ قال: «ما من يومٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتَقَ اللهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ: من يوم عرفة،

٤٣ - تخريجه: رواه مسلم في «صحيحه» كتاب الحج - باب في فضل يوم عرفة ٢: ٩٨٣ (٤٣٦)، و«شرح النووي» ٩: ١١٧.

غريبه: «من» الأولى والثانية زائدتان، والثالثة: متعلقة بـ «يعتق» والرابعة: متعلّقة بـ «أكثر». و«ما» التي في أول الحديث تميمية، أو حجازية تعمل عمل ليس.

معناه: في هذا الحديث الشريف ترغيب إلهي عظيم، بالتعرض لهذا الفضل العميم، في ذاك اليوم المبارك، فإنه أمنيّة كلّ مسلم يخشى عذاب الله.

ذاك يوم عرفة، يوم التجلّي الإلهي بالمغفرة والغفران، والرضا والرضوان، بالمغفرة العامة لكل من أكرمه الله تعالى فشهد ذاك المشهد الذي لا يفوقه مشهد سواه بخشعته وهيئته، وجلاله وعظمته.

يوم تتصل فيه القلوب المتجرّدة بخالقها، وأصوات الحناجر الصاخبة بالسماء، مناديةً مناجيةً: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك. تُكرّر هذه المناجاة التي فيها الاستجابة لنداء الله لهم: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾، لعل الله يستجيب لهم.

فالعباد: استجابوا لنداء الله لهم، وقالوا له: لبيك ربنا وسعديك، والخير كله بيدك، ونحن نرجوك من هذا الخير العظيم، فإنه لا يملكه أحد سواك، فأَنلنا منه يا ربنا. فحينئذ يتعطّف المولى الكريم على عباده، ويكرم جُوارهم - صُراخهم بالتلبية - ودعاءهم، ويرحم غربتهم وفراقهم للأهل والولد والوطن، ويُعَدِّم عن أسباب الراحة المعتادة لهم، فيتجلّى عليهم بالمغفرة العامة الشاملة، ويُعتَقهم من ناره، فإن الله أرحم بعبيده أن يجمع عليهم خوفه في الدنيا وخوفه من عذابه في الآخرة.

وإنه لَيَذْنُو، ثم يُباهي بهم الملائكة

ومن أصبح مغفوراً له مُعْتَقاً من النار: فقد شأَبَ الملائكة الكرام، على ما رُكِبَ فيه من الصفات البشرية الأرضية، لذلك يكرمه الله عز وجل بمباهاة ملائكته به، ويقول له: انظروا إلى هؤلاء العباد، إنهم على ما هم عليه من العالم الأرضي، المركَّب من نوازع الخير والشر، قد أقبلوا عليّ، وتجرّدوا لي، خائفين راجين، ضارعين باكين، معترفين آملين... أشهدكم يا ملائكتي أنني قد غفرتُ لهم ما كان منهم، فإني أكرمُ من أن أَرُدَّ سائلاً!

فقوله في الحديث: «إنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة...»: اعتبره الإمام النووي رحمه الله روايةً مختصرة من رواية عبد الرزاق في «مصنفه» ٥: ١٧ (٨٨٣٠) عن ابن عمر، وهو حديث طويل، محلُّ الشاهد منه: قوله ﷺ لرجل أنصاري جاء يسأله عما أعدّه الله للحاج يوم عرفة: «وأما وقوفك بعرفة فإن الله تبارك وتعالى ينزل إلى سماء الدنيا فيباهي بهم الملائكة فيقول: هؤلاء عبادي جاؤوا شُعْثاً غُبْراً من كل فجٍّ عميق، يرجون رحمتي، ويخافون عذابي، ولم يَرَوْني، فكيف لو رأوني؟ فلو كان عليك - الخطاب للأنصاري - مثل رملِ عالِج^(١) أو مثل أيام الدنيا، أو مثل قَطَر السماء ذنوباً: غَسَلها الله عنك»^(٢).

١- قال في «المصباح المنير»: «رمل عالِج: جبالٌ متواصلةٌ يتصل أعلاها بالدُّهْناء - والدُّهْناء بقرب اليمامة - وأسفلها بنجد، ويتسع اتساعاً كثيراً، حتى قال البكري: رمل عالِج يحيط بأكثر أرض العرب».

٢- لكن شيخ عبد الرزاق فيه: ابن مجاهد، وهو عبد الوهاب بن مجاهد بن جبر المكي، وهو ضعيف بل أتهم، كذَّبه الثوري.

إنما جاء هذا اللفظ تقريباً من رواية ابن عمر أيضاً عند البزار والطبراني في «المعجم الكبير»، قال الهيثمي في «المعجم» ٣: ٢٧٥: «رجال البزار موثقون وقال البزار: قد روي هذا الحديث من وجوه ولا نعلم له أحسن من هذا الطريق»، وهو في «صحيح ابن حبان» بلفظ قريب منه جداً، وصححه المنذري في «الترغيب» ٢: ٢٠٥ ثم انظر أول صفحة ٢٠٧ منه.

ثم ذكره أيضاً من رواية أنس عند البزار وقال: «فيه إسماعيل بن رافع وهو ضعيف». ثم ذكر رواية عبادة بن الصامت وعزاها إلى الطبراني في «الأوسط» وقال: «فيه محمد بن عبد الرحيم ابن شُرُوس، ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً، ومن فوقه موثقون». وقريب منه رواية جابر التي رواها ابن حبان في «صحيحه» وعزاها المنذري في «الترغيب» ٢: ٢٠٠ =

فيقول: ما أراد هؤلاء».

فقوله: «ما أراد هؤلاء»: سؤال منه للعتاء، لا للعلم، فإنه أعلم من كل إنسان بنفسه، سبحانه وتعالى، يسأل ملائكته عما يريد هؤلاء العباد لِيُعْلِمَهُمْ بأنه جل جلاله سيعطيهم سُؤْلَهُمْ ويزيدُهم من فضله.

وهل عموم المغفرة للحجاج يوم عرفة يتناول (المظالم) أي حقوق العباد فيما بينهم؟ والجواب: أن المقام مقام كرم وتفضل، وإحسان وامتنان، فلا يليق السؤال والاستفصال، وتعلقُ العبدِ المذنبِ بعموم ذلك أولى، وكما أن صاحب الحق يتمنى أن لا يكون ذلك حينما يكون الحق له، لكنه يتمناه حينما يكون الحق عليه.

وأيضاً: قد جاء التصريح بمغفرة المظالم في حديث العباس بن مرداس الآتي ذكره عقب هذا الحديث. نسأل الله من فضله أن يوفقنا لذلك ولا يحرمانا منه، إنه جواد كريم.

* * *

= إلى أبي يعلى والبخاري وابن خزيمة أيضاً. فلا أقل من تحسين الحديث، وكان الأولى عزوه إلى هؤلاء لا إلى «مصنف» عبد الرزاق.

٤٤ - عن العباس بن مرداس السلمي رضي الله عنه، أن النبي ﷺ دعا عشية عرفة بالمغفرة والرحمة، فأكثر الدعاء، فأجابه الله عز وجل: «أَنْ قَدْ فَعَلْتُ، وَغَفَرْتُ لَأَمْتِكَ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنَّكَ قَادِرٌ أَنْ تَغْفِرَ لِلظَّالِمِ وَتُثِيبَ الْمَظْلُومَ خَيْرًا مِنْ مَظْلِمَتِهِ». فلم يكن في تلك العشيّة إلا ذا، فلما كان من الغد دعا غداة المزدلفة، فعاد يدعو لأمته، فلم يلبث النبي ﷺ أن تبسم، فقال بعض أصحابه: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ضحكت في ساعة لم تكن تضحك فيها، فما أضحكك؟ أضحك الله سنك! قال: «تبسمت من عدو الله إبليس حين علم أن الله

٤٤ - تخريجه: رواه ابن ماجه في «سننه» كتاب المناسك - باب الدعاء بعرفة ١٠٠٢ : ٢ (٣٠١٣)، وعبدالله بن الإمام أحمد في «زوائد المسند» لأبيه ٤ : ١٤، واللفظ له، وروى منه أبو داود طرّف «أضحك الله سنك» ٥ : ٤٠٠ (٥٢٣٤). وقد قوى الحديث الحافظ ابن حجر في «القول المسدّد» ص ٤٤، ثم أفرد الكلام عليه في رسالة لطيفة سماها «قوة الحجاج في عموم المغفرة للحجاج». وانظر «الترغيب للمندري ٢ : ٣٠٢».

غريبه: غداة المزدلفة: صباح يوم مزدلفة، وهو صبيحة يوم النحر. أهوى: أسرع وتعجل.

الثبور: هلاك فيه معنى الدوام والاستمرار، مأخوذ من (المثابرة) كما نبّه إليه الراغب الأصفهاني في «مفردات القرآن». فعطف (الويل) عليه من عطف العام على الخاص.

معناه: في الحديث: بيان رافة النبي ﷺ ورحمته بمن يكرمه الله تعالى بالحج والوقوف بعرفة، فقد اجتهد في الدعاء لهم الوقت الطويل ليضمن لهم تفضل الله تعالى عليهم بالمغفرة العامة، وهم على مدار السنين ومواسم الحج كثر، والحمد لله. دعا لهم مساء عرفة كثيراً وكثيراً، فاستجاب الله تعالى له أن يغفر لهم كل ما

عز وجل قد استجاب لي في أمتي وغفر للظالم، أهوى يدعو بالشُّور والويل، ويحثو التراب على رأسه، فتبسّمت مما يصنع من جزعه».

اقترفوه، إلا ما كان من ظلم بعضهم بعضاً. أي: إلا ما كان من حقوق لبعضهم على بعض (المظالم التي بينهم)، فإن الله تعالى أوقف ذلك.

فكان من رافته ﷺ ورحمته - وهو الرؤوف الرحيم بالمؤمنين - أن عاد إلى دعاء ربه، وهو يعلم كرمه وفضله ورحمته بعباده، ويعلم أيضاً أن رافته ورحمته بالمؤمنين إنما هي مستمدة من رافة الله تعالى ورحمته، فعاد الدعاء والإلحاح، وإن الله يحب من عبده الإلحاح في الدعاء.

وقال: يا رب إنك قادر أن تغفر لهذا الظالم، وقادر أن تُرضي مظلومه عنه فتشبه خيراً من حقه الذي له على ظالمه. وذلك بأن تُعطيه «من الجنة» ما يشاء، كما جاء في رواية ابن ماجه، فيكون فضلك قد عمّ الطرفين: الظالم والمظلوم. يا رب فاغفر. فاغفر يا رب.

فلم يكن من الله الكريم إلا أن أجاب دعاء حبيبه الذي سماه في قرآنه الخالد: ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾. فصلوات الله تعالى وسلاماته عليه، وجزاه الله عنا أفضل ما جرى نبياً عن أمته، كم أسدى إلينا من الخيرات والمكرمات.

فكان من ذلك الفضل الإلهي: سرور حبيبه وضحكه، وغضب إبليس وجزعه.

اللهم فأكرم سيدنا محمداً ﷺ في أمته بالأخذ بناصيتها إلى كل خير دنیا وآخرة.

ولما كان ضحك النبي ﷺ في وقت يوم لا يُناسبه إلا الخضوع والدموع عجب بعض الصحابة من ذلك، وسُموا في رواية ابن ماجه: أبا بكر وعمر، فكان الجواب بالبشارة بنتيجة ذاك الخضوع وتلك الدموع: إن الله عز وجل قد استجاب لي في أمتي وغفر للظالم، وأما التبسّم: فلأن الله أخزى إبليس، وراح اللعين يدعو على نفسه بالهلاك الدائم، ويحثو على رأسه التراب.

فالحمد لله على ما أنعم به وتفضل. وصلى الله وسلّم على سيدنا محمد رحمة الله المُهداة.

٤٥ - عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثدٍ والزبير - وكلُّنا فارس - قال: «انطلقوا حتى تأتوا روضةً خاخٍ، فإن بها امرأةٌ من المشركين معها كتابٌ من حاطبٍ بن أبي بلتعةٍ إلى المشركين» فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول

٤٥ - تخريجه: رواه البخاري في مواطنَ عدَّة من «صحيحه»، منها هذا اللفظ في كتاب المغازي - باب فضل من شهد بدرًا ٧: ٣٠٤ (٣٩٨٣)، وأطال الحافظ في شرح الحديث في كتاب استتابة المرتدين - باب ما جاء في المتأولين ١٢: ٣٠٤ (٦٩٣٩)، ورواه مسلم في فضائل الصحابة - باب من فضائل حاطب بن أبي بلتعة وأهل بدر رضي الله عنهم ٤: ١٩٤١ (١٦١) ومن شرح النووي ١٦: ٥٥.

غريبه: الحُجْزَةُ: موضع مَعْقِد الإزار.
يَدُ: صنِيعَة ومَعْرُوف.

معناه: في هذا الحديث الشريف عَلِمَ من أعلام النبوة، أظهره الله عز وجل في هذه المناسبة، لسلامة جيش الإسلام من الصحابة الكرام رضي الله عنهم. وَمَنْقَبَةٌ وبشارةٌ لطائفة من الصحابة أكرمها الله عز وجل في أول موقعة كانت بين جيش الحق، وجيش الباطل، هي موقعة بدر الكبرى.

حاطبُ بن أبي بلتعة صحابيٌّ جليل كان من أفراد جيش الإسلام يوم بدر، عَرَضَ له ضعفٌ ممزُوجٌ بحسنِ نيَّة، فَعَذَّرَه الله تعالى على لسانِ رسوله ﷺ، وأنه مغفور له. ولم يكن عذره ومغفرته مانعاً من أن يلقن الله عز وجل للمسلمين درساً في الولاء والبراء.

قال حاطب - كما في رواية للبخاري ٧: ٥١٩ -: يا رسول الله لا تعجل علي، إني كنت امرأةً مُلْصَقاً في قريش - أي: حليفاً لا أصيلاً فيهم - ولم أكن من

الله ﷺ. فقلنا: الكتاب، فقالت: ما معنا كتاب، فأنخناها، فالتمسنا، فلم نَرَ كتاباً، فقلنا: ما كذب رسول الله ﷺ، لَتُخْرِجَنَّ الكتابَ أو لَنُجَرِّدَنَّكَ، فلما رأت الجَدَّ أُمُوتَ إِلَى حُجْرَتِهَا - وهي محتجزة بكساء - فَأَخْرَجَتْهُ، فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ.

أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم بها قَرَاباتٌ يَحْمُونَ أهلهم وأموالهم، فأحببتُ إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أَتَّخِذَ عندهم يداً يَحْمُونَ قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام. فهذا عذره.

فقال ﷺ: «أما إنه قد صدقكم...»، لعل الله اطلع على من شهد بدراناً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». فهذه مغفرة الله له.

فأنزل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوِّي وعدوكم أولياء تُلقون إليهم بالموادة وقد كفروا بما جاءكم من الحق، يُخرجون الرسول وإياكم، أن تؤمنوا بالله ربكم، إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي، تُسيرون إليهم بالموادة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل﴾. فهذا هو الولاء والبراء.

وفي الحديث الشريف درسٌ عظيمٌ لكل مسلم يتلقَّنه من أصحاب رسول الله ﷺ - ومن كان على هديهم من الصادقين المصدِّقين -.

علي والزبير وأبو مرثد - وفي رواية: والمقداد - أربعة رضي الله عنهم، قال لهم رسول الله ﷺ: امرأة معها كتابٌ من حاطب، فأذركوها، فسألوها الكتاب فأنكرت، فعارض إنكارها خبر رسول الله ﷺ، ولا ريب أنهم سيقدمون خبر رسول الله.

لكنهم فُشِّهوا، فلم يجدوا شيئاً، فاعتضد إنكارها ببحثهم وتفتيشهم، ومع ذلك وثِّقوا بخبر رسول الله ﷺ، ولم يلتفتوا إلى سواه: «فقلنا: ما كذب رسول الله ﷺ، لتُخْرِجَنَّ الكتابَ أو لَنُجَرِّدَنَّكَ». فكان في أنفسهم من الثقة بكلام النبي عليه الصلاة والسلام فوق ما يقوله غيره، أو يصلون إليه من العلم بالبحث عنه من قبلهم وبأنفسهم!

فقال عمر: يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلاضرب عنقه! فقال النبي ﷺ: «ما حملك على ما صنعت؟» قال

ولا يقال: كيف يكرّر عمر على رسول الله ﷺ الاستئذان بضرب عنق حاطب، وقد أعلمه بصدقه، لأن الأمر كما قال ابن حجر ١٢: ٣٠٩: «ظن - عمر - أن صدقه في عذره لا يدفع ما وجب عليه من القتل». فصدقه يغفر ذنبه عند الله تعالى، أما خيائته فمقبوتها الدنيوية القتل، هكذا ظن رضي الله عنه. وهذه الثقة منهم لها من الشواهد الأخرى والمواقف شيء كثير من أخبار الصحابة رضي الله عنهم.

أما من أخبار من كان على سنتهم وهدىهم: فذلك لها مواقف كثيرة، أذكر منها شاهداً واحداً.

روى سيدنا عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من عبد يقول في صباح كل يوم، ومساء كل ليلة: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم - ثلاث مرات -: لم يضره شيء».

ورواه عن عثمان ابنه أبان بن عثمان بن عفان. ومرة كان أبان يحدث بهذا الحديث الراوي الشهير بلقبه: أبا الزناد، وكان أبان قد أصابه فالج - عافانا الله - فجعل أبو الزناد ينظر إليه، كأنه يقول له: كيف أصبت بالفالج، وأنت تروي أن النبي ﷺ قال: «لم يضره شيء؟!».

فقال له أبان: مالك تنظر إلي؟! أما إن الحديث كما حدثتك، ولكني لم أقله في ذلك اليوم، ليُمضي الله علي قدره. هذه رواية الترمذي ٩: ١٠٢ (٣٣٨٥) وقال: حسن غريب صحيح.

ولفظه عند أبي داود ٥: ٣٢٤ (٥٠٨٨): مالك تنظر إلي، فوالله ما كذبت على عثمان، ولا كذب عثمان على النبي ﷺ، ولكن اليوم الذي أصابني فيه ما أصابني غضبت، فنسيت أن أقوله.

وإذا كان عثمان لم يكذب على رسول الله، فرسول الله هو الصادق المصدوق على الله وعن الله، فقلوه وخبره حق وصدق وحقيقة، فيجب أن يؤخذ بالاستسلام والتسليم.

حاطب: والله ما بي أن لا أكون مؤمناً بالله ورسوله ﷺ، أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله. فقال النبي ﷺ: «صدق، ولا تقولوا له إلا خيراً»، فقال عمر: إنه قد خان الله والمؤمنين، فدعني فلاضرب عنقه! فقال: «أليس من أهل بدر؟» فقال: «لعل الله أطلع علي أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة - أو: فقد غفرت لكم» فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم.

فانظر ثقتهم بإخبارات رسول الله ﷺ، ورضي الله عنهم، ولتأس بهم. ويتصل بهذا: موقف عمر رضي الله عنه آخر الحديث، إنه قال عن حاطب: قد خان الله ورسوله والمؤمنين، وهذا كلام لا يقال إلا بعد قناعة تامة بما في قرارة النفس، فلما قال له ﷺ: «أليس من أهل بدر، لعل الله أطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم...»: اغرورقت عيناه، وانفشع ما في نفسه من تلك القناعة التي استحل بها دمه - ولا أعز من هذا ولا أشد حرمة من دم المرء - واستسلم لقول رسول الله ﷺ وقال: الله ورسوله أعلم من علمي وقناعتي، فلا ألق عما في نفسي إلى ما جاء عن رسول الله ﷺ.

ومثل اعتذار حاطب لا يُزيل تُهمة، ولا يُزيح الشك عنه في مثل هذا الموقف الخطير، أيام تجهيز عشرة آلاف مقاتل لفتح مكة، فيكتب كتاباً يُفشي فيه سر رسول الله ﷺ العسكري، فلو لم يكن الوحي صدق حاطباً لما صدقه رسول الله ﷺ وقال: «صدق، ولا تقولوا له إلا خيراً»^(١).

ونص كتاب حاطب إلى قريش: «أما بعد يا معشر قريش فإن رسول الله ﷺ جاءكم بجيش كالليل، يسير كالسيل، فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله وأنجز له وعده، فانظروا لأنفسكم. والسلام»^(٢).

١ - كون هذا التصديق كان منه ﷺ عن وحي: أحد احتمالين ذكرهما ابن حجر ١٢: ٣٠٨، والاحتمال الأول: «أن يكون ﷺ عرف صدقه مما ذكر». وهذا أبعد عندي، وذاك أقرب وأرجح، إن لم يكن هو المتمعين. والله أعلم.

٢ - «فتح الباري» ٧: ٥٢١.

وقوله ﷺ: «لعل الله اطلع على أهل بدر»: قال فيه الحافظ في «الفتح» ٧: ٣٠٥: «قال العلماء: إن الترجي - يعني كلمة: لعل - في كلام الله وكلام رسوله للوقوع - أي: تفيد الوقوع والجزم - وعند أحمد وأبي داود وابن أبي شيبة من حديث أبي هريرة بالجزم، ولفظه: «إن الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» وعند أحمد بإسناد على شرط مسلم، من حديث جابر مرفوعاً: «لن يَدْخُلَ النَّارَ أَحَدٌ شَهِدَ بَدْرًا»^(١).

فهذا يؤيد جعل الحديث قدسياً.

ولا بد من التنبيه لصحة فهم الحديث: أن الله تعالى قد غفر لأهل بدر - والحديبية - ما فَرَطَ منهم من حقوق الله عز وجل، أما ما كان منهم من أمور تتعلق بحقوق العباد فحقوق العباد لا تَسْقُطُ إلا بإسقاطهم، وتبقى المؤاخاة الإلهية مغفورة لهم.

قال الحافظ في «الفتح» ٧: ٣٠٦: «واتفقوا على أن البشارة المذكورة: فيما يتعلق بأحكام الآخرة، لا بأحكام الدنيا، من إقامة الحدود وغيرها».

وقال ١٢: ٣١٠: «وقد اسْتَشْكَلْتُ إقامةَ الْحَدِّ عَلَى مِسْطَحٍ بِقَذْفِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، كَمَا تَقَدَّمَ، مَعَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، فَلَمْ يُسَامَحْ بِمَا ارْتَكَبَهُ مِنَ الْكَبِيرَةِ، وَسُومِحَ حَاطِبٌ، وَعُلِّلَ بِكَوْنِهِ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ؟ وَالْجَوَابُ مَا تَقَدَّمَ فِي بَابِ فَضْلِ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا - ٧: ٣٠٦ - أَنَّ مَحَلَّ الْعَفْوِ عَنِ الْبَدْرِيِّ فِي الْأُمُورِ الَّتِي لَا حَدَّ فِيهَا». وَأَصْلُ هَذَا لِلْقَاضِي عِيَاضٍ وَالتَّوَوَّى ١٦: ٥٦.

وفي الحديث أيضاً من الدروس والعبر ما يحتاجه كلُّ مسؤول، من رئيس

١ - الحديث الأول عند أحمد ٢: ٢٩٥، وأبي داود ٥: ٤٢ (٤٦٥٤) عن شيوخه موسى بن إسماعيل وأحمد بن سنان، ولفظ موسى: فلعل الله، ولفظ ابن سنان: اطلع الله، وأما الحديث الثاني فهو عند أحمد ٣: ٣٩٦ بلفظ: «لن يَدْخُلَ النَّارَ رَجُلٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالحديبية». وروى مسلم ١٦: ٥٧ عن جابر أن عبداً لحاطب جاء رسول الله ﷺ يشكو حاطباً، فقال: يا رسول الله ليدخلن حاطب النار! فقال رسول الله ﷺ: «كذبت، لا يدخلها، فإنه شهد بَدْرًا وَالحديبية»، وكان هذه الرواية أصل رواية «المسند»؟.

وسلطان وقائد ونحوهم. وهو أن لا يُؤخذ ويتأثر بكلام مَنْ حوله، ولو كان مِنَ البطانة الصالحة، ولو كان في مواقف صعبة حرجة، بل عليه بالتَّثَبُّت والتَّأْنِي واستبانة ما وراء الأمور بنفسه، وإلا فإن الخطأ منه قريب، وقد لا يمكنه تدارك الخطأ.

يستفاد هذا من موقف سيدنا رسول الله ﷺ الإمام الحكيم، والقائد الرشيد:

رجل يُفشي سرّه العسكري، ونحن نعلم حرصه الشديد ﷺ في الأمور العسكرية، وحديث كعب بن مالك معروف يوم تخلّف عن غزوة تبوك، وقوله في أوله: لم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوةً إلا ورى بغيرها، فكيف بهذا الموقف!! إنها إساءة كبيرة، وذنب فادح لا يحتمله أيُّ قائد كان، فهو بحدّ ذاته لا داعي فيه أن يُثار القائد من أحدٍ أفراده ليقول له: اقتله، أو: دغني لأقتله، بل يكفي اعترافُ فاعله على نفسه أنه فعله، ليقتله القائد بنفسه، أو يأمر بقتله.

ولكنّ رسولَ الله ﷺ القائدَ المعلمَ المشرّع لم يفعل ذلك، ولم يتأثر بكلمة عمر وتقديمه نفسه لقتل حاطب، بل قال: «ما حملك على ما صنعت؟».

فهذا هو درسُ التَّثَبُّت في المواقف الحرجة - بلّه مواقف السُّلم - وهذا درس التَّعَقُّل وعدم الانسياق مع كلام الآخرين وإن كان من المقرّبين ومن البطانة الصالحة كعمر رضي الله عنه.

ولا علاقة هنا لكون رسول الله ﷺ مسدداً مؤيداً بالوحي، فالوحي بعد التَّثَبُّت، وبعد إظهار حاطب عذره. والله أعلم.

نسأل الله تعالى السداد في الأمور كلها بمنه وكرمه.

٤٦ - عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ فيما يحكيه عن ربّه عزّ وجلّ، قال: «أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي خَرَجَ مُجَاهِداً فِي سَبِيلِ اللَّهِ

٤٦ - تخريجه: رواه النسائي: كتاب الجهاد - باب في ثواب السرية التي تُخَفَّقُ ٦: ١٨ (٣١٢٦). ونحوه في صحيح مسلم: كتاب الإمارة - باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله ٣: ١٤٩٥ (١٠٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَإِيمَاناً بِي وَتَصَدِيقاً بِرُسُلِي: فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ...» وهو في شرح النووي ١٣: ١٩، ونحوه لفظ البخاري ١: ٩٢ (٣٦) وواضح ما فيه من جُمْلٍ لفظها حديثٌ قدسي، لكن رواية النسائي صريحة فاعتمدتها.

معناه: الحديث في لون آخر من ألوان أجر المجاهدين. فهو يحكي ما أعدّه الله سبحانه للمجاهدين من أجر دنيوي وآخر.

فالمجاهد: له إحدى الحُسنيين: إما سلامة وإما استشهاد.

فإن سَلِمَ ورجع إلى أهله: رَجَعَ بِأَجْرٍ عَظِيمٍ ذَخَرَهُ اللَّهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَرَجَعَ أَيْضاً بِمَغْنَمٍ مِنْ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ. وَالْأَجْرُ الْعَظِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَحْفُوظٌ لَهُ مَذْخَرٌ، أَمَا الْمَغْنَمُ: فَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْأَجْرِ، وَقَدْ لَا يَكُونُ، وَلِذَلِكَ جَاءَ بِلَفْظٍ: أَوْ غَنِيمَةٍ، عَلَى أَنَّهُ جَاءَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ ٣: ١٦ (٢٤٩٤) عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ مَرْفُوعاً: «... رَجُلٌ خَرَجَ غَازِياً فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ حَتَّى يَتَوَفَاهُ، فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يَرُدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ»^(١).

وإن استشهد: قَدِمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَرْحُوماً مَغْفُوراً لَهُ. وَكَفَى بِبَارِقَةِ

ابتغاء مرضاتي: ضَمِنْتُ له أَنْ أَرْجِعَهُ - إِنَّ أَرْجَعْتُهُ - بما أصاب من أجرٍ أو غنيمة، وَإِنْ قَبِضْتُهُ غَفَرْتُ له وَرَحِمْتُهُ.

السيوف له فتنة، فلا يُعرض على فتنة أخرى بعدها. وكلُّ مؤمن مضمون له الجنة، لكن قوله في الروايات الأخرى: «فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة»: أي مع أول الداخلين لها، لأنه مغفور له، فليس ثمة عَثَرَاتُ أمامه تُعَرِّقُ سرعة دخوله الجنة. ويلاحظ في الحديث أن الله تعالى رتب هذا الجزاء العظيم في الدنيا والآخرة لمن توفّر في جهاده أمران: أن يكون جهاده في سبيل الله، وأن يكون خالصاً لوجه الله وابتغاء مرضاته.

ويكون الجهاد في سبيل الله إذا كان لإعلاء كلمته سبحانه.

روى البخاري ٦: ٢٧ (٢٨١٠) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فسأله فقال: الرجلُ يُقاتِلُ للمغنم، والرجل يُقاتِلُ للذِّكْرِ، والرجل يُقاتِلُ لِيُرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال له عليه الصلاة والسلام جواباً عاماً وقاعدة عامة: «مَنْ قَاتَلَ لتكون كلمة الله هي العليا: فهو في سبيل الله».

ويكون خالصاً لوجه الله وابتغاء مرضاته: بأن لم تُشارك نية الجهاد في سبيل الله نية أخرى.

روى النسائي في «سننه» ٦: ٢٥ (٣١٤٠) بإسناد جيد^(١) إلى أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أُرَايْتُ رجلاً غزا يلتمسُ الأجرَ والذِّكْرَ، ماله؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا شيء له» فأعادها ثلاث مراتٍ يقول له رسول الله ﷺ: «لا شيء له»، ثم قال: «إن الله لا يقبلُ من العمل إلا ما كان خالصاً وابتُغِيَ به وجهه».

* * *

١ - وعزاه الحافظ في «الفتح» ٦: ٢٨ إلى أبي داود أيضاً، ولم أره فيه، وانظر «فيض القدير» للمناوي ٢: ٢٧٥.

٤٧ - عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم كيف وجدت منزلَك؟ فيقول: أيُّ ربٍّ خيرَ منزل، فيقول: سَلْ وَتَمَنَّ، فيقول:

٤٧ - تخريجه: رواه النسائي في كتاب الجهاد - باب ما يتمنى أهل الجنة ٦: ٣٦ (٣١٦٠).

معناه: في هذا الحديث إعلان من الله عز وجل لفضل الشهادة في سبيله عن طريق الحوار مع رجل من أهل الجنة، ولم يُوصَف في الحديث بأن هذا الرجل من زمرة الشهداء، فيَحْتَمِلُ أن يكونَ منهم، فيكونَ سؤاله الله تعالى أن يردهُ إلى الدنيا سؤال من ذاق كرامة الشهادة، فلذلك يطلبُها أن تتكرر له عشر مرات - ولربما كان العدد هنا غير مراد، بل للكثرة -.

ويَحْتَمِلُ أن يكون الرجل ليس منهم، إنما سأل ذلك لِمَا رآه من إكرام الله عز وجل للشهداء، فأحبُّ أن يُردَّ إلى الدنيا لِيُقَاتِلَ في سبيل الله فيقتل، ثم يرُدُّ ثانية وثالثة، وهكذا، ليتكرَّر له تذوقُ فضل الشهيد^(١).

ومع أن منزلته التي هو فيها الآن في خير عظيم، وقد شكر ربَّه عليها، وقال له: إنها يا ربَّ خير منزل، لكنَّ لما يكون له مجال للرجوع إلى الدنيا التي بها يكون التزوُّد للدرجات العالية في الجنة، فإنه يرغب إلى الله تعالى أن يردهُ إلى الدنيا ليفوز

١ - ذكر هذين الاحتمالين السندي رحمه الله تعالى في «حاشيته» على «سنن النسائي». ويُضَعَّفُ الاحتمالَ الثاني حديث البخاري ٦: ٣٢، ومسلم ١٣: ٢٤ عن أنس عن النبي ﷺ: «ما من أحدٍ يدخل الجنة يحبُّ أن يرجع إلى الدنيا وأن له ما على الأرض من شيء، غيرَ الشهيد، فإنه يتمنى أن يرجع فيقتل عشر مرات، لِمَا يرى من الكرامة». فهذا الحصر الذي في قوله «ما من أحد..» غير الشهيد يدل على أن الشهيد هو الذي يرى الكرامة، وأن غيره لا يحب الرجوع إلى الدنيا. والله أعلم.

أَسْأَلُكَ أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأَقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ عَشْرَ مَرَاتٍ. لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ».

فِيهَا بِالشَّهَادَةِ مَرَّةً تَلَوَ مَرَّةً. وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِمَا يُرِيهِ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْلِ الْجَنَّةِ مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ وَالشَّهَدَاءِ.

وَفِي حَدِيثِ الْبُخَارِيِّ ٦ : ١٦ (٢٧٩٧) وَغَيْرِهِ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أَحْيَا، ثُمَّ أَقْتُلُ ثُمَّ أَحْيَا، ثُمَّ أَقْتُلُ ثُمَّ أَحْيَا، ثُمَّ أَقْتُلُ». قَالَ هَذَا لِبَيَانِ فَضْلِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَتَحْرِيطِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِ. صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وَلَشَنْ كَانَتْ هَذِهِ الرِّغْبَةُ مِنْ غَيْرِ الشَّهِيدِ^(١): فَإِنَّهَا مِنَ الشَّهِيدِ مَتَوَقَّعَةٌ مِنْ بَابِ أَوَّلَى، كَمَا جَاءَ ذَلِكَ فِي حَدِيثِي ابْنِ مَسْعُودٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ، وَجَابِرٍ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ، الْآتَيْنِ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ» ٦ : ٣٣: «قَالَ ابْنُ بَطَالٍ: هَذَا الْحَدِيثُ أَجَلُّ مَا فِي فَضْلِ الشَّهَادَةِ، قَالَ: وَلَيْسَ فِي أَعْمَالِ الْبِرِّ مَا تَبْدُلُ فِيهِ النَّفْسُ غَيْرُ الْجِهَادِ، فَلِذَلِكَ عَظُمَ فِيهِ الثَّوَابُ».



٤٨ - عن مسروق قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزِّقُونَ﴾؟ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تشرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلّع إليهم ربهم أطلاعاً فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرّح من الجنة حيث شئنا؟! ففعل

٤٨ - تخريجه: رواه مسلم في «صحيحه» كتاب الإمامة - باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ٣: ١٥٠٢ (١٢١) و«شرح النووي» ١٣: ٣١.

معناه: بين هذا الحديث الشريف أن الشهيد لا يتمنى إلا أن يُعيدَهُ الله تعالى إلى الدنيا، ليقاتل مرة ثانية وثالثة.. في سبيل الله، فيقتل، ليتجدد تنعمه بفضل الله مرة بعد مرة.

وفي هذا الحديث تفسير للحياة المذكورة في الآية الكريمة: ﴿أحياء عند ربهم يُرزقون﴾ فالحياة: هي أن أرواحهم في حواصل طير تنقل تحت العرش على قناديل معلقة به، كما تنقل طير الدنيا وبلابلها على أغصان الشجرة.

والمشابهة في الأسماء فقط، فقناديل الآخرة غير قناديل الدنيا - ولا سيما القناديل التي تعلّق بالعرش - والطير غير الطير!.

«فقال: هل تشتهون شيئاً؟» في نسخة الإمام النووي التي شرح عليها: «فقال لهم الله تعالى: هل تشتهون شيئاً». وهذا تصريح بقدسيّة هذه الجملة، وإن كان واضحاً.

بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يسألوا^(١) قالوا: يا رب نريد أن تَرُدَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتَلَ في سبيلك مرةً أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجةٌ تُركوا».

فلما أظهر الله عز وجل منهم أن ليس لهم حاجة في الجنة سوى هذه الحاجة، لم يُكرَّر عليهم الطلب بعد المرات الثلاث، لأن عودهم إلى الدنيا أمرٌ قد فُرج منه، كما جاء بيانه في الحديث الآتي.



١ - ضبط العلامة عليّ القاري رحمه الله في «المرفأة» ٧ : ٢٧٧ «يسألوا» هكذا: «بصيغة الفاعل» أي: بفتح الياء، ليكون مبنياً للفاعل - أي للمعلوم - لا يضم الياء مبنياً لما لم يُسم فاعله - أي للمجهول، كما يقولون -.

وما جاء في طبعة متن «صحيح مسلم» نشرة محمد فؤاد عبد الباقي، متابعاً لما في طبعة «شرح النووي» يُسألوا: فخطأ مطبعي يُجتنب.

٤٩ - عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما قال: لَقِيتُ رسولَ الله ﷺ فقال لي: «يا جابرُ مالي أراك مُنْكَسِراً؟» قلتُ: يا رسولَ الله استُشْهِدَ أبي يومَ أُحُدٍ وتركَ عِيالاً وَدَيْناً. قال: قال: «أَلَا أُبَشِّرُكَ بما لَقِيَ اللهُ

٤٩ - تخريجه: رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن - من تفسير سورة آل عمران ٨: ١٨٧ (٣٠١٣) وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه، وأشار إلى رواية الإمام أحمد في «المسند» ٣: ٣٦١ من طريق عبد الله بن محمد بن عَقِيل، عن جابر مرفوعاً بلفظ: «يا جابر أما علمت أن الله أحيا أباك فقال له: تَمَنَّ عَلِيٌّ فقال: أُرِدتُ إلى الدنيا فأُقتل مرة أخرى، فقال: إني قضيتُ الحكمَ أنهم إليها لا يَرْجِعُونَ».

غريبه: منكسراً: أي منكسر الخاطر، حزينا.

العيال: قال في «المصباح المنير»: هم «أهل البيت ومن يُمُونه الإنسان، الواحد: عَيْلٌ، مثل: جِياد وجَيْدٌ».

كِفاحاً: قال في «المرواة» ١١: ٤٣٩: أي: «من غير واسطة بينه وبين الله تعالى».

تَمَنَّ عَلِيٌّ: التمني: تَشَهَّى حصول الأمر المرغوب فيه، كما قال ابن الأثير أيضاً، وهذا الأمرُ المرغوبُ فيه: مطلقٌ، سواء كان بعيدَ الحصول عليه، أو قريباً، ممكناً أو غير ممكن. أما «ليت» - وهي للتمني - فإنها غالباً تُستعمل مع المستحيل الوقوع، وقد تأتي مع ممكن الحصول، على قلة.

معناه: في هذا الحديث تأكيدٌ على المعنى السابق، وهو أنه لا أَمْنِيَّةَ ولا رَغْبَةَ عند الشهداء إلا أن يَرُدَّ اللهُ تعالى عليهم أرواحهم، ليقاتلوا في سبيله مرة أخرى، فَيُقْتَلُوا، فَيَتَنَمَّوْنَ بكرامة الشهادة. لكنْ زادت هذه الرواية على سابقتها أن الله تعالى يُخبرهم أنه لا مجال إلى العودة ثانية إلى الدنيا، إذ قد سَبَقَ من الله تعالى قضاؤه المُبَرَم: أن لا رجعة إلى الدنيا بعد الخروج منها.

به أباك؟» قال: بلى يا رسول الله. قال: «ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلّمه كفاحاً فقال: يا عبدي تَمَنَّ عليّ أُعْطِكَ، قال: يا ربّ تُحْيِيْنِي فَأُقْتَلْ فِيكَ ثَانِيَةً. قال الربُّ تبارك وتعالى: إنه قد سَبَقَ مِنِّي أَنَهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ». قال: وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ الْآيَةُ.

وفي قوله «سَبَقَ مِنِّي أَنَهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ»: تَلَطَّفَ وَتَنَبَّهَ إِلَى آدَابِ الْمُخَاطَبَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَخَاطَبْ عَبْدَ اللَّهِ وَالِدَ جَابِرٍ: سَبَقَ مِنِّي أَنْكُمْ إِلَيْهَا لَا تَرْجَعُونَ، قَطْعاً لَتَمَنِّيهِ، إِنَّمَا تَلَطَّفَ فَمُخَاطَبُهُ بِضَمِيرِ الْغَائِبِ، وَإِنْ كَانَ الْمُؤَدَّى وَاحِداً، لَا سِيَّمَا وَالْمَقَامُ مَقَامُ تَكْرِيمٍ لِلشَّهِيدِ، لَا مَقَامُ رَدٍّ رَغْبَةٍ، وَصَدَّ عَنْ طَلَبِ.

وقوله ﷺ: «ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب»: فيه أمران: الأول: أن ظاهره لَا يَلَاقِي قَوْلَ جَابِرٍ: تَرَكَ أَبِي دِيناً وَعِيَالاً، فَلِذَلِكَ تَرَانِي مُنْكَسِرَ الْخَاطِرِ! وَجَوَابُهُ: أَنَّ هَذَا الْإِكْرَامَ الْإِلَهِيَّ الَّذِي لَقِيَهُ أَبُوكَ إِكْرَامٌ عَظِيمٌ يَفُوقُ وَيُغْطِي كُلَّ مُشْكَلَةٍ تَعْرِضُ لَكَ مِنْ جَرَّائِهِ، فَلَا تَهْتَمُّ.

قال القاري في «المرقاة» ١١: ٤٣٩: «قال الطيبي: هذا الجواب من الأسلوب الحكيم، أي: لا تهتم بشأن أمر دنياه من همّ عياله وقضاء دينه، فإن الله تعالى يقضي عنه دينه ببركة نبيه ﷺ، ويلطف بعياله، ولكن أبشرك بما هو فيه من القرب عند الله سبحانه، وما لقيه به من الكرامة والمنحة».

والجملة الأولى من هذا الجواب تذكّرنا بالحديث الذي رواه البخاري في مواضع من «صحيحه»، أولها في كتاب البيوع - باب الكيل على البائع والمعطي ٤: ٣٤٤ (٢١٢٧) فانظره وانظر أطرافه هناك. وجملة الحديث، أن والد جابر: عبد الله ابن عمرو بن حرام رضي الله عنه استشهد يوم أحد، وترك ديناً كثيراً عليه، وجاء الغرماء يطالبون جابراً بما لهم على أبيه، وفيهم رجل يهودي، فكلّمهم جابر أن يقسّطوا الدّين أو يحطّوا عنه بعضه، فلم يفعلوا، فاستشفع إليهم بالنبي ﷺ فلم يقبلوا.

وكانت تركّة عبد الله بن عمرو بن حرام حائطاً من نخيل، ومحصوله قليل لا يفي بذينه، بل غلّة سنين له لا تفي بدينه.

فلما رأى النبي ﷺ ذلك منهم قال لجابر: «صنف تمرك أصنافاً: العجوة على حدة، وعذق ابن زيد على حدة، ثم أرسل إلي»، ففعل ذلك جابر، وأخبر النبي ﷺ بما فعل، فجاء عليه الصلاة والسلام ومشى حول البيادر المصنفة، ودعا الله تعالى، ثم جلس على أحدها، وأمرهم بالكيل والاستيفاء، ففعلوا، فأوفاهم دينهم جميعه، قال جابر: وبقي تمرى كأنه لم ينقص منه شيء! وفي رواية: كأنه لم يمس!.

وقال ﷺ لجابر: «أخبر بذلك ابن الخطاب»، وفي رواية: أبا بكر وعمر، فأخبرهما، فقالا: قد علمنا إذ صنع رسول الله ﷺ ما صنع - وهو الدعاء والجلوس - أن سيكون ذلك. وقال عمر: قد علمنا أنك رسول الله، والله إنك لرسول الله. صلوات الله وسلامه عليه.

فهذا ما يشير إليه الطيبي رحمه الله في قوله: إن الله تعالى يقضي عنه دينه ببركة نبيه ﷺ، ويلطف بعياله، فلا داعي للاهتمام.

والأمر الثاني الذي في قوله ﷺ: «ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب»: فهو أنه لا تعارض بين هذا القول الكريم، وبين قول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ...﴾ الخاص بالأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وعبد الله هذا ليس منهم.

وبيان عدم التعارض: أن التكليم المذكور في الآية الكريمة خاصٌ بالدنيا، أما عبد الله رضي الله عنه فإن الله تعالى كلمه كفاحاً وهو في عالم البرزخ. أفاده العلامة القاري رحمه الله، أيضاً.

٥٠- عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلٍ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَانْهَزَمَ - يَعْنِي: أَصْحَابَهُ - فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ، فَرَجَعَ حَتَّى أَهْرَيْقَ دَمُهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِمَلَأْتَكُنْهُ:

٥٠- تخريجه: رواه أبو داود: كتاب الجهاد - باب الرجل يشري نفسه ٣: ٤٢ (٢٥٣٦)، ورواه الحاكم في «المستدرک» ٢: ١١٢ وصححه ووافقه الذهبي، ولفظه: «فانْهَزَمَ أَصْحَابُهُ» دون أداة التفسير «يعني».

معناه: يخبرنا النبي ﷺ عن عبدٍ من عباد الله جاد بنفسه في سبيل الله، على وجه غير مألوف من قِبَل كثير من المجاهدين، فقال هذا العبد الشهيد إعظامَ الله تعالى لِفِعْلَتِهِ هذه، وإِكْبَارَهُ لها، فأكرمته الله عز وجل بأنَّ باهى به ملائكته الكرام وفاخرهم به! وإِخبارُ النبي ﷺ لنا بذلك: فيه حُضٌّ لنا وترغيبٌ بهذه المَكْرَمَةِ التي نال بها هذا الشرف العظيم.

تلك هي: رجلٌ غزا مع قوم في سبيل الله، فانكشفوا أمامَ عدوهم وهزموا، أما هو فعلم ما عليه من وزر^(١)، فراجع نفسه، وذكرها بحق الله تعالى والإسلام عليه، فراجع إلى مصافِّ العدو وحده، فقاتلهم حتى قُتِلَ، يبتغي بذلك ما عند الله من أجر، ويَحْذَرُ ما عنده من عقاب: أن يكتبه من الفارِّين من الرُّحْف، والفرارُ من الرُّحْف أحدُ السبع الموبقات.

فعجب الله جلُّ شأنه من إقدام عبده على إِرَاقَةِ دَمِهِ بعد أن تمكَّن من عذر يُعْذَرُ به لو فرَّ، وكيف يرجع إلى الموت مَنْ نجا منه؟ ولو لم يكن مُلَىء هذا العبد إيماناً من قَرَفِهِ إلى قدمه لما فَعَلَ ما فَعَلَ، وربُّك أكرمُ من أن يَغْمَرَ عبداً أراد إعلاء كلمة الله، فلذلك رَفَعَ ذِكْرَهُ عند ملائكته فباهاهم به.

١- كتبت هذا وما بعده بناءً على كلام المناوي في «التيسير» ٢: ١٢٧، وتبعه صاحب «عون المعبود» ٧: ٢١١، مع أن في الجزم بالحرمة والوزر وقفةً ظاهرة، إذا لا يجب على الواحد أن يقف أمام أكثر من اثنين. انظر كلام العلقمي الآتي.

انظروا إلى عبدي! رَجَعَ رَغْبَةً فيما عندي، وشفقةً مما عندي، حتى أَهْرِيقَ دُمَهُ!».

والتعجبُ يكون من أمرٍ خَفِيَ سببُهُ ولم يُعْلَمْ - كما قال ابن الأثير في «النهاية» ٣: ١٨٤ - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ فكيف يَخْفَى عليه سببُ رجوع هذا المجاهد إلى حَلْبَتِهِ، بل إنه يقول هنا: «رجع رَغْبَةً فيما عندي، وشفقةً مما عندي» فالأمرُ والسببُ معلومان مذكوران.

لذلك استبعد أهل العلم هذا المعنى بالنسبة إلى الله عز وجل.

فَنَقَلَ المناوي رحمه الله في «فيض القدير» ٤: ٣٠٣ في شرح حديث البخاري: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قَوْمٍ يُقَادُّونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلَاسِلِ»؛ عن القاضي البيضاوي رحمه الله قوله: «إِنَّ صِفَاتِ الْعِبَادِ إِذَا أُطْلِقَتْ عَلَى اللَّهِ أُريدَ بِهَا غَايَتُهَا، فغَايَةُ التَّعَجُّبِ مِنَ الرِّضَا بِالشَّيْءِ: اسْتِعْظَامُ شَأْنِهِ».

وأولى من هذا وغيره من التأويلات أن يقال: إنه عَجِبَ يليقُ بكمال رَبِّنَا وجلاله.

وفي هذا الحديث من الفوائد الفقهية: ما ذكره المناوي في المصدر المذكور: «أَنَّ نِيَّةَ الْمُقَاتِلِ فِي الْجِهَادِ طَمَعًا فِي الثَّوَابِ وَخَوْفَ الْعِقَابِ عَلَى الْفِرَارِ: مُعْتَبَرَةٌ، لِأَنَّهُ عُلِّلَ الرَّجُوعُ لِلرَّغْبَةِ وَاللِّاشْفَاقِ». أي: إن هذا الطمع والخوف لا يؤثّران على نية المقاتل، ولا يُفْسِدَانِ نِيَّتَهُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وحكّم فقهياً آخر: قال صاحب «عون المعبود» ٧: ٢١١: «قَالَ الْعَلْقَمِيُّ: فِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْغَازِي إِذَا انْهَزَمَ أَصْحَابُهُ وَكَانَ فِي ثَبَاتِهِ لِلْقِتَالِ نِكَايَةٌ لِلْكَفَّارِ، فَيَسْتَحِبُّ الثَّبَاتَ، لَكِنْ لَا يَجِبُ، كَمَا قَالَ السُّبْكِيُّ. وَأَمَّا إِذَا كَانَ الثَّبَاتُ مُوجِبًا لِلْهَلَاكِ الْمَحْضِ مِنْ غَيْرِ نِكَايَةٍ فَيَجِبُ الْفِرَارُ قَطْعًا. انْتَهَى».

قلت: قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾.

٥١- عن العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَخْتَصِمُ الشَّهَدَاءُ وَالْمُتَوَفَّوْنَ عَلَى فُرُشِهِمْ إِلَى رَبِّنَا، فِي الَّذِينَ

٥١- تخريجه: رواه النسائي: كتاب الجهاد - باب مسألة الشهادة ٦: ٣٧ (٣١٦٤)، وهذا لفظه، ورواه أحمد ٤: ١٢٨ و ١٢٩، وعبد الله بن أبي بلال راويه عن العِرْبَاضِ: وثقه ابن حبان ٥: ٤٩، فحديثه حسن، ولا أقل.

غريبه: يختصم: يتجادل، والخصام: المجادلة.

الطاعون: هو «المرض العأم والوباء الذي يفسد له الهواء، فتنفسد به الأمزجة والأبدان» كما قال ابن الأثير، وفيه كلام كثير غير هذا جمعه الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ١٠: ١٨٠.

معناه: هذا لون آخر من ألوان الشهادة والشهداء.

وإن من فضل الله على هذه الأمة أَنْ أَكْثَرَ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّهَادَةِ، لِيَكْثُرَ الشَّهَدَاءُ فِي الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، وَقَدْ جَمَعَ الْعُلَمَاءُ أَنْوَاعَ الشَّهَادَةِ، وَأَفْرَدَ لَهَا الْمُنْذِرِي رَحِمَهُ اللَّهُ فَصَلًّا فِي «تَرْغِيهِ» ٢: ٣٣٢ - ٣٤٠، ثُمَّ أَفْرَدَهَا فِي جُزْءٍ شَيْخُنَا الْعَلَامَةُ الْحَافِظُ الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ الصَّدِيقُ الْغَمَارِيُّ حَفَظَهُ اللَّهُ تَعَالَى، سَمَاهُ «إِتْحَافُ النَّبَلَاءِ» وَهُوَ مَطْبُوعٌ.

والشهداء ثلاثة أصناف: شهيد في الدنيا والآخرة، وشهيد دنيا، وشهيد آخرة.

فشهيد الدنيا والآخرة: شهيد الجهاد في سبيل الله ولم يرتكب محظوراً من محظورات الجهاد، ومات فور طعنه، أو بعد أَنْ طُعِنَ لَكِنْ لَمْ يَسْتَفِدْ مِنْ هَذِهِ الْفَتْرَةِ بَيْنَ طَعْنِهِ وَمَفَارِقَتِهِ الْحَيَاةَ فَائِدَةً دِينِيَّةً - كَوْصِيَّةٍ مَثَلًا - أَوْ دُنْيَوِيَّةً، وَلَا يُوَثِّرُ عَلَى شَهَادَتِهِ مَعَالِجَتُهُ - مَثَلًا - لِيَبْرَأَ مِنْ أَضْرَارِ طَعْنِهِ، إِلَّا إِذَا بَرَأَ مِنْهَا.

وشهيد الدنيا: مَنْ وَقَعَ فِي مُحْظُورٍ مِنْ مُحْظُورَاتِ الْجِهَادِ، فَأَنْفَسَ جِهَادَهُ، - كَقَوْلِهِ مِنَ الْغَنِيْمَةِ، أَوْ رِيَائِهِ - لَكِنَّهُ لَوْ اسْتَشْهَدَ لَعُومِلَ مَعَامِلَةُ الشَّهِيدِ مِنْ أَنَّهُ: لَا

يُغَسَّل، ولا يُكْفَن، بل يُزَمَّل وَيُلَفَّفُ بثيابه، وعمله ذاك يُفْسِدُ عليه أجرَ آخرته، لذلك لا يُقال له: شهيد آخره أيضاً.

وشهيدُ الآخرة: هم أصحابُ الأنواع الأخرى من أنواع الشهادات، التي تقدِّمُ الإشارةَ إليهم، فهؤلاء لا يُسمَّون: شهداء دنيا أيضاً، لأنهم ليس لهم: أحكامُ الشهداء في الجهاد من أن الواحد منهم لا يُغَسَّل ولا يُكْفَن، بل لهم الأجر العظيم في الآخرة، فهم شهداء آخره.

ومن هذا الصنف الثالث: ما جاء ذكره في «صحيح البخاري»: كتاب الجهاد - باب الشهادة سَبْعَ ٦: ٤٢ (٢٨٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغرق، وصاحبُ الهَدْم، والشهيد في سبيل الله».

فالمطعون: من مات في طاعون، والمبطون: من مات بمرضٍ بطنه، كالاستسقاء ونحوه، والثلاثة الباقية معروفة.

وجاءت أحاديثُ أخرى تذكر أنواعاً كثيرةً سوى هذه الخمسة. قال الحافظ في «الفتح» ٦: ٤٣: «وقد اجتمع لنا من الطرق الجيدة أكثرُ من عشرين خَصْلَةً»، وهذا تعدادها ملخصاً من كلامه رحمه الله:

- ١ - الشهيد في سبيل الله.
- ٢ - المطعون.
- ٣ - المبطون.
- ٤ - الغريق.
- ٥ - صاحب الهدم.
- ٦ - من مات في الحريق.
- ٧ - من مات بذات الجنب.
- ٨ - من مات في نفاسها.
- ٩ - من مات بمرض السَّل.
- ١٠ - من قُتِل دون ماله.
- ١١ - ودينه.
- ١٢ - ودمه.
- ١٣ - وأهله.
- ١٤ - ومظلمته.
- ١٥ - ومن وقَصَّته فرسه أو بعيره فمات.
- ١٦ - ومن لدغته هامة فمات.
- ١٧ - ومن خرج في سبيل الله فمات على فراشه.
- ١٨ - والغريب.

- ١٩ - والمرابط .
- ٢٠ - ومن شَرِقَ بالماء فمات .
- ٢١ - أو افترسته السباع .
- ٢٢ - أو مَادَ به البحر فأصابه القيء فمات .
- ٢٣ - ومن طلب الشهادة بنية صادقة .
- ٢٤ - ومن صبر في الطاعون فمات بغيره .
- ٢٥ - والمتردّي من رأس جبل بغير قصد .
- ثم قال : «ووردت أحاديث أخرى في أمور أخرى لم أُعْرَجَ عليها لضعفها» وما أرى ذلك مسلماً في جميع ما سوى المذكور .
- قال المناوي رحمه الله في «فيض القدير» ٤ : ١٧٩ - ١٨٠ : «تنبيه : قد التقط ابنُ العماد الشهداء من الأخبار ونَظَمَهَا .» وذكر الآيات ، ويُستخلص منها زيادة على ما تقدم - دون التزام الصحة - :
- ٢٦ - محب آل بيت النبي ﷺ .
- ٢٧ - من نطق عند إمام جاثربكلمة حق .
- ٢٨ - المشتغل بالعلم ومات على ذلك .
- ٢٩ - من مات على وضوء .
- ٣٠ - المتوفى فجأة .
- ٣١ - من مات مسحوراً .
- ٣٢ - أو مسموماً .
- ٣٣ - أو عطشاً .
- ٣٤ - العاشق المتعفف .
- ٣٥ - المجنون .
- ٣٦ - المقتول ظلماً .
- ٣٧ - أو مات في الحرب - وقد يكون هو المتقدم برقم ١٧ .
- ٣٨ - المؤذن المحتسب .
- ٣٩ - الجالبُ القوت إلى البلد ويبيعُ بسعر يومه دون احتكار أو غبن فاحش .
- ٤٠ - من أصابته عين حاسدة فمات من ذلك .
- ٤١ - من قرأ أواخر سورة الحشر فمات في يومه .
- ٤٢ - المواظب على ورده من صلاة الضحى .
- ٤٣ - المواظب على الصيام - أي النافلة -
- فهؤلاء كلهم من شهداء الآخرة ، أي : لهم في الآخرة أجر الشهيد ، أما من حيث أحكام الدنيا - عدم التغسيل والتكفين - : فلا ، بل يغسلون ويكفنون كسائر الأموات .

يُتَوَفَّونَ من الطاعون، فيقول الشهداء: إخواننا قُتِلُوا كما قُتِلْنَا، ويقول المتَوَفَّونَ على فُرُشهم: إخواننا ماتوا كما مُتْنَا، فيقول ربُّنا: انظروا إلى

ولا يُسْتثنى من هذا العدد إلا الأول: الشهيد في سبيل الله، فإنه إن استوفى أحكام المجاهدين المخلصين الصادقين فهو شهيد دنيا وآخرة، وإن تلبَّس بشيء مما سوى ذلك: فأمره إلى الله تعالى، لكننا نعطيه أحكام الشهيد الدنيوية.

ولا ينبغي أن يتوسَّع في إعطاء هذا اللقب الكريم (الشهيد) لأي كان، كما يحصل في كثير من البلاد إذ يطلقونه.. حتى على الكافر!!.

هذا، وأحاديث إثبات الشهادة للمتوفين بالطاعون متعددة، وثبت - كما قال الحافظ في «الفتح» ١٠: ١٨١ - أن الطاعون إنما هو من وَخَز أعدائنا من الجن، ودَكَرَ الأحاديث الواردة بذلك ثم قال ص ١٨٢: «قال العلماء: أراد ﷺ أن يحصل لأمته أرفع أنواع الشهادة، وهو القتل في سبيل الله بأيدي أعدائهم إما من الإنس، وإما من الجن».

وكون الطاعون شهادة لهذه الأمة المحمدية: خَصِيصَةٌ لها من أعظم مزاياها التي امتازت بها على طائفة من بني إسرائيل، فإنه أُرْسِلَ الطاعون عليهم جزاءً وعذاباً، كما جاء في كتاب أحاديث الأنبياء من «صحيح البخاري» ٦: ٥١٣ (٢٤٧٣)، بل جاءت الرواية التي بعدها بلفظ «عذاب يبعثه الله على من يشاء» على بني إسرائيل وغيرهم «وأن الله جعله رحمةً للمؤمنين». وفي «المسند» ٥: ٨١: «.. الطاعون شهادة لأمتي ورحمة لهم، ورجس على الكافرين».

ومن أجل هذه المرتبة الرفيعة للمطعون: استشرف مَنْ توفاه الله وفاةً عادية إلى مرتبته، للشبه الظاهري بين وفاتيهما، كما قال عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث الذي نحن بصدد شرحه: «يقول الشهداء: إخواننا قُتِلُوا كما قُتِلْنَا، ويقول المتَوَفَّونَ على فُرُشهم: إخواننا ماتوا على فُرُشهم كما مُتْنَا» أي: فإن كنتَ يا ربُّنا ستُلْجِقُهم بالشهداء في سبيلك، فألْحِقنا بهم أيضاً، فإن بيننا وبينهم شَبْهاً في الوفاة على الفُرُش!.

قال العلامة السندي رحمه الله في «حاشية سنن النسائي»: «لا شك أن مقصود الشهداء بذلك إلحاق المطعون معهم، ورفع درجته إلى درجاتهم. وأما

جراحهم، فإنَّ أشبهَ جراحهم جراحَ المقتولين: فإنهم منهم ومعهم. فإذا جراحهم قد أشبهت جراحهم».

الأموات على القُرُش فلعله ليس مقصودهم أصالة أن لا تُرَفَّع درجة المطعون إلى درجات الشهداء، فإن ذلك حسدٌ مذموم، وهو منزوع عن القلوب في ذلك الدار، وإنما مرادهم أن ينالوا درجات الشهداء، كما نال المطعونُ مع موته على الفراش. فمعنى قولهم «إخواننا ماتوا على قُرُشهم كما متنا، أي: فإن نالوا مع ذلك درجاتِ الشهداء ينبغي أن ننالها أيضاً».

والحديثُ الشريفُ: من الأدلة على صحة القول بالقياس والعمل به.



٥٢ - عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «قال الله

٥٢ - تخريجه: رواه الإمام أحمد في «المسند» ٢: ٢٤٢ بإسناد من أصح الأسانيد، وأصله في البخاري: كتاب القدر - باب إلقاء النذر العبد إلى القدر ١١: ٤٩٩ (٦٦٠٨، ٦٦٠٩)، عن ابن عمر، وعن أبي هريرة رضي الله عنهم، وليس صريحين في كونهما حديثاً قدسياً، إلا الثاني فقريب، وكرهما البخاري ١١: ٥٧٥ (٦٦٩٢ - ٦٦٩٤) وقال الحافظ ١١: ٥٧٥: «هذا من الأحاديث القدسية لكن سقط منه التصريح بنسبته إلى الله عز وجل».

معناه: في هذا الحديث الشريف ذمٌ لنذر البخل، وتنبية لأمر اعتقادي يتعلّق بالقدر. والنذر - من حيث هو - غير مذموم، ولو كان مذموماً لما أمر الله تعالى بالوفاء به، ولما مدح المؤمنين بنذرهم. أما البخل فمذموم، ومذموم ما يتصل به وينشأ عنه.

قال في «فتح الباري» ١١: ٥٧٦: «قال القرطبي: النذر من العقود المأمور بالوفاء بها، المثنى على فاعلها، وأعلى أنواعه ما كان غير معلق على شيء - يريد حصوله - كمن يعاقب من مرض فقال: لله علي أن أصوم كذا، أو أتصدق بكذا، شكراً لله تعالى، ويليه: المعلق على فعل طاعة، كأن شفى الله مريضاً صمت كذا، أو صليت كذا. وما عدا هذا من أنواعه كنذر اللجاج: كمن يستقل عبده فينذر أن يعتقه ليتخلص من صحبته، فلا يقصد القرية بذلك، أو يحمل على نفسه فينذر صلاة كثيرة أو صوماً مما يشق عليه فعله ويتضرر بفعله، فإن ذلك يكره، وقد يبلغ بعضه التحريم».

وواجب العبد أن يكون مع الله عز وجل بالرجاء والذل والخضوع، يلتمس بذلك ما عند الله من خير، أما هذا البخل فإنه يلتمس ما عند الله بطريق المعاوضة، كأن لسان حاله - والعياذ بالله - يقول: إن أعطيتني كذا عملت لك كذا!! فهذا مثل عبد السوء.

عَزَّ وَجَلَّ: لَا يَأْتِي النَّذْرُ عَلَى ابْنِ آدَمَ بِشَيْءٍ لَمْ أَقْدَرِهِ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ شَيْءٌ أُسْتَخْرَجَ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ، يُؤْتِينِي عَلَيْهِ مَا لَا يُؤْتِينِي عَلَى الْبُخْلِ».

والنذر سبب من الأسباب التي يترتب عليها - إن شاء الله ذلك - ما يُريده العبد، كالدعاء والصدقة، وقد لا يترتب عليه شيء.

وقد نبّه أول الحديث إلى هذا المعنى: «لَا يَأْتِي النَّذْرُ عَلَى ابْنِ آدَمَ بِشَيْءٍ لَمْ أَقْدَرِهِ عَلَيْهِ» فهو لا يمنع عنه المرض، ولا يقدم له الشفاء، إن لم يكن هذا وذاك مقدّرَيْن عليه.

فإذا أراد الله عز وجل أن يستخرج من البخيل ما تشح به نفسه ويثقل عليه بذله أوقعه في مكروه ما، كمرض أو خسارة...، فحينئذ يلجأ إلى ربه ويتذكّره، فيقول: إِنْ فَعَلْتُ لِي كَذَا فَعَلْتُ كَذَا!! فَيَسْتَخْرِجُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ الْمَالَ الْعَزِيزَ عَلَيْهِ، الضَّيْنِ بِهِ!.

فمعنى قوله في الحديث: «يُؤْتِينِي عَلَيْهِ» أي: ينذر لي على ما يَطْلُبُهُ مني، كالشفاء مثلاً «مَا لَا يُؤْتِينِي عَلَى الْبَخْلِ»: مَا لَا يُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِي، لَكُونَهُ بَخِيلًا.

وفي رواية لمسلم ١٦ : ٩٩: «إِنْ النَّذْرُ لَا يُقَرِّبُ مِنْ ابْنِ آدَمَ شَيْئًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ قَدْرَهُ لَهُ، وَلَكِنْ النَّذْرُ يُوَافِقُ الْقَدْرَ، فَيُخْرَجُ بِذَلِكَ مِنَ الْبَخِيلِ مَا لَمْ يَكُنِ الْبَخِيلُ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَ».

٥٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر؛ ورجل

٥٣ - تخريجه: رواه البخاري: كتاب البيوع - باب إثم من باع حراً ٤ : ٤١٧ (٢٢٢٧) وكتاب الإجارة - باب إثم من منع أجر الأجير ٤ : ٤٤٧ (٢٢٧٠).

معناه: هذا الحديث الشريف فيه بيان جانب من جوانب أخلاق الإسلام في المعاملة، وفي كل جملة منه تنبيه إلى خلق كريم.

ففي الجملة الأولى: حض على الوفاء بمقتضى ما يحلف عليه الرجل من أيمان، وتحذير من نقضها والغدر بالمحلف له. وتقدير معنى الجملة الكريمة: رجل أعطى يمينه بي ثم نقضه، أي: عاهد عهداً وحلف عليه بالله، كما في «فتح الباري».

ونقض العهد، ونكث الأيمان، والغدر وعدم الوفاء: كل منها صفة ذميمة على انفرادها، فكيف لو تجمعت في أمر واحد، فمن عاهد آخر عهداً، ثم إنه لغير عذر شرعي لم يف له بما عاهده عليه، كان ذلك مذموماً منه، فكيف لو وثق له عهده بالحلف بالله عز وجل؟!.

وأسوأ من عدم الوفاء: أن يعامله بنقيض ما عاهده عليه، كمن عاهد آخر بالأمانة فخان، أو بالأمن فأخافه، ونحو ذلك. فهذه إساءات متراكمة.

فهذا أحد ثلاثة أصناف يكون الله عز وجل خصمهم، ومن كان الله عز وجل خصمه خصمه الله - كما صرح في بعض الروايات عند غير البخاري - أي: غلبه الله وقهره.

والصنف الثاني: رجل باع حراً فأكل ثمنه، ذلك لأن بيع الحر حرام عظيم، وأعظم منه بيعه واغتصاب ثمنه والتصرف فيه! والإسلام جاء بتحرير الأرقاء، لا

بَاعَ حُرّاً فَأَكَلَ ثَمَنَهُ؛ وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيْرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ.

باسترقاق الأحرار! وما أجمل قول ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «الحرُّ عبدُ الله، فمن جَنَى عليه فَخَصَّمَهُ سيِّدُهُ». - نقله عنه ابن حجر - وهذه - أيضاً - إساءات متراكمة.

والصنف الثالث: رجل استأجر أجيْرًا فَوَفَّى الأجيْرُ ما عليه من حقٍّ وعملٍ، واستحقَّ ماله على المستأجر، لكن المستأجر خانَه وَغَدَرَ به وعامله معاملة الرقيق، فلم يُعْطِهِ أَجْرَهُ، وكأنه السيد وذاك العبد! فيكون هذا المسكينُ الجائر قد جمع دَمِيمَتِي مَنْ قَبْلَهُ: غَدَرَ بمن ائتمنه، فلم يتقاضاه أَجْرَتَهُ قبل البدء بعمله؛ وعامَل الأحرار كأنهم أرقاء، واستضعفَ غيره واستقوى نفسه!.

وإذا سمع العبد المسلمُ الموقنُ بربه ويوم الحساب بين يديه عز وجل، إذا سمع أن هؤلاء الثلاثة خُصِّمَاءَ الله، خاف ورهب، وأشفق على نفسه فاتعظ وانزجر عن هذه الأعمال بذاتها، وعن الخصال التي تؤدي إليها، وتخلق بأضدادها، فسعد. والله تعالى هو الموفق.

٥٤ - عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم: رجل حلف على سلعَةٍ: لقد

٥٤ - تخريجه: رواه البخاري: كتاب المساقاة - باب من رأى أن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه ٥: ٤٣ (٢٣٦٩)، وهذا لفظه. وهو في «صحيح مسلم» كتاب الإيمان - باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار... ١: ١٠٣ (١٧٣)، «شرح النووي» ٢: ١١٥ لكن ذكر بدل الرجل الأول «ورجل باع إماماً لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها وفى، وإن لم يُعْطَ منها لم يف»، وهذه الزيادة مذكورة في «صحيح البخاري» ٥: ٣٤ (٢٣٥٨).

غريبه: فضلي: إحساني ومعروفي.
فَضْلٌ: ما فَضَّلَ وزادَ عن كفايتك.

معناه: ثلاث خصال أخلاقية تتصل كثيراً بتعامل الناس فيما بينهم، يحضن رسول الله ﷺ على الاستقامة فيها وسلوك طريق الخير والرشاد.

وهي ثلاث خصال في هذا الحديث، وجاء في أحاديث أخرى ثلاث أخرى، وروايات تزيد على غيرها، فلا أريد من كلمة «ثلاث خصال» الحصر وعدم الزيادة عليها.

وذكر في صدر الحديث جزآن لهم: لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم، وجاء في بعض رواياته زيادة: «ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم».

وكيف «لا يكلمهم الله» وهو الذي سيحاسبهم؟ وكيف «لا ينظر إليهم» وهم في ملكه ولا يغيب عنه سبحانه وتعالى مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء لا علماً ولا نظراً؟

قال الإمام النووي رحمه الله: «قال جمهور المفسرين: لا يكلمهم كلاماً

أَعْطِيَ بِهَا أَكْثَرَ مِمَّا أُعْطِيَ، وَهُوَ كَاذِبٌ؛ وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ

يُنْفَعُهُمْ وَيُسْرُهُمْ، وَقِيلَ: لَا يَرْسُلُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ بِالتَّحِيَّةِ. وَمَعْنَى: لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ أَيْ: يُعْرِضُ عَنْهُمْ، وَيَنْظُرُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِعِبَادِهِ: رَحْمَتُهُ وَلَطْفُهُ بِهِمْ. وَمَعْنَى: لَا يُزَكِّيهِمْ: لَا يُطَهِّرُهُمْ مِنْ دَنَسِ ذُنُوبِهِمْ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ وَغَيْرُهُ: مَعْنَاهُ: لَا يُثْنِي عَلَيْهِمْ. وَمَعْنَى عَذَابِ الْيَمِّ: مَوْلَمٌ، قَالَ الْوَاحِدِيُّ: هُوَ الْعَذَابُ الَّذِي يَخْلُصُ إِلَى قُلُوبِهِمْ وَجَعَهُ.

وَأَوَّلُ هَؤُلَاءِ: غَاشٌّ، كَاذِبٌ، يَحْلِفُ عَلَى كَذِبِهِ الْأَيْمَانَ الْكَاذِبَةَ، خَائِنٌ فِي بَيْعِهِ وَشِرَائِهِ. فَمَا أَجْدَرُ هَذَا بِهَذِهِ الْعَقُوبَاتِ الْإِلَهِيَّةِ! وَمَا أَعْظَمَ الْإِسْلَامَ حِينَ حُرِّمَ هَذِهِ الْأُمُورُ، وَتَوَعَّدَ فَاعِلَهَا بِهَذَا الْوَعِيدِ، لِيُطَهَّرَ الْمَجْتَمَعُ الْإِسْلَامِيُّ مِنْهَا وَمِنْ مَرْتَكِبِيهَا!!.

يَحْلِفُ أَنَّهُ أُعْطِيَ بِهَذِهِ السَّلْعَةِ ثَمَنًا أَزِيدَ مِنَ الثَّمَنِ الَّذِي دَفَعَهُ إِلَيْهِ الْمُشْتَرِي الْقَائِمُ أَمَامَهُ، وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ لَمْ يُدْفَعْ إِلَيْهِ شَيْءٌ أَبَدًا، أَوْ أَنَّهُ دَفَعَ إِلَيْهِ غَيْرُ الْمَقْدَارِ الَّذِي يَذْكُرُهُ. فَهُوَ كَاذِبٌ، وَيَحَاوُلُ أَنْ يَسْتُرَ كَذِبَهُ بِاسْمِ اللَّهِ تَعَالَى فَيَحْلِفُ بِهِ، وَيَغِشُّ الْمُشْتَرِي وَيُخَدِّعُهُ وَيُغَرِّرُ بِهِ، مِنْ أَجْلِ دُرَيْهَمَاتٍ يَسْتَدْرِهَا مِنَ الْمُشْتَرِي!.

وَأَيْنَ هَذَا الْخُلُقُ الدُّنْيَوِيُّ مِنْ خُلُقِ الْإِسْلَامِ الرَّفِيعِ!.

حَكَى النَّوَوِيُّ فِي «شَرْحِ مُسْلِمٍ» ٢: ٤٠: «أَنَّ جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَمَرَ مَوْلَاهُ أَنْ يَشْتَرِيَ لَهُ فَرَسًا، فَاشْتَرَى لَهُ فَرَسًا بِثَلَاثِمِائَةِ دِرْهَمٍ، وَجَاءَ بِهِ وَبِصَاحِبِهِ لِيَنْقُذَهُ الثَّمَنَ، فَقَالَ جَرِيرٌ لِمُصَاحِبِ الْفَرَسِ: فَرَسُكَ خَيْرٌ مِنْ ثَلَاثِمِائَةِ دِرْهَمٍ، أَتَبِيعُهُ بِأَرْبَعِمِائَةِ دِرْهَمٍ؟ قَالَ: ذَلِكَ لَكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ!.

فَقَالَ: فَرَسُكَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ، أَتَبِيعُهُ بِخَمْسِمِائَةِ دِرْهَمٍ؟ ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَزِيدُهُ مِائَةً مِائَةً وَصَاحِبُهُ يَرْضَى، وَجَرِيرٌ يَقُولُ: فَرَسُكَ خَيْرٌ، إِلَى أَنْ بَلَغَ ثَمَانِمِائَةَ دِرْهَمٍ، فَاشْتَرَاهُ بِهَا.

فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ - أَيْ عُوتِبَ وَسُئِلَ عَنِ السَّبَبِ - فَقَالَ: إِنِّي بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى النَّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ!.

وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ» ٢ (٢٥١٠) عَنْ جَرِيرٍ نَفْسِهِ «أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَقَامَ سَلْعَةً - لِيَبِيعَهَا - بَصَّرَ عِيُونَهَا - لِلْمُشْتَرِي - ثُمَّ خَيَّرَهُ فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ فَخُذْ، وَإِنْ

بَعْدَ الْعَصْرِ، لِيَقْتَطَعَ بِهَا مَالَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ؛ وَرَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ مَائِهِ فَيَقُولُ

شئت فأترك، فقيل له: يرحمك الله إنك إذا فعلت هذا لم ينفذ لك البيع! فقال: إنا بايعنا رسول الله ﷺ على النصح لأهل الإسلام.

فلا غرابة إذا رأينا هذا الوعيد لمن يخالف هذا الصراط المستقيم!

وثاني الثلاثة: رجلٌ حلف يميناً كاذبةً ليأكل بها حقَّ مسلم وماله، فلم يُراعِ حرمةَ اسم الله تعالى في الحلف، ولم يُراعِ الصدقَ الذي هو من أساسيات الأخلاق الإسلامية، ولم يُراعِ حقَّ الإخوة الإسلامية، ولم يُراعِ حرمةَ أموال الآخرين، وأيضاً: لم يُراعِ حرمةَ الوقت والزمن: بعد العصر.

وإنما خصَّ رسول الله ﷺ بعد العصر بالحرمة لأنه آخِرُ النهار بالنسبة للناس العاملين أعمالاً دنيوية، كانوا يختمون عملهم اليومي الدنيوي بعد العصر، وينصرفون إلى بيوتهم، وهذا إلى عهد قريب منا غير بعيد.

ولأنه أيضاً وقتٌ ختم ملائكة النهار صحفَ الإنسان، ومباشرة ملائكة الليل عملهم مع هذا الإنسان، وذلك كما تقدم في الحديث برقم (٣٥)، فانظره.

فمن فقدَ مراعاةَ هذه الحُرْمِ فلا غرابة أن يكون متوعداً من الله عز وجل بهذه العقوبات!.

أما ثالث الثلاثة: فرجلٌ بخيلٌ شحيح، فقد فضيلة النجدة وإغاثة اللهفان دون أن يخسر شيئاً من مال أو جهد، وهو في فلاةٍ - كما جاء في رواية مسلم - والفلاة مظنة الهلاك والانقطاع من وسائل النجاة، فكيف تطيب نفسه بمثل هذا الخلق الرخيص، وأخلاق الإسلام الذي ينتسب إليه عاليةً غالية!! ولم يكف هذا المسكين المحروم أن يحرم خلق الإيثار الذي مدح الله تعالى الصحابة من أجله، وخلد ذلك في كتابه العظيم، لم يكف حرمَان ذلك، بل زاد عليه حرمَان أجر أفضل الصدقة^(١)، وحرمَان أجر إغاثة اللهفان، وقد يبلغ به الأمر إلى الحرمان من أجر ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾.

١ - روى النسائي ٦: ٢٥٤ (٣٦٦٤) أن سعد بن عبادَةَ سأل النبي ﷺ: أيُّ الصدقة أفضل؟ فقال له: «سَقَى الْمَاءَ»، ورواية أبي داود ٢: ٣١٣ (١٦٧٩): أيُّ الصدقة أعجب إليك؟ قال: «الماء».

الله: اليوم أَمْنَعَكَ فَضلي، كما مَنَعْتَ فَضْلَ ما لم تَعْمَلْ يَدَاكَ».

قال الله عز وجل في صفة الأنصار رضي الله عنهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وقصة ذاك الأنصاريّ وزوجته مع ضيف رسول الله ﷺ معروفة.

روى البخاري في «صحيحه» في تفسير هذه الآية ٨: ٦٣١ (٤٨٨٩) - ومن قبلُ في مناقب الأنصار ٧: ١١٩ (٣٧٩٨) - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رجلُ رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله أصابني الجُهدُ! فأرسلَ ﷺ إلى نسائه، فلم يجدْ عندهنَّ شيئاً، - وفي الرواية الثانية: فقلنَّ: ما معنا إلا الماء!! - فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجلٌ يُضِيفُهُ اللَّيْلَةَ يَرْحَمُهُ اللهُ؟!» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيفُ رسول الله ﷺ، لا تدْخِريه شيئاً، فقالت: والله ما عندي إلا قُوتُ الصَّبِيَّةِ! قال: فإذا أراد الصَّبِيَّةُ العِشاءَ فَنَوِّمِيهْم، وتعالَي فاطِطُني السَّراجَ ونَطْوي بطوننا اللَّيْلَةَ! ففعلتُ! ثم غدا الرجلُ على رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «لقد عَجِبَ اللهُ عز وجل - أو: ضحك - من فلانٍ وفلاتة» فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

وروى البيهقي في الشُّعْبَةِ الثَّانِيَةِ والعشرين من «شُعْبِ الْإِيمَانِ» ٧: ٩٥ عن أبي جَهْم بن حذيفة العَدَوِي قال: «انطلقتُ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ أَطْلُبُ ابْنَ عَمِي وَمَعِيَ شَنَّةٌ مِنْ مَاءٍ أَوْ إِنَاءً، فقلت: إن كان به رَمَقٌ سَقَيْتُهُ مِنَ الْمَاءِ وَمَسَحْتُ بِهِ وَجْهَهُ، فإذا أنا به يَنْشَغُ^(١)، فقلت: أَسْقِيكَ؟ فأشار أي نعم، فإذا رجل يقول: آه، فأشار ابن عَمِي أَنْ انْطَلِقْ بِهِ إِلَيْهِ! فإذا هو هشام بن العاص أخو عمرو، فأتَيْتُهُ، فقلت: أَسْقِيكَ؟ فسمع آخر فقال: آه، فأشار هشامٌ أَنْ انْطَلِقْ بِهِ إِلَيْهِ! فجِئْتُهُ، فإذا هو قد مات! فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات! فرجعت إلى ابن عَمِي فإذا هو قد مات!». رضي الله عنهم وأرضاهم.

١ - أي: يَشْهَقُ حتى يكاد يغشى عليه.

وأعقب هذه القصة المشهورة بإسناد قصة أخرى مثيلتها، مع رجال آخرين، فكان الحادثة تكرر، قال: «إن الحارث بن هشام، وعكرمة بن أبي جهل، وعياش ابن أبي ربيعة ارتثوا»^(١) يوم اليرموك، فدعا الحارث بماء يشربه، فنظر إليه عكرمة فقال الحارث: ادفعوه إلى عكرمة، فنظر عياش بن أبي ربيعة، فقال عكرمة: ادفعوه إلى عياش، فما وصل إلى عياش ولا إلى أحد منهم حتى ماتوا وما ذاقوه!». .

فأين هذا الشحيح المقيت من هؤلاء الذين يؤثرون غيرهم على حياتهم في آخر لحظة من لحظاتهم في الدنيا وهم على عتبة البرزخ!! .

وانظر تقبيح الله عز وجل لصنيعه وشُحّه إذ يقول له: كما منعتَ فضلَ ما لم تَعْمَلْ يداك، أي: إنك بَخِلْتَ ومنعتَ المحتاجَ من عبادي شيئاً ليس لك في وجوده يدٌ ولا أثر، إنما أوجدته لك لأختبرك وأبتليكَ، أخرجتُ لك الماء من أرضك دون جهد منك ولا تَعْمَلْ، وجعلتُ حاجةَ الناسِ إليك، ولم أجعلْ حاجتكِ إليهم، فكانت يدُك العليا، ومع هذا فلم تشكُرْ هذه النعمَ ببذلها لعبادي وعيالي! .

فلا غرابة إذا كان ممن يشملهم الوعيد المذكور في الحديث: لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم في نار جهنم لتزكّي نفوسهم من أدران هذا الأخلاق السيئة، نعوذ بالله من ذلك.

وفي حديث ضعيف - وقال بعضهم: حسن لغيره - يقول عليه الصلاة والسلام: «الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ، وَأَحَبُّهُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ». وشواهد الكتاب والسنة كلها تدلُّ على صحته.



١ - أي: حُمِلُوا من أرض المعركة جرحى وبهم رَمَق.

٥٥ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؟!»

٥٥ - تخريجه: رواه البخاري حديثاً قدسياً في كتاب التوحيد - باب قول الله «والله خَلَقَكُمْ وما تعملون» ١٣ : ٥٢٨ (٧٥٥٩). ورواه قبلُ نبوياً في كتاب اللباس - باب نقض الصُّور ١٠ : ٣٨٥ (٥٩٥٣). ورواه مسلم قدسياً: كتاب اللباس والزينة - باب تحريم تصوير الحيوان . ٣ : ١٦٧١ (١٠١)، و«شرح النووي» ١٣ : ٩٤ . غريبه: ذَهَبَ: قَصَدَ وتوجَّه وأراد.

كَخَلْقِي: الخلق هنا: مصدرٌ أُريد به اسم المفعول، التقدير: كمخلوقي، والكاف للتشبيه، فالمعنى: يَخْلُقُ مخلوقاً مشابهاً للمخلوقات الإلهية، وخُصَّ هذا العموم بحديث ابن عباس الآتي نقله عن البخاري ومسلم. ذَرَّةٌ: نملةٌ صغيرةٌ، أو هي الهَبَاء الذي يُرى في البيت بدخول الشمس من نوافذه.

معناه: افتتح الله عز وجل هذا الحديث القدسي بهذا الاستفهام الإنكاري، وتقديره: لا أحدٌ أَظْلَمُ لنفسه ممن «يَصُورُ صورةً تُشَبِّهُ صورةَ خَلْقِهَا» كما قاله القاري في «مرقاة المفاتيح» ٨ : ٣٣٠.

قال المناوي في «فيض القدير» ٤ : ٤٨١: «وهذا التشبيه لا عموم له، يعني: كخَلْقِي من بعض الوجوه في فعل الصورة، لا من كل وجه».

والظاهر أن الحرمة تثبت بالقصد والإرادة، كما قال: «ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي»، وسواء أكان ماهراً أم متدرباً، أم في بداية امتهانه عمل التصوير.

و«يَخْلُقُ» أي: يَصُورُ، كما قال الله تعالى حاكياً قول عيسى عليه الصلاة

والسلام لبني إسرائيل: ﴿أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، أي: أصور من الطين...

وقوله «كخُلقي» أي: يصور صورة تُشبه مخلوقاً من مخلوقات الله تعالى، وهذا كقوله ﷺ في حديث عائشة المتفق عليه عند الشيخين: «أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة الذين يُضاهون بخلق الله» - وهو حديث القِرَام المعروف - أي: يعملون عملاً يُشابهون به خلق الله، أي: ما خلقه الله، أو - كما تقدم -: مخلوق الله. ولا يصح أن يُراد المصدر، لأن خلق الله - بمعنى المصدريّة - لا يُعلم، إذ لا أحد يعلم كيف يخلق الله الخلق، ولأن خلق الله للخلق يكون بتوجّه إرادته إلى الأمر فيكون ما يريد، جل وعلا، وهذا التوجّه هو المعبر عنه بقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ﴾.

قال الحافظ في «الفتح» ١٠: ٣٨٧ في شرح حديث القِرَام: «أي: يُشَبِّهون ما يصنعونه بما يصنعه الله، ووقع في رواية الزهري عن القاسم عند مسلم - ١٣: ٨٨ -: الذين يُشَبِّهون بخلق الله». فالمضاهاة: المشابهة، وهي مشابهة بين ما يصنعه العبد، وبين ما صنعه الله، كما هو صريح قول ابن حجر: بما يصنعه الله، فمراده: المصنوع المخلوق، لا الصنعة، بمعنى المصدر. ونقل ١٣: ٥٣٥ عن ابن بطال قوله: «إنما نُسب خلق - الصور - إليهم، تقريباً لهم بمضاهاتهم الله تعالى في خلقه، فبكتهم بأن قال: إذا شابهتم بما صورتم مخلوقات الله تعالى فأحيوها، كما أحيأ هو ما خلق». فانظر قوله: مخلوقات الله تعالى.

وقال القاري في «مرقاة المفاتيح» ٨: ٣٣٠ في شرح «يُضَاهَوْنَ بِخَلْقِ اللَّهِ»: أي يُشابهون عملهم التصوير بخلق الله. قال القاضي - البيضاوي -: أي يفعلون ما يُضاهي خلق الله. أي: مخلوقه. أو يشبهون فعلهم بفعله، أي: في التصوير والتخليق». فمآل القول الثاني إلى القول الأول، لأن المصور يحاول محاكاة مصنوعه بمصنوع الله، من طول وقصر، ونحافة وبدانة، وكبر عينيه وصغرها، وكذا فمه وأنفه وخدّيه...

وينتج عن ذلك أن من توجّه قصده لإحداث هيئة تُشبه - قليلاً، أو كثيراً، أو تماماً - هيئة مخلوق من مخلوقات الله عز وجل: فقد حقّت عليه الحرمة والمعصية.

وهاهنا اعتراضان:

١ - قد يقول قائل: إن مقتضى هذا الذي تقدّم أن تصوير كل مخلوق لله تعالى كائناً ما كان: حرام، ولو كان شجرة، أو سماء، أو شمساً، أو قمراً، أو نهراً...، وكل ما يدخل تحت قول الناس في زماننا: المناظر الطبيعية.

وأقول: نعم، إن هذا هو مقتضى عموم ما تقدم، لكن أخذ جماهير العلماء بفتوى ابن عباس رضي الله عنهما، المروية في الصحيحين، لرجل قال له: إني رجل أصور هذه الصور، فأفيتي فيها، فقال له: أدن مني، فدنا منه ثم قال: ادن مني، فدنا حتى وُضع يده على رأسه - وكان هذا حصل له لما قام بصره - قال: أنبئك بما سمعت من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مصور في النار، يجعل له بكل صورة صورها نفساً فتعذبه في جهنم» وقال ابن عباس: إن كنت لا بد فاعلاً فاصنع الشجر وما لا نفس له. أي: ما لا روح له. هذا لفظ مسلم ١٣: ٩٣، ولفظه عند البخاري في أواخر كتاب البيوع ٤: ٤١٦ (٢٢٢٥) عن النبي ﷺ: «من صور صورة فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح، وليس بنافع فيها أبداً» قال: قريبا الرجل رتبة شديدة - أي تنفس الصعداء - واصفر وجهه فقال له ابن عباس: ويحك - وهي كلمة ترحم - إن أبيت إلا أن تصنع فعليك بهذا الشجر: كل شيء ليس فيه روح».

فهذا هو أصل ما اشتهر لدى الناس بجواز تصوير المناظر الطبيعية، وهو - كما قلت - مذهب الجماهير.

ونقل العلماء - النووي وابن حجر وغيرهما - أن مجاهداً تلميذ ابن عباس خالف في ذلك.

قال النووي رحمه الله ١٣: ٩١: «أما الشجر ونحوه مما لا روح فيه: فلا تحرم صنعته ولا التكسب به، وسواء الشجر المثمر وغيره، وهذا مذهب العلماء كافة إلا مجاهداً فإنه جعل الشجر المثمر من المكروه. قال القاضي - عياض - لم يقله أحد غير مجاهد، واحتج مجاهد بقوله تعالى في هذا الحديث القدسي -: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي. واحتج الجمهور بقوله ﷺ: يقال لهم: أحيوا ما خلقتم. أي: اجعلوه حيواناً ذا روح كما ضاهيتم...».

فيكون استدلال مجاهد بعموم قوله: يَخْلُقُ كخَلْقِي، والشجر ونحوه من مخلوقات الله تعالى.

وملاحظ آخر لمجاهد، نبّه إليه المناوي، هو قوله في الحديث: «أَوْ لِيُخْلَقُوا حَبَّةً أَوْ شَعِيرَةً». قال المناوي ٤: ٤٨٢: «وَأَخَذَ مِنْهُ مُجَاهِدٌ حَرَمَةَ تَصْوِيرِ مَا لَا رُوحَ فِيهِ، حَيْثُ ذَكَرَ الشَّعِيرَةَ، وَهِيَ جَمَادٌ».

واستثنى بعضُ العلماء من جواز تصوير المناظر الطبيعية: تصوير الشمس والقمر ونحوهما، مما عُبد من دون الله تعالى.

قال عليّ القاري رحمه الله في «المراقبة» ٨: ٣٣١: «وَأَمَّا مَا عُبدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَوْ كَانَ مِنَ الْجَمَادَاتِ كَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَحْرُمَ تَصْوِيرُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ». وهذا - كما ترى - استظهار منه، وليس جزمًا بالمنع.

٢- وللمعترض أن يقول أيضاً: إن مقتضى ما تقدّم أن يَحْرُمَ تصوير ما له ظلٌّ، أي: المحرّم من التصوير هو هذه (المجسّمات) ولو لم تكن كبيرة كالتمائيل الكبيرة لبعض زعماء العالم. أما ما كان صورةً (فوتوغرافية) مطبوعةً على ورقة فلا تدخل تحت التحريم، إذ كيف تُنْفَخُ الرُّوحُ في صورة كهذه، أما المجسّمات: فنعم!

والجواب: أن الأمر يحتاجُ إلى نظرٍ في جميع الأحاديث الواردة في المسألة، ومما ورد فيها حديثُ النُّمْرُقَةِ أو القِرَامِ، أو النَّمَطِ، أو السُّتْرِ، أو الدُّرْنُوكِ - بالنون أو الميم - ألفاظٌ متعدّدةٌ، ومعناها متقارِبٌ، وكلُّها واردةٌ في حديث واحد، تعددت رواياته وألفاظه، وقد ساقها مسلم، واتفق معه البخاري على رواية أصل القصة، وخلاصته:

أنه كان عند عائشة رضي الله عنها بساطٌ لطيف له خَمَلٌ - أهداب - فسترَتْ به باب بيتها، وكان رسول الله ﷺ قد خرج في غزوة من غزواته، فلما قَدِمَ منها ورآه، استنكره، قالت عائشة: فعرفتُ الكراهية في وجهه، فَجَذَبَهُ حَتَّى هَتَكَهُ وقال: «إِنْ اللَّهُ لَمْ يَأْمُرْنَا أَنْ نَكْسُوَ الْحِجَابَ وَالطِّينَ» قالت: ففقطعنا منه وسادتين وحشوتيهما ليفاً، فلم يَعبْ ذلك عليّ.

وليس في هذه الرواية ما يدلُّ أن على البساط صورةً، لذلك أعقبها مسلم بروايةٍ أخرى فيها أنه كان على البساط تمثالٌ طائر، وفي رواية ثانية: فيه الخيل ذواتُ الأجنحة. وفي رواية ثالثة: تناول السَّترَ فهتكه وقال: «إن من أشدَّ الناسَ عذاباً يومَ القيامة الذين يُشَبِّهون بخلق الله». وفي عدد من الروايات الأخرى أنها جعلتُ منه وسادة أو وسادتين.

وفي رواية: أنها نَصَبَتْ سِتْراً فيه تصاوير، فنزعه، فجعلتُ منه وسادتين، فكان يَرْتَفِقُ عليهما، أي: يتكىء.

ثم ذكر مسلم حديثها رضي الله عنها وأنها اشترتُ للنبي ﷺ نُمْرَقَةً - أي وسادةً صغيرة - فيها تصاوير، فلما رآها لم يدخل البيت فقالت عائشة: يا رسول الله أتوبُ إلى الله وإلى رسوله! فماذا أذنبْتُ؟ قال: «ما بالُ هذه النُمْرَقَةُ؟» فقالت: اشتريتها لك تَقْعُدُ عليها وتَوَسَّدُها، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن أصحاب هذه الصور يُعَذَّبُونَ ويقال لهم: أحيوا ما خَلَقْتُمْ» ثم قال: «إن البيت الذي فيه الصُّور لا تَدْخُلْهُ الملائكة».

وزاد في رواية: قالت عائشة: فأخذته فجعلته مِرْفَقَتَيْنِ، فكان يَرْتَفِقُ بهما في البيت.

والمِرْفَقَةُ: المَتَكُّ، فهي أعمُّ من النُمْرَقَةِ التي هي الوسادة الصغيرة.

ويؤخذ من هذه الروايات: جوابُ الاعتراض الثاني، وهو أن الصُّور حرامٌ اتخاذها وفعلها، سواء أكانت مجسِّمة ذاتَ ظلٍّ أم لا، لأن هذه التماثيل التي كانت على السُّتارة لم تكن ذاتَ ظلٍّ، قال الحافظ في «الفتح» ١٠: ٣٩٠: «يُسْتَفاد منه أنه لا فرق في تحريم التصوير بين أن تكون الصورة لها ظلٌّ أو لا، وبين أن تكون مدهونة أو منقوشة أو منقورة أو منسوجة، خلافاً لمن استثنى النسيج وأدعى أنه ليس بتصوير».

ويُسْتَفاد منها أنها إذا كانت على هيئة محترمة لا يجوز، وإذا جُعِلَتْ ممتَهَنَةً جاز، يدلُّ على ذلك رواية: نَصَبَتْ سِتْراً فيه تصاوير، فلما جعلته وسادتين ارتفق عليهما، على أنه لا دليل واضحٌ على أن التصاوير فيه بقيتْ كاملة بعد تقطيعه إلى

وسادتين، قال الحافظ في الموضع المذكور قبل: «يَحْتَمِلُ بِأَنَّهَا لَمَّا قَطَعْتُ السَّيْرَ وَقَعَ الْقَطْعُ فِي وَسْطِ الصُّورَةِ مِثْلًا، فَخَرَجَتْ عَنْ هَيْئَتِهَا، فَلِهَذَا صَارَ يَرْتَفِقُ بِهَا» وَأَيُّدُهُ.

نعم، نصّ فقهاؤنا الحنفية رحمهم الله تعالى على كراهة السجود على صورة في البساط أو السجادة وإن كانت تُوطأ بالأقدام، فالإتكاء عليها أمرٌ غير السجود عليها.

ومما ينبغي التنبيه إليه أمور:

أولها: يزعم بعض الناس أن تحريم التصوير إنما كان أول الإسلام، قطعاً للناس وإبعاداً لهم عما يمتُّ إلى أمور الجاهلية بأية صِلَةٍ، فَقُرْبُهُمْ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ حَمَلَ الشَّارِعَ عَلَى أَنْ يَحْرُمَ عَلَيْهِمْ مَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ مِنْ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ، فَهَذَا مِنْ شَاكِلَةِ مَا يُسَمَّى فِي أَصُولِ الْفَقْهِ سَدُّ الذَّرَائِعِ.

وهو زعم خاطيء، فما زال الصحابة رضي الله عنهم وَمَنْ بَعْدَهُمْ يَرْوُونَ عَلَى النَّاسِ أَحَادِيثَ تَحْرِيمِ الصُّورِ فِعْلاً وَتَرْكِئاً بِهَا فِي بَيْوتِهِمْ، وَأَيُّ عِبَادَةٍ لَخِيلُهَا أَجْنَحَةٌ؟!، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ تَحْرِيمِ الصُّورِ الْمُجَسِّمَةِ وَغَيْرِهَا. وَلَوْ صَحَّ قَوْلُهُمْ لَجَاءَ التَّصْرِيحُ بِالنَّسْخِ، كَمَا فِي الْأَنْبِذَةِ، وَلَمَّا بَقِيَ حَاجَةٌ لَتَعْذِيبِ اللَّهِ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

ثانيها: من السُّخَافَةِ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ اعْتِبَارُ اخْتِلَافِ الْأَسْمَاءِ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، فَكَوْنُ مِمْتَهِنِ عَمَلِ التَّصْوِيرِ يُسَمَّى فِي بَعْضِ الْبِلَادِ: مَصُورًا، وَفِي بَعْضِهَا أَجْنَحَةٌ؟!، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ جَوَازِ التَّصْوِيرِ الْفُوتُوغْرَافِيِّ، فَالْعَبْرَةُ بِالْمَعْنَى لَا بِالْحُرُوفِ وَالْمَبَانِي! فَهُوَ تَصْوِيرٌ وَصُورَةٌ وَمَصُورٌ وَمَصُورٌ، شَاءَ الْمَغَالِطُونَ أَمْ أَبَوَا.

ثالثها: زعمهم أن التصوير الشمسي (الفوتوغرافي) لا يدخل تحت التصوير المحرّم، وما هو إلا (حَبْسُ ظِلٍّ)، كَمَنْ وَقَفَ أَمَامَ مِرْآةٍ، فَظَهَرَتْ صُورَتُهُ وَشَخْصِيَّتُهُ فِيهَا، ثُمَّ إِنَّا قَدْ اسْتَطَعْنَا حَبْسَ هَذِهِ الصُّورَةِ عَلَى وَرَقَةٍ مَعَ تَحَوُّلِ الْإِنْسَانِ مِنْ أَمَامِ الْمِرْآةِ.

وهذا لَوْ أَنَّ آخِرَ فِي تَحْوِيرِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ، ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ وَسِيلَةٌ حَدِيثَةٌ لِلْحَصُولِ عَلَى صُورَةِ الشَّخْصِ، وَاخْتِلَافُ الْوَسَائِلِ لَا يُغَيِّرُ الْحُكْمَ الشَّرْعِيَّ الَّذِي

أُتْحَدَتْ فِيهِ نَتَائِجُ هَذِهِ الْوَسَائِلِ، وَحَصَلَ مِنْهَا لِلْإِنْسَانِ مُبْتَغَاهُ وَمِرَادُهُ، وَهُوَ أَنْ يَحْصَلَ عَلَى (رِسْمٍ) لِلْإِنْسَانِ مَا، أَوْ حَيَوَانٍ مَا.

فسواءُ أَحْصَلَ ذَلِكَ بِالرَّسْمِ الْيَدَوِيِّ - وَغَالِباً مَا يَكُونُ مَعَ بَعْضِ الْفَوَارِقِ - أَمْ حَصَلَ بَالَةً، وَغَالِباً مَا يَكُونُ دُونَ أَيِّ فَارِقٍ، بَلْ قَدْ يَكُونُ فِيهَا تَجْمِيلٌ وَتَلْوِينٌ. وَتَقَدَّمَ قَبْلَ أُسْطَرِ ذِكْرِ الْقَاعِدَةِ الشَّرْعِيَّةِ: الْعِبَرَةُ بِالْمَعْنَانِي، لَا بِالْحُرُوفِ وَالْمَبَانِي.

وَقَدْ شَاعَتْ فَتَوَى الْعَلَامَةُ الْكَبِيرُ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ بِخَيْتِ الْمَطْيَعِيِّ الْمَتَوَفَّى سَنَةَ ١٣٥٤ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِإِبَاحَةِ هَذَا النُّوعِ مِنَ التَّصْوِيرِ، وَاتُّكِّأَ عَلَى فُتْيَاهُ هَذِهِ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ، مَتَمَسِّكاً بِتَعْلِيلِهِ، أَوْ مُتَذَرِّئاً بِمَقَامِهِ الْعِلْمِيِّ.

وَمَقَامُ الرَّجُلِ لَا يُنْكَرُ، لَكِنْ قَدْ رُدَّ عَلَيْهِ عُلَمَاءٌ - أَيْضاً - دَوْرُ جَلَالَةِ وَمَقَامِ عِلْمِيِّ كَبِيرٍ مِنْ مَعَاصِرِهِ، مِنْهُمْ الْعَلَامَةُ الْحُجَّةُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ زَاهِدُ الْكُوْثُرِيِّ الْمَتَوَفَّى سَنَةَ ١٣٧١ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَإِنَّهُ قَالَ فِي «مَقَالَاتِهِ» ص ١٤٣ وَهُوَ يَرُدُّ عَلَيْهِ اعْتِمَادَهُ قَوْلَ أَبِي السُّعُودِ الْعِمَادِيِّ فِي مَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ الطَّلَاقِ: «غَلَطَ الشَّيْخُ بِخَيْتِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَأْيِيدِ هَذَا الْقَوْلِ الَّذِي لَيْسَ مِنَ الْمَذْهَبِ فِي شَيْءٍ، حَتَّى أُلْفَ رِسَالَةٌ فِيهِ، لَكِنْ قَوْلُهُ هَذَا كَقَوْلِهِ فِي التَّصْوِيرِ الشَّمْسِيِّ، مَغْمُورٌ فِي زَاخِرِ صَوَابِهِ، سَامِحَهُ اللَّهُ».

وَالْكُوْثُرِيُّ مِنْ أَعْرَفِ النَّاسِ بِمَكَانَةِ الشَّيْخِ بِخَيْتِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ، وَأَشَدُّهُمْ ثَنَاءً عَلَيْهِ، وَيُكْثِرُ مِنْ وَصْفِهِ وَتَلْقِيهِ بِ«شَيْخِ فَقِهَاءِ عَصْرِهِ». وَانْظُرِ الْمَقَالَ نَفْسَهُ ص ١٤٠.

وَمِنْهُمْ الْعَلَامَةُ الدَّاعِيَةُ الشَّيْخُ مُصْطَفَى أَبُو سَيْفِ الْحَمَامِيِّ الْمَتَوَفَّى سَنَةَ ١٣٦٨ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فِي كِتَابِهِ الْمَشْهُورِ «النُّهْضَةُ الْإِصْلَاحِيَّةُ» ص ٢٦٤ وَمَا بَعْدَهَا، وَعَرَّضَ بِالشَّيْخِ وَلَمْ يَصْرَحْ بِاسْمِهِ.

وَكَانَ الْعَلَامَةُ الْمُحِبُّ الشَّيْخُ يَوْسُفُ النَّبْهَانِيُّ الْمَتَوَفَّى سَنَةَ ١٣٥٠ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، كَتَبَ رِسَالَتَهُ «التَّحْذِيرُ مِنْ اتِّخَاذِ التَّصْوِيرِ» رَدّاً عَلَى رِسَالَةِ الشَّيْخِ بِخَيْتِ.

وكَذَلِكَ الظَّنُّ بِرِسَالَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ الْفَاهَاشِمِ الْفُوتِيِّ الْمَالِكِيِّ الْمَذْهَبِ، أَحَدِ عُلَمَاءِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ الْمَتَوَفَّى نَحْوَ سَنَةِ ١٣٤٥، جَمَعَ فِيهَا أَقْوَالَ عُلَمَاءِ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ الدَّالَّةَ عَلَى تَحْرِيمِ التَّصْوِيرِ، وَفِيهِمْ الْإِمَامُ مَالِكٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ شَعِيرَةً!». .

وغير هؤلاء كثيرون ممن عاصروا الشيخ، وبعده، قبل أن يَسْتَمِرَّ الناس هذه الفعلة، بسبب شيوعها فيهم.

وفي الصورة والتصوير أحكام فرعية عديدة، منها ما هو جائز مع شيوع حرمة بين العامة، ومنها ما هو حرام مع تَعَارُفِ الناس حِلَّهُ، ليس هذا مجال استعراضها. وفي قوله آخر الحديث: «فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ شَعِيرَةً» نكتتان علميتان:

الأولى: الأمر في قوله «فليخلقوا» أمرٌ للتعجيز، ومعنى التعجيز: إيقاعُ المأمور بالعجز، وذلك بتكليفه بأمر لا يَسْتَطِيعُ القيامُ به، فيعجزُ عنه، وهذا يُقصدُ منه إيقاعُه بالْعَنَتِ والمشقة، ولا يكونُ ذلك إلا من أمرٍ قادر، إلى مأمور عاجزٍ مسيءٍ أراد الأمر قهره. وأُتِيَ للمخلوقِ الضعيفِ أن يصيرَ خالقاً قوياً.

الثانية: أن قوله «فليخلقوا ذرةً أو ليخلقوا حبة أو شعيرة»: فيه ذكر لنوعين: ذرة - وهي مخلوق فيه حياة -، وحبة وشعيرة وهما مخلوقان لا حياة فيهما. فيكون في المأمور به ذِكْرٌ لما فيه حياة، ولما لا حياة فيه، وذِكْرٌ أولاً ماله وجودٌ وحياة، - والتكليف به أصعبُ - ثم ذكر من باب التدنِّي ماله وجودٌ ولا حياة فيه - والتكليف به أسهل - ومع ذلك فلن يستطيع المأمورُ أحدهما.

هذا على القول بأن الذرة هي النملة الصغيرة. وعلى القول بأنها من الهَبَاءِ، فيكون من بابِ التدنِّي في التعجيز أيضاً.

قال الحافظ السخاوي في «الضوء اللامع» ٢: ١٧٥ في ترجمة العلامة تقي الدين أحمد بن محمد الشُّمْنِي (٨٠١ - ٨٧٢) رحمه الله تعالى: إنه أخذ علم الحديث عن الحافظ ابن حجر، وكان ابن حجر يساعده «وزاد إقبالاً عليه حين وَقَعَ السؤال عن حكمة الترقِّي - في التعجيز - من الذرة إلى الحبة إلى الشعيرة في قوله «فليخلقوا ذرة» وأجاب التقي - الشُّمْنِي - بديهياً بأنْ صُنِعَ الأشياء الدقيقة فيه صعوبة، والأمر بمعنى التعجيز، فناسب التدنِّي من الأعلى - الأشدُّ صعوبةً، لصغره - إلى الأدنى - الأقلُّ صعوبةً، لكبره -، فاستحسنه - ابن حجر - وزاد في إكرامه والتعريف بفضيلته». ونُبِّهني إلى هذه القصة أولاً المناوي في «فيض القدير» ٤: ٤٨٢.

وقد ذكر الحافظ هذه المعاني والاحتمالات بإيجاز في «الفتح» ١٣ : ٥٣٤ فقال: هذا «أمر بمعنى التعجيز، وهو على سبيل الترقى في الحَقارة، أو التنزُّل في الإلزام. والمرادُ بالذرة إن كان النملة فهو من تعذيبهم وتعجيزهم بخلق الحيوان تارة، وبخلق الجماد أخرى، وإن كان بمعنى الهَبَاء فهو بخلق ما ليس له جِرمٌ محسوسٌ تارة، وبماله جِرمٌ أخرى. ويَحْتَمِلُ أن يكون «أو» شكاً من الراوي». والله أعلم.

* * *

٥٦- عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت يدك شغلاً ولم أسد فقرك».

٥٦- تخريجه: رواه الإمام أحمد في «المسند» ٢: ٣٥٨، والترمذي في أبواب صفة القيامة - باب [من كانت الآخرة هممه] ٧: ١٧١ (٢٤٦٨) = ٤: ٦٤٢ (٢٤٦٦) وقال: حسن غريب، وابن ماجه ٢: ١٣٧٦.

معناه: يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ويؤكد مولانا جلّ وعلا هذا المعنى هنا بنداثة لبني آدم جميعاً: «يا ابن آدم تفرغ لعبادتي» فإنك إن تفرغت فقد تفرغت لما خلقت له. وحينئذ يمنحك الله تعالى ما تكفل لك به، وهو الرزق، بل يمنحك ما هو أنفع لك من مجرد وجود المال بين يديك، ألا وهو الرضا بما قدر الله عز وجل لك وأعطاك إياه ويسره لك، وإن كان قليلاً، فانت تشعر بكفايته لك ويسد حاجاتك فيه، وهذا ما نسميه بالقناعة، وهو الذي جاء في الحديث «أملأ صدرك غنى وأسد فقرك».

فالتوجه للعبادة - مع المال الكثير أو القليل - والشعور بالرضا والكفاية - هو الغنى الحقيقي، وفيه الراحة في الدنيا من الكد وراء المال والدنيا والمطام، وفيه الراحة في الآخرة من عناء الحساب: «من أين اكتسبه وفيم أنفقه».

قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدمي عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه» رواه الترمذي ٧: ١٣٦ (٢٤١٩) عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه وقال: حسن صحيح.

«وإلا تفعل» فأعرضت عما خلقت من أجله، ولم تفرغ لعبادة الله عز وجل:

ملأت يديك شُغلاً - وفي رواية ابن ماجه: ملأت صدرك - أي قلبك - شُغلاً،
والمعنى واحد - ولم أَسُدْ ففرك.

أي: إن الله يعاقب مَنْ لم يتفرغ لعبادته، بل يريد الدنيا، والازدياد منها،
يعاقبه بأخذ الدنيا منه ليتهالك عليها ويكدح وراءها، وهي هاربة منه، ويدها
مغسولتان منها، فهو فقير حساً ومعنى.

أو: بإعطائه الدنيا وفتح بابها له على مصراعيها، لا يذري كيف يجمع المال
ويحسبه، ولا يشعر إلا وبابٌ يُفتح عليه بعد باب، وهو يقول: هل من مزيد، فمثلُه
كمثل الغريق: هو في كل لحظة يتسفل في الماء، والماء يغمره أضعافاً فأضعافاً،
حتى يُمِيتَه، وكذلك حال المال مع الغني، كحال الماء مع الغريق.

فهذا فقيرٌ معنى، وهو يستحقُّ الإشفاقَ عليه منا أكثر مما نُشْفِقُ على ذاك
المُعاقَب بأخذ الدنيا منه، فذاك قد يقفُ عند حدِّه ويرتدع لو جاءته الدنيا، فسدتْ
حاجته. أما هذا فكالجرب، كلما زاد حِكَّةً كلما ازداد جَرَباً، وكلما زاد ماله زاد
نَهْمه، وزاد إعراضاً عن الله. نسأل الله العافية.

والعاقِل من رُزِقَ المالَ في يده، ولم يتعلّق به قلبه، بل تركَ يده للمال، وقلبه
لله. فَيُذْهِدُ تشغله بالمال، وقلبه مشغولٌ بربه، يشاهدُ فضلَ الله عليه بالنعمة، وأنه
مُسْتَخْلَفٌ فيها، وأن الله تعالى يُخاطِبُه - لا يخاطب غيره -:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهيكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله، ومن يفعلْ
ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾، فانظر إلى قوله عز وجل - وهو أصدق القائلين، وهو
العليم الخبير -: ﴿ فأولئك هم الخاسرون ﴾ كيف حَصَرَ الخسارة فيهم، وحَصَرهم
فيها. أعاذنا الله منها بفضلِهِ.

٥٧- عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ يقول: «إن الله عز وجل يقول: أنا مع عبدي إذا هو ذكّرني وتحركت بي شفّته».

٥٧- تخريجه: رواه ابن ماجه في كتاب الأدب - باب فضل الذكر ٢: ١٢٤٦ (٣٧٩٢)، والإمام أحمد في «مسنده» ٢: ٥٤٠، وذكره البخاري تعليقاً بصيغة الجزم في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: «لا تحرك به لسانك» ١٣: ٤٩٩، ورواه مسنداً في كتابه «خلق أفعال العباد» (٣٤٤). ورواه آخرون.

معناه: هذا حديث عظيم في الدلالة على فضل ذكر الله تعالى. ذلك أن الله عز وجل يُخبر عن ذاته العلّية فيقول «أنا» الله الرحمن الرحيم، الكريم، الهادي، اللطيف... «مع عبدي»، أنا معه بالرحمة له، والكرم عليه، والهداية له، واللفظ به، فأوفقه للخير، وأخذ بيده إلى الصالحات، وأدفع عنه الشرور والمكاره...

متى؟ ولماذا؟

إذا ذكرني، ولفظ البخاري المعلق بشرح الكرماني ٢٥: ٢١٧، والعيني ٢٠: ٣٧٧: «حيثما ذكرني»، ولفظه في «خلق أفعال العباد»: «مع عبدي ما ذكرني».

فرواية «إذا ذكرني»: تُفيد أن معية الله تعالى بالرحمة والخير تكون له بمجرد الذكر، قال تعالى: ﴿فأذكروني أذكركم﴾، وهي ثابتة متصلة دائمة مادام ذاكرًا، كما يُستفاد من رواية «مع عبدي ما ذكرني»، وتفيد رواية «حيثما ذكرني» أن الله تعالى معه بهذه الصفات في أي مكان كان: في المسجد، وفي البيت، وفي المتجر، والسوق، وفي الجهاد وهو مُلاقٍ قرّنه^(١)، وفي المدرسة، وفي الفراش، والمسير، وهكذا. وفي حديث أبي هريرة عند الشيخين الآتي برقم ٥٩: «وأنا معه إذا ذكرني...».

والذِّكْر يكون باللسان، وبالفعل، وبالقلب.

فذكر الله باللسان: يكون بالتسبيح، والتحميد، والتلهيل، وقراءة القرآن، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ، وبالأذكار الماثورة عامة، والماثورة في مناسبات خاصة، كالأذكار الماثورة حين دخول المسجد، والخروج منه، وعقب الصلوات، وعند النوم والاستيقاظ منه، وعند الصباح والمساء، وسَمَّى الله تعالى خُطبة الجمعة ذكراً في قوله: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(١). وهذا ما صُرِّح به في الحديث: «وتحرَّكتْ بي شفتاه».

وهو صريح في أن المعية ثابتة للذاكر بمجرد تحريك الفم: الشفتين واللسان، إذا كانت الواو للحال لا للعطف، أما إذا جعلناها عاطفة فالمعية ثابتة لمن جَمَعَ بين الذكر اللساني والقلبي. قال العلامة القاري في «مرقاة المفاتيح» ٥ : ٧١: «وهذا أولى، لأن المؤثر النافع هو الذكر باللسان مع حضور القلب، وأما الذكر باللسان - والقلب لاؤه - فهو قليل الجدوى». وأصل الفكرة للإمام الغزالي رحمه الله في «الإحياء» أوائل كتاب الذكر ١ : ٢٩٤. وأنبه إلى قوله: قليل الجدوى، أي: إن في الذكر اللساني فائدة، لكنها قليلة، فلا نمنع عنها العامة، بل ننبههم إلى ضرورة ذكر القلب معه. وانظر لزماً «فتح الباري» ١١ : ٢٠٩.

وبالفعل: كالصلاة، فإنها مشتملة على ذكر الله تعالى.

وبالقلب - وهو الذِّكْر السُّرِّي -، وبه يحضّر القلب ويلين ويطمئن ويخضع، وينتج عنه النشاط للعبادة والخير بألوانه، وبه، وبه.

وقال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في «إحياء علوم الدين» ١ : ٣٠١ في فصل فضيلة التسبيح والتحميد من كتاب الأذكار والدعوات: «حضور القلب في لحظة بالذِّكْر، والذهول عن الله عز وجل مع الاشتغال بالدنيا قليل الجدوى، بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أو في أكثر الأوقات هو المقدم على العبادات، بل به تُشَرَّفُ سائر العبادات، وهو غاية ثمرة العبادات العملية».

١ - هذا أحد الأقوال في تفسير هذه الآية الكريمة، وهو قول قوي، ولا يتنافى مع غيره.

٥٨ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يطوفون في الطُّرُق، يَلْتَمِسُونَ أهل الذُّكْرِ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إلَيَّ حاجتِكُمْ. قال: فيحْفُونَهُمْ بأجنتهم إلى السماء الدنيا. قال: رَبُّهُمْ عَزَّ وَجَلَّ - وهو أعلمُ بِهِمْ -:

ما يقول عبادي؟ قال: تقول: يُسَبِّحُونَكَ، وَيَكْبُرُونَكَ، وَيَحْمَدُونَكَ، وَيَمَجِّدُونَكَ. قال: فيقول: هل رَأَوْنِي؟ قال: فيقولون: لا والله ما رَأَوْكَ. قال: فيقول: كيف لو رَأَوْنِي؟ قال: يقولون: لو رَأَوْكَ كانوا أشدَّ لك عبادةً، وأشدَّ لك تمجيداً وتحميداً، وأكثر لك تسبيحاً.

٥٨ - تخريجه: رواه البخاري في كتاب الدعوات - باب فضل ذكر الله عز وجل ١١ : ٢٠٨ (٦٤٠٨)، ومسلم كتاب الذكر والدعاء - باب فضل مجالس الذكر ٤ : ٢٠٦٩ (٢٥) وشرح النووي ١٧ : ١٤. ورواه الترمذي عن أبي هريرة أو أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما في أبواب الدعوات - باب [الله ملائكة سيّاحون] ٩ : ٢٢٦ (٣٥٩٥) = ٥ : ٥٧٩ (٣٦٠٠).

غريبه: يَلْتَمِسُونَ: يَقْصِدُونَ بالبحث.

هَلُمُّوا: تَعَالَوْا، أَقْبِلُوا.

يَحْفُونَهُمْ: يَلْتَقُونَ بِهِمْ وَيَحُوطُونَهُمْ.

يُمَجِّدُونَكَ: يُعْظِمُونَكَ، وَيَذْكُرُونَ فَضْلَكَ عَلَيْهِمْ.

معناه: في أول هذا الحديث القدسي الشريف وآخره بيان فضل الله تعالى على عباده، ولو أنهم طائعون ذاكرون، فإنما أطاعوه وذكروه بفضله وتوفيقه؛ وفي وسطه بيان فضل الذكر وأهله.

ففي أوله: فضل الله على عباده، إذ يُرْسِلُ ملائكة كراماً تطوف في الأرض

قال: يقول: فما يسألوني؟ قال: يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها. قال: فكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبةً.

قال: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ قال: يقولون: من النار. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: فيقولون: لا والله يا رب ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو

بحثاً عن الذاكرين الله عز وجل، فإذا وجدوا ضالَّتْهم المنشودة نادَوْا بعضهم بعضاً: هلموا إلى ما تبغون وَمَنْ تبغون: إلى مجالس الذكر وأهل الذكر، فيحفونهم بأجنحتهم، ويكون بعضهم فوق بعض «حتى يملئوا ما بينهم وبين سماء الدنيا» كما في رواية ذكرها الحافظ في «الفتح» ١١: ٢١٢.

ويسألهم الله تعالى - وهو العليم الخبير - أين كانوا وماذا عندهم من علم وخبر، ويكون الحوار المذكور في الحديث.

قال الحافظ في «الفتح» ١١: ٢١٣: «قيل: إن في خصوص سؤال الله الملائكة عن أهل الذكر: الإشارة إلى قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فكانه قيل لهم: انظروا إلى ما حصل منهم من التسبيح والتقديس مع ما سُلِّطَ عليهم من الشهوات ووساوس الشيطان، وكيف عالجوا ذلك، وضاهوكم في التسبيح والتقديس».

وفي آخره: فضل الله عز وجل من وجهين: تفضُّله عليهم بالعطاء والنوال للذي يسألونه: نِجَاةٍ مِنَ النَّارِ، وَحُظُورَةٍ بِالْجَنَّةِ، وهذا هو الفوز العظيم ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

وهذا تفضُّلٌ عظيم، ومرغَّبٌ بذكر الله تعالى والحرص على البحث عن مجالسه، وصحبة أهله، لكنَّ الوجه الثاني أعظم وأدعى لمحبة العبدِ لرَبِّه، وأظهرُ لفضل الله على عباده ولطفه بهم وكرمه عليهم، هو أن الله تعالى يُكْرِمُ العبدَ الخَطَّاءَ المذنبَ من أجلهم وبسيبهم، لأنه جَلَسَ معهم جلوساً عابراً غير قاصد له، إنما عرضت له حاجة للمكان أو لأحد الذاكرين من أهل المجلس، فدخل فجلس،

رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشدَّ منها فراراً، وأشدَّ لها مخافةً.
قال: فيقول: فأشهدكم أنني قد غفرتُ لهم.

قال: يقول مَلَكٌ من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء
لحاجةٍ! قال: هُمُ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ.

فشمَلته مغفرةُ الله الغفور الرحيم، وتداركته العناية الربانية بهذا الوعد الكريم:
«أشهدكم أنني قد غفرت لهم»، قال: يقول مَلَكٌ من الملائكة: فيهم فلان، ليس
منهم... وفي رواية: «إن فيهم فلاناً الخطأ لم يُرْدهم» لم يَقْصِدْ مجلسهم ولا
مجالستهم «إنما جاء لحاجة، قال: هم الجلساء لا يشقى جلسيهم».

وفي رواية: «هم القوم» قال في «الفتح»: «وفي اللام - أي أَل التعريف
الداخل على كلمة: قوم - إشعارٌ بالكمال، أي هم القوم كلُّ القوم».

وقوله «لَا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ» فيها إشعارٌ ببيان علّة عدم الشقاوة، وهي:
المجالسة، وجاءت رواية أخرى تفيدُ علّةً أخرى ولفظها «لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»
أي: بسببهم، وفي رواية الترمذي المشار إليها في التخريج: «لَا يَشْقَى لَهُمْ جَلِيسٌ»
أي: من أجلهم وإكراماً لهم.

وفي «فيض القدير» ١: ٤٤٢: «قال النووي: كما يستحبُّ الذكرُ يُستحبُّ
الجلوس في حِلَقِ أهله، وقد تظاهرت على ذلك الأدلة».

فانظر فضل مجالس الذكر، وفضل مجالس الذاكرين.

وانظر فضل الصحبة لهم ما أعظمها! فإذا كانت مجالستهم عن غير قصد
وإرادة تُنتج هذا الخير العظيم - وزيادة في تعظيمه أن الله تعالى أشهد ملائكته عليه -
فكيف بما يُنتج عن مصاحبتهم وملازمتهم وتعلّق القلب بهم! لا ريب أن «المرء
مع مَنْ أَحَبَّ».

ومن هنا يُستفاد ضرورة اختيار الجليسِ الصالحِ والصاحبِ الخيرِ: ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

قال العلامة الكيّمُ الراغبُ الأصفهانيُّ رحمه الله تعالى في «الدُّرَيْعَة إِلَى
مَكَارِمِ الشَّرِيعَةِ» ص ٢٢٥ كلاماً نفيساً في الصحبة وأثرها، أنقله بطوله لنفاسته، قال:

«حَقُّ الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَحَرَّى بِغَايَةِ جُهْدِهِ مَصَاحِبَةَ الْأَخْيَارِ، فَهِيَ قَدْ تَجَعَّلُ الشَّرِيرَ خَيْرًا، كَمَا أَنَّ صَحْبَةَ الْأَشْرَارِ قَدْ تَجَعَّلُ الْخَيْرَ شَرِيرًا، قَالَ الْحُكَمَاءُ: مَنْ جَالَسَ خَيْرًا أَصَابَتْهُ بَرَكَتُهُ، فَجَلِيسُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ لَا يَشْقَى وَإِنْ كَانَ كَلْبًا، كَكَلْبِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، حَيْثُ قَالَ جُلٌّ وَعَزٌّ: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾».

ولهذا أوصت الحكماء بمنع الأحداث من مجالسة السفهاء، وقال عليُّ أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه: لَا تَصْحَبِ الْفَاجِرَ فَيَزِينَنَّ لَكَ فِعْلَهُ، وَيُوَدِّدَنَّكَ مِثْلَهُ، وَقِيلَ: جَالِسُوا مَنْ تُذَكِّرُكُمْ اللَّهُ رُؤْيَتَهُ، وَيَزِيدُ فِي خَيْرِكُمْ نَظْقَهُ، وَقَالُوا: إِيَّاكَ وَمَجَالِسَةَ الشَّرِيرِ، فَإِنَّ طَبْعَكَ يَسْرِقُ مِنْ طَبْعِهِ، وَأَنْتَ لَا تَدْرِي، بَلْ قَالَ ﷺ: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوِّءِ كَحَامِلِ الْمَسْكِ وَنَافِخِ الْكَبِيرِ، فَحَامِلُ الْمَسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ - أَيْ يُعْطِيكَ - وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ يَحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»^(١).

وقال ﷺ: «المرءُ على دين خليله، فلينظر أحدكم من يُخَالِلُ»^(٢) أي: يَجْذِبُهُ خليلُهُ إلى دينه. ومن قوة هذا المعنى في النفوس شاع على الألسنة قول الشاعر^(٣):
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي
وليس إعداء الجليس جليسه بمقاله وفعله فقط، بل وبالنظر إليه، فالنظر في الصور يؤثر في النفوس أخلاقاً مناسبة إلى خلق المنظور إليه، فإن من دام نظره إلى مسرور سر، ومن دام نظره إلى محزون حزن.

وذلك ليس في الإنسان فقط، بل وفي الحيوان وسائر النبات، فإن الجمل الصَّعْبَ قد يصير ذلولاً بمقارنة الذلول، والذلول يصير صعباً بمقارنة الصَّعَابِ، والرَّيْحَانَةُ الغَضَّةُ تذبل بمقارنة الذابلة، ولهذا يلقط أصحاب الفلاحة الرَّمَمَ - العظام

١ - هذا لفظ البخاري في كتاب الذبائح - باب الصيد ٩: ٣٢٢، وذكره الراغب بغير هذا اللفظ، فأثبت لفظ البخاري.

٢ - هذا لفظ أحمد ٢: ٣٣٤، ورواه الترمذي ٧: ١١٠ (٢٣٧٩) بلفظ: «الرجل على دين خليله...» وقال: حسن غريب.

٣ - هو طرفة بن العبد، في معلقته.

البالية - عن الزروع لثلا تُفسدُها، ومعلوم أن الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة إذا قُرِبَتْ منهما، وذلك مما لا ينكره ذو تجربة.

وإذا كانت هذه الأشياء قد بلغت في قبول التأثير هذا المبلغ، فما الظنُّ بالنفوس البشرية التي موضوعها لقبول صُور الأشياء: خيرها وشرُّها؟!.

ومع ذلك: فمما ينبغي أن يُعلم أن الحكماء والمشتغلين بتهذيب النفوس نبَّهوا إلى أن صحبة الأخيار وأهل الصلاح وسيلة لا غاية، فلا ينبغي للعاقل أن يشتغل بالوسيلة عن الغاية.

قال المُنَاوِي رحمه الله تعالى في «فيض القدير» ١ : ٤٤٢: «قال الجنيد: دخلتُ على السَّرِيِّ - السَّقَطِي، وهو خالُ الجنيد - وهو يجودُ بنفسه - في حالة الاحتضار - فجلستُ وبكيتُ، فسقطتُ دموعي على خدِّه، ففتح عينيه ونظر إليَّ، فقلتُ: أوصني، قال: لا تصحب الأشرار، ولا تشتغل عن الله بمخالطة الأخيار».

فنبَّه إلى أن صحبة الأخيار للدلالة على الله تعالى، فإذا حصلت لك فلا تَبَقَّ متشاعلاً بصحبتهما عما وصلت إليه، بزعم أن صحبتهم خيرٌ، ومخالطتهم فضيلة، فتبقى فيما كنت عليه، ولا ترتفع إلى مقام أعلى، وكذلك لا تنسَ فضلهم عليك فلا تلتفت إليهم بالوفاء لهم!.

وانظر إلى همة الجنيد رضي الله عنه، فإنه لم يشأ أن تفوته فرصة الاستفادة من خاله وهو في حالة النزع وسباق الموت، وهو ييكي عليه ودموعه تتساقط على خدِّه، بل اهتبل الفرصة فسأله وصيةً غالية، هي وصية مودِّع ومودَّع.

وانظر إلى أثر الصحبة في نفوس القوم، فإنه آثرها على أيِّ وصية سواها، وهو في هذه الحال: آخر لحظة من لحظاته مع ابن أخيه وخليفته من بعده. رضي الله عنهم وأرضاهم.

هذا عما في أول الحديث وآخره.

وأما ما في وسطه: فذكرُ الله تعالى، ومجالسُ الذكر، وأهلُ الذكر.

أما ذكرُ الله تعالى: فيكونُ بما جاء في هذه الرواية التي فيها نصُّ على

التسبيح، والتكبير، والتحميد، والتمجيد، وسؤال الله الجنة والاستعاذة به من النار. وجاءت روايات أخرى ذكرها الحافظ في «الفتح» ١١: ٢١٢ فيها النص على: التهليل «لا إله إلا الله» وتعظيم آلاء الله، - وهذا مرده إلى التحميد والتمجيد - والسؤال لآخرتهم ودنياهم - وهذا يشمل سؤال الجنة والاستعاذة من النار، وكلّ دعاء لصالح دنياهم وآخرتهم^(١) - وتلاوة القرآن الكريم، والصلاة على النبي ﷺ. فهذه خمسة أمور زائدة على الخمسة المذكورة، وقد تدمج فتبقى ثمانية أو تسعة.

فهذه مشتملات مجالس ذكر الله تعالى المشروعة، لذلك كانت بُغية الملائكة الكرام وطلبتهم: «إذا وجدوا قوماً يذكرون الله تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حاجتكم». ويحقُّ لهم أن يتفضل الله تعالى عليهم بما تقدّم بيانه.

قال الحافظ بعد بيان الروايات التي اشرتُ إليها: «وفي دخول قراءة الحديث النبوي ومدارسة العلم الشرعي، ومذاكرته، والاجتماع على صلاة النافلة في هذه المجالس: نظرٌ، والأشبه اختصاص ذلك بمجالس التسبيح والتكبير ونحوهما والتلاوة: حَسْبُ، وإن كانت قراءة الحديث ومدارسة العلم والمناظرة فيه: من جملة ما يدخل تحت مسمى ذكر الله تعالى».

روى الترمذي ٩: ١٧٥ (٣٥٠٥) عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِیَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا» قالوا: وما رِیَاضُ الْجَنَّةِ؟ قال: «حِلْقُ الذُّكْرِ» وقال: حسن غريب.

وروى قبله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِیَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا» قلت: يا رسول الله وما رِیَاضُ الْجَنَّةِ؟ قال: «المساجد» قلت: وما الرُّتْعُ يا رسول الله؟ قال: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر». وقال: حسن غريب^(٢).

١ - قال في «الفتح» ١١: ٢١٢: وفي حديث أنس عند البزار: «ويعظمون آلاءك، ويتلون كتابك، ويصلون على نبيك، ويسألونك لآخرتهم ودنياهم».

٢ - هكذا في المطبوعة، وفي «الترغيب والترهيب» ٢: ٤٣٧: «رواه الترمذي وقال: حديث غريب. قال الحافظ - أي المنذري -: وهو مع غرابته حسن الإسناد». والرتع في اللغة: هو الأكل والشرب - كما يشاء - في خِصْب وسعة.

فهذه مجالس الذكر وهذا هو الرّتع فيها، وهو يؤيد ما استظهره الحافظ ابن حجر رحمه الله .

وأما حديث ابن عباس مرفوعاً: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا» قالوا: يا رسول الله وما رياضُ الجنة؟ قال: «مجالسُ العلم»: فرواه الطبراني في «المعجم الكبير» ١١: ٩٥، وقال عنه المنذري في «الترغيب» ١: ١١٢، والهيتمي في «المجمع» ١: ١٢٦: «فيه راو لم يُسم».

وأما أهلُ الذكر: ففضائلهم ومكرماتهم عند الله تعالى كثيرة، ويكفيهم فضلاً أن الله يغفر لمن جالسهم مجلساً - ولو قصيراً - غير مقصود ولا متعمّد، بسببهم ولكرامتهم عند ربهم.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الذاكرين له كثيراً والذاكرات، على الوجه المشروع دون حيف ولا زيغ، وهو الهادي والموفق.



٥٩ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي،

٥٩ - تخريجه: رواه البخاري في كتاب التوحيد - باب «ويحذركم الله نفسه» ١٣: ٣٨٤ (٧٤٠٥) مطولاً هكذا، ورواه مسلم أول كتاب الذكر والدعاء ٤: ٢٠٦١، وشرح النووي أول الجزء السابع عشر.

غريبه: الظن - هنا -: العلم واليقين.

الملا: أشرف القوم.

الباع: قَدَّرَ اليدين مفتوحتين ممدودتين والصدرُ بينهما.

معناه: هذا لون آخر من ألوان إكرام الله تعالى لعباده الذاكرين، مع بيان أنواع الذكر السري والجهرى.

وجاء في صدر هذا الحديث الذي فيه هذا الإكرام وهذا البيان، جاء في صدره بيان عظيم كرم الله على عباده: «أنا عند ظن عبدي بي».

فالله جل جلاله يُطْمِئِنُّ عباده: أن لا تخافوا ولا تحزنوا، ما دمتم ترجون مني المغفرة، معتقدين أنني أغفر لكم: فَثِقُوا بآني قد غفرت لكم.

وإن دعوتكموني معتقدين الإجابة والنوال، راجين مني جزيل العطاء: فثقوا بذلك، وتحققوا الإجابة، فأنا عند اعتقادكم ورجائكم.

وهكذا سائر أحوال العبد، ينبغي أن يكون فيها واثقاً بربه أن يعامله بما هو له أهل، سبحانه وتعالى، ولذا جاء في رواية من روايات الحديث: «أنا عند ظن عبدي بي، فليظن ما شاء»^(١): إجابة لدعاء، وشفاء من مرض، وغنى من فقر، ونصرة من ظلم، ومغفرة لذنوب، وعلماً بعد جهل... وهكذا.

١ - رواها الإمام أحمد ٣: ٤٩١ والطبراني في «الأوسط»، قال الهيثمي ٢: ٣١٨: «رجال أحمد ثقات»، وهي أيضاً عند الحاكم ٤: ٢٤٠ وصححها، ووافقه الذهبي على شرط مسلم.

وأنا معه إذا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ: ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي،

ومن هنا «قال علماؤنا: ليس في خصال الخير وإن جُلَّتْ، ولا في أنواع الأعمال وإن عظمت، أعلى من حسن الظن بالله تعالى. ونظمه بعض الشعراء فقال:

أَيُّهَا الْعَبْدُ كُنْ لِمَا لَسْتَ تَرْجُو مِنْ نَجَاحٍ أَرْجُو لِمَا أَنْتَ رَاجِي
إِنْ مُوسَى مَضَى لَيْقَيْسَ نَاراً مِنْ شُعَاعٍ قَدْ لَاحَ، وَاللَّيْلُ دَاجِي
فَاتَى أَهْلَهُ وَقَدْ كَلَّمَ الدَّ وَنَاجَاهُ، وَهُوَ خَيْرُ مَنَاجِي
وَكَذَا الْكَرْبُ كُلَّمَا اشْتَدَّ بِالْعَبْدِ دَنَتْ مِنْهُ رَاحَةُ الْإِنْفِرَاجِ^(١)

ثم يذكر الله تعالى فضل الذاكرين، ويجعل ذكرهم له على نوعين: سريٍّ وجهريٍّ، وذلك بعد أن ذكر فضلاً عظيماً منحهم إياه، هو المعية الإلهية الخاصة بهم، إذ قال: «وأنا معه إذا ذكرني». وفي رواية لمسلم: «وأنا معه حين يذكرني» ورواية الترمذي: «وأنا معه إذا دعاني».

وكلُّها متَّفَقةٌ غيرُ مختلفةٍ، فهو سبحانه مع ذاكره حين يذكره، وتمتدُّ هذه المعية فلا تنقطعُ، كما يُستفاد من التعبير بـ (إذا) الظرفية لما يستقبل من الزمن، ويشهد لذلك إحدى روايات الحديث المتقدم برقم ٥٧: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه».

والذكر شامل للدعاء وغيره من تسبيح وتحميد... كما تقدم هناك.

وهذه المعية الخاصة، ليس معيةً بالعلم فقط، كما قال في «الفتح» ١٣: ٣٨٦، بل هي معيةٌ بها و«بالرحمة والتوفيق والهداية والرعاية» كما قال الإمام النووي ١٧: ٢، فلا يحصلُ له إلا ما فيه رحمة، ولا يصدرُ عنه إلا ما فيه رحمة، ولا يقدرُ له إلا التوفيق، ولا يصدرُ عنه أمر إلا والتوفيق حليفه، وهكذا سائر شؤونه، تحفه فيها العناية الإلهية، والحفظ والوقاية.

ثم ذَكَرَ الله تعالى النوعَ الأوَّلَ من الذكر: «إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ: ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي». ففضلُ الله تعالى دائماً غالبٌ ظاهر: إذا ذكره العبد في نفسه، تفضَّل سبحانه على العبد فذكره في نفسه، وذكرُ الله للعبد أشرفُ من ذكر العبد لله.

١ - من «سراج الملوك» للإمام أبي بكر الطرطوشي رحمه الله تعالى، أواخر الباب التاسع والخمسين ص ٢٩٠.

وإن ذَكَرَنِي فِي مَلَأْ: ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأْ خَيْرٍ مِنْهُمْ،

ومعنى «إن ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ»: واضح: أن يذكر العبدُ ربَّه تعالى في نفسه سرّاً، بتسبيحه وتهليله وتحميدِهِ...

أما الذِكرُ المُقابلُ له: فمعناه: كما نَقَلَهُ النووي عن المازري: «إذا ذَكَرَنِي خَالِياً أَثَابَهُ اللهُ وَجَازَاهُ عَمَلٌ بِمَا لَا يَطْلَعُ عَلَيْهِ أَحَدٌ».

وقال الحافظ في «الفتح»: «أي: إن ذَكَرَنِي بالتزويه والتقديس سرّاً، ذَكَرْتُهُ بِالثَّوَابِ وَالرَّحْمَةِ سَرّاً». والمعنى واحد. والرحمة التي سيذكره الله تعالى بها سرّاً، لا بدَّ أنها تُناسبُ حالَ الذَّاكِرِ وحاجته، ولسانَ حاله الذي يَسْأَلُ به ربه، فإنَّ ذَكَرَ العبدُ ربَّه وهو خائف، ذكره الله بِالرَّحْمَةِ فَأَمَّنَهُ، وإن ذكره وهو مستوحشٌ أَنَسَهُ، كما قال الإمام ابن أبي جمرة رحمه الله تعالى، فلا منافاة بين ما قاله ابن حجر في تفسيره الذي نقلته، وبين تفسير ابن أبي جمرة الذي نقله عنه ابنُ حجر نفسه، إنما جاء كلام الحافظ عاماً، وكلام ابن أبي جمرة كالمثال على بعض الحالات.

ومن دواعي الذِكرِ السَّريِّ: الإخلاصُ فيه وتجنبُ الرياء، وكلُّما تمكَّنَ هذا الملحظ في نفس الذَّاكِرِ، كان ذكره أدعى للقبول، ولإعظامِ الثَّوَابِ عليه، ولذا ذكر الله تعالى له في نفسه.

ويشهد لذلك رواية البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «قال الله تعالى: يا ابن آدم إذا ذَكَرْتَنِي خَالِياً: ذَكَرْتَكُ خَالِياً». قال الهيثمي في «المجمع» ١٠: ٧٨: «رجاله رجال الصحيح غير بشر بن معاذ العقدي وهو ثقة».

وأما النوع الثاني من الذِكرِ: فهو الذِكرُ الجَهري: «وإن ذَكَرَنِي فِي مَلَأْ: ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأْ خَيْرٍ مِنْهُمْ».

وصار المَلَأُ الثاني خيراً من المَلَأِ الأول، لأن الله سبحانه وتعالى مع من يذكر هذا الذَّاكِرِ، وإلا لكان ظاهر الحديث يفيد أن الملائكة أفضلُ من البشر، وهو خلافُ مذهب جمهور أهل السنة. ولا ريب أن ذِكرَ كُلِّ ذَاكِرٍ على حسبهِ، فذِكرُ الله له بِالرَّحْمَةِ، وذِكرُ الآخرين - الملائكة - بالدعاء.

قال في «الفتح» ١: ٣٨٧ قال «القاضي كمال الدين ابن الزمكاني في الجزء

وإن تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا: تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وإن تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا: تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وإن أَتَانِي يَمْشِي: أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً.

الذي جمعه في الرفيق الأعلى: إن الله قَابِلٌ ذِكْرَ الْعَبْدِ فِي نَفْسِهِ: بذكره له في نفسه، وقَابِلٌ ذِكْرَ الْعَبْدِ فِي الْمَلَأ: بذكره له في المَلَأ، وإنما صار الذكر في المَلَأ الثاني خيراً من الذكر في الأول، لأن الله هو الذاكر فيهم، والمَلَأ الذين يذكرون - والله فيهم - أفضل من المَلَأ الذين يذكرون وليس الله فيهم.

وقد جاء في رواية عند الطبراني في «معجمه الكبير» عن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه وصف هذا المَلَأ الثاني بأنه «الرفيق الأعلى» وحسَّنها المنذري ٢: ٣٩٤، والهيثمي ١٠: ٧٨.

وما حكمة ذِكْرِ الله تعالى في المَلَأ والرفيق الأعلى، لمن ذكره في مَلَأ؟ قال المناوي رحمه الله ٤: ٤٩٦: «مباهاة بك - بالذاكر في المَلَأ - وإعظاماً لِقَدْرِكَ». أي: إن الله تعالى يُباهي بهذا العبد ملائكته الكرام ويُرفع من قدره لديهم. وكأنه يشير بذلك إلى المعنى الذي تقدم نقله ص ٢٤٧ عن الحافظ ابن حجر في «الفتح» أن الله تعالى يريد أن يُريَ الملائكة برهان قوله لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ حين قالوا له: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾. ولا ريب أن حِكْمَ الله تعالى في أموره أجل وأعلى.

وأما قوله عزَّ شأنه «وإن تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وإن تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وإن أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»: ففي هذا القول الكريم عظيم فضل الله ولطفه وكرمه على عباده المُقْبِلِينَ عليه بالتوبة والإِنَابَةِ.

ونقل الإمام الترمذي رحمه الله تفسيره - عقبَ روايته له - عن الأعمش أحد رواة هذا الحديث، وهو إمام مشهور بالقراءات ورواية الحديث، توفي سنة بضع وأربعين ومائة، قال: «وَيُرَوَّى^(١) عن الأعمش في تفسير هذا الحديث «من تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا»: يعني بالمغفرة والرحمة، وهكذا فسر بعض أهل العلم هذا الحديث، قالوا: إنما معناه: يقول: إذا تَقَرَّبَ إِلَيَّ الْعَبْدُ بِطَاعَتِي وبما أَمَرْتُ،

١ - ليس مرادُ الترمذي تَضْيِيفُ هذا النقل عن الأعمش بالتعبير «يُرَوَّى». ولا يُعْرَفُ للعلماء المتقدمين مثل هذا الاصطلاح، ولا للإمام البخاري في معلقاته.

.....

تُسَارِعُ إِلَيْهِ مَغْفِرَتِي وَرَحْمَتِي». ونحو هذا التفسير قولُ قتادة عقب روايته للحديث: «فإن الله تعالى أسرع بالمغفرة» كما في «المسند» ٣ : ١٣٨ . وتوفي قتادة قبل الأعمش بنحو ثلاثين سنة .

وقال النووي رحمه الله في شرح مسلم ١٧ : ٣ : «هذا الحديث من أحاديث الصفات، ويستحيل إرادة ظاهره، ومعناه: من تقرب إلي بطاعتي تقربت إليه برحمتي والتوفيق والإعانة، وإن زاد: زدت، فإن أتاني يمشي وأسرع في طاعتي: أتيت هرولة، أي: صبيت عليه الرحمة وسبقته بها، ولم أحوجه إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود. والمراد: أن جزاءه يكون تضعيفه على حسب تقربه».

وقال ابن الأثير في «النهاية» ٥ : ٢٦١ في تحديد معنى الهرولة، والمعنى العام للجملة: «الهرولة: بين المشي والعدو - أي الركض - وهو كناية عن سرعة إجابة الله تعالى، وقبول توبة العبد ولطفه ورحمته».

٦٠- عن أبي سعيد الخُدْرِي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الربُّ عزَّ وجلَّ: مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذَكَرَنِي عَنْ مَسْأَلَتِي:

٦٠- تخريجه: رواه الترمذي آخر أبواب ثواب القرآن ٨: ١٢٥ (٢٩٢٧) = ٥: ١٨٤ (٢٩٢٦) وقال: حديث حسن غريب.

معناه: يبيِّن الله عز وجل في الشطر الأول من الحديث فضل طائفةٍ من عباده، على طائفةٍ أخرى هي فاضلةٌ صالحةٌ أيضاً.

فالطائفة الثانية: طائفة السائلين الله لهم الداعين له أن يرزقهم المال والولد.. وأن يُصلح شأنهم، وأن يُعافِيهم... وأن يغفر لهم ويرحمهم...

والطائفة الأولى: هي طائفة المشتغلين المُتَهِمِّين بتلاوة كتاب الله، ويذكر الله: من تسبيح وتقديس، وتحميد وتمجيد، وصلاة على النبي ﷺ، والسؤال بما يُصلح لهم آخرتهم ودنياهم... كما تقدم تعداده صفحة ٢٤٥، ٢٥١، ومن جملة ذكر الله تعالى ما تقدَّم هناك: تلاوة كتاب الله تعالى، فيكون قوله هنا: «مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذَكَرَنِي...» من باب عطف العام على الخاص، لبيان شرف هذا الخاص، لذلك خصَّه بالذكر من بين الأذكار.

على أنه تقدم هناك ص ٢٥١ أن من جملة الذكر «يسألونك لآخرتهم ودنياهم» فالسؤال من جملة الذكر، فكيف جَعَلَ الكلُّ هناك ذاكرين - ومقتضاه أن يكونوا متساوين - وهنا فاضلٌ بينهم، فجعل السائلين مفضولين، وأولئك فاضلين؟.

والجواب: أن المقتضى المذكور في الاعتراض غير صحيح، ألا ترى أن أفراد المشتغلين بذكر واحد ليسوا سواءً في الرتبة، فكذلك المشتغلون بأذكار مختلفة تختلف مراتبهم، فليس كلُّ من اشتغل بالقرآن الكريم في مرتبة واحدة، ولا كلُّ من اشتغل بالتسبيح كذلك، وهكذا، فكذلك المشتغلون بالتسبيح ليسوا في مرتبة المشتغلين بالقرآن الكريم، وإن كان الجميع ذاكرين لله تعالى.

أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ؛ وَفَضْلُ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ».

على أنه يمكن أن يقال جواب آخر: إن «السائلين» المذكورين هنا قد يكون سؤالهم متمحّضاً قاصراً على أمور دنيوية، فكونهم سائلين: يجعلهم في ذكر، لكنهم ذاكرون لله تعالى لمصالحهم الدنيوية، أما المشتغلون بالقرآن والألوان الأخرى من الذكر فأجل وأرفع رتبة. والله أعلم.

ولماذا كان المشتغلون بالقرآن وذكر الله أفضل قدراً عند الله عز وجل؟

الجواب - والله أعلم -: أن السائلين يسألون لأنفسهم من الله، أما أولئك فمشغولون بالله عن أنفسهم، وفرق عظيم لا يُقدَّرُ قَدْرُهُ بين المقامين.

وتقدّم قبل قليل: أن عطف «وذكرى» على «القرآن» من عطف العام على الخاص، لبيان شرف هذا الخاص، وهو القرآن الكريم.

وبياناً لمقدار شرف هذا الخاص قال جل جلاله «وفضلُ كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه».

فالقرآن كلامُ الله، وتاليه تالٍ لكلام الله وذاكرُ الله بكلامه تعالى، أما المسبِّحُ، الحامدُ، الممجّدُ، المهلِّلُ... فهو ذاكرُ الله بكلام من عند نفسه.

فلذلك خصَّ القرآن بالذكر، ولذلك جاء بالشرط الثاني من الحديث مع الشرط الأول، مع أن الشرط الأول قيل لتفضيل طائفة على طائفة، والشرط الثاني لتفضيل كلام على كلام. والله أعلم.

٦١- عن عُمَارَةَ بن زَعْكِرَةَ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل يقول: إن عبدي كلَّ عبدي الذي يذكرني وهو مُلَاقٍ قِرْنَه».

٦١- تخريجه: رواه الترمذي في أبواب الدعوات ٩: ٢١٨ (٣٥٧٥) = ٥: ٥٧٠ (٣٥٨٠) وقال: «حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده بالقوي». ونقل المناوي رحمه الله في «فيض القدير» ٢: ٣١٠ عن ابن حجر أنه قال: «لا يُعرف له إلا هذا الحديث، وهو حسن غريب. وقولُ الترمذي: ليس إسناده بقوي: يريد ضعف عُفَيْر، لكن وجدت له شاهداً قوياً مع إرساله، أخرجه البغوي، فلذلك حسَّنته، وقول الترمذي «غريب»: أراد غرابته من جهة تفرد عُفَيْر بوصله، وإلا فقد وُجد من وجه آخر».

غريبه: قِرْنَه: في «النهاية» ٤: ٥٥: «القِرْن: الكُفء والنظير في الحرب والشجاعة».

معناه: يمتدحُ الله عزَّ وجلَّ صنفاً من عباده امتداحاً عظيماً، ذلك لأنهم حازوا صفةً عظيمة، هي التحقق بصفة العبودية لله تعالى، وذلك في قوله «إن عبدي كلَّ عبدي».

وما هي علامة هذا التحقق؟ وماذا ظهر منهم للناس؟ قال: «الذي يذكرني وهو مُلَاقٍ قِرْنَه».

فمن ذَكَرَ ربَّه في معضلاتٍ وشدائد كهذه: كان ذلك علامةً تحقُّقه بالعبودية لرب العالمين، ولماذا؟ لأن من شأن العبد أن يعلم أن له رباً فيذكره، ومن كان عريقاً في العبودية متحققاً بها تمامَ التحقق: كان على ذِكْرِ لربه دائماً وأبداً، ومتذكراً له.

وهذان أمران لا ينفكان: ربّ معبود، وعبدٌ مريبوب، فالذي يتحقّق أنه عبد مريبوب يعلم ويتذكّر أن له ربّاً معبوداً، فيلهجُ بذكره على قدر تحقّقه من هذه العبودية. ولا سيما عند الشدائد، تراه يَفْزَعُ إلى ربه فيذكره بوجهٍ من وجوه الذكر، فلا تشغله شدة ولا رخاء عن ذكر مولاه عز وجل.

وتأمل قوله «قِرْنَه»! فإنه ﷺ لم يقل: عدوّه - مثلاً -، فقد يكون المقابل له، المقاتِلُ له، أضعف منه، وهو واثقٌ من غلبته له، فذكره لربه حينئذٍ ذكرُ المطمئنِّ الواثق من قوته وغلبته على عدوّه.

أما إذا كان قِرْناً له مكافئاً مماثلاً، فهو مضطرب النفس خائفٌ من تغلب عدوّه عليه، فذكره الله تعالى في تلك الساعة أعلى مقاماً، وأجلّ قدراً، وأدلّ على تحقّقه بالعبودية، وأجلّ من هذا وذاك: ذكره الله تعالى أمام عدوٍّ أقوى منه، فذكره الله يستمدُّ العونَ والنصرَ منه.

وهذا الحديثُ القدسيُّ الشريف من بابِ الآية الكريمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾. فرتب الله عز وجل الفلاح في الجهاد على أمرين: على الثبات أمام العدو، وعلى ذكره جلّ شأنه ذكراً كثيراً، ولم تقتصر الآية الكريمة على مجرد ذكر الله تعالى، بل أمرت بالذكر الكثير! وفقنا الله لذلك.

٦٢- عن الأغرّ أبي مسلم قال: أشهد على أبي سعيد وأبي هريرة، أنهما شهدا على النبي ﷺ أنه قال: «من قال: لا إله إلا الله والله أكبر: صدّقه ربّه فقال: لا إله إلا أنا وأنا أكبر. وإذا قال: لا إله إلا الله وحده: قال: يقول الله: لا إله إلا أنا وحدي. وإذا قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له: قال الله: لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي. وإذا قال: لا إله إلا الله، له المُلْك وله الحمد: قال الله: لا إله إلا أنا، لي الملك ولي الحمد. وإذا قال: لا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله: قال: لا إله إلا أنا، ولا حول ولا قوة إلا بي.

٦٢- تخريجه: رواه الترمذي في كتاب الدعوات - باب ما يقول العبد إذا مرض ٩: ١٢٨ (٣٤٢٦) وقال: حسن غريب، واللفظ له. ورواه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٣٠) وابن ماجه في كتاب الأدب - باب فضل لا إله إلا الله ٢: ١٢٤٦ (٣٧٩٤) بنحوه.

معناه: هذا الحديث جامعٌ لعدد من صيغ الأذكار التي تكون سبباً للنجاة من النار لمن وُفّق لقولها.

وفيها جملةٌ واحدة مشتركة بين الجميع هي «لا إله إلا الله» التي هي أفضل الذكر، كما قال ﷺ: «أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله» رواه الترمذي ٩: ٩٨ (٣٣٨٠) وقال: حسن غريب، ورواه ابن ماجه ٢: ١٢٤٨ (٣٨٠٠) وابن حبان ٣: ١٢٦ (٨٤٦) والحاكم ١: ٤٩٨، ٥٠٣، وصححه، ووافقه الذهبي.

والصيغ الأخرى فيها زيادات إما مؤكدة للتوحيد، مثل: «وحده»، «لا شريك له». وإما زيادات فيها معنى جديد، مثل: «والله أكبر»، «له الملك وله الحمد»، «ولا حول ولا قوة إلا بالله».

وكان يقول: «من قالها في مرضه ثم مات: لم تَطْعَمَ النار».

والجملتان الأوليان فيهما: تعظيمُ الله تعالى: بالتكبير وإثباتُ الملك له، والثناءُ عليه: بالتحميد. ومن الثناء عليه تعظيمه، سبحانه وتعالى، فيكون الجامعُ لهما: الثناء على الله.

وأما الجملة الثالثة: ففيها غاية التفويض لله والاستسلام إليه، وذلك أن قائلها ينفي عن كل أحد من مخلوقات الله تعالى: من إنس وجن وملائكة، أن يكون لأحد منهم حركة يتحرك بها من قبل نفسه، أو قوة يَقْوَى بها على فعل شيء ما، إلا بإذن الله ومشيئته، وبقوةٍ وقدرة من عنده يَمُدُّك بها.

فأي معنى إيمانيٍّ عظيم تحمله هذه الجملة: لا حركة لأحد، ولا قوة لأحد، إلا بعون الله وإرادته وقدرته، تستمنحه إياها، فيمنحك، ولهذا كانت هذه الجملة الواحدة كنزاً من كنوز العرش، كما جاءت بذلك عدة أحاديث.

ومما يُستفاد من هذا الحديث: ضرورةُ انتظار العبد للذاكر لله بهذه الأذكار كأنه يستمع إلى تصديق الله له: صَدَقَ عبدي: لا إله إلا أنا، وأنا أكبر. لا إله إلا أنا وحدي... وهكذا، فالعبد يقول، والله يصدِّقه ويكرِّر قولَ عبده، فما أطيبها من مناجاة ومحاورة!.

٦٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يقول: «من قال: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ

٦٣- تخريجه: رواه الحاكم في «المستدرک» ١: ٥٠٢ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي في «تلخيصه»: صحيح، سَمِعَهُ الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ - أَحَدُ رَوَاتِهِ - مِنْهُ، أَي: مِنْ شَيْخِهِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَثْمَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَوْهَبٍ. ونقله المنذري في «الترغيب» ٢: ٤٣٥ ونقل كلام الحاكم وسكت عليه فلم يتعقبه بشيء.

معناه: هذا الحديث جامع لأشهر صيغ ذكر الله تعالى، وفي فضيلة كل جملة على حدة، أو مقترنة بأخرى: أحاديث كثيرة، تجدها في «الترغيب» للمنذري ٢: ٤١٢ - ٤٤٦، وفي «مجمع الزوائد» ١٠: ٨١ - ٩٩.

ومعنى: سبحان الله: تنزيه الله، أي: أنزه الله عز وجل عن كل نقص وشين، وَصَفَهُ بِهِ مَنْ كَفَرَ مِنَ السَّابِقِينَ وَاللَّاحِقِينَ، وَعَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ مِمَّا يَخْطُرُ بِالْبَالِ أَوْ يَتَوَهَّمُهُ الْخِيَالُ، فَهُوَ اللَّهُ الْمُقَدَّسُ الْمُبَرَّأُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ.

والحمد لله: فيه إثبات الكمال لله، لأنه يُحْمَدُ عَلَى كَمَالَاتِهِ.

فيكون - حينئذ - التسبيح والتحميد كلمتين جامعتين لصفات الله عز وجل على وجه العموم والإجمال: تنزيهه عن النقائص، وإثباته للمحامد. ولذلك نجدهما مقترنين معاً في كثير من النصوص.

أما: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ: فنفيٌ لجنس ما يُتَصَوَّرُ أَنْ يُعْبَدَ سِوَى اللَّهِ عز وجل: لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا مَوْجُودَ بِحَقِّ وَجُوداً ذَاتِياً إِلَّا اللَّهُ.

والله أكبر من كل كبير، وأعظم من كل عظيم، وأجل من أن تُدْرَكَ لَذَاتُهُ حَقِيقَةً، أو لصفاته كُنْهٌ، فلذلك استحقَّ الأفراد بالعبادة له.

ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ : قال الله : أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ .

ولا حَوْلَ ولا قوةَ إِلَّا بِاللَّهِ : قال في «النهاية» ١ : ٤٦٢ : «يقال : حال الشخص يحول : إذا تحرك ، المعنى : لا حركة ولا قوة إلا بمشيئة الله تعالى» .

فالحول إذاً : الحركة . والمعنى : لا حركة لأحد من خلق الله ، في شأن من شئونه من خير أو شر ، أو نفع أو ضرر ، إلا بإذن الله ومشيئته ، وكذلك لا قدرة له على شيء مما ذكر إلا بالله : بتوفيقه أو خذلانه .

فإذا استشعر العبد من نفسه فاعترف بهذه الحقيقة وتحقق بها : فقد حظي بكنز من كنوز العرش ، كما جاء في أحاديث كثيرة أن : لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز العرش ، ومن كنوز الجنة ، ومن تحت العرش من كنز الجنة .

وهذا العبد الذي يذكر الله تعالى بهذه المحامد : يأتيه الجواب من الله تعالى ، وفيه بيان المقام الذي ارتقى إليه العبد : «أسلم عبدي واستسلم» .

والاستسلامُ أبلغُ من الإسلام ، لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، كما قرره أهل العربية .

فالإسلام : هو الانقياد لرب العالمين ، وقد انقاد إليه وخضع له حينما أقر له بصفات الكمال (الحمد لله) ونزَّهه عن أي نقیصة (سبحان الله) ورَفَضَ وجودَ أيِّ معبود سواه فأقرَّ له بالوحدانية (لا إله إلا الله) واعتقد أنه أعظم من أي عظيم وأكبر من كل كبير (الله أكبر) .

فمن البدهي أن ينتج عن هذا : الاستسلامُ الكامل ، والتفويضُ التام ، والخروج والبراءة من كل حَوْلَ له إلى حول الله ، ومن كل قوة له إلى قوة الله العلي العظيم (لا حول ولا قوة إلا بالله) وهذا هو الاستسلام .

فالإسلام : بالصيغ الأربع الأولى ، والاستسلام : بالصيغة الخامسة الأخيرة . والله أعلم .

ومما ينبئ إليه في آخر الحديث عن «لا حول ولا قوة إلا بالله» : أن كثيراً من العوام يتلفظون بها تلفظاً مختصراً مُخِلّاً إخلالاً قبيحاً فيقولون : لا حول لله . ولا يريدُ هذا المعنى أحدٌ من المسلمين ، إذ المعنى كفر ، وتصحيحُ التلفُّظ واجبٌ ، فَلْيَتَنَبَّهُ له ، وَلْيَتَنَبَّهُ إليه .

٦٤ - عن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والبشرى في وجهه، فقلنا: إنا لَنرى البشرى في وجهك! فقال: «إنه أتاني الملك فقال: يا محمد إن ربك يقول: أما يُرضيك أنه لا يصلي عليك أحدٌ إلا صليتُ عليه عشراً، ولا يُسلمُ عليك أحدٌ إلا سلمتُ عليه عشراً؟ قال: بلى».

٦٤ - تخريجه: رواه النسائي في كتاب الصلاة - باب: فضل التسليم على النبي ﷺ ٣: ٤٤، وأحمد ٤: ٣٠ في موضعين، والجملة الأخيرة من الحديث «قال: بلى» من الموضع الثاني، وعند ابن حبان ٣: ١٩٦ (٩١٥): «بلى أي رب».

معناه: إن الله تعالى وَعَدَ نبيه سيدنا محمداً ﷺ وَعَدًا عاماً عظيمَ المنقبة بقوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾. وظهر هذا الوعد في مواقف شتى، ومن ذلك: مقابلةُ الله عز وجل بالثواب العظيم، لمن يصلي ويسلم على النبي الكريم، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ولما عَلِمَ النبي عليه الصلاة والسلام بهذا الثواب سرَّ واستنار وجهه، وظهر البشرُ عليه، وانطلقت أساريره.

ورؤي نحو هذا الحديث عن عدد من الصحابة، وفيه أنه ﷺ سجد لله عز وجل شكراً.

ففي «المسند» ١: ١٩١ عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ، فتوجَّه نحو صدَّقه، فدخل فاستقبل القبلة، فخرَّ ساجداً، فأطال السجود حتى ظننتُ أن الله عز وجل قبضَ نفسه فيها، فدنوتُ منه، فجلستُ، فرفع رأسه فقال: «مَن هذا؟» قلت: عبد الرحمن. قال: «ما شأنك؟» قلت: يا رسول الله سجدتُ سجدةً خشيتُ أن يكون الله عز وجل قد قبضَ نفسك فيها! فقال: «إن

جبريل عليه السلام أتاني فبشّرني فقال: «إن الله عز وجل يقول: من صَلَّى عليك صليتُ عليه، ومن سلّم عليك سلّمتُ عليه، فسجدتُ لله عز وجل شكراً»^(١). وهذا حديث قدسي.

وفي رواية أبي يعلى ١: ٣٨٨ (٨٤٣) أن ذلك كان في بستان من بساتين الأسواف - بالفاء - وهو موضع بالمدينة المنورة عند المسجد المشهور فيها باسم: مسجد أبي ذر، ويتحرّف في كثير من المطبوعات إلى: الأسواق - بالقاف - فليصحح. ثم إن في هذا الحديث مقابلة صلاة الله لصلاة عبده بعشر صلوات، والسلام كذلك. وفي ذلك أحاديث أخرى كثيرة.

وجاء في أحاديث أخرى زيادة فضيلة وأجر.

ففي «المسند» ٣: ١٠٢، ٢٦١، وابن حبان ٣: ١٨٦ (٩٠٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، وحطّ عنه عشر خطيئات».

وزاد في رواية للنسائي - كما في «الترغيب» ٢: ٤٩٤، ويريد «سننه الكبرى» - عن أنس نفسه، ولفظها: «... صَلَّى الله عليه عشر صلوات، وحطّ عنه بها عشر سيئات، ورَفَعه بها عشر درجات».

وفي حديث أبي بُردة بن نيار رضي الله عنه زيادة: «وكتب له بها عشر حسنات». رواها الطبراني، وأصل الحديث رواه البزار ورجاله ثقات، كما في «المجمع» ١٠: ١٦٢.

فهذا أربعة أمور: عشرُ صلواتٍ من الله تعالى، ورفعُ عشرِ درجات، وكتبُ عشر حسنات، وحطّ عشر سيئات.

وجاء أثر في عدد الصلوات فيه زيادة على العشر.

فروى أحمد في «المسند» ٢: ١٧٢، ١٨٧ عن عبدالله بن عمرو بن العاص

١ - قال الهيثمي ٢: ٢٨٧: «رجاله ثقات» وانظر فيه الأحاديث الأخرى.

رضي الله عنهما من قوله موقوفاً عليه: من صَلَّى على رسول الله ﷺ صلاةً صلى الله عليه وملائكته سبعين صلاةً، فَلْيُقِلَّ عَبْدٌ من ذلك أو لِيُكْثِرْ.

وهذا مما لا يُقال بالرأي، وموضوعه ليس مما له صلة بالكتب السماوية الأخرى التي كان عبدالله بن عمرو يقرأ فيها.

فصلى الله عليه وعلى آله وسلّم أفضل ما صَلَّى على نبي من أنبيائه، إلى يوم الدين، عددَ خَلْقِهِ ورضاءِ نفسه وزينةَ عرشه، ومداد كلماته.

ثم ما معنى الصلاة، والسلام عليه، ﷺ؟

أما الصلاة: فإنها تكون من الله عز وجل، ومن الملائكة الكرام عليهم الصلاة والسلام، ومن المؤمنين.

وقد اشتهر عن سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن الصلاة من الله تعالى رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن العباد دعاء.

فحينما نقول: اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، نكون قد دَعَوْنَا الله أن يَرْحَمَ محمداً ﷺ وأن يَرْحَمَ آله، لأن الصلاة من الله رحمة.

وإن في مقابلِ صلاتنا عليه صلاةُ الله علينا عشر صلوات، أي: أن الله يَرْحَمُنَا عشر رَحِمَاتٍ، لأن الصلاة من الله رحمة.

وَيُشَكِّلُ على هذا التفسير قولُ الله تعالى عن الصابرين: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ فَعَطَفَ الرَّحْمَةَ على الصَّلَوَاتِ، والعطف يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه.

وأجيب عن الإشكال بأن الصَّلَوَاتِ رَحِمَاتٌ خاصة، أي: نوع خاص من الرحمة، فيكون العطف في الآية من باب عطف العام على الخاص، فهو من التغاير الجزئي لا الكلي.

وعلى هذا فالصلاة من الله تعالى رحمة خاصة يُنْزِلُهَا على نبيه ﷺ تليق بمقامه، ورحمة خاصة يُنْزِلُهَا على المصلّين على نبيه ﷺ تليق بمقام كل مصل.

والرحمة تقتضي كل خير وإحسان من الراحم للمرحوم، ودفع كل شر وضرر.

وقد عُدَّ ابن الأثير رحمه الله في «النهاية» ٣: ٥٠ بعض وجوه هذه الرحمة بالنسبة للنبي ﷺ فقال: «أما قولنا «اللهم صل على محمد»: فمعناه: عظمه في الدنيا بإعلاء ذكره، وإظهار دعوته، وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بتشفيعه في أمته، وتضعيف أجره ومثوبته».

وأما رحمته تعالى للمصلين على النبي ﷺ من المؤمنين فآثارها ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

فمما يستفيده المؤمن إذا صَلَّى على رسول الله ﷺ أن الله تعالى يُخْرِجه من الظلمات إلى النور: من ظلمات شبه الكفر إلى نور حقائق الإيمان، ومن ظلمات المعاصي والآثام إلى نور الطاعات والمبررات، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات الشك إلى نور اليقين، ومن ظلمات الهموم والكربات إلى نور السرور والفرج، وهكذا...

روى الترمذي في «سننه» ٧: ١٦٤ (٢٤٥٩) وقال: حسن صحيح، عن أبي ابن كعب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: «يا أيها الناس اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه».

قال أبي: قلت: يا رسول الله إني أكثر الصلاة، فكم أجعل لك من صلاتي؟^(١)

فقال - ﷺ -: «ما شئت».

قال: قلت: الرُّبُع؟ قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير لك».

قلت: النصف؟ قال: «ما شئت وإن زدت فهو خير لك».

١ - قال الحافظ المنذري في «ترغيبه» ٢: ٥٠١: «معناه: أكثر الدعاء، فكم أجعل لك من دعائي صلاة عليك».

قلت: فالثلاثين؟ قال: «ما شئت وإن زدت فهو خير لك».

قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إذا تُكْفَى هَمُّكَ، وَيُغْفَرَ لَكَ ذَنْبُكَ».

أما صلاة الملائكة على النبي ﷺ: ففي «صحيح البخاري» عند تفسير هذه الآية ٨: ٥٣٢ عن أبي العالية: «صلاة الملائكة: الدعاء، قال ابن عباس: يُصَلُّونَ: يَبْرَكُونَ». قال الحافظ في «شرحه»: «يَبْرَكُونَ على النبي أي: يدعون له بالبركة. فيوافق قول أبي العالية، لكنه أخص منه». أي: فسر أبو العالية صلاتهم بالدعاء مطلقاً، وقيده ابن عباس بدعاء معين هو الدعاء بالبركة. فلا تنافي بينهما.

والبركة لها معنيان: الثبوت والدوام، والزيادة والنماء، فيكون دعاء الملائكة بالبركة أي: بدوام ما أكرم الله تعالى به النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وبزيادته ونمائه.

ولا ريب أن صلاة الملائكة عليه ﷺ هي لهم صلاة تشریف، لا صلاة تكليف، فهم يتشرفون بالصلاة على النبي ﷺ، وليسوا من أهل عالم التكليف، ليكلفوا بها.

أما صلاتهم على المؤمنين الذين يصلون على النبي ﷺ: فهي دعاؤهم لهم واستغفارهم.

قال ابن كثير رحمه الله في «تفسيره» لآية: ﴿هُوَ الَّذِي يَصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ ٣: ٤٩٦: «وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار، كقوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا، رَبُّنَا وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، وَأُدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ...﴾ الآية».

ثم إن الله تعالى أمرنا بالصلاة على النبي ﷺ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ ولما سُئِلَ ﷺ: أمرنا الله أن نُصَلِّيَ عليك يا رسول الله، فكيف نُصَلِّيَ عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل

محمد..» كما في صحيح مسلم ٤ : ١٢٤ من حديث أبي مسعود الأنصاري .

وهنا يسبق إلى الذهن إشكال : كيف يأمرنا الله عز وجل بالصلاة على رسوله ﷺ ثم يأتينا الأمر بأن نقول : اللهم صل على محمد، فنحيل على الله تعالى الصلاة على النبي ﷺ؟

والجواب : ما قاله ابن الأثير رحمه الله في «النهاية» ٣ : ٥٠ : «لما أمر الله سبحانه بالصلاة عليه - ﷺ - ولم يُبَلِّغْ قَدْرَ الواجب من ذلك : أَحَلَّنَاهُ على الله وقلنا : اللهم صل ، أنت على محمد ، لأنك أعلم بما يليق به» .
هذا كله يتعلّق بالصلاة .

أما السلام : فقد أطال العلامة الألوسي رحمه الله في تفسيره «روح المعاني» ٢٢ : ٧٩ الكلام عليه عند قوله تعالى : ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ .

وحاصلُ كلامه وخلاصته : ١ - أن السلام مصدر بمعنى السلامة ، أي : ادعوا الله تعالى أن يُسَلِّمَ نبيّه تسليماً تاماً من النقائص والأفات . ورجّحه .

٢ - أن السلام اسم من أسماء الله تعالى ، فهو مداومٌ على حفظك ورعايتك ومُتَوَلٍّ لك وكفيلٌ بك . وهذا متكلّف بالنسبة للآية الكريمة ، وقريبٌ لقولنا في التشهد : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته .

٣ - ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي : انقادوا له انقياداً ، ويكون المعنى أيضاً في قولنا «صلى الله عليه وسلم» أي : سلّم له العبادُ وانقادوا له ولشريعته . فهو إنشاء ودعاء بلفظ الخبر .

وهذا التأويلُ يميلُ إليه من أجاز لإفراد الصلاة على النبي ﷺ ، دون كراهة ، فلا يكره قولنا - مثلاً - : قال رسول الله عليه السلام ، أو : اللهم صل على محمد ، دون ذكر للسلام مع الصلاة ، والمشهورُ عند المحدثين كراهة ذلك .

ومن الغريب قول بعض المفسرين في تفسير ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ : أي حيّوه بتحية الإسلام .

٦٥- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن

٦٥- تخريجه: رواه البخاري في مواضع، منها: كتاب الأدب - باب من وصل وصله الله ١٠: ٤١٧ (٥٩٨٧)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب ٤: ١٩٨٠ (١٦) و ١٦: ١١٣ واللفظ له.

غريبه: الرَّحِم: أصل معناها: محلُّ احتواء الجنين في بطن أمه، ثم أُطلق على القرابة، وهو المراد هنا، وهي أمر معنوي لا حسي.

فَرَّغَ منهم: الفراغ يلزم منه الانشغال، والله تعالى منزّه عن أن يشغله أمر عن أمر، لذلك فسَّروا الفراغ بالإتمام. أي: أتمَّ الله خلق الخلائق. قال القرطبي في «التذكرة» ص ٤١١: «معناه: تَمَّ عليهم حسابهم وفَصَلَ بينهم، لأنه لا يَشْغَلُهُ شأن عن شأن، سبحانه وتعالى». العائد: المستجير.

معناه: هذا الحديث الشريف فيه تطييبٌ من الله الرحمن الرحيم لخاطر الرَّحِم، وفيه ترغيب وترهيب للناس.

وذلك: لما خلق الله عز وجل مخلوقاته بتقديره لها علماً، أو بإظهاره لها إلى حيِّز الوجود، قامت الرَّحِم وتكلَّمت واستعازت بالله تعالى من القطيعة.

وقيامها وكلامها على سبيل الحقيقة لا المجاز، عند بعضهم، وعلى سبيل المجاز عند آخرين. والمعروف في كثير من النصوص الشرعية: القرآنية والنبوية، أن المعنويات والجمادات تتمثل وتتكلَّم، وهي لكثرتها لا تدخل تحت الحصر.

قال الإمام أبو محمد بن أبي جمرة رحمه الله تعالى في كتابه «بهجة النفوس وتَحْلِيها» ٤: ١٤٧: «هل كلامُ الرحم للحقِّ جل جلاله بلسان المقال أو بلسان الحال؟ وإن كان بلسان المقال: هل كان ذلك بعد ما جَعَلَهَا في جوهر - يريد: تمثَّلت وتشكَّلت - ووضع فيها الحياة والعقل، أو هي على حالها؟»

الله خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ، أَمَّا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مِنْ وَصْلِكَ، وَأَقْطَعَ مِنْ

«الكلام على هذا مثلُ كلام العلماء على كلام الجمادات، وهي على ثلاثة وجوه، لأن منهم من قال: إِنَّ كَلَامَ الْجَمَادِ بِلِسَانِ حَالِهِ: مَا أَظْهَرَهُ اللهُ فِيهِ مِنْ أَثَرِ قُدْرَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ خَلَقَ لَهُمْ حَيَاةً وَعَقْلاً، وَحِينَئِذٍ تَكَلَّمُوا، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُمْ تَكَلَّمُوا وَهُمْ عَلَى حَالِهِمْ. وَهُوَ الْأَظْهَرُ، وَإِنْ كَانَتْ الْقُدْرَةُ صَالِحَةً لِلْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ.

لكن الوجهان فيهما تخصيصٌ لعموم لفظ القرآن والحديث بغير دليل شرعي، وحصرٌ لقدرة القادر التي لا يحصرها شيء، لأن قدرته عز وجل صفةٌ من صفاته، فكما ذاته الجلية لا تنحصر بوجه من الوجوه، فكذلك كل صفاته لا تنحصر بوجه من الوجوه، فكذلك كل صفاته لا تنحصر منها صفة من الصفات بوجه من الوجوه، لأن الصفة لا تفارق الموصوف.

وممن حمله على المجاز: القاضي عياض، ومما قاله - كما في شرح النووي على صحيح مسلم ١٦: ١١٢ -: «ذَكَرَ قِيَامُهَا هُنَا وَتَعَلَّقُهَا: ضَرْبٌ مَثَلُ وَحْسُنٍ اسْتِعَارَةً عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ فِي اسْتِعْمَالِ ذَلِكَ، وَالْمَرَادُ تَعْظِيمُ شَأْنِهَا وَفَضِيلَةُ وَاصِلِهَا، وَعَظِيمٌ إِثْمٌ قَاطِعِيهَا بِعَقُوبَتِهِمْ...، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ: قَامَ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَتَعَلَّقَ بِالْعَرْشِ وَتَكَلَّمَ عَلَى لِسَانِهَا بِهَذَا، بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى».

وأما قوله: «أَنْ أَصِلَ مِنْ وَصْلِكَ...»: «فهو كناية عن عظم الإحسان، فإن أعظم ما يُعْطَى الْمُحِبُّوبُ لِحَبِيبِهِ الْوَصْلُ، وَهُوَ الْقَرَبُ مِنْهُ وَمُسَاعَدَتُهُ فِي مَرْضَاتِهِ، وَهَذِهِ الْأُمُورُ فِي حَقِّ مَوْلَانَا سَبْحَانَهُ مُسْتَحِيلَةٌ أَنْ تَكُونَ عَلَى مَا نَعْرِفُ مِنْ صِفَاتِ الْمُحَدَّثِ الْفَانِيِّ، بَلْ هِيَ كَنَايَةٌ عَنْ قَدْرِ الْإِحْسَانِ مِنْهُ لِعَبْدِهِ وَعَظَمِهِ...، وَمَعْنَى: أَقْطَعَ مِنْ قَطْعِكَ: فَهُوَ كَنَايَةٌ عَنْ شِدَّةِ الْحَرَمَانِ وَالْعَذَابِ، لِأَنَّ الْقَطْعَ ضِدُّ الْوَصْلِ، فَكَمَا عَبَّرَ عَنْ عَظَمِ الْأَجْرِ بِالْوَصْلِ، عَبَّرَ عَنْ عَظَمِ الْبَلَاءِ بِالْقَطْعِ. أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنَ الْبَلَاءِ بِمَنْه». قَالَ ابْنُ أَبِي جَمْرَةَ أَيْضاً.

والظاهر من قول الرحم: «هذا مقام العائذ من القطيعة»: أنها تستجير بالله خوفاً على نفسها أن يقطعها قاطع، وكلام عليّ القاري رحمه الله تعالى يفيد أنها تستجير خوفاً على قاطعها أن يقطعها فيقع في غضب الله عز وجل.

قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاك لك. ثم قال رسول الله ﷺ: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا

قال في «مِرْقَاةَ الْمَفَاتِيحِ» ٩: ١٩٦: والمعنى: أن سبب عيادي وباعث ليأذي بذيل رحمتك التي وسعت كل شيء أن يقطعني أحد فيقع في غضبك وسخطك». وهذا دالٌّ على رافة الرِّجَمِ المشتقة من الرحمة، فهو ألطف وأقرب. والله أعلم.

أما الرحم التي تُوصَلُ: فهي - على ما صوّبه النووي ١٦: ١١٣ -: «كُلُّ رَحِمٍ مِنْ ذَوِي الْأَرْحَامِ فِي الْمِيرَاثِ، يَسْتَوِي فِيهِ الرِّجْمُ الْمَحْرَمُ وَغَيْرُهُ». فيدخل أولاد الأعمام والأخوال في حكم الصّلة، ولا تجوز قطيعتهم.

وما حكم صِلَةِ الرّحم؟ «قال القاضي عياض: ولا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة، وقطيعتها معصية كبيرة، ولكن الصلة درجات، بعضها أرفع من بعض، وأدناها ترك المُهاجرة، وصلتها بالكلام ولو بالسلام، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة، فمنها واجب، ومنها مستحب، لو وصل بعض الصّلة ولم يصل غابتها: لا يسمى قاطعاً، ولو قصر عما يقدر عليه وينبغي له: لا يسمى واصلاً».

فالأصل في صلة الرحم: الصّلة الكاملة، ومن الطرفين، وفي حال الشغل والحاجة تُقدَّر ظُروفُ كُلِّ واحد منهما، ويحاسب ويؤاخذ عما نقص.

والأصل كذلك فيها: أن تكون على وفق شرع الله عز وجل، فإذا كانت صلته للرحم تُوقعه في الإثم: فلا، ودرء المفسد مقدم على جلب المصالح، كمن يزور عمه، فتجالسُه زوجة عمه وبنات عمه كاشفات عن رؤوسهن مع المصافحة والزينة والسّمَر أمام التّلفاز، و... ما وراء ذلك!! وكلُّ واحدةٍ من هذه المنكرات يكفي لإسقاط وجوب صلة الرحم عليه.

وليست صِلَةُ الرّحم بالزيارة فقط، بل تكون الصّلة بوجوه، يُقدَّر فيها حاجة الموصول.

قال الإمام ابن أبي جمرة رحمه الله تعالى ٤: ١٤٦: «وأما كيفية الوصل للرحم: فهو على ضروب مختلفة، منه ما يكون ببذل المال، ومنه ما يكون ببذل العون على ما يحتاجون إليه - أعني أهل رحمه - ومنه ما يكون بالزيارة لهم، ومنه ما يكون بالدعاء لهم، ومنه ما يكون بإكرامهم والبشاشة لهم، ومنه ما يكون بدفع

أرحامكم. أولئك الذين لعنهم الله فأصمَّهم وأعمى أبصارهم. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبٍ أفاؤها ﴿١﴾.

المضارَّ عنهم. والمعنى الجامع له: إيصال ما أمكنه من الخير إليهم على قدر طاعتك، بنية القربة إلى الله تعالى.

«إلا أن ذلك بشروط ذكرها العلماء، وهي أن يكون على الاستقامة، وإلا فمقاطعتهم من أجل الله هو إيصال لهم، بشرط أن تبذل جُهدك في وعظهم ورجحهم والإنكار عليهم، لأنه إذا قيل لك في الأجنبي الذي هو أخوك في الإسلام «انصره ظالماً أو مظلوماً» - وهو رده عن الظلم - فالأقرب من باب أولى، فبعد ذلك يكون الهجران لهم، وتعلُّمهم أن هجرانك لهم إنما هو من أجل تخلفهم عن الحق، فإذا استقاموا وصلَّتهم قدر طاقتك في ذلك.

«لكن يبقى عليك من صلَّتهم عند المقاطعة الدعاء لهم بظهر الغيب: أن يُصلح الله حالهم ويُجيرهم بفضله».

فانظر يا أخي ذوق الإسلام ورحمته! وقل: الحمد لله على دين الإسلام.



٦٦- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أحبَّ عبداً

٦٦- تخریجه: رواه مسلم في كتاب البر والصلة - باب إذا أحب الله عبداً حبه إلى عباده ٤: ٢٠٣٠ (١٥٧)، وشرح النووي ١٦: ١٨٣. ورواه البخاري في ثلاثة مواضع مقتصرأ على الجملة الأولى منه فقط التي فيها المحبة: في بدء الخلق - باب ذكر الملائكة ٦: ٣٠٣ (٣٢٠٩) وفي كتاب الأدب - باب المقة من الله ١٠: ٤٦١ (٦٠٤٠) وفي التوحيد باب كلام الرب مع جبريل ونداء الملائكة ١٣: ٤٦١ (٧٤٨٥).

معناه: في هذا الحديث الشريف ترغيب وترهيب، وعلامات أمن وحذر، وكل ذلك من فضل الله على العباد، ليزداد الصالح صلاحاً ويعلم أنه على هدي صالح، وليرتدع عن غيه ويعلم أنه على غير صراط مستقيم.

أما ما في الحديث من ترغيب وأمن وعلامة استقامة الرجل: ففي الجملة الأولى: «إن الله إذا أحبَّ عبداً...». ومن الذي يحبه الله تعالى؟
بين ذلك بعض روايات الحديث، وأحاديث أخرى.

قال في الحديث القدسي المتقدم برقم (٣٤): «إن الله عز وجل قال: من عادى لي ولياً فقد اذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي ما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه...».

فبين سبب حب الله تعالى لعبده: هو أدائه فرائض الله عليه ونوافله، فالصلاة: المفروضة ونوافلها الراتبة والعامّة، والزكاة: المفروضة والصدقات العامّة، والمساهمة في الأعمال الخيرية، والصيام: المفروض ونوافله المحددة والعامّة، والحج والعمرة كذلك، وتعلم العلم وتعليمه، والجهاد: فرضه العيني والكفائي، واجتناب المحرمات، وأداء حقوق العباد، والتحاكم إلى شرع الله والرضا به، ...

دعا جبريل عليه السلام فقال : إني أحبُّ فلاناً، فأحبه، قال : فَيُحِبُّهُ جبريل، ثم يُنادي في السماء فيقول : إن الله يحبُّ فلاناً فأحِبُّوه،

فكلُّ هذا سببٌ لحبِّ الله تعالى لعبده كما نصَّ عليه الحديث القدسي المشار إليه : «وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه...».

أما بعضُ روايات الحديث الذي نحن بصدد شرحه، وهي دالةٌ على سبب حبِّ الله للعبد : فمن ذلك : رواية الترمذي ٨ : ٣٠٨ آخر تفسير سورة مريم : «إذا أحبَّ الله عبداً نادى جبريل : إني قد أحببتُ فلاناً، فأحبه، قال : فينادي في السماء، ثم تنزلُ له المَحبَّةُ في أهل الأرض، فذلك قولُ الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِزْرًا﴾...».

والوَدُّ : المحبة، فَمَنْ الذين سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ مَحَبَّةً في قلوب عباده؟ هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

روى الإمام أحمد في «مسنده» ٥ : ٢٧٩ عن ثوبان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال : «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَلْتَمِسُ مَرْضَاةَ اللَّهِ، وَلَا يَزَالُ بِذَلِكَ، فيقول الله عز وجل لجبريل ! إِنْ فَلَانًا عَبْدِي يَلْتَمِسُ أَنْ يُرْضِيَني، أَلَا وَإِنْ رَحِمْتِي عَلَيْهِ، فيقول جبريل : رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى فَلَانٍ، ويقولُهَا حَمَلَةً الْعَرْشِ، ويقولُهَا مَنْ حَوْلَهُمْ، حَتَّى يَقُولَهَا أَهْلُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، ثُمَّ تُهْبَطُ لَهُ إِلَى الْأَرْضِ».

فأفاد هذا الحديثُ أَنَّ الذي يُحِبُّهُ الله هو العبدُ القائمُ بالفرائض والنوافل، وآمَن وعَمِلَ صالحاً - كما تقدم - وأفاد معنى زائداً على ذلك هو : بحثُ هذا العبدِ عن عملٍ صالح، لا أَنَّهُ إذا علم بعملٍ صالحٍ عَمَلَهُ، لا، بل إِنَّهُ يَلْتَمِسُ ذَلِكَ وَيَتَطَلَّبُهُ.

ومعنى آخر زائداً على هذا : «ولا يزال بذلك» : أي إنه مستمر دائم على تَطَلُّبِ العمل الصالح، والعمل به.

فمن كان كذلك : أحبه الله عز وجل و«دعا جبريل عليه السلام فقال : إني أحبُّ فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم يُنادي في السماء فيقول : إن الله يحبُّ فلاناً فأحِبُّوه» ويقول مثله حَمَلَةً الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ وَأَهْلُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، كما تقدم في

فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ: ثُمَّ يُوَضَّعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ.
وَإِذَا أَبْغَضَ اللَّهُ عَبْدًا دَعَا جَبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أَبْغَضُ فَلَانًا،
فَأَبْغَضَهُ، فَيَبْغِضُهُ جَبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ
فَلَانًا، فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوَضَّعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ.

رواية ثوبان، «فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوَضَّعُ لَهُ الْقَبُولُ» أَيِ الْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا عَنْهُ «فِي
الْأَرْضِ».

وحاصلُ ذلك: أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا صَلَّحَ أَمْرَهُ وَاسْتَقَامَ وَدَافِعَ أَجِبَهُ اللَّهُ وَأَمَرَ أَهْلَ
سَمَوَاتِهِ: جَبْرِيلَ وَحَمَلَةَ الْعَرْشِ فَمِنْ دُونِهِمْ، بِحَبِّهِ، وَوَضَّعَ لَهُ الْمَحَبَّةَ فِي أَهْلِ
الْأَرْضِ، فَمَحَبَّةُ أَهْلِ الْأَرْضِ لَهُ عَلَامَةٌ عَلَى قَبُولِ اللَّهِ لِأَعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ وَبَشَارَةٌ خَيْرٍ
لَهُ، وَتَرْغِيبٌ لَهُ بِالِدَوَامِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ. فَكَانَ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِ.

وكذلك العكس: إِذَا فَسَدَ عَمَلُ الرَّجُلِ، فَعَمَلَ السَّيِّئَاتِ أَبْغَضَهُ اللَّهُ، وَأَمَرَ أَهْلَ
سَمَوَاتِهِ: جَبْرِيلَ وَحَمَلَةَ الْعَرْشِ فَمِنْ حَوْلِهِمْ أَنْ يَبْغِضُوهُ، وَتُوَضَّعَ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي أَهْلِ
الْأَرْضِ.

فَتَكُونُ بَغْضَاؤُهُمْ لَهُ عَلَامَةٌ عَلَى عَدَمِ صَلَاحِ أَمْرِهِ، فَهَذَا تَرْهيبٌ لَهُ وَتَخْوِيفٌ
مِنْ عَاقِبَةِ السُّوءِ، وَنَذَارَةٌ لَهُ أَنْ يَرْجِعَ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِ،
فَقَدْ تَنَفَّعَ الذِّكْرَى، فَيَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ وَيَتُوبُ إِلَيْهِ، وَيَخْتِمُ لَهُ بِخَيْرٍ.

فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَأْمُرُ أَهْلَ السَّمَاءِ بِحَبِّهِ، ثُمَّ تُوَضَّعُ لَهُ الْمَحَبَّةُ
فِي الْأَرْضِ: إِذَا كَانَ هَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ، فَمَنْ الَّذِي يُحِبُّهُ مِنْ أَهْلِ
الْأَرْضِ؟.

لَا رَيْبَ أَنَّهُ لَا يُحِبُّ الصَّالِحَ إِلَّا الصَّالِحُونَ أَمْثَالُهُ، وَعَنْ حُبِّهِمْ لَهُ يَنْشَأُ حُبُّ
مَنْ دُونِهِمْ فِي الصَّلَاحِ لَهُ، وَلَا عِبْرَةَ بِحَبِّ غَوَاةِ النَّاسِ وَدَهْمَانِهِمْ لِلْإِنْسَانِ وَإِنْ
كُتُّوْا، فَقَدْ يُحِبُّونَ غَيْرَ الصَّالِحِ، وَمَنْ لَا يَعْمَلُ بِشَرِّ اللَّهِ، بَلْ إِنَّكَ لَتَرَاهُمْ يُحِبُّونَ
دَعَاةَ فِسَادِ الْأَخْلَاقِ وَالْمَجُونِ أَكْثَرَ مِنْ حُبِّهِمْ لِلْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ، وَأَوْلِيَاءِ اللَّهِ
الصَّالِحِينَ!! إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْبَأُ بِهَؤُلَاءِ وَلَا هَؤُلَاءِ، لَا بِالْمُحِبِّينَ وَلَا بِالْمُحْبُوبِينَ.

وَمَا مَعْنَى مَحَبَّةِ اللَّهِ لِلْعَبْدِ، وَمَحَبَّةِ الْمَلَائِكَةِ لَهُ، وَمَحَبَّةِ الْعِبَادِ أَهْلِ الْأَرْضِ لَهُ؟

قال النووي رحمه الله تعالى في «شرح مسلم» ١٦: ١٨٣ - ١٨٤: «قال العلماء: محبة الله تعالى لعبده هي: إرادته الخير له وهدايته وإنعامه عليه ورحمته، وبُغضه: إرادة عقابه أو شقاوته. وحبُّ جبريل والملائكة يَحْتَمِل وجهين، أحدهما: استغفارهم له وثناؤهم عليه ودعاؤهم. والثاني أن محبتهم على ظاهرها المعروف من المخلوقين، وهو ميل القلب واشتياقه إلى لقائه. وسبب حبِّهم إياه كونه مطيعاً لله تعالى محبوباً له».

وقال الحافظ في «الفتح» ١٠: ٤٦٢ - بعدما لخص هذا -: «وقد تُطلَقُ محبةُ الله تعالى للشيء على إرادة إيجابه، وعلى إرادة تكميله، والمحبة التي في هذا الباب من القبيل الثاني. وحقيقة المحبة عند أهل المعرفة من المعلومات التي لا تُحَدُّ - أي لا تُعَرَّفُ - وإنما يَعْرِفُهَا مَنْ قَامَتْ بِهِ وجداناً لا يمكن التعبير عنه. والحبُّ على ثلاثة أقسام: إلهي، وروحاني، وطبيعي، وحديث الباب - أي الذي نشرحه - يشتمل على هذه الأقسام الثلاثة، فحبُّ الله للعبد حبُّ إلهي، وحبُّ جبريل والملائكة له: حبُّ روحاني، وحبُّ العباد له حبُّ طبيعي».

اللهم إنا نسألك حبك، وحباً يُبلغنا حبك.

٦٧ - قال أبو إدريس الخولاني: دخلتُ مسجدَ دمشق، فإذا فتى شابُّ برّاقُ الثنايا، وإذا الناسُ معه إذا اختلفوا في شيء أُسندوه إليه

٦٧ - تخريجه: رواه الإمام مالك في «الموطأ»: كتاب الجامع - ما جاء في المتحابين في الله ٣: ١٢٩ من «تنوير الحوالك».

وروى الإمام أحمد في مواضع من «مسنده» منها ٥: ٢٣٦ عن أبي مسلم الخولاني بنحو قصة أبي إدريس، وفيه قولٌ معاذ: «سمعتُ رسولَ الله ﷺ يحكي عن ربِّه يقول: المتحابُّون في الله على منابرٍ من نورٍ في ظلِّ العرشِ يومَ لا ظلُّ إلا ظلُّه» قال أبو مسلم: فخرجتُ حتى لقيتُ عبادةَ بن الصامت، فذكرتُ له حديثَ معاذ بن جبل فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يحكي عن ربِّه عزَّ وجلَّ يقول: «حَقَّتْ محبَّتِي للمتحابِّين فيَّ، وحَقَّتْ محبَّتِي للمتباذِلين فيَّ، وحَقَّتْ محبَّتِي للمتزاوِرين فيَّ، والمتحابُّون في الله على منابرٍ من نورٍ في ظلِّ العرشِ يومَ لا ظلُّ إلا ظلُّه».

وإسناد أحمد فيه: حدثنا وكيع، حدثنا جعفر بن بُرقان، عن حبيب بن أبي مرزوق، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي مسلم الخولاني. وروى الترمذي في كتاب الزهد - باب ما جاء في الحب في الله ٧: ١١٩ (٢٣٩١) الجزء الأول منه: حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا كثير بن هشام، حدثنا جعفر بن بُرقان، به، بلفظ: «المتحابُّون في جلالي لهم منابرٌ من نورٍ يَغْبِطُهُم النبيون والشهداء» وقال: حديث حسن صحيح.

غريبه: فتى شابٌّ: كان عُمرُ معاذ رضي الله عنه لما توفِّي أربعاً وثلاثين سنةً أو نحوها، وكانت وفاته في طاعون عَمَواس ناحية الأردن سنة ثمانٍ وعشرة. انظر «طبقات» ابن سعد ٣: ٥٨٣ وما بعدها.

برّاق الثنايا: قال ابن الأثير رحمه الله تعالى: «وَصَف ثناياه - مقدّم أسنانه - بالحُسْن والصفاء، وأنها تلمع إذا تبسّم كالبرق، وأراد صفة وجهه بالبشر والطلاقة».

وَصَدَرُوا عَنْ قَوْلِهِ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَقِيلَ: هَذَا مَعَاذُ بَنِي جَبَلٍ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ هَجَّرَتْ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي بِالْتَهْجِيرِ، وَوَجَدْتُهُ يَصَلِّي، قَالَ: فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى قَضَى صَلَاتَهُ، ثُمَّ جِئْتُهُ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ

وأصل معناه: أبيضُ الثَّغَرِ حَسَنُهُ.

أَسَدَوْهُ إِلَيْهِ: رَجَعُوا إِلَيْهِ فِيمَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ.

صَدَرُوا عَنْ قَوْلِهِ: عَمِلُوا بِهِ وَعَتَمَدَوْهُ دُونَ اخْتِلَافٍ.

هَجَّرَتْ: بَكَرَتْ إِلَى الْمَسْجِدِ.

بُحْبُو رِدَائِي: أَيِ بَطْرِفِ ثَوْبِي مِنْ مَحَلِّ الْحُبُوءِ. وَالِاحْتِبَاءُ: نَصَبُ السَّاقِينَ وَضَمُّ الْفَخِذَيْنِ إِلَى الْبَطْنِ.

آلَهُ: الْهَمْزَةُ الْأُولَى بَدَلَ عَنِ الْقَسَمِ، وَيَجِبُ الْجَرُّ مَعَهَا، كَأَنَّهُ يَسْتَبْتُ مِنْ أَبِي إِدْرِيسَ: أَتُحِبُّنِي لِلَّهِ؟ وَيُجِيبُهُ أَبُو إِدْرِيسَ بِاللَّفْظِ نَفْسِهِ، وَبِالْمَدِّ، مِنْ بَابِ الْمَشَاكِلَةِ اللَّفْظِيَّةِ.

فَجَبَذَنِي: أَيِ: جَذَبَنِي إِلَيْهِ وَشَدَّنِي وَأَمَالَني.

وَجَبَّتْ: حَقَّتْ، كَمَا فِي رِوَايَةِ «الْمُسْنَدِ»، وَهِيَ بِمَعْنَى: ثَبَّتَتْ.

الْمُتَجَالِسِينَ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ: الرَّجُلُ يَجْلِسُ إِلَى الرَّجُلِ، أَيِ: يُجَالِسُهُ، وَيُزَوِّرُهُ زِيْرَةً خَالِصَةً لِلَّهِ تَعَالَى، لَا يَحْمِلُهُ عَلَى ذَلِكَ أَمْرٌ دُنْيَوِي آخَرُ.

الْمُتَبَاذِلِينَ: الْمُتَبَاذِلُ: هُوَ الَّذِي يَبْذُلُ لِأَخِيهِ فِي اللَّهِ مَا لَدَيْهِ مِنْ غَالٍ وَرَخِيصٍ.

معناه: يَذْكُرُنِي هَذَا الْإِنْجِذَابُ السَّرِيعُ مِنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِي إِلَى مَعَاذِ بْنِ

جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بِوَصِيَّةٍ فِيهَا تَشْبِيهُ بِدِيعٍ، حَكَاهَا الْأَصْمَعِيُّ عَنْ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ بِوَصِيٍّ بِهَا ابْنُهُ، وَقَدْ سَأَلَ الْمُعَافَى النَّهْرَوَانِي فِي «الْجَلِيسِ الصَّالِحِ» ٣: ٧ سَنَدَهُ بِهَا إِلَى الْأَصْمَعِيِّ أَنَّهُ قَالَ «قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ لِابْنِهِ: يَا بَنِيَّ أَقْبَلْ عَهْدِي وَوَصِيَّتِي: إِنْ سُرِعَتْ ائْتِلَافُ قُلُوبِ الْأَبْرَارِ حِينَ يَلْتَقُونَ، كَسُرْعَةِ اخْتِلَاطِ قَطْرِ الْمَطَرِ بِمَاءِ الْأَنْهَارِ».

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ يُخْبِرُنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ أَنْاسٍ مَخْصُوصِينَ، خَصَّهُمْ بِمَحَبَّتِهِ الْخَاصَّةِ، وَأَنَّ هَذِهِ الْمَحَبَّةَ قَدْ أَوْجَبَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ، لَا بِإِيجَابِ

والمُتَجَالِسِينَ فِي، وَالمُتَزَاوِرِينَ فِي،

جاهل فاسق، إلا وجد في نفسه ميلاً إلى العالم العابد. فذلك الميل هو حُبُّ في الله والله، من غير حظّ.

ومثّل لذلك بحبّ المؤمنين لأنبياء الله ورُسُلِهِ عليهم الصلاة والسلام، وللصحابة والصالحين، والأخيار السابقين. وانظر تمام كلامه النافع، رحمه الله تعالى.

وأما قوله: «والمُتَجَالِسِينَ فِي»: فهم القوم الذين يجلسون إلى بعضهم بعضاً يذكرّون الله عز وجل، ويتذكّرون فيما بينهم جلاله وعظمته، وأمره ونهيّه، وإقامة حدوده وحقوقه، وما إلى ذلك، يجمعهم المحبة في الله وذكر الله.

قال المُنَاوِي رحمه الله ٤: ٤٨٥ - وعنه الزُّرْقَانِي في «شرح الموطأ» ٤: ٣٤٩ -: «كان الجنيد أبدأ مشغولاً في خَلُوتِهِ، فإذا دخل إخوانه خرج وقعد معهم ويقول: لو أعلم شيئاً أفضل من مجالستكم ما خرجت إليكم. وذلك لأن لمجالسة الخواصّ أثراً في صفاء الحضور ونشر العلوم، ما ليس لغيرهم».

وهذا تنبيه من الله عز وجل لضرورة مجالسة الصالحين على ذكره جل جلاله، لفائدة مجالستهم، كما ذكر المُنَاوِي والزُّرْقَانِي، ولنيل محبة الله تعالى ورحمته، كما جاء به الحديث الشريف المذكور.

«والمُتَزَاوِرِينَ فِي»: فإخوة متحابون في الله، أراد أحدهم أن يزور أخاه زيارة خالصة لا يبغي من ورائها شيئاً أبداً سوى صلة الأخوة في الله، فهذا ممن أوجب الله عز وجل على نفسه محبته إياه ورحمته له.

روى مسلم في «صحيحه» ١٦: ١٢٣ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله له على مدْرَجَتِهِ مَلَكاً، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربُّها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحببك كما أحببته فيه». والمراد في قوله «نعمة تربُّها»: فائدة دنيوية تُريد دوامها بينكما.

والمتباذلين في».

ومما يحسنُ التنبيه إليه لتصحيح خطأ عامي: أن المراد بالزيارة ذهابُ الأخ إلى أخيه للقاء به، وليس المراد بها عيادة المريض.

فكم يخسر المسلمون في مجالس سَمَرهم وأمسياتهم! وكم يربحون لو أنهم جعلوها في ذكر الله تعالى! فهم متجالسون متزاورون لكنْ على لهو وباطل، ولغو وحِث، وهَرْج واختلاط، وأخفْ منكراتٍ بعضهم: الجلوسُ أمام الرائي (التلفزيون)، على عُجْرِهِ وَبُجْرِهِ، وخيره وشره، وقد يكون أشدَّ منكراتٍ بعضهم. فاستفادةُ هذا البعض واتعاظهم وَقَلْبُ مجالسهم إلى ذكر الله تعالى أمرٌ قريب يسير، فلو أنهم ﴿فعلوا ما يُوعَظُونَ به لكان خيراً لهم﴾. اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه.

ومعنى «والمتباذلين في»: الذين يبذلون لبعضهم بعضاً ما يحتاجونه: غَلاً أو رَخْص. قال الإمام الباجي رحمه الله تعالى في «المستقى» ٧: ٢٧٥: «يريد: يبذلون أنفسهم في مرضاته من الإنفاق على جهاد عدوه وغير ذلك مما أمروا به، ويُعطيه ماله إن احتاج إليه».

وروى الإمام أحمد في «مسنده» ٤: ٣٨٦ هذا الحديث عن عمرو بن عَبَسَةَ بإسناد حسن وزاد فيه صِفَتَيْن: «وَحَقَّتْ محبتي للذين يتصافون من أجلي.. وحقَّتْ محبتي للذين يتناصرون من أجلي».

أما الأولى: فمعناها: يرجع إلى المتحابين في الله، لأن معنى يتصافون: يتخذ كل واحد من الآخر صَفِيًّا له وخليلاً، فالأول اصطفي الثاني، وكذلك العكس، فكل منهما صَفِيٌّ أخيه في الله.

وأما الثانية: فثناء على من ينصُر أخاه من أجل الله وفي سبيله وفي سبيل إحقاق الحق، لا مناصرةً جاهليةً عمياء، لا، بل ينصره على ظالمه، بمعاصده والوقوف بجانبه؛ وينصر مظلومه عليه بأن ينبِّهه ويرشده إلى الحق الذي جَانَبَهُ، ليرجع إليه. وفي تحقيق هذه الصفة راحةٌ كبرى للعالم من عنائه في مجالات كثيرة. فأعظمُ بالإسلام وتعاليمه!.

٦٨ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يقول يوم القيامة: أين الْمُتَحَابُّونَ لجلالي؟ اليوم أَظْلَهُم

٦٨ - تخريجه: رواه مالك في «الموطأ» أيضاً كتاب الجامع - ما جاء في المتحابين في الله ٣: ١٢٧، ومن طريقه رواه مسلم: كتاب البر والصلة - باب فضل الحب في الله ٤: ١٩٨٨ (٣٧) وشرح النووي ١٦: ١٢٣ بلفظ: «أين المتحابون بجلالي».

معناه: يريد الله عز وجل أن يُظهر يوم القيامة فضيلة طائفة خاصة من عباده، تحابوا في الدنيا حباً خالصاً لجلال الله، أي: لعظمته وطاعته، دون دخول أي شائبة أخرى على هذا الحب الإلهي الكريم، وعلامة ذلك - إن شاء الله -: أن لا يزيد حب أحدهم للآخر إذا برّه، ولا ينقص إذا جفاه، فما دام الحب بينهما لجلال الله وعظمته، فلن يزيد بمؤثرات خارجيّة، ولن ينقص بها، إنما يزيد كلما زاد سببه، وينقص إذا نقص.

فإذا أراد الله تعالى إظهار فضيلتهم قال: أين المتحابون لجلالي، وهذا نداء وليس سؤالاً، وهو نداء تكريم لهم وتعظيم. وإعلام الله تعالى لنا بهذا - عن طريق سيدنا رسول الله ﷺ - فيه حض ضمني لنا أن نتخلق بهذا الخلق، وإلا فما الفائدة؟!

وإن للقيامة أهوالاً وشدائد، ومواقف مُقْطَعَة مُفْزَعَة - وقانا الله إياها بمئه علينا - ومنها: دُئُو الشمس من رؤوس الخلائق حتى تدنو من رؤوسهم دُئُوّاً شديداً جداً فيخوضون في عرقهم خوفاً، ومنهم من يلجمه عرقه، أي يصل إلى فمه! ومنها: فيح جهنم ورائحتها، ولهبها، إضافة إلى أنفاس الخلائق، ولا ينجو منها أحد إلا ذوو أعمال خاصة وفقهم الله تعالى للقيام بها في الدنيا، وتكون نجاتهم من هذه الأهوال بوقوفهم في الظلال آمنين مستريحين من ذاك العناء، وتكون لهم بشرى عاجلة بالفوز الأبدي.

في ظِلِّي يوم لا ظِلُّ إلا ظِلِّي».

وقد جَمَعَ بعض العلماء الأحاديث التي ذُكر فيها من يَنَعَمُ بهذه الظلال، ومنهم الحافظ الجلال السيوطي رحمه الله في رسالة سماها «تمهيد القُرَش في الخصال الموجبة لظِلِّ العَرْش»، ثم لَخَّصها في «بزوغ الهلال في الخصال الموجبة للظلال»، وقد طُبِعَتَا.

وسَبَقَ إلى هذا الحافظ ابن حجر، وجمعها عصره السخاوي، ولم تُطْبَعَا، ولَخَّص رسالة السخاوي الزُرْقَانِي في جزء لطيف، ولَخَّصه أيضاً في «شرحه على الموطأ» فانظره ٤ : ٣٤٣ فما بعدها.

وهذه الظلال منهم من جَعَلَهَا ثلاثة: ظل الله تعالى، وظل عرشه، وظلَّ العمل الصالح، وقوفاً عند ظواهر النصوص، إذ في بعضها: في ظِلِّي، وفي بعضها: في ظلِّ عرشي، ونحوه، وفي بعضها: في ظل كذا، وذلك كحديث مَرْتَد ابن عبد الله اليزني، عن عقبه بن عامر الجُهَنِي رضي الله عنه، عند أحمد ٤ : ١٤٧ - ١٤٨، والحاكم ١ : ٤١٦ بإسناد صحيح: «كُلُّ امرئٍ في ظلِّ صَدَقَتِهِ حتى يُفْصَلَ بين الناس. أو قال: يُحْكَم بين الناس» فكان مَرْتَد لا يُخْطِئُهُ يومٌ إلا تصدَّق فيه بكعكة أو بَصْلَة أو كذا.

ومنهم من جعلها ظلاً واحداً هو ظلُّ العرش، لأن الظلَّ من شأن الأجسام، فإضافة الظلِّ إليه سبحانه في بعض الأحاديث: لأن العرش عرشه وهو خالقه، وما ورد من إضافة الظلِّ إلى العمل - كحديث الصدقة - فعلى معنى أن لكل عاملٍ ظلاً يَخْصُهُ من الظلِّ العامِّ للعرش.

ومنهم من جَعَلَهَا ظلاً واحداً هو ظلُّ الله تعالى، لكن لما كان الظلُّ من شأن الأجسام والله منزّه عن هذا أوّلوا كلمة «ظلّ»، وجعلوها بمعنى: الكرامة والكَنَف والرعاية والسُّتْر، كقولهم: فلان في ظل السلطان، أي: في كنفه وكرامته وحفظه.

قلت: ورواية عبد الله بن الإمام أحمد في «زوائده على المسند» ٥ : ٣٢٨ نصٌّ في المغايرة بين ظلِّ الله تعالى وبين ظلِّ عرشه، فلفظه: «إن المتحابين بجلال الله في ظلِّ الله وظلِّ عرشه يوم لا ظِلُّ إلا ظله»، لكن في إسناده رجلٌ مبهم، فلفظُ الأوزاعي: «حدثني رجلٌ في مجلس يحيى بن أبي كثير عن أبي إدريس...».

في حين أن روايات الطبراني له تدلُّ على أنهما واحد، فبعضها بلفظ: في ظل الله، و: في ظله، وبعضها الآخر وهو الأكثر: في ظل العرش. انظر «المعجم الكبير» ٢٠ (١٤٥، ١٤٨) و(١٤٤، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٩، ١٥١، ١٥٤، ١٦٧، ١٦٨)، ولا تستقيم المغايرة. والله أعلم.

والنظر في رسالتي الحافظ السيوطي المذكورتين قبلُ يؤيد عدم المغايرة وأنهما ظل واحد، وبينما سمي جُزْأه: «تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش»، إذ به يقول في مقدمته: «الحمد لله العظيم، الذي لا ظل إلا ظله.. وبعد: فإن الحديث المشهور في السبعة الذين يُظْلَمُ الله في ظلِّ عرشه..».

ثم ذكر لفظ الحديث: «سبعة يُظْلَمُ الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله..».

فهؤلاء المتحابون لجلال الله: محفوظون من أهوال القيامة، هم في كرامة الله ورعايته وحفظه.

وليسوا وحدهم في هذه الكرامة، بل يَشْرِكُهُم فيها آخرون، ورد في تعدادهم أحاديث، أشهرها حديث: «سبعة يُظْلَمُ الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشابٌّ نشأ في عبادة ربه، ورجلٌ قلبه معلقٌ في المساجد، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدَّقَ أخْفَى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه». رواه كثيرون جداً، ومنهم البخاري في مواضع من «صحيحه» وهذا لفظ أول موضع منها: كتاب الأذان - باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ١٤٣: ٢ (٦٦٠).

وهناك أناس آخرون، انظر تعدادهم وأحاديثهم وتخريجها باختصار شديد في «شرح الزرقاني على الموطأ» ٤: ٣٤٣ فما بعدها عند شرح حديث هؤلاء السبعة.

وليست هذه الكرامة العظيمة للمتحابين لجلال الله هي الكرامة الوحيدة لهم، بل لهم إكرام إلهي آخر، هو ما تقدم ذكره في تخريج الحديث السابق عن «سنن الترمذي»، وهذا لفظه وشرحه.

٦٩ - عن أبي مسلم الخولاني قال: حدثني معاذ بن جبل قال:

٦٩ - تخريجه: رواه الترمذي في «سننه» كتاب الزهد - باب ما جاء في الحب في الله ٧: ١١٩ (٢٣٩١) وقال: حسن صحيح.

معناه: هذا لون آخر من إكرام الله عز وجل للمتحابين فيه، يخبرنا الله تعالى به على لسان النبي ﷺ ترغيباً لنا، وتحبيباً بهذا المقام العظيم: مقام المحبة في الله.

يخبرنا أن لهم منابر من نور يوم القيامة، يقومون عليها، والمنبر: سُمي منبراً لارتفاعه عن الأرض، فهم يقومون مقاماً مرتفعاً عما سواهم من الناس، علامة على رفعة مكانتهم، إذ رفعة المكان دليل على رفعة المكانة.

وهذه المنابر من نور، من نور يوم القيامة، فلا يُقاس على نور شمس الدنيا وكهربائها، إنما هو نور خاص، وهو دال على رفعة مكانتهم أيضاً، لأنه منبر من نور، ولأن فيه لفتاً لنظر أهل الموقف نحوهم، وهذا كما يقول الناس اليوم في كلماتهم الاصطلاحية: فيه تسليط للأضواء عليهم، زيادة في إشهار الله عز وجل لهم.

ومن عظم ما هم فيه فإن خواص عباد الله تعالى - وهم الأنبياء والشهداء - يغبطونهم على ذلك، أي: يتمنون أن يكونوا مثلهم دون أن يزول عنهم ما أُكرموا به، من شدة إعظامهم لهم. ومعلوم أن هذا حسد جائز.

وكيف يتمنى الأنبياء مقامهم - وهم صفوة الخلق وأكرمهم لديه -؟.

ذكر المناوي رحمه الله أجوبة فقال ٤: ٤٨٥: «يعني: أن حالهم عند الله يوم القيامة بمثابة لو غبط النبيون والشهداء يومئذ - مع جلالة قدرهم ونباهة أمرهم - حال غيرهم لغبطوهم. وقال البيضاوي: كل ما يتحلى به الإنسان ويتعاطاه من علم وعمل

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يَغِطُّهم النبيون والشهداء».

فإن له عند الله تعالى منزلة لا يشاركه فيها من لم يتَّصف بها، وإن كان له من نوع آخر ما هو أرفعُ قدرًا وأعزُّ ذخرًا، فيَغِطُّه بأنْ يتمنى ويحبُّ أن يكون مثل ذلك مضمومًا إلى ماله من المراتب الرفيعة الشريفة... هذا من أولى ما قيل في التأويل.

«وأما قول السبكي: هؤلاء يدخلون الجنة بغير حساب، وأما أولئك فلا بد من سؤالهم عن التبليغ فيغبطون السالم من ذلك التعب لراحته، ولا يلزم أن تكون حالة الراحة أفضل: تعقبه ابن شهبة (؟) بأن المتحابين في مقام الولاية، وهي أول درجة النبي قبل النبوة، ولا يمكن أن يحصل للولي خصلة ليست للنبي. قال: والجواب المرضي عندي أنهم لا يغبطونهم على منابر النور والراحة، بل على المحبة، فإن المحبة في الله محبة لله، وهو مقام يتنافس به، فالغبطة على محبة الله، لا على مواهبه. انتهى».

قلت: ما أورده ابن شهبة - ولعله: ابن قاضي شهبة - على كلام السبكي: صحيح مسلم به، لكن قوله أخيراً: الغبطة على محبة الله لا على مواهبه: فيه نظر، ففي بعض روايات الحديث التصريح بأن الأنبياء والشهداء يغبطون المتحابين في الله لما وهبهم الله إياه في ذلك اليوم الفظيع.

ففي رواية لعبدالله بن الإمام أحمد في «زوائده» ٥: ٣٢٨ لحديث معاذ: «... يغبطهم بمكانهم النبيون والشهداء» ثم ذكر رواية عبادة بن الصامت الحديث لأبي مسلم بلفظ «يَغِطُّهم بمكانهم النبيون والصدِّيقون».

وروى الإمام أحمد في «مسنده» ٥: ٣٤١، ٣٤٣ من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ من جملة حديث آخر: «... إن الله عز وجل عبادة ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله...» ثم وصفهم بأنهم تحابوا في الله..

ومثله حديث عمر رضي الله عنه مرفوعاً عند أبي داود في كتاب البيوع والإيجارات - باب في الرهن ٣: ٧٩٩ (٣٥٢٧): «إن من عباد الله لأناساً ما هم

بأنبياء ولا شهداء يَغِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشَّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ..»
فَذَكَرَهُمْ.

فهذا تصريح بما نفاه ابن شهبة.

وَأَرْجَعَ الْعَلَامَةُ عَلِيُّ الْقَارِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي «الْمِرْقَاة» ٩: ٢٥٢ مَعْنَى الْغِبْطَةِ فِي الْحَدِيثِ إِلَى الْمَعْنَى اللَّغْوِي الْأَصْلِي لَهَا، فَقَالَ: «.. الْغِبْطَةُ فِي الْحَقِيقَةِ عِبَارَةٌ عَنْ حَسَنِ الْحَالِ، كَذَا قِيلَ، وَفِي «الْقَامُوسِ»: الْغِبْطَةُ حَسَنُ الْحَالِ، وَالْمَسْرُوءُ، فَمَعْنَاهَا الْحَقِيقِيُّ مُطَابِقٌ لِلْمَعْنَى اللَّغْوِي، فَمَعْنَى الْحَدِيثِ: يَسْتَحْسِنُ أَحْوَالَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشَّهَدَاءُ. وَبِهَذَا يَزُولُ الْإِشْكَالُ الَّذِي تَحِيرُ فِيهِ الْعُلَمَاءُ».

وإشكال آخر في كلام الإمام السبكي رحمه الله، هو جزؤه بأن المتحابين في الله يدخلون الجنة بغير حساب، فإن كان استفاد هذا من علو مقامهم المذكور: ففيه نظر أيضاً، لأن الحديث الآخر المشهور، حديث «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةٌ» بَيْنَ مَنْ هُمُ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ: «كَانُوا لَا يَكْتُونُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَنْطِيرُونَ، وَعَلَى رُبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». هذا لفظ البخاري في كتاب الطب والرقاق (٥٧٠٥، ٥٧٥٢، ٦٥٤١)، ومسلم في أواخر كتاب الإيمان، وفي إحدى رواياته زيادة صفة أخرى: «لَا يَرْقُونَ». وليس فيها ذكر المتحابين في الله عز وجل. والله أعلم.

وكرامة أخرى من الله عز وجل لهذه الطائفة الميمونة: أخبرنا بها النبي ﷺ بقوله الكريم: «إِنَّ الْمُتَحَابِّينَ لَتُرَى غُرَفُهُمْ فِي الْجَنَّةِ كَالْكُوكَبِ الطَّالِعِ الشَّرْقِيِّ أَوْ الْغُرُبِيِّ، يُقَالُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَيُقَالُ: هَؤُلَاءِ الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». رواه الإمام أحمد في «مسنده» ٣: ٨٧ بإسناد قال عنه الهيثمي في آخر «مجمع الزوائد»: «رجاله رجال الصحيح».

نسأل الله أن يكرمنا بهذه الخصلة المرضية عند الله تعالى ورسوله ﷺ.

٧٠- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرَضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُوذُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ! قَالَ: أَمَّا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا مَرَضَ فَلَمْ تَعُدَّهُ؟، أَمَّا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدَّتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ!.

٧٠- تخریجه: رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب فضل عيادة المريض ٤: ١٩٩٠ (٤٣)، و«شرح النووي» ١٦: ١٢٥. وزاد المُنَاوِيُّ ٢: ٣١٣ عزوه إلى «الترمذي في الزهد» ولم أره فيه.

معناه: في هذا الحديث القدسي غاية التشريف من الله عز وجل لعبده المريض، وذلك أنه سبحانه وتعالى وتقدس أقام ذاته العلية المقدسة مقام العبد المريض فقال - وذلك يوم القيامة - معاتباً المسلم المقصر في عيادة أخيه المسلم المريض: مرضتُ، وإنما مراده: مرض عبدي فلان الذي قصرت فلم تعدّه.

ومثلُ هذا قوله الآتي: استطعمتك، واستسقيتك، أي: استطعمك عبدي فلان، واستسقاك فلان. وأما الله عز وجل فقد أجمع العقلاء على تنزهه سبحانه عن كل هذا ونحوه.

قال الإمام النووي رحمه الله: «قال العلماء: إنما أضاف المرض إليه سبحانه وتعالى، والمرادُ العبدُ: تشريعاً للعبد وتقريباً له». وزاد العلامة القاري ٣: ٢٤٩: «والحاصل أن من عاد مريضاً لله، فكأنه زار الله»، ونحوه في «فيض القدير» ٢: ٣١٣.

وأما قوله عز وجل: «لَوْ عُدَّتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ»: فمعناه كما حكاه النووي عن العلماء أيضاً: «أي: وجدتُ ثوابي وكرامتي. ويدلُّ عليه قوله تعالى في تمام الحديث: لو أطعمته لوجدت ذلك عندي، لو أسقيته لوجدت ذلك عندي. أي ثوابه».

يا ابنَ آدَمَ اسْتَطَعْمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي . قال : يا رَبِّ وكيف أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ! قال : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطَعْمَكَ عَبْدِي فَلَنْ فَلَمْ تُطْعِمْهُ ؟ ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي ! .

يا ابنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي . قال : يا رَبِّ كيفَ أُسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ! قال : اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فَلَنْ فَلَمْ تَسْقِهِ ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي .

وقد قال الله تعالى في سورة الكهف : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ .

وفي الحديث : حضُّ على هذه المكارم الأخلاقية الثلاثة : عيادة المريض ، لما فيها من مواساة له وتخفيفٍ لآلامه ؛ وإطعامُ الجائع ؛ وسقايةُ الظمآن ، فإنها عنوان تكافل المسلمين ، فيما ينزل ببعضهم من شدائد ، يخففها عنهم إخوانهم الآخرون المُعَاوَنُونَ .

وفي عيادة المريض من الأجر العظيم ما لا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ تعالى الذي يَكْتِبُهُ للعائد ، من ذلك حديث ثوبان رضي الله عنه - عند مسلم ١٦ : ١٢٥ - عن النبي ﷺ : « مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَزَلْ فِي خُرْقَةِ الْجَنَّةِ » قيل : يا رسول الله وما خُرْقَةُ الْجَنَّةِ ؟ قال : « جَنَّاها » . فشبَّهَ وَبَشَّرَ ﷺ عائد المريض بأنه ما دام في عيادة المريض فهو يَجْتَنِي من ثمار الجنة ، وبشَّره : لأن جَنَّاها لا يكون إلا لمن دخلها ، ومن دخلها لا يخرج منها . فهي بشارة عاجلة له بأنه من أهلها .

ولا ينبغي للمسلم أن يَسْتَقِيلَ من كثرة ذهابه إلى المريض وإيابه ما دام الأمر يتطلب منه ذلك ، فإن زيارة المريض سُمِّيَتْ عيادةً ، لأن فيها الزيارة مرة بعد مرة ، والعودُ إليه مكرراً - كما أفاده ابن الأثير في « النهاية » ٣ : ٣١٧ - .

فاجعل عيادتكَ له مواساةً له ، وشكراً لله على معافاتك وأنتك تعود لا تُعَاد .

وإن معنى قوله تعالى : « لَوْ عِدَّتْهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ » كمعنى قوله في المناسبتين الثانيةين : « لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي » ، كما تقدم ، لكن لاختيار اللفظ أَثَرٌ ومدلولٌ ، ولا بدُّ ، فانظر الفرق بين العبارتين : لَوَجَدْتَنِي ، و : لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي ، لِتَدْرِكَ الفرق بين الثوابين . والله تعالى هو الموفق للخيرات .

٧١ - عن عطاء بن يسار، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مرض العبد بعث الله تعالى إليه مَلَكَيْنِ فقال: انظُرَا ماذا يقول لِعُودِهِ، فَإِنْ هُوَ إِذَا جَاؤَهُ حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ: رَفَعَا ذَلِكَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ - وَهُوَ أَعْلَمُ -

٧١ - تخريجه: رواه الإمام مالك في «الموطأ»: كتاب الجامع - ما جاء في أجر المريض ٣: ١٢٠، وعطاء بن يسار تابعي، فحديثه هذا مرسل، لكن وصله ابن عبد البر من رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً.
غريبه: عُوداه: جمع عائد، وتقدم أن العيادة مأخوذة من تكرار الزيارة والعود إليها مرة بعد مرة.

معناه: في هذا الحديث الشريف تنبيهٌ إِلَهِيٍّ للعبد المسلم أن يَحْمَدَ الله تعالى على ما يُصِيبُهُ من ابتلاء ومرض، وأن عاقبة حَمْدِهِ خَيْرٌ كَبِيرٌ في الدنيا والآخرة.
والله تعالى أعلمُ بعباده منهم بأنفسهم، لكنه أراد أن يظهر هذا الثواب لملائكته، ثم لنا عن طريق سيدنا رسول الله ﷺ.

فحمَدُ الله والثناءُ عليه من قَبْلِ العبدِ المبتلى: له عند الله تعالى منزلةٌ رفيعة، والله أكرمُ من أن يَضِيعَ ذلك، وأكرمُ من أن يجمع على عبده المرضُ والحرمانُ من فضله.

فهو يُوجِبُ على ذاته العلية أن يُدْخِلَ هذا العبدَ الحامدَ جَنَّتِهِ ودارَ كرامته مع السابقين الأولين - أو دون عذاب - إنْ توفاه في مرضه هذا؛ وإن شفاه منه أَبْدَلْ له الله بدنأ خيراً من بدنه المريض، وكَفَّرَ عنه سيئاتِهِ.

فهو على خير وإلى خير كيفما انقلب. ونسأل الله من خيره وفضله مع العافية.

روى مسلم في «صحيحه» كتاب الزهد - باب في أحاديث متفرقة ١٨: ١٢٥
عن صُهَيْبِ الرُّومِيِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عَجَباً لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنْ

فيقول: لعبدي عليّ إن تَوَفَّيْتُهُ أن أَدْخِلَه الجنة، وإن أنا شَفَّيْتُهُ أن أُبَدِّلَ له لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، وأن أُكْفِّرَ عنه سيئاته».

أمره كله خير، وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سَرَأٌ شكر، فكان خيراً له. وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له.

وروى الإمام أحمد في «مسنده» ٤: ١٢٣ عن أبي الأشعث الصنعاني أنه راح إلى مسجد دمشق وهجر بالروح، فلقي شداد بن أوس - والصَّنَابِحيُّ معه - فقلت: أين تريدان يرحمكما الله؟ قالوا: نريد هاهنا، إلى أخ لنا مريض نعوده، فانطلقتُ معهما حتى دخلا على ذلك الرجل، فقالا له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بنعمة، فقال له شداد: أبشر بكفارات السيئات، وخطُ الخطايا، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل يقول: إني إذا ابتليتُ عبداً من عبادي مؤمناً فحمدني على ما ابتليته فإنه يقوم من مضجعه ذلك كيوم ولدته من الخطايا، ويقول الربُّ عز وجل: أنا قيَّدت عبدي وابتليته فأجروا له كما كنتم تُجرون له وهو صحيح». وفي إسناده إسماعيل بن عياش الحمصي، عن راشد بن داود الصنعاني، وإسماعيل روايته عن الشاميين مقبولة، وعن غيرهم فيها تخطيط، وأشار المنذري إلى هذا في «الترغيب» ٤: ٢٩١ - ٢٩٢ وزاد عزوه إلى «الطبراني في الكبير والأوسط» وقال: «له شواهد كثيرة». فكانه يقول: حديث حسن لغيره.

وروى الإمام أحمد في «مسنده» ٢: ٣٤١، ٣٦١ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: إن المؤمنَ عندي بمنزلة كل خير، يَحْمَدُنِي وأنا أَنْزِعَ نفسه من بين جنبيه». وعزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢: ٣٢١ إلى البزار فقط «عن شيخه أحمد بن أبان القرشي، ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح»، وكذلك اقتصر على عزوه إلى البزار الحافظ ابن حجر في «النكت على ابن الصلاح» ٢: ٥٣٩، لكنه قال: «حديث حسن رواه من أهل الصدق»^(١).

١ - وكذلك حسنه البخاري في «فتح المغيب» ١: ١٢٠ وليس فيه عزو الحديث إلى أحد. ونقل الصنعاني في «توضيح الأفكار» ١: ٢٥٨ كلام ابن حجر بطوله، وحصل تحريف فاحش جداً في اسم مخرجه فجاء فيه: «أخرجه الدارمي في «مسنده»! فليصحح، وليس له وجود في كتاب الدارمي.

وهو حديث نبوي - لا قدسي - في «سنن النسائي» ٤: ١٢ (١٨٤٣) وله قصة.

٧٢- عن أبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ابْنُ آدَمَ إِنْ صَبَرَ وَاحْتَسِبَتْ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى لَمْ أَرْضَ لَكَ ثَوَاباً إِلَّا الْجَنَّةَ».

٧٢- تخريجه: رواه ابن ماجه: كتاب الجنائز - باب ما جاء في الصبر على المصيبة ١: ٥٠٩ (١٥٩٧)، وصحَّح إسناده البوصيري في «مصابح الزجاجة» (٥٨٤).

معناه: سيأتي الكلام عن الصبر والاحتساب تحت رقم الحديث ٧٥.

وأما الصدمة الأولى: فقال الإمام الخطابي في شرحه على البخاري «أعلام الحديث» ١: ٦٩٠: «يريد - ﷺ -: أن الصبر المحمود المأجور عليه صاحبه هو ما كان عند مفاجأة المصيبة، وهي الصدمة الأولى، دون ما بعدها، فإنه إذا طالت الأيام عليها وَقَعَ السُّلُوءُ، وصار الصبر حينئذ طبعاً، فلم يكن للأجر موضع^(١)».

«وقد قال بعض الحكماء: إن الإنسان لا يُؤَجَّرُ على شيء من المصائب التي تناله في نفسه من مرضٍ وموتٍ حميمٍ ورُزءٍ مالٍ، لأجل ذوات هذه الأمور، فإن

١- جاءت هذه الجملة عند المناوي رحمه الله ٤: ٢٣٤ - دون عزو إلى أحد -: «وأما إذا طالت الأيام على المصائب وقع السُّلُوءُ، وصار الصبر طبعاً، فلا يُؤَجَّرُ عليه مثل ذلك» وفرق واضح بين التبيجين. وقد قال الطيبي مثل قول الخطابي، وتفصيل العلامة عليّ القاري أولى. وهذا لفظهما من «المراقبة» ٤: ٩٠: «قال الطيبي: .. فيصير الصبر طبعاً فلا يُثَابَ عليها. اهـ. أما إذا لم يصبر الصبر طبعاً ثم تذكر المصيبة ثم صبر ولو طال العهد فيثاب، ولكن الدرجة الأعلى عند الصدمة الأولى».

جميع ذلك طبعٌ وجبلةٌ، ولا صنعٌ للإنسان فيه، وقد يصيب الكافر مثلُ ما يصيب المسلم، إنما يؤثر الإنسان على نيته واحتسابه الأجر فيها، وتلقّي الأمر في ذلك بالرضا وجميل الصبر».

وأفاد الحافظ رحمه الله في «الفتح» أيضاً ٣: ١٧٢ أن «الصبر عند الصدمة الأولى هو المطلوبُ المبشّرُ عليه بالصلاة والرحمة» في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ أولئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمةٌ... ﴿



٧٣- عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ لَمَلَائِكَتِهِ: قَبِضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ:

٧٣- تخريجه: رواه الترمذي: أبواب الجنائز - باب فضل المصيبة إذا احْتُسِبَتْ ٣: ٣٩٦ (١٠٢١) = ٣: ٣٤١ (١٠٢١) وقال: حديث حسن غريب، وهو في «المسند» ٤: ٤١٥.

معناه: إن العبد الذي مات ولده: هو من المؤمنين، كما يدل عليه آخر الحديث، إذ الكافر لا حظ له في الجنة.

وسؤال الله عز وجل للملائكة - ملائكة الموت -: قبضتم ولد عبدي، قبضتم ثمرة فؤاده، سؤال لإبراز الله تعالى عظم مصاب الإنسان بفقد ولده، ولذلك تدرج بصيغة السؤال: ولد عبدي، ثمرة فؤاده، وفي رواية «المسند»: «يا ملك الموت قبضت ولد عبدي، قبضت قرّة عينه وثمرّة فؤاده». والولد ثمرة أبيه، كمنزلة الثمرة من الشجرة.

وتأكيداً لهذا السبب وتنويعاً من الله العظيم الكريم بمقام عبده يسألهم سؤالاً ثانياً - وهو سبحانه أعلم - فيقول لهم: ماذا قال عبدي حين أنزلت به هذه الفاجعة؟ فيجيبونه: حمّدك يا ربّنا واسترجع فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد - كما قالوا - هو: «النعتُ بالجميل على الجميل. أي: الفعل الحسن الصادر من المحمود باختياره»^(١). فهذا المبتلى بفقد ولده وقرّة عينه وثمرّة فؤاده: يصف الله سبحانه المبتلى له بفقد ولده، يصفه بالجميل، ويّرى أن ما نزل به إنما هو جميلٌ وفعلٌ حسن، لأنه صدر من مولاه خالقه وخالق ولده وخالق الخلق أجمعين. وهو أرحمُ الراحمين، وأرحمُ بنا من أنفسنا - سبحانه وتعالى - فلذلك يحمّده!.

١- هذا لفظ المناوي في «فيض القدير» ١: ٦.

نعم، فيقول: قبضتُم ثمرةَ فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال

وفي هذا الموقف من عظمة إيمان المبتلى ما لا يدخل تحت الوصف، فلذلك كرّر المولى سبحانه السؤال على الملائكة ليُظهر لهم فضل الإنسان المؤمن الذي قال فيه الملائكة أول الأمر: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾.

لذلك نجد في كثير من الأحاديث إبرازَ الله تعالى فضلَ المؤمنين أمامَ ملائكته - على قدسيّتهم لديه، سبحانه -.

وهذا هو مقام الرضى عن الله سبحانه وعن قضائه لعبده، وهو من أعظم ما يصلُ إليه الواصلون، وهو الذي دعا به سيدنا رسول الله ﷺ، فيما رواه النسائي ٣: ٥٤ (١٣٠٥)، وأحمد ٤: ٢٦٤ من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما، وبعضُ جمَله جاءت من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه في «المسند» أيضاً ٥: ١٩١، ونصّه: «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيراً، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضاء بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرّة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين».

فانظر قوله ﷺ: «أسألك الرضاء بعد القضاء»: «سأله الرضى بعد وقوع القضاء لأنه حينئذ تتبين حقيقة الرضى، وأما الرضى قبله فإنما هو عزم على أنه يرضى إذا أصابه، وإنما يتحقق الرضى بعده» كما في «مدارج السالكين» ٢: ٢٢٣ لابن القيم نقلاً عن شيخه ابن تيمية رحمهما الله تعالى.

ويجد القارىء الكريم فصلاً في الحديث عن الرضى في المصدر المذكور ٢: ١٧١ - ٢٤٢ هو من أنفس ما يُقرأ ويُستفاد، ومما حكاه فيه ٢: ٢٢٧: «لما قدم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إلى مكة - وقد كُفَّ بصره - جعل الناس يُهرعون إليه، ليدعوا لهم - ومعلوم أنه كان مستجاب الدعاء - فجعل يدعو لهم، قال عبدالله ابن السائب: فأتيته وأنا غلام، فتعرّفت إليه فعرفني، فقلت: يا عم أنت تدعو للناس

عبدى؟ فيقولون: حَمْدُكَ واسْتَرجِع، فيقول الله: ائبُوا لعبدى بيتاً فى الجنة، وسَمُّوه: بيتَ الحمد.

فَيُشْفَوْنَ، فلو دعوتَ لنفسك لردَّ الله عليك بصرك! فتبسُّم، ثم قال: يا بنى قضاء الله أحبُّ إليَّ من بصري».

ثم ذكر سبحانه لهم ما أعدَّه من جزاء لعباده الحامدين له فى الضراء - بَلَّه السراء - فقال لهم: «ائبُوا لعبدى بيتاً فى الجنة، وسَمُّوه بيتَ الحمد».

فهاتان بشارتان: الجنة، وبيت الحمد فيها. والجزاء من جنس العمل، فالجنة دار المؤمنين، وهذا منهم، ودار الحامدين: ﴿الحمدُ لله الذى أحلَّنَا دارَ المُقامة...﴾ ﴿الحمد لله الذى صَدَّقْنَا وَعْدَهُ...﴾، وهذا منهم. ولمزيد اختصاصه بالحمد مَنَحَ الله فيها بيتَ الحمد.

والتنوين فى قوله تعالى: «ائبُوا لعبدى بيتاً» هذا التنوين للتعظيم، أى: بيتاً عظيماً^(١). ليلقَ بحمده وبصبره. اللهم إنا نسألك ذلك بفضلِكَ من فضلك مع عافيتك، فإنها أوسع لنا.



٧٤ - عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ

٧٤ - تخريجه: رواه البخاري: كتاب المرضى - باب فضل مَنْ ذهب بصره
١٠: ١١٦ (٥٦٥٣)، ورواه الترمذي في كتاب الزهد - باب ما جاء في ذهاب البصر
٧: ١٢٥، ١٢٦ (٢٤٠٢، ٢٤٠٣) عن أنس وأبي هريرة، وقال عن الأول: حسن
غريب، وعن الثاني: حسن صحيح.

غريبه: حبيته: هما العينان. وشدة حاجة الإنسان إلى عينيه سوغت وصفهما
بالحبيتين.

معناه: يُطمئن الله عز وجل مَنْ يتليه من عباده بفقد بصره، بأنه سبحانه
سيعوضه عوضاً أعظم مما أخذه منه، ذلك «أن الالتذاذ بالبصر يقنى بفناء الدنيا،
والالتذاذ بالجنة باقي ببقائها» قاله ابن حجر.

وهذا الأجر ملاحظ فيه من الشروط:

- أن يكون العبدُ المبتلى مؤمناً، فتكون إضافته في قوله «عبدى» إضافة
تشريف.

- الصبر، أخذاً من صريح الحديث المذكور.

- الاحتساب، أخذاً من رواية الترمذي المشار إليها، ففيها: «فصبر
واحتساب»، فهو يلاحظ في صبره ادخار أجره عند الله تعالى.

- وأن يكون صبره واحتسابه من أول الأمر، لا بعد أن تبلد طبعه وإحساسه،
واعتاد فقد البصر - نسأل الله العافية -، جاء ذلك في رواية البخاري للحديث في
كتابه «الأدب المفرد» ١: ٦٣٦ «يقول الله: يا ابن آدم إذا أخذت كريمتك فصبرت
عند الصدمة واحتسبت لم أرض لك ثواباً دون الجنة». والتعبير بالفاء في الحديث
المشروح يفيد هذا المعنى: «إذا ابتليت عبدى فصبر...».

يقول: «إن الله تعالى قال: إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه فصبر، عوّضتهُ
منهما الجنة».

وقوله: «إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه»: هل هو فيمن وُلد أعمى؟ أو وُلد بصيراً
فعمي؟ الظاهر: الاحتمال الثاني، ولم أرَ من نصَّ على هذا صراحةً إلا أن عبارة
العلامة علي القاري رحمه الله تفيد هذا الذي استظهرته، فإنه قال في «المرقاة» ٣:
٣٦١: «إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه: أي: بفقد بصر عينيه». والفقد - كما قال
الراغب في «مفرداته» -: «عَدَمُ الشيء بعد وجوده، فهو أخصُّ من العدم، لأن العدم
يقال فيه، وفيما لم يُوجد بعد».



٧٥- عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يقول

٧٥- تخريجه: رواه البخاري: كتاب الرِّقاق - باب العمل يُتَغَى به وجه الله
١١ : ٢٤١ (٦٤٢٤).

غريبه: الصَّفِيُّ: الرجلُ الذي أَحَبَّته واصطَفَيْته لك.
احتسَبَه: «صَبَرَ على فَقَّده راجياً الأجرَ من الله على ذلك». قاله في «فتح
الباري».

معناه: يخبر الله عز وجل في هذا الحديث عن أجر مَنْ صَبَرَ على فَقَّده حبيبه،
من: ولد، أو والد، أو أخ، أو زوجة، أو صديق...، أن من صَبَرَ على ذلك محتسباً
أجره عند الله على مصيئته هذه: فله الجنة.
وجاء هذا الإخبار بهذا الثواب العظيم بصيغة الحصر، زيادةً في تأكيد الخبر:
ما لعبدي... إلا الجنة.

والحديثُ جاء بهذا الأجر بهذه الشروط:

- أن يكون العبدُ مؤمناً، فلا علاقة للكافر هنا.
- أن يكون فقيده عزيزاً عليه، صَفِيّاً له، صديقاً حميماً.
- أن يحتسبَ مُصَابَه. وتحت الاحتساب شرطان:
- * الصبر، والصَّبْرُ أشدُّ مرارةً من الصَّبْرِ.
- * وابتغاء الأجر من الله تعالى.

وقد جاءت أحاديثُ فيها الدلالةُ على إثابة الله تعالى بالجنة لمن فَقَّده ولده
وصَبَرَ، لكنْ هذا الحديثُ أعمُّ منها، فقد جاء بلفظ «صَفِيٍّ» كما تقدم. ونسأل الله
العافية.

الله تعالى: ما لعبدي المؤمنِ عندي جزاءٌ إذا قبضتُ صَفِيَّهُ من أهل الدنيا
ثم احتسبَه إلا الجنة». _____

وجاء في حديث آخر شرط آخر، هو: أن يكون الصبرُ والاحتساب أولَ نزول
المصيبة بصاحبها، أما أن يَجْزَعَ وَيَفْزَعَ، ثم يَرَى أن لا مفرَّ له من قَدَر الله فيصبرُ
نفسَه: فلا يدخل تحت هذا، كما يُستفاد من الحديث السابق برقم ٧٢، ٧٤.

٧٦- عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «قال

٧٦- تخريجه: رواه البخاري: كتاب التوحيد - باب «يريدون أن يُبدلوا كلامَ الله ﷻ ١٣: ٤٦٦ (٧٥٠٤)، وكان قد أخرج نحوه في كتاب الرقاق - باب من أحب لقاء الله أحبَّ الله لقاءه ١١: ٣٥٧ (٦٥٠٧، ٦٥٠٨) مرفوعاً نبوياً، ومثله في صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء - باب من أحب لقاء الله أحبَّ الله لقاءه ٤: ٢٠٦٥ - ٢٠٦٧ (١٤ - ١٨) وشرح النووي ١٧: ٩ - ١١.

معناه: لقاء الله عز وجل يكون بالبعث من القبور، إلى ما وراء ذلك من مواقف يؤول إليها الخلائق في ذاك اليوم، وليس هو الموت، بل الموتُ مقدِّمةٌ لذلك اللقاء، وهو مرحلة متقدِّمة عليه.

فالله تعالى يخبرنا أن العبد إذا أحبَّ لقاءَ رَبِّه، فإنَّ رَبَّهُ يحبُّ لقاءه، وكذلك العكس: إذا كره العبد لقاءَ رَبِّه، كره الربُّ سبحانه لقاء عبده.

ولما حدَّث النبي ﷺ بعض أصحابه بهذا الحديث من كلامه ﷺ - كما في رواية البخاري ومسلم اللتين أشرتُ إليهما - قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: إنا لنكره الموتَ، وهذا القول منها ليس تفسيراً للقاء بالموت، بل إنها تقول: نكره الموت الذي هو مقدِّمة للقاء، لما بعده من متاعب وأهوال.

فقال لها عليه الصلاة والسلام: «ليس ذلك، ولكنَّ المؤمن إذا خَضَرَ الموت بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحبَّ إليه مما أمامه، فأحبُّ لقاء الله، وأحبُّ الله لقاءه، وإن الكافر إذا خُضِرَ بُشِّرَ بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله وكره الله لقاءه».

وهذا التوهم الذي عرَضَ للسيدة عائشة رضي الله عنها، عرَضَ لتابعي اسمه شريح بن هانئ، فجاء إليها يستفسرها، ففسَّرت له الحديث بوصفها حال المحتضر. ففي «صحيح مسلم» ١٧: ١٠ أن شريحاً المذكور سمع أبا هريرة رضي

الله عز وجل: إذا أحبَّ عبدي لقائي: أحببتُ لقاءه، وإذا كرهَ لقائي: كرهتُ لقاءه».

الله عنه يروي هذا الحديث، فجاء أم المؤمنين عائشة وقال لها: إن كان كذلك فقد هَلَكْنَا! فقالت له: «ليس بالذي تذهب إليه - أي: ليس كما فهمت - ولكن إذا شَخَصَ البصرُ، وَخَشَرَجَ الصدر، واقشعُرَ الجِلد، وَتَشَنَّجَتِ الأصابع: فعند ذلك: من أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ الله لقاءه، ومن كره لقاءَ الله كره الله لقاءه».

وحاصل ذلك: أن الله يبشِّرُ المؤمن المحتَضِرَ بكرامته عنده في الآخرة، فهي من عاجل بُشْرَى المؤمن، وحينئذ يُقْبَلُ ويحبُّ هذا العبدُ لقاءَ الله تعالى. والعكس بالعكس، والعياذ بالله.

وقد بَوَّبَ العلامةُ القرطبيُّ المفسِّرُ الشهير، في كتابه «التذكرة» ص ٥٧: «باب لا تخرج روحَ عبدٍ مؤمن أو كافر حتى يُبَشَّرَ، وأنه يُصْعَدُ بها»، ومما ذكره فيه: «عن البراء بن عازب - رضي الله عنهما - في قوله ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾: فيسلمُ ملكُ الموتِ على المؤمن عند قبض روحه، لا يقبض روحه حتى يُسلمَ عليه». وهو بهذا اللفظ في «تفسيره» ١٤: ١٩٩.

ثم ذكر حديث أبي هريرة عند ابن ماجه ٢: ١٤٢٣ (٤٢٦٢)، وصحح إسناده البوصيريُّ في «مصابيح الزجاجة» (١٥٢٤)، وأوله: «الميتُ تَحْضُرُهُ الملائكة، فإذا كان الرجلُ صالحاً قالوا: اخرجي أيتها النفسُ الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري برُوحٍ وريحانٍ وربٍّ غيرِ غضبان، فلا يزالُ يُقالُ لها حتى تخرج، ثم يُعْرَجُ بها إلى السماء فيفتح لها..». وكذلك العكس: «يقال: اخرجي أيتها النفسُ الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميمٍ وغساقٍ، وآخر من شكله أزواج، فلا يزالُ يُقالُ لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَجُ بها إلى السماء فلا يُفتح لها..»^(١).

والشاهدُ من هذا: أن الله تعالى يَكْشِفُ للمحتَضِرِ في اللحظة الأخيرة عن مستقره، فالمؤمن يتلَهَّفُ شوقاً إلى ذاك المآل، ويتشوقُ إلى لقاء الله عز وجل والدار

١ - وانظر حديث عائشة رضي الله عنها المطبوع في «فتح الباري» ١١: ٣٥٩، وعزاه لعبد بن حميد، وليس في «منتخب مسند عبد بن حميد».

الآخرة، وغيره يزداد تمسكاً بالدنيا التي عَمَرَهَا ويكرهُ الثُّقْلَةَ عنها إلى لقاء الله عز وجل والدار الآخرة.

وفي مقدمة «سنن الدارمي» - باب في إعظام العلم ص ١٦٢ حوار طويل بين سليمان بن عبد الملك وأبي حازم سلمة بن دينار المخزومي أحد صغار التابعين طبقة، ولكنه من أجلائهم علماً وعملاً وفضلاً، وفيه يقول سليمان بن عبد الملك:

- يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟

فأجابه بجرأة الناصح الصادق:

- لأنكم أُخْرِبْتُمُ الآخرة، وَعَمَرْتُمُ الدنيا، فَكْرَهْتُمُ أَنْ تَنْتَقِلُوا مِنَ الْعُمَرَانِ إِلَى الْخَرَابِ!.

قال سليمان: أَصَبْتَ يا أبا حازم، فكيف القدومُ غداً على الله؟.

قال أبو حازم: أما المحسنُ فكالغائب يُقَدَّمُ على أهله، وأما المسيءُ فكالأبق يُقَدَّمُ على مولاه!.

قال: فبكى سليمان. وانظر الحوار هناك بتمامه، ففيه صدقُ السائل، ونُصْحُ المسؤول.

٧٧- عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «لما خَلَقَ اللهُ الجنةَ والنَّارَ: أَرْسَلَ جَبْرِيلَ إلى الجنة فقال: انظُرْ إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. قال: فجاءها ونَظَرَ إليها وإلى ما أعدَّدَ اللهُ لأهلها فيها، قال: فَرَجَعَ إليه، قال: فَوَعِزَّتْكَ لا يَسْمَعُ بها أَحَدٌ إلا دَخَلَهَا. فَأَمَرَ

٧٧- تخریجه: رواه الترمذي في أبواب صفة الجنة - باب حُفَّتِ الجنةُ بالمكاره ٧: ٢٣٧ (٢٥٦٣) = ٤: ٦٩٣ (٢٥٦٠) وقال: حسن صحيح، وهو في أبي داود أيضاً كتاب السُّنة - باب خلق الجنة والنار ٥: ١٠٨ (٤٧٤٤)، والنسائي - بنحوه - أول كتاب الإيمان والنذور - باب الحَلِفِ بَعْزَةَ الله تعالى ٧: ٣.

معناه: في هذا الحديث الإلهي: تنبيه من الله عز وجل لعباده أن ينظروا إلى حقائق الأمور وعواقبها، وتحذير منه تعالى لهم أن يَغْتَرُّوا بمظاهر الأمور وعاجلها. وبيان ذلك: أنه خَلَقَ الجنةَ وأعدَّ فيها لأهلها ما لا عين رأت ولا أُذُن سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر، وجعلها دار رحمة وكرامته ورضوانه، بحيث إنه لا يَسْمَعُ بها أحد إلا خَطَبَهَا ومَهَرَهَا مهما كان الثمن.

ثم إنه حفَّ طريقها بالتكاليف الشرعية، فَبَدَتْ لناظرها أنه لن يدخلها أحد. فالعاقل مَنْ نَظَرَ إلى ما وراء التكاليف، حيث تكون الحقائق، ونظر إلى أن هذه التكاليف مؤقتة بعمره المحدود بسنوات معدودات، وأن العواقب دائمة مؤكدة، إذ يُدْبِح الموت في أول لحظة يَسْتَقِرُّ فيها أهل الجنة بنعيمهم، حتى لا يشعروا بمنغص يكدر عليهم نعيمهم، وهو خشيتهم من الإخراج من هذا النعيم.

والأحقق: هو الذي تَحُجُّبُهُ وتَصُدُّهُ عن الجنة هذه التكاليف الشرعية التي اقتضتها حكمة الشارع الحكيم للاختبار ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.

وإن الله عز وجل خَلَقَ النَّارَ، وجعل فيها من العذاب لأهلها «لو أن قطرة من الرُّقُومِ قَطَرَتْ في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم، فكيف بمن يكون

بها فَحُفَّتْ بالمكاره، فقال: اَرْجِعْ إليها، فانْظُرْ إلى ما أعددتُ لأهلها فيها، قال: فرجع إليها فإذا هي قد حُفَّتْ بالمكاره، فرجع إليه فقال: وعِزَّتِكَ لقد خِفْتُ أن لا يدْخُلَهَا أحد.

طعامه؟!»^(١). ووصفها تعالى بقوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ إلى ما هنالك، أعاذنا الله منها بمنه وكرمه، بحيث لا يَسْمَعُ أحدٌ ببعض ما فيها إلا وتَجَنَّبَ طريقها وكلُّ ما يؤدِّي إليها.

لكنه تعالى - بحكمته - حفَّ طريقها بالشهوات العاجلة، وزَيَّنَّها لناظرِها، فبادروا إليه، ونَسُوا عاقبتها الْمُخِيفَةَ وويلاتها الدائمة.

فالعَاقِلُ من نَظَرَ إلى حقيقتها وعاقبتها، ولم تَغْرِه زخارفها، ولم تَخْدَعه الستائر البراقة التي عليها.

وما مَثَلُ الجنةِ وما حُفَّتْ به، والنارِ وما حُفَّتْ به إلا كَقِطْعَةِ حلوى لذيذةٍ فيها شفاءٌ صاحبها وبرؤه من المرض، لكنَّ عليها ذَرَاتٌ من غبار، تحتاج إلى إزَالَةٍ عنها، ثم تناولها.

وإلى جانبها لَقْمَةٌ من السَّمِّ الزُّعَافِ القاتل لساعته، وعليها قِشْرَةٌ رقيقةٌ من الطَّعْمِ الحُلُوِّ الخَلَّابِ.

فإزَالَةُ ذرات الغبار عن الحلوى اللذيذة: تحتاجُ إلى تَأَنٍّ ووقت، وفيها العاقبة الحسنة والبَلَسَمُ الشافي. واللونُ الحُلُوُّ والطعمُ الحُلُوُّ يجذِبُ الأحمق أو الطفل الصغير الذي لا يدركُ العواقبَ إلى تناوله، فأوَّلُ ما يُصِيبُ لسانَه يجده حلوًا، ولا يَتِمُّ شعوره بحلاوته إلا ويسقطُ على الأرض ميتاً بُسْمَهُ.

وإن الله تعالى يُنادينا صباحَ مساءً: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾.

قال الراغب الأصفهاني رحمه الله في «مفرداته» ص ٣٥٩: «الغُرور: كلُّ ما يَغُرُّ الإنسانَ من مالٍ وجاهٍ وشهوةٍ وشيطان، وقد فُسِّرَ بالشيطان، إذ هو أَخْبَثُ

قال: اذهب إلى النار فانظر إليها، وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فإذا هي يركب بعضها بعضاً، فرجع إليه فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها. فأمر بها فحُفَّت بالشهوات، فقال: ارجع إليها، فرجع إليها فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها».

الغارين، وبالديناء، لما قيل: الدنيا تغر وتضر وتمر أي: تمضي وتنتهي.

روى البخاري في كتاب الرقاق من صحيحه ١٠: ٣٢٠ عن أبي هريرة، ومسلم أول كتاب صفة الجنة ونعيمها ١٧: ١٦٥ بشرحه عن أبي هريرة أيضاً وعن أنس، عن النبي ﷺ أنه قال «حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات» ولفظ البخاري: «حُجِبَتْ» في الموضعين.

قال الإمام النووي رحمه الله: «معناه: لا يُوصَل الجنة إلا بارتكاب المكاره، والنار بالشهوات، وكذلك هما محجوبتان بهما، فمن هتَكَ الحجاب وصل إلى المحجوب، فهتَكَ حجاب الجنة: باقتحام المكاره، وهتَكَ حجاب النار: بارتكاب الشهوات، فأما المكاره: فيدخل فيها الاجتهاد في العبادة والمواظبة عليها والصبر على مشاقها، وكظم الغيظ، والعفو والحلم والصدقة، والإحسان إلى المسيء، والصبر عن الشهوات، ونحو ذلك».

«وأما الشهوات التي النار محفوفة بها: فالظاهر أنها الشهوات المحرمة، كالخمر والزنا، والنظر إلى الأجنبية، والغيبة، واستعمال الملاهي، ونحو ذلك. وأما الشهوات المباحة فلا تدخل في هذه، لكن يُكره الإكثار منها مخافة أن يجر إلى المحرمة أو يُقْسِي القلب، أو يشغل عن الطاعات، أو يُحوِّج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا للمصرف فيها، ونحو ذلك».

وقال المناوي رحمه الله في «فيض القدير» ١: ٣٨٩: «هذا تمثيل حسن، معناه: يُوصَل إلى الجنة: بارتكاب المكاره، من: الجُهد في الطاعة، والصبر عن الشهوة، كما يُوصَل المحجوب عن الشيء إليه بهتَكَ حجابهِ، ويُوصَل إلى النار بارتكاب الشهوات، ومن المكاره: الصبر على المصائب بأنواعها، فكلما صبر على واحدة قَطَعَ حجاباً من حُجُب الجنة، ولا يزال يقطع حُجُبها حتى لا يبقى بينه وبينها إلا مفارقة روحه بدنه، فيقال: «يا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي»».

٧٨ - عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي».

٧٨ - تخريجه: رواه مسلم في كتاب التوبة - باب سَعَةِ رحمة الله تعالى وأنها تغلب غضبه ٤: ٢١٠٨ (١٥)، والنووي ١٧: ٦٨. وأحمد في «المسند» ٢: ٢٤٢. ورواه البخاري أول كتاب بدء الخلق ٦: ٢٨٧ (٣١٩٤) لكن بلفظ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه - فهو عنده فوق العرش -: إن رحمتي غلبت غضبي» فهو نبوي لا قدسي، وهو بلفظ البخاري في مسلم الموضع السابق. معناه: عهد الله عز وجل - وهو أصدق القائلين - على نفسه أن رحمته تسبق غضبه، وتغلبه. وجاء هذا الفعل في الأحاديث بلفظ الماضي ولفظ المضارع: سبقت وغلبت، وتغلب، إشارة إلى وقوع ذلك في الماضي الغابر، واستمراره في المستقبل الحاضر.

فالسُّبْقُ في الماضي: خَلَقَهُ آدَمُ عليه الصلاة والسلام بيده، وتكريمه بذلك، وكونه في الجنة، وإيناسه بحواء عليها السلام، ولما بَدَرَ من آدَمَ ما بدر تاب الله عليه، وكرمه بالوحي الإلهي وإنزال صحف عليه فيها الهداية لذريته من بعده. ﴿فلنا اهبطوا منها جميعاً فإمّا يأتينكم مني هُدًى فمن تبع هُذًى فلا خوفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنُونَ. والذين كَفَرُوا وكَذَّبُوا بآياتِنَا أولئك أصحابُ النارِ هم فيها خالدون﴾.

قال الطَّيْبِيُّ رحمه الله - كما في «الفتح» ٦: ٢٩٢ -: «في سَبَقِ الرحمة إشارة إلى أن قِسْطَ الخلق منها أكثرُ من قِسْطهم من الغضب، وأنها تنالهم من غير استحقاق، وأن الغضب لا ينالهم إلا باستحقاق، فالرحمة تشمل الشخص جَنيئاً ورضيعاً وفطيماً وناشئاً قبل أن يصدرَ منه شيء من الطاعة، ولا يلحقه الغضب إلا بعد أن يصدرَ عنه من الذنوب ما يستحقُّ معه ذلك».

وأما الرحمة: فهي كلمة شاملة لكلِّ معاني الخير والإحسان والإفضال، ولهذا يدعى بها للميت فيقال: رحمه الله، لشمولها كلِّ وجوه الخير، فيصيبُ الميتَ وهو محتاج إليه.

وأما الغضب: فيأتي بمعنى: الانتقام، والإعراض، والمعاقبة.
والرحمة والغضب صفتان لله عز وجل لا توصفان بسبق ولا غلبة، إنما آثارهما
توصف بذلك.

قال ابن الأثير رحمه الله في «النهاية» ٣: ٣٧٧: في الحديث: «إشارة إلى
سعة الرحمة وشمولها الخلق، كما يقال: غلب على فلان الكرم، أي: هو أكثر
خصاله، وإلا فرحمة الله وغضبه صفتان راجعتان إلى إرادته للثواب والعقاب،
وصفاته لا توصف بغلبة أحدهما الأخرى، وإنما هو على سبيل المجاز، للمبالغة».
ونحو هذا المعنى قاله الإمام النووي في «شرح مسلم» ١٧: ٦٨ ونسبه إلى
العلماء عامة.

ومن مظاهر سعة رحمة الله عز وجل: ما جاء في الحديث الذي رواه البخاري
١٠: ٤٣١ (٦٠٠٠) ومسلم ١٧: ٦٨ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ
قال: «جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض
جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة - وفي رواية
البخاري: الفرس - حافرها عن ولدها خشية أن تُصيبه».

وكان ﷺ يتخول أصحابه أن يُريهم أثراً من آثار هذا الجزء الواحد للرحمة
الإلهية. فروى البخاري ١٠: ٤٢٦ (٥٩٩٩) ومسلم ١٧: ٧٠ - واللفظ له - عن
سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: قُدم على رسول الله ﷺ بسبي، فإذا
امرأة من السبي تبغي، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فالصقته ببطنها وأرضعته،
فقال لنا رسول الله ﷺ: «أترؤن هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا والله،
وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال رسول الله ﷺ: «لله أرحم بعباده من هذه
بولدها».

وروى البخاري ١١: ٣٠١ (٦٤٦٩) جزءاً من حديث، وهو عند مسلم ١٧:
٧٠ حديث مستقل، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لو يعلم
المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من
الرحمة ما قنط من جنته أحد».

٧٩- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوتِرْتُ بِالْمَتَكَبِّرِينَ وَالْمَتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ:

٧٩- تخريجه: رواه البخاري في التفسير - تفسير سورة ق باب: «وتقول هل من مزيد» ٨: ٥٩٥ (٤٨٥٠)، وغيره، ورواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها - باب النار يدخلها الجبارون ٤: ٢١٨٦ (٣٥، ٣٦) وشرح النووي ١٧: ١٨١ - ١٨٤.

غريبه: المتكبرين والمتجبرين: في «الفتح»: المتكبر: المتعاضم بما ليس فيه، والمتجبر: الممنوع الذي لا يُوصَل إليه.

سَقَطُهُمْ: ضعفاؤهم والمحتقرون منهم.

يُزَوَّى: يجتمع وينضم.

يُنشَأ: يخلق خلقاً جديداً.

قط قط: قال النووي: «حسي يكفيني هذا، وفيه ثلاث لغات: بإسكان الطاء، وبكسرهما مُنَوْنَةٌ وغير مُنَوْنَةٌ».

معناه: تحاجت الجنة والنار: أي: تجادلتا وتخاصمتا إلى الله عز وجل. وقوله عليه الصلاة والسلام: تحاجت، وقالت النار، وقالت الجنة، وتقول - النار -: كل هذا من باب الحقيقة لا المجاز، وهو على ظاهره فلا تأويل، كما تقدّم الكلام عليه بإيجاز مع شيء من الأدلة في شرح حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، رقم ١٢.

وكانت شكوى النار: أنها خُصَّتْ بِالْمَتَكَبِّرِينَ وَالْمَتَجَبِّرِينَ! فالمتصفون بهذه الصفة: الترفع عن الناس والتعالي عليهم، يُشْتَكَى منهم، حتى إن نار جهنم لَتَشْتَكِي: لم لا يدخلها إلا هم!.

أنت رحمتي أرحمُ بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي، أُعَذِّبُ بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدٍ منهما مِلْؤُها.
فأما النار: فلا تَمْتَلِئُ حتى يَضَعَ رِجْلَهُ فتقول: قَطُّ، قَطُّ، قَطُّ،

واشتكت الجنة: لَمْ خُصَّتْ بالضعفاء والعَجْزة والمحتقرين. أي: هذه صفاتهم في أعين الناس وميزانهم، أما عند الله عز وجل فهم كرام الناس: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ﴾. ولا ريب أن هذه الصفات هي صفات غالب أهل الجنة وأهل النار.

فبين الله عز وجل للنار مهمتها ووظيفتها: أنها دارٌ مَنْ شاء الله عذابه، ولها مِلْؤُها وكفايتها.

وبين للجنة كذلك: أنها دارٌ مَنْ يشاء رحمته وكرامته، ولها مِلْؤُها وكفايتها.
أما النار فتمتلئ، لأنها مظهرُ العذاب والغضب الإلهي، أما الجنة فلا تمتلئ حتى يُنْشِئَ الله عز وجل لها خلقاً يملأونها، ذلك لأن رحمة الله تغلب غضبه، فلذلك قال: «ولكل واحدٍ منهما مِلْؤُها».

ثم ذكر كيف يكون امتلاء النار حتى تقول كلمة الممتلئ الذي لا يتحمل الزيادة: قَطُّ، وتكررها ثلاث مرات، إيذاناً بشدة امتلائها.

وقوله «حتى يَضَعَ رِجْلَهُ»: قال النووي رحمه الله: «هذا الحديث من مشاهير أحاديث الصفات، والعلماء فيها على مذهبين، أحدهما - وهو قول جمهور السلف وطائفة من المتكلمين -: أنه لا يُتَكَلَّمُ في تأويلها، بل نؤمن أنها حق، على ما أراد الله، ولها معنى يليقُ بها، وظاهرها غير مراد. والثاني - وهو قول جمهور المتكلمين -: أنها تُتَأَوَّلُ بحسب ما يليقُ بها». ثم نقل عن القاضي عياض رحمه الله قوله: «قالوا - أي كافة العلماء المأولين وغيرهم -: ولا بد من صرفه عن ظاهره، لقيام الدليل القطعي العقلي على استحالة الجارحة على الله تعالى».

وأما الجنة: فتمتلئ بمن يُنْشِئُهُ الله تعالى من جديد، أما قبل ذلك فيكون فيها فضلٌ وزيادة، كما جاءت في الرواية الثانية للبخاري: «ولا تَزَالُ الجنةُ تَفْضُلُ حتى يُنْشِئَ الله لها خلقاً فيُسْكَنُهم فضل الجنة».

فهنا لك تمتلىء، ويُزَوَّى بعضها إلى بعض، ولا يَظْلِمُ الله عزَّ وجلَّ من خَلَقه أحداً.

وأما الجنة: فإن الله عز وجل يُنْشِئُ لها خَلْقاً.

قال الحافظ في شرح «تفضل» ١٣ : ٣٧١ : «كذا بصيغة الفعل المضارع، ووقع في رواية المستملي بموحدة مكسورة وفاء مفتوحة وضاد معجمة ساكنة، وكأن الباء للمصاحبة». أي: في رواية المستملي: بِفَضْلٍ، أي: بزيادة.

وقال النووي رحمه الله: «قوله ﷺ: وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً: هذا دليل لأهل السنة أن الثواب ليس متوقفاً على الأعمال، فإن هؤلاء يُخْلَقُونَ حينئذٍ وَيُعْطَوْنَ في الجنة ما يُعْطَوْنَ بغير عمل، ومثله أمرُ الأطفال والمجانين الذين لم يعملوا طاعة قط، فكلُّهم في الجنة برحمة الله تعالى وفضله».

* * *

٨٠- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، والخيرُ

٨٠- تخريجه: رواه البخاري في مواضع من «صحيحه»، منها كتاب الرقاق - باب قوله عز وجل: ﴿إِنْ زُلْزِلَتِ السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ ١١: ٣٨٨ (٦٥٣٠) وهنا شرحه ابن حجر، ومسلم آخر كتاب الإيمان - باب بيان كون هذه الأمة نصف أهل الجنة ١: ٢٠١ (٣٧٩)، وشرح النووي ٣: ٩٧، واللفظ له.

غريبه: بَعَثَ النار: مصدر أريد به اسم المفعول، أي: مبعوث النار، فمعناه: ميّز أهل النار من غيرهم، من ذريتك.

شطر: كلمة تطلق على الجزء مطلقاً، وعلى النصف، وهو المراد هنا.
الرّقمة: قطعة بيضاء تكون في باطن عضو الحمار والفرس، وتكون في قوائم الشاة. نقله في «الفتح» ١١: ٣٨٨ عن ابن التين.

معناه: في هذا الحديث حكاية لمشهد يكون من أوائل مشاهد يوم القيامة ومواقفها، كما يشير إليه الحديث الذي رواه البخاري قبله مباشرة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «أولُ مَنْ يُدْعَى يوم القيامة آدم، فترأى ذريته، فيقال: هذا أبوكم آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: أخرج بَعَثَ جهنم من ذريتك...».

وأصرح منه: حديث مسلم ١٨: ٧٥ - ٧٦، عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، وفيه: ذكرُ الدجال وهلاكه، ثم الريحُ الباردة تَقْبِضُ أرواح المؤمنين، ثم النفخة الأولى، ثم الثانية قال: «فإذا هم قيامٌ ينظرون، ثم يُقال: يا أيها الناس هلمّ إلى ربكم، وقفّوهم إنهم مسؤولون، ثم يقال: أخرجوا بَعَثَ النار، فيقال: من كم؟...».

في يدك، قال: يقول: أَخْرِجْ بَعَثَ النار، قال: وما بَعَثَ النار؟ قال: من كلِّ ألفٍ تسعمائةٍ وتسعةً وتسعين. قال: فذاك حين يَشِيب الصغير،

وما أشدُّه من موقفٍ! وما أثقله على القلب! أن يقدِّم الأبُ أبناءه إلى نار جهنم الخالدة المؤبدة! لكن لما كان الكفر قاطعاً للرَّجْم في عرف أهل الإيمان، ولما كان آدم عليه الصلاة والسلام يعرفهم من قبل، ويعرف أنهم من أهل الشقاوة والنار، هان الأمر عليه.

ومن المعلوم أن نبينا محمداً ﷺ قد رأى آدم عليه السلام ليلة الإسراء في السماء الدنيا، وعن يمينه أسودة، هم أهل اليمين والنجاة، وعن شماله أسودة هم أهل الشمال والهلاك. فهو عارف بهذه النتيجة.

ثم إنه نبيُّ الله، وتنفيذ أوامر الله أحبُّ إليه من كلِّ حبيب.

فَيُؤَمِّرُ أن يقدِّم إلى النار من أهل الموقف - وكلُّهم من ذريته - تسعمائة وتسعة وتسعين شخصاً من كل ألف، فماذا بقي؟ اللهم اجعلنا من الناجين بفضلِكَ يا أكرم الأكرمين.

فلذلك يشتدُّ الأمر على الناس، ويأخذ الهولُ منهم كلَّ مأخذ، ويكون حالُّهم بحيث لو قُورِن بحال الدنيا لكان يَشِيبُ الصغيرُ قبلَ أوانٍ شبيه، وتضعُ الحامل قبل أوان وضعها، ولا ترى إلا امرءاً غَطَّتْ الأهوال عقله وفكره، يتخبط في أموره تخبط السكران، وما هو سكران! ومعلوم أن القيامة ليس فيها حَمْلٌ ولا رَضاع. فما في الحديث الشريف هو من المجاز وتقريب الأمور الغيبية إلى الواقع الحسي. هذا قول.

وقيل: إن هذه الأمور الثلاثة تحصل للناس في الدنيا، وذلك في آخر لحظاتهم فيها، وحدَّدَ الحافظ ابن حجر وقتها بين النفختين، وكلامه اللاحق يُشعر بميله إلى هذا، وقال قبله احتمالاً آخر: «يَحْتَمِلُ أن يُحمل على حقيقته، فإن كل أحد يُبعث على ما مات عليه، فُتَبَعُ الحاملُ حاملاً، والمرضعُ مرضعاً، والطفلُ طفلاً، فإذا وقعت زلزلة الساعة، وقيل ذلك لآدم، ورأى الناس آدمَ وسمعوا ما قيل له: وَقَعَ بهم من الوجَل ما يَسْقُط معه الحمل، وَيَشِيبُ له الطفل، وتَذْهَلُ به المَرْضَعَةُ».

وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ. قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا، وَمِنْكُمْ رَجُلٌ. قَالَ: ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ،

وصدَّرَ هذا الاحتمال بـ «أقول» فأشعرَ بأنه قائلٌ لهذا الاحتمال من عنده غيرُ مسبوق به، مع أن الفخر الرازي حكاه في تفسير أول سورة الحج عن القفال. والله أعلم.

ومهما يكن من احتمالات وتفسيرات: فـ ﴿إِنْ زَلَزَلَتِ السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾. وهو يومٌ وصفه الله عز وجل: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾. وذلك لما يكون فيه من عظام الأمور ومنها ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ وهذا أمر حاصل لا محالة ولا مفر منه ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾.

وذكرتُ قبل قليل حديثَ أبي هريرة الذي رواه البخاري، وفيه أنه يقال لآدم: «أُخْرِجْ بَعَثْ جَهَنَّمَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ» فقوله «مِنْ ذُرِّيَّتِكَ»: صريحٌ في أن يأجوج ومأجوج من ذرية آدم عليه الصلاة والسلام ومن نسله^(١).

ثم جاءت البشارة النبوية، وتخفيف الوطأة عن قلوب الصحابة رضي الله عنهم: «أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا، وَمِنْكُمْ رَجُلٌ» واحدٌ مقابل الألف، يدخل النار.

ثم زادهم ﷺ بشارةً مقرونة بالقَسَمِ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فسُرَّ الصحابة رضي الله عنهم وكَبُرُوا الله وحَمِدُوهُ، فجاءت بشارةً

١ - وقولُ كعبٍ الأحمريِّ إنهم من ولد آدم من غير حواء: رَدُّهُ ابن كثير في «تفسيره» وأواخر تفسير سورة الكهف، واستغربَ من النووي - رحمهما الله - حكايتَه في «شرح مسلم» ٣: ٩٨ دون أن يتعقَّبه. وهو الصواب، وتأويلُ الحافظ له في «الفتح» ١٣: ١٠٦: فيه تكلف، ولا يعرف هذا عن غير كعب. وكلامُ النووي في «فتاويه» ص ١٨٣ سليم لا شيء فيه، ونقلُ الحافظ عنه في «الفتح» ١٣: ١٠٧: فيه عكسٌ وقلب له، كان في نسخةِ الحافظ من «الفتاوى» خللاً، أو أنه يكتب من ذاكرته؟.

فحمدنا الله وكبرنا، ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة، فحمدنا الله وكبرنا، ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة. إن مثلكم في الأمم كمثل الشجرة

أعلى منها مع القسَم أيضاً: «إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة» فحمدوا الله وكبروه، ثم البشارة العظمى: «إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة». وإن الله عز وجل أكرم من أن يُخَيَّب طمع حبيبه الأعظم المصطفى ﷺ، فهو طمع محقق، بفضل الله تعالى.

وهل بعد النصف مطعم آخر؟

أقول: وردت روايات ضعيفة ذكرها الحافظ ابن حجر رحمه الله في «الفتح» ١١: ٣٨٧ تفيد بمجموعها القول بحصول الزيادة على نسبة نصف أهل الجنة لهذه الأمة المحمدية، كرامة من الله تعالى لنبيها سيد الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وعليهم وسلم أجمعين.

وتصل الزيادة إلى الثلثين. ويتأيد ذلك بحديث: «أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون منها من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم». رواه الترمذي ٧: ٢٢٥ (٢٥٤٩) وغيره عن بُريدة بن الحُصيب مرفوعاً وقال: حديث حسن^(١)، وورد بهذا اللفظ وبنحوه عن ابن مسعود عند أحمد ١: ٤٥٣، وهو حسن أيضاً، وعن ابن عباس عند الطبراني ١٠: ٣٤٨ (١٠٦٨٢)، وعن معاوية بن حيدة القشيري عند الطبراني أيضاً.

وها هنا فائدة. إن النزول عندما يقسمه الله تعالى ويهيؤه لعباده، والرضا به، والاعتراف لله تعالى بالفضل فيه، فينتج عنه حمده وشكره: إن هذا الموقف من العباد يستنزل من الله خيره وبركته.

وهذا مستفاد من فعل الصحابة رضي الله عنهم، لما أخبرهم عليه الصلاة والسلام بأنهم ربع أهل الجنة: رَضُوا بهذا الفضل الإلهي والعطاء الجزيل، فكبروا الله وحمدوه على منته، فأوحى الله تعالى إلى نبيه وحبيبه، أن يبشرهم بالزيادة،

١ - ولم يصححه، كما نقله عنه ابن حجر في «الفتح» ١١: ٣٨٨.

البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالرُقْمَة في ذراع الحمار».

فبشرهم أنهم ثلثُ أهل الجنة، فزادوا على شكرهم شكراً، فزادهم الله فضلاً على فضل.

فعلى المسلم أن يكون مع الله تعالى دائماً بالحمد والشكر على ما يُؤليه من نِعَم، فإنه هو المنعم المتفضل، وإلا فأَيُّ حقٍّ له عليه!!.



٨١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ قال: «إن عبداً أصاب ذنباً - وربما قال: أذنب ذنباً - فقال: رب أذنبت ذنباً -

٨١- تخريجه: رواه البخاري في كتاب التوحيد - باب ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ ١٣ : ٤٦٦ (٧٥٠٧). ومسلم في كتاب التوبة - باب قبول التوبة من الذنوب ٤ : ٢١١٢ (٢٩) وشرح النووي ١٧ : ٧٥.

معناه: في هذا الحديث الشريف دلالة على عظيم فضل الله تعالى على عباده، من وجه آخر، فليست التوبة لمن أذنب وتاب مرة واحدة، إنما الله يتوب على من تاب إليه ولو بعد عودته إلى الذنب مرات ومرات، فكلما أحدث ذنباً أحدث توبة، وكلما عاد إلى الذنب نفسه أو غيره جدد التوبة - بشروطها - فإن الله من فضله ورأفته بعباده يقبل منهم هذا العود والتكرار لها.

قال في «الفتح» ١٣ : ٤٧١: «قال القرطبي في «المفهم»: يدل هذا الحديث على عظيم فائدة الاستغفار، وعلى عظيم فضل الله وسعة رحمته وحلمه وكرمه، لكن هذا الاستغفار هو الذي ثبت معناه في القلب مقارناً للسان، لينحل به عقد الإصرار - على الذنب - ويحصل معه الندم، فهو ترجمة للتوبة. ويشهد له حديث «خيركم كل مُفْتَنٍ تَوَّابٍ»^(١). ومعناه: الذي يتكرر منه الذنب والتوبة، فكلما وقع

١- سيعزوه الحافظ بعد أسطر إلى «الفردوس» للدليمي ٢ : ١٧٣ (٢٨٦٢)، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» كلاهما عن علي رضي الله عنه، وفيه راو مجهول، وفي «المسند» ٣ : ٨٠، ١٠٣ من زوائد عبد الله، عن علي مرفوعاً: «إن الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب» وعزاه الهيثمي في «المجمع» ١٠ : ٢٠٠ إلى أبي يعلى أيضاً وقال: «فيه من لم أعرفه»، وفي «الحلية» ٣ : ٢١١ عن ابن عباس مرفوعاً: «إن المؤمن خلق مُفْتَنٌ تَوَّابٌ نَسِيًّا إِذَا ذُكِرَ ذَكَرٌ» وفيه عتبة بن يقظان ضعيف. انظر «شرح الإحياء» ٨ : ٥٩٥. ويمكن بهذه الروايات تحسين الحديث.

ومعنى المفتن: العبد الممتحن، يمتحنه الله تعالى بالذنوب، ثم يتوب، ثم يعود ثم يتوب، =

وربما قال: أَصَبْتُ - فَاغْفِرْ لِي، فقال رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنْ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي.

ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنباً - أو: أذنب ذنباً - فقال: رَبِّ أَذْنِبْتُ - أو: أَصَبْتُ - آخَرَ فَاغْفِرْهُ، فقال: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنْ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي.

ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنباً - وربما قال: أصاب ذنباً - فقال: رَبِّ أَصَبْتُ - أو قال: أذنبْتُ - آخَرَ فَاغْفِرْهُ، فقال: أَعَلِمَ عَبْدِي

في الذنب عاد إلى التوبة، لا مَنْ قال: أَسْتَغْفِرُ الله، بلسانه، وقلبه مُصِرٌّ على تلك المعصية، فهذا الذي استغفاره يحتاج إلى استغفار».

وفي قبول الله تعالى توبة العبد مع تكرُّر عَوْدِهِ إلى الذنب إشكالٌ، وضَّحه القرطبي نفسه وأجاب عنه، وهذا كلامه، كما في «الفتح»: «قال القرطبي: وفائدة هذا الحديث أن العَوْدَ إلى الذنب وإن كان أقْبَحَ من ابتدائه لأنه انضاف إلى ملازمة الذنب نقضُ التوبة، لكن العَوْدَ إلى التوبة أحسنُ من ابتدائها، لأنه انضاف إليها ملازمة الطلب من الكريم، والإلحاح في سؤاله، والاعتراف بأنه لا غافرَ للذنب سواه».

فالإشكال: نقضُ التوبة، فكيف تُقبلُ توبةٌ ناقضُ العهدِ مع ربه؟.

والجواب: تكرُّر العَوْدِ إلى الله وسؤاله المغفرة، والشعورُ من المذنب أنه عبدٌ خطيء، له ربٌّ محاسبٌ مؤاخِذٌ له بالذنب.

وهذا الشعور: من مَحْضِ الإيمان، لذلك كرَّرَ الله عز وجل قوله في الحديث: «أَعَلِمَ عَبْدِي أَنْ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟» وكان جزاؤه: «غفرت لعبدي».

= وهكذا. وقد يدخل الشيطان على قلب الإنسان من هذا الطريق، فعلى الثائب مراجعة كلام الإمام الغزالي في كتاب التوبة من «الإحياء» فإنه نفيس.

أن له رباً يغفر الذنب ويأخذُ به؟ غفرتُ لعبدي - ثلاثاً - فليعملُ ما شاء».

وهذا المعنى نفسه موجود في الدعاء، فالداعي يعترف أنه عبد، وأن له رباً يدعو، فلذلك سَمَّى النبي ﷺ الدعاء عبادة بقوله «الدعاء هو العبادة»^(١) وفي رواية «الدعاء مخُّ العبادة»^(٢). وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ: ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾. والمعنى: إن الذين يستكبرون عن دعائي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ صَاغِرِينَ.

وأما قوله آخر الحديث: «فليعملُ ما شاء»: فليس من باب إباحة المحرمات، إنما هو مشروط باستمراره على الحال التي هو فيها، وهي التوبة بعد الوقوع في الذنب، قال الإمام النووي رحمه الله: «معناه: ما دمتُ تَذُنُّبُ ثم تتوبُ غفرتُ لك».

وقال قبل سطر: «لو تَكَرَّرَ الذَّنْبُ مائة مرة، أو ألف مرة، أو أكثر، وتاب في كلِّ مرة، قُبِلَتْ توبته وَسَقَطَتْ ذنوبه، ولو تاب عن الجميع توبةً واحدة صحت توبته».

قلت: ولا تنسَ أن التوبة التي تصحُّ وتُسْقَطُ الذنوب هي التوبة المستوفية للشروط: الإقلاع عن الذنب في الحال، والندم على ما فات في الماضي، والعزم على عدم العودة إليه في المستقبل، قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» ص ٣٤٥ في شرح هذه الجملة: «والمعنى: ما دام على هذا الحال: كلما أذنب استغفر. والظاهر أن مراده الاستغفار المَقْرُونُ بعدم الإصرار... وأما الاستغفار باللسان مع إصرار القلب على الذنب فهو دعاء مجرد، إن شاء الله أجابه، وإن شاء رُدَّه، وقد يكون الإصرار مانعاً من الإجابة...».

فإن استوفيت الشروط أسقطتِ الذنوب، فإن عاد إلى الذنب وأتبعه بتوبة ثانية كهذه قبلتُ منه، وهكذا. والله غفور رحيم، وعليهم بذات الصدور.



١ - رواهما الترمذي ٩: ٩٢ وقال عن الأول: حسن صحيح، أما الثاني: ففيه ابن لهيعة وهو ضعيف. وسبق منه رواية الأول في ٨: ١٦٣.

٨٢- عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل قال: «قال: إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك: فمن هم بحسنة فلم يعمَلها

٨٢- تخريجه: رواه البخاري في الرقاق - باب من هم بحسنة أو سيئة ١١: ٣٢٣ (٦٤٩١)، وغيره، ورواه مسلم بألفاظ كثيرة في كتاب الإيمان - باب إذا هم العبد بحسنة كتبت ١: ١١٧ - ١١٨ (٢٠٣ - ٢٠٥)، و«شرح النووي ٢: ١٤٧».

معناه: في هذا الحديث الشريف لون آخر من ألوان الفضل الإلهي على العباد، فيه بيان إكرام الله وعطائه الجزيل لمن أحسن، وتجاوزه عن بعض حالات المسيء، وفيه بيان عظم أجر الخوف من الله تعالى، وذلك في قوله في الرواية الأخرى التي عند البخاري في كتاب التوحيد ١٣: ٤٦٥ (٧٥٠١) عن أبي هريرة: «وإن تركها - أي السيئة - من أجلي فاكتبوها له حسنة».

وقد صُدِّرت احتمالات عمَل العبد هنا بـ «هم»، وصُدِّرت في رواية أبي هريرة المشار إليها عند البخاري بـ: «أراد». وهذا هو دليل الراغب الأصفهاني رحمه الله في جعله الإرادة هي الهمة، وذلك في كتابه «الذريعة» حيث قال فيه ص ٤٦: «أول ما يعرض: السانح، ثم الخاطر، ... ثم الإرادة، ثم العزم، ثم العمل. فالسانح علّة الخاطر، والباطن علّة الإرادة، والإرادة وهي الهمة علّة العزم، فالسانح والباطن يعبر عنهما بالهاجس، والهاجس متجاوز عنه ما لم يصِر إرادة وعزماً».

فالمراحل عنده خمسة، والإرادة والهمة شيء واحد، لكن نقل عنه العلامة ابن عابدين في «حاشيته» الشهيرة ٢: ١٥٨ أن المراحل سبعة: «السانح، ثم الخاطر، ثم الفكر، ثم الإرادة، ثم الهمة، ثم العزم» أي: ثم العمل المذكور في كلامه السابق.

ونقل العلامة الفقيه ابن حجر المكي في «شرحه على الأربعين النووية» ص ٢٦٦ عن «الأجوبة الحلبيات» للإمام تقي الدين السبكي رحمهما الله تعالى أن مراحل العمل لشيء ما ستة: الهاجس، الخاطر، حديث النفس، الهم، العزم، الفعل.

وقد قال الراغب في «مفرداته» عن الإرادة هي منقولة من: راد يروء، إذا سعى في طلب شيء، والإرادة في الأصل: قوة مركبة من: شهوة، حاجة، وأمل، وجعل اسماً لنزوع النفس إلى الشيء مع الحكم فيه بأنه ينبغي أن يفعل أو لا يفعل. . إلى آخر كلامه.

وقد رأيت للشيخ للإمام ابن تيمية رحمه الله كلاماً نفيساً مسهباً عن الإرادة والهم المذكورين في هذا الحديث، في «مجموع فتاويه» ١٠: ٧٢٠ - ٧٦٩، أكد فيه أن الإرادة المرادة هنا هي الإرادة الجازمة مع القدرة التامة على الفعل، فإذا لم يقع الفعل مع القدرة التامة عليه، دلّ على أن الإرادة غير جازمة.

ونقل ص ٧٤٠ عن الإمام أحمد قوله: «الهم همّان: همّ خطرات، وهمّ إصرار، فهمّ الخطرات يكون من القادر، فإنه لو كان همّهم إصراراً جازماً وهو قادر لوقع الفعل».

ووجد هذا المعنى في كلام المتأخرين عن الإمام أحمد، ففي «شرح مسلم» للنووي ٢: ١٥١ عن القاضي عياض: «.. فأما الهم الذي لا يكتب: فهي الخواطر التي لا توطّن النفس عليها، ولا يصحبها عقد ولا نية وعزم».

ثم إن حديث ابن عباس هذا يستفاد منه حكم أربعة احتمالات، ويضم إليها احتمال خامس من حديث أبي هريرة الذي تقدمت الإشارة إليه، وها هي ذي:

- ١ - من همّ بحسنة فلم يعملها.
- ٢ - ومن همّ بحسنة فعملها.
- ٣ - ومن همّ بسيئة فلم يعملها خوفاً من الله.
- ٤ - ومن همّ بسيئة فلم يعملها لعدم توافر أسبابها.
- ٥ - ومن همّ بسيئة فعملها.

كتبها الله له عنده حسنة كاملة،

١ - أما الهمُّ: فتقدّم، وأما عدمُ عمله للحسنة فينبغي أن يكون لعائق عَرَض له، أو أن العارض قائم من قبل، كأن ينوي فعل الخيرات والمَبْرَات، لكنه لا يملك مَالاً، فهذا الذي له الحسنةُ كاملةً.

أما إذا همَّ بها ثم فترت همته فلم يعملها: فلا شيء له.

ويدلُّ للوجه الأول - صاحبُ الحسنة الكاملة - حديث الترمذي ٧: ٨١ (٢٣٢٦) - وقال: حسن صحيح - عن أبي كَبْشَةَ الأَنْمَارِي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «... إنما الدنيا لأربعة نفر: عبدٌ رَزَقَهُ الله مَالاً وعِلْماً، فهو يتَّقِي فيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فيهِ رَحْمَهُ، وَيَعْلَمُ الله فيهِ حَقّاً، فهذا بأفضل المنازل، وعبدٌ رَزَقَهُ الله علماً ولم يرزقه مَالاً، فهو صادق النية يقول: لو أن لي مَالاً لَعَمَلْتُ بِعَمَلِ فلان، فهو بِنِيَّتِهِ... فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وعبدٌ رَزَقَهُ الله مَالاً ولم يرزقه علماً، فهو يَخْطِئ في ماله بغير علم، لا يتَّقِي فيهِ رَبَّهُ، ولا يَصِلُ فيهِ رَحْمَهُ، ولا يَعْلَمُ الله فيهِ حَقّاً، فهذا بأخبث المنازل، وعبدٌ لم يرزقه الله مَالاً ولا علماً فهو يقول: لو أن لي مَالاً لَعَمَلْتُ فيهِ بِعَمَلِ فلان، فهو بِنِيَّتِهِ، فوزرُهُمَا سَوَاءٌ».

وللإمام النووي رحمه الله تعالى تنبيهٌ دقيقٌ لقوله «كتبها الله عنده» و«حسنة كاملة»، فقال عَقِبَ ذكرِهِ الحديثِ في «أربعينه» - وهو الحديث السابع والثلاثون فيها - : «فانظر - يا أخي وفُقْنَا الله وإياك - إلى عظيم لطف الله تعالى، وتأملْ هذه الألفاظ، وقوله «عنده»: إشارة إلى الاعتناء بها، وقوله «كاملة» للتأكيد وشدة الاعتناء بها. وقال في السيئة التي همَّ بها ثم تركها «كتبها الله عنده حسنة كاملة» فأكدّها بـ «كاملة»، وإن عملها كتبها سيئة واحدة، فأكدّ تقليلها بواحدة ولم يؤكدّها بكاملة».

وقوله «كتبها الله عنده»: أي أمر الملائكة بكتابة ذلك، كما جاء في رواية أبي هريرة عند البخاري في كتاب التوحيد - وتقدمت الإشارة إليها -: «يقول الله: إذا أراد عبي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها، فإن عملها فاكْتُبُوها بِمِثْلِهَا...».

فهذه الرواية تبين من يباشر الكتابة، تُسند الكتابة إلى الله تعالى باعتبار أنه الأمر بها. وهذا له نظائر كثيرة في الكتاب والسنة.

فَإِنْ هُوَ هُمْ بِهَا فَعَمَلُهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ ، إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعِيفٍ ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ .

وَمَنْ هُمْ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ،

٢ - «فَإِنْ هُوَ هُمْ بِهَا فَعَمَلُهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ ، إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعِيفٍ ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ» .

وهذه الزيادة «إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة» مفسرة لرواية ابن ماجه ١ : ١٢٥٥ عن أبي ذر : «يقول الله : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد» . فهذه زيادة مطلقة ، أما حديث الباب فزيادته مقيدة محددة .

وللحافظ احتمال آخر قاله في «الفتح» ١١ : ٣٢٦ ، فإنه ذكر حديث أبي ذر^(١) وقال : «هذا يدل على أن تضعيف حسنة العمل إلى عشر : مجزوم به ، وما زاد عليها جائز وقوعه بحسب الزيادة في الإخلاص وصدق العزم ، وحضور القلب ، وتعدّي النفع : كالصدقة الجارية ، والعلم النافع ، والسنة الحسنة ، وشرف العمل ونحو ذلك» .

وعلى كل حال فإنه مزيد فضل إلهي يحمل المسلم العاقل على الازدياد من فعل الخيرات ، وتمحيص النيات لله عز وجل .

٣ - «وَمَنْ هُمْ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً» .

فهذا فضل من الله جسيم ، إذ يُثِيب على ترك السيئة والإعراض عن الأذى والكف عن الشر .

ففي الصحيحين : البخاري ١٠ : ٤٤٧ ومسلم ٩ : ٩٤ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «على كل مسلم صدقة» قيل : أرايت إن لم يجد . . . قال : «يُمْسِكُ عن الشر فإنه له صدقة» .

ذلك لأن ترك الشيء ناشئ عن ميل قلبي إلى تركه والإعراض عنه ، وهذا الميل القلبي عمل ، فلذلك قرّر الشرع له جزاء : مثوبة أو عقاباً .

١ - وعزاه إلى مسلم ، حسبما يبدو من سياق كلامه ، ولم أره فيه ، إنما هو في ابن ماجه ٢ : ١٢٥٥ .

وتقدّم في كلام الإمام النووي رحمه الله أنه أكّد الحسنة بقوله «كاملة» لثلاث يَظُنُّ ظانٌّ أن أجر ترك السيئة دون أجر من لم يتمكّن من فعل الحسنة بعد أن همّ بها.

وقد جاء في رواية البخاري المشار إليها قبل، في كتاب التوحيد ١٣ : ٤٦٥ :
«... وإن تركها - أي السيئة - من أجلي فاكتبوها له حسنة».

وجاء مثل هذا القيد في رواية مسلم ٢ : ١٤٨ : «وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جرّاي» أي : من أجلي.

فدلّ على أن عدم عمل السيئة قد يكون خوفاً من الله ومن أجله، وقد يكون لغير ذلك، لعائق دينوي، أو لسمعة، أو لفقر...

فبيّنت الرواية السابقة حكم من ترك السيئة خوفاً من الله عز وجل، وسكتت عن الاحتمال الثاني فما حكمه؟.

حاصل ما في «شرح مسلم» للنووي ٢ : ١٥١ أن من عزم على المعصية بقلبه ووطّن نفسه عليها أثم في اعتقاده وعزمه، ويكتب عليه سيئة، لكن دون سيئة من فعل ونفذ، وهذا قول عامة السلف وأهل العلم من الفقهاء والمحدثين، وعلق على هذا الإمام النووي بقوله : «قد تظاهرت نصوص الشرع بالمؤاخذه بعزم القلب المستقر، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقوله تعالى ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ والآيات في هذا كثيرة، وقد تظاهرت نصوص الشرع وإجماع العلماء على تحريم الحسد واحتقار المسلمين وإرادة المكروه بهم وغير ذلك من أعمال القلوب وعزمها. والله أعلم».

وقال ١٨ : ١٢ في شرح حديث : «إذا التقى المسلمان بسيفيهما..» : «قوله ﷺ : إنه أراد قتل صاحبه فيه دلالة للمذهب الصحيح الذي عليه الجمهور : أن من نوى المعصية وأصرّ على النية يكون آثماً وإن لم يفعلها ولا تكلم».

ونحو هذا في «الفتح» ١١ : ٣٢٦ - ٣٢٧ وذكر هذا الحديث وقال : «والذي

فإن هو همٌ بها فَعَمِلَهَا كتبها الله له سيئة واحدة».

يظهر أنه يُعاقب على عَزَمه بمقدار ما يستحقه، ولا يُعاقب عقاب مَنْ باشر القتل حساً».

٤ - «فإن هو همٌ بها فَعَمِلَهَا كتبها الله له سيئة واحدة».

فأكد السيئة بقوله «واحدة» ولم يؤكدها بقوله: كاملة، تقليلاً لها، كما تقدّم في كلام الإمام النووي.

وهي تُكتب عليه سيئة العمل السيِّء الذي عمله، تمييزاً لها عن سيئة الهمّ دون العمل، كما تقدم قبل أسطر، ومع ذلك فإنها سيئة تحت مشيئة المغفرة.

فقد ساق مسلم عقب روايته الحديث الذي نشرحه رواية أخرى له فيها زيادة في آخر الحديث. ولفظه: «وزاد: أو مَحَاها الله، ولا يَهْلِكُ على الله إلا هالك».

فهذه السيئة الواحدة التي تُكتب عليه بعد كل هذه الإفضالات: قد يَمْحوها الله تعالى عنه، قال في «الفتح»: «والمعنى: أن الله يَمْحوها بالفضل أو بالتوبة، أو بالاستغفار، أو بعمل الحسنة التي تكفّر السيئة».

وأما قوله «ولا يَهْلِكُ على الله إلا هالك» فمعناه: لا يَهْلِكُ مع فضل الله إلا هالك، فـ«على» بمعنى: مع، وفيه مضافٌ محذوفٌ تقديره: فضل. كما أفاده المَدَابِغِيُّ في حاشيته على «الفتح المبين» لابن حجر المكي ص ٢٦٧.

وفي «شرح النووي على مسلم» ٢: ١٥٢: «قال القاضي عياض رحمه الله: معناه: من حُتِمَ هلاكُه وسُدَّتْ عليه أبواب الهدى مع سعة رحمة الله تعالى وكرمه وجَعَلَهُ السيئة حسنة إذا لم يَعْمَلْهَا، وإذا عَمِلَهَا: واحدة، والحسنة إذا لم يَعْمَلْهَا واحدة، وإذا عَمِلَهَا عشراً إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، فمن حُرِمَ هذه السعة وفاته هذا الفضل وكثُرَتْ سيئاته حتى غَلَبَتْ - مع أنها أفراد - حَسَنَاتُه مع أنها متضاعفة: فهو الهالك المحروم. والله أعلم».

فمع كل هذا التجاوز الإلهي من هذا الجانب، ومع كل هذا الإفضال الرباني من هذا الجانب، ويبقى واحد من العباد هالِكاً! إنه لعبْدُ شُرودٍ جداً، لم يدخر لنفسه عند ربّه خبيئة خيرة. عافانا الله.

٨٣ - عن جُنْدُب بن عبد الله البَجَلِيِّ رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ حَدَّثَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: «وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ:

٨٣ - تخريجه: رواه مسلم كتاب البر والصلة - باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى ٤: ٢٠٢٣ (١٠٣٧) وشرح النووي ١٦: ١٧٥.

ورواه أبو داود بلفظ أطول في كتاب الأدب - باب في النهي عن البغي ٥: ٢٠٧ (٤٩٠١)، وسيأتي لفظه في الشرح.

غريبه: يَتَأَلَّى: يَحْلِفُ وَيُقْسِمُ. تَأَلَّى، يَتَأَلَّى، تَأَلَّى: حَلَفَ يَحْلِفُ حَلْفًا. أحبط عمله: أَفْسَدَهُ وَأَبْطَلَهُ، فَلَا يُقْبَلُ.

معناه: من صفات الله عز وجل أنه يَعْفُو وَيَغْفِرُ، ومن أسمائه الحسنى: العَفْوُ الغُفُورُ، وهو يَحِبُّ أَنْ يَعْفُو عَنْ عِبَادِهِ، وَلَا يَحِبُّ مَنْ عَبْدَ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَحْجُرَ وَيَضِيقَ دائرة العفو والمغفرة الإلهية، فَيَدْخُلَ فَلَانًا فِيهَا، وَيَخْرُجَ فَلَانًا مِنْهَا، فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ غُفُورٌ، وَفَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، بِمَقْتَضَى عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ.

وَلَا يَحِبُّ اللَّهُ سَبْحَانَهُ أَنْ يُقْنِطَ إِنْسَانٌ إِنْسَانًا مِنْ سَعَةِ مَغْفِرَتِهِ، بَلْ عَلَى النَّاصِحِ وَالْمَذْكُرِّ وَالِدَاعِيَةِ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَوْسَعَ الْأَمَالَ بِاللَّهِ: بِمَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَفْوِهِ، كَيْ يُقْبَلَ النَّاسُ عَلَى اللَّهِ، وَقَدْ قَالَ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لَمَّا بَعَثَهُمَا إِلَى الْيَمَنِ: «بَشُرَا وَلَا تُنْفَرَا، وَبَشُرَا وَلَا تُعْسَرَا» كَمَا فِي الْبَخَارِيِّ ١٠: ٥٢٤.

بَلْ إِنْ اللَّهُ تَعَالَى يَكْرَهُ الْقَنُوطَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَحْرُمُهُ، وَخَصَّ الْقَنُوطَ بِالْكَافِرِينَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَا يَنْتَظِرُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾.

وَيَكُونُ تَحْجِيرُ مَغْفِرَةِ اللَّهِ أَشَدَّ قَبْحًا عِنْدَ اللَّهِ إِذَا صَدَرَ مِنْ مُتَعَالٍ مُعْجَبٍ بِعَمَلِهِ الصَّالِحِ - فِي ظَاهِرِهِ - كَمَا جَاءَتْ رَاوِيَةُ أَبِي دَاوُدَ الْمَشَارِ إِلَيْهَا فِي التَّخْرِيجِ مُوضَّحَةً لِهَذَا الْمَعْنَى وَمُفَسَّرَةً مَتَمَّةً لِحَدِيثِ الْبَابِ الَّذِي نَشْرَحُهُ، وَلَفْظُهَا:

مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أُغْفِرَ لِفُلَانٍ؟! فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأُحْبِطُ عَمَلَكَ». أو كما قال.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: كان رجلان في بني إسرائيل مُتَوَاحِشَيْنِ، فكان أحدهما يُذنب، والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول: أَقْصِرْ. فوجده يوماً على ذنب، فقال له: أَقْصِرْ، فقال: خَلَنِي وَرَبِّي، أُبْعِثُ عَلَيَّ رَقِيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك. أو: لا يُدْخِلُكَ الله الجنة.

فَقَبِضَ أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أَكُنْتَ بِي عَالِماً؟ أو كُنْتَ عَلَيَّ مَا فِي يَدِي قَادِراً؟.

وقال للمذنب: «اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار».

قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لَتَكَلَّمُ بكلمة أُؤَبِّقَتْ دنياه وآخرته.

فقول المذنب «خَلَنِي وَرَبِّي»: كلمة طامعٍ برحمة ربه.

وقول الآخر «والله لا يغفر الله لك»: كلمة افتيات^(١) على الله في ربوبيته وتصرفه في خلقه، ورجم بالغيب. إذ أن هذا المقصّر مذنب لكنه مسلم، فأعماله كلها داخلية تحت مشيئة المغفرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

لكن قد يفهم بعض البسطاء أو الغافلين عن الله عز وجل من حديث أبي داود وقول الرجل المجتهد في العبادة «أَقْصِرْ» ومن جواب المقصّر «خَلَنِي وَرَبِّي»، أُبْعِثُ عَلَيَّ رَقِيباً؟ قد يفهم بعض الناس تعطيل مشروعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإن هذا المجتهد في العبادة لما أُمِر ونهى: كانت عاقبته إلى إحباط عمله ودخوله النار!.

والجواب: أن إحباط عمله ليس ناشئاً عن أمره ونهيه، إنما حبط عمله لتدخله

١ - في «النهاية» ٣: ٧٧: «يقال لكل من أحدث شيئاً في أمرك دونك: قد افتات عليك فيه».

.....

في شؤون الربوبية، وإن من شؤونها المغفرة لفلان وعدمها في حق آخر... وهذا التدخل لا يكون إلا من معجب بنفسه، غره ما يظنه عملاً صالحاً يعمل به، ولا يجوز تعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنهما من أسهم الإسلام وأركانه. ولهذا أخرج مسلم عقيب حديث: «رَبُّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٌ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ» وحديث: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلُكُمُ». عافانا الله.



٨٤- عن صفوان بن مُحَرَّرِ المازني أحدِ التابعين قال: بَيَّنَّا ابْنَ عَمَرَ رضي الله عنهما يَطُوفُ إِذْ عَرَضَ لَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ

٨٤- تخريجه: رواه البخاري في كتاب التفسير - تفسير سورة هود: باب: ﴿ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كَذَّبُوا عَلَى رَبِّهِمْ...﴾ ٨: ٣٥٣ (٤٦٨٥) وهذا لفظه.

ورواه مسلم: كتاب التوبة - باب قبول توبة القاتل وإن كثر قَتْلُهُ ٤: ٢١٢٠ (٥٢). وشرح النووي ١٧: ٨٦.

غريبه: النجوى: المحادثة سرّاً.

كَنَفَهُ: قال في «الفتح» ١٠: ٤٨٨: «الكنف: الستر، وهو المراد هنا».

الأشهاد: جمع شاهد، مثل صاحب وأصحاب، كما قال الإمام البخاري نفسه، فالمعنى: يقول الأشهاد الحاضرون وقد فَضَحَ الله أمامهم الكافرين: هؤلاء الذين كَذَّبُوا عَلَى رَبِّهِمْ..

معناه: يُعاملُ الله تعالى الحكيمُ في أفعاله الناسَ يومَ القيامةِ كلاً على حَسَبِهِ، وعلى مقتضى حكمته. ومن حيثُ الجملةُ تكون معاملته للكافرين - عموماً - بالفضيحة لهم والمحاسبة العلنية، ومعاملته للمؤمنين - من حيثُ الجملةُ أيضاً - بالستر على مسيئتهم، وبالإكرام العلني لمحسنهم، كمن يُظَلُّهم تحت ظله، أو يُقيمهم على منابرٍ من نور.

ويكفي للتفاوت الكبير بينهم: أن هؤلاء يُعْطُونَ كُتُبَهُمْ بأيمانهم، وهؤلاء بشمائلهم أو من وراء ظهورهم، وهذا يكون علناً للطائفتين.

ومن مواقف ستر الله تعالى على العبد المؤمن العاصي: ما جاء في حديث النجوى، وهو الحديث الذي نحن فيه، وأما ذِكرُ الكافرين فيه وأن خطابهم يكون نداءً لا مُسَارَةً: فهو من باب: وبضدّها تَمَيُّزُ الأشياء، فَلِيُظْهَرَ الله تعالى تمامَ فضله على الصنف الأول ذِكرُ أن الكفرةَ يَفْضَحُهم الله على رؤوس الخلائق ويُنادُونَ:

هل سمعتَ النبي ﷺ في النَّجْوَى؟ فقال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يقول: «يُذْنِي الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيَقْرُرُهُ بِذُنُوبِهِ: تَعْرِفُ ذَنْبَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ، أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ». فهو نداء لعنة، لا نجوى سترًا.

يُذْنِي اللَّهُ تَعَالَى عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنْهُ، وَيُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ، لِمَاذَا؟ مَعَ أَنَّ عَالَمَ الْمَسَافَاتِ لَا وَجُودَ لَهُ بَيْنَ اللَّهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ! قَالَ النَّوَوِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْمَرَادُ بِالذُّنُوبِ هُنَا ذُنُوبُ كَرَامَةِ وَإِحْسَانٍ، لَا ذُنُوبُ مَسَافَةٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى مَنْزَهُ عَنِ الْمَسَافَةِ وَقُرْبِهَا». ونحوه عند ابن حجر ١٠: ٤٨٨.

وهذا الإِدْنَاءُ علامةُ اطمئنانٍ للعبد، أنه من أهل الكرامة والإحسان، فلا خوف عليه. وما أعظمَ وَقَعَ هذه المَقْدَمَاتِ الْمُطْمَئِنِّتَةِ للعبد في ذلك اليوم العسير! وَيَضَعُ اللَّهُ كَنَفَهُ عَلَى الْعَبْدِ. وَكَتَفُ الشَّيْءِ لَغَةٌ: نَاحِيَتُهُ وَجَانِبُهُ وَطَرَفُهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى مَنْزَهُ عَنِ هَذَا الْمَعْنَى اللَّغَوِيِّ، لِذَلِكَ قَالَ الْعُلَمَاءُ بِالْمَعْنَى اللَّغَوِيِّ الْآخَرَ، وَهُوَ السُّتْرُ، قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» ١٠: ٤٨٨: كَنَفُهُ: «أَيُّ: جَانِبُهُ، وَالْكَتَفُ أَيْضاً السُّتْرُ، وَهُوَ الْمَرَادُ هُنَا، وَالْأَوَّلُ - النَّاحِيَةُ - مُجَازٌ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا يَقَالُ: فَلَانِ فِي كَنَفِ فَلَانٍ، أَيْ: فِي حِمَايَتِهِ وَكَلَاءَتِهِ».

ويؤيد هذا المعنى روايةُ البخاري أيضاً ٥: ٩٦: «إِنَّ اللَّهَ يُذْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتَرُهُ». وكذا روايةُ الطبراني التي ذكرها ابن حجر في «الفتح» ١٠: ٤٨٨ أيضاً - وهي على شرطه من الصحة أو الحسن -: «فَيَلْتَفِتُ - أَيْ الْعَبْدُ - يَمَنَةً وَيَسْرَةً فَيَقُولُ: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ، إِنَّكَ فِي سِتْرِي، لَا يَطْلُعُ عَلَى ذُنُوبِكَ غَيْرِي».

ولعل أقدم من فسّر الكنف بالسُّتْرِ الإمام عبد الله بن المبارك، ونقله عنه الإمام البخاري في «خَلْقِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ» (٢٤٨). ولذلك قال النووي: «كَتَفُهُ: هُوَ سِتْرُهُ وَعَفْوُهُ» ولم يقل: المراد: سِتْرُهُ وَعَفْوُهُ، بَلْ قَالَ: هُوَ. . ، وَاَنْظُرْ لِرِزَامًا «لِسَانِ الْعَرَبِ».

وبعد هذا التفضّل بالسُّتْرِ عَلَيْهِ يُقَرَّرُهُ اللَّهُ تَعَالَى بِذُنُوبِهِ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟، وَلِسَانُ حَالِ الْعَبْدِ يَقُولُ:

وَمَا قَابِلْتُ عَتَبَكَ بِاعْتِذَارٍ وَلَكِنِّي أَقُولُ كَمَا تَقُولُ
وَأَطْرُقُ بَابَ عَفْوِكَ بِانْكَسَارٍ وَيَحْكُمُ بَيْنَنَا الْخُلُقُ الْجَمِيلُ

كذا؟ يقول: أَعْرِفْ، يقول: رَبِّ أَعْرِفْ - مرتين -، فيقول: سَتَرْتُهَا فِي الدُّنْيَا، وَأَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، ثُمَّ تُطَوَّى صَحِيفَةُ حَسَنَاتِهِ.

وَأَمَّا الْآخِرُونَ - أَوْ الْكَفَّارُ -: فَيُنَادَى عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ، أَلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

وحينئذٍ يُتِمُّ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ تَفَضُّلَهُ عَلَى الْعَبْدِ بِقَوْلِهِ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ!.

ثُمَّ تُطَوَّى صَحِيفَةُ حَسَنَاتِهِ، وَيُعْطَاهَا.

وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ هَذَا السُّتْرَ الْآخِرِيَّ إِنَّمَا هُوَ لِمَنْ سَتَرَ نَفْسَهُ فَسَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا، أَمَّا مَنْ جَاهَرَ بِالْمَعَاصِي وَالْآثَامِ فِي الدُّنْيَا: فَلَيْسَ لَهُ مِنْ هَذَا التَّفَضُّلِ نَصِيبٌ، إِلَّا إِذَا تَابَ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَتَابَ. وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَحْجِرَ فَضْلَ اللَّهِ الْوَاسِعَ.

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ حَدِيثَ النُّجُودِ هَذَا فِي كِتَابِ الْأَدَبِ - بَابِ سِتْرِ الْمُؤْمِنِ عَلَى نَفْسِهِ ١٠ : ٤٨٦ (٦٠٧٠) وَيجدُرُ التَّنْبِيهُ إِلَى أَنَّ رِوَايَتَهُ لَهُ جَاءَتْ بَعْدَ رِوَايَتِهِ حَدِيثًا آخَرَ، هُوَ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَى إِلَّا الْمَجَاهِرِينَ، وَإِنْ مِنْ الْمَجَاهِرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ عَمِلْتَ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ».

وَهَذَا التَّرْتِيبُ مِنْ رَحِمِهِ اللَّهُ بَيْنَ الْحَدِيثَيْنِ يَفِيدُ صَرَاحَةً مَا قَدَّمْتَهُ: السُّتْرَ الْآخِرِيَّ لِمَنْ سَتَرَ نَفْسَهُ دُونَ الْمَجَاهِرِ. وَنَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ مَا يُسْخِطُ اللَّهَ تَعَالَى.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «وَأَمَّا الْآخِرُونَ - أَوْ الْكَفَّارُ -: فَيُنَادَى...»: فَإِنَّ كَلِمَةَ «الْآخِرُونَ» مَعْنَاهَا: الصَّنَفُ الْآخِرُ، وَهَمَّ الْكَفَّارُ، وَفِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ ٥ : ٩٦: «وَأَمَّا الْكَافِرُونَ وَالْمُنَافِقُونَ...». وَحَكَى الْعَيْنِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ ١٥ : ٢٢٧ ضَبْطًا آخَرَ لِكَلِمَةِ «الْآخِرُونَ» فَقَالَ: «بِالْمَدِّ وَفَتْحِ الْخَاءِ وَكُسْرُهَا، وَيُرْوَى بِالْقَصْرِ وَالْكَسْرِ - (الْآخِرُونَ) -، فَهَمَّ الْمُذْبِرُونَ الْمُتَأَخِّرُونَ عَنِ الْخَيْرِ». وَفِي «الْمُصْبَاحِ»: «الْآخِرُ - وَزَانُ فَرَحٍ - بِمَعْنَى الْمَطْرُودِ الْمُتَبَعِدِ، يَقَالُ: أَبْعَدَ اللَّهُ تَعَالَى الْآخِرَ: أَيِ: مَنْ غَابَ عَنَّا وَيَعُدُّ حَكَمًا، وَفِي حَدِيثٍ مَاعِزٍ: إِنَّ الْآخِرَ زَنَى، يَعْنِي نَفْسَهُ، كَأَنَّهُ مَطْرُودٌ، وَمَدُّ هَمْزَتِهِ خَطَأٌ».

٨٥ - عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فيُنشَرُ عليه تسعة وتسعين سجلاً، كلُّ سَجَلٍ مِثْلُ مَدِّ البَصْرِ ثم يقول: أَتَنكَّرُ من هذا شيئاً؟ أَظْلَمَكَ كَتَبْتِي الحافظون؟»

٨٥ - تخريجه: رواه الترمذي كتاب الإيمان - باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله ٧: ٢٩٥ (٢٦٤١) = ٥: ٢٤ (٢٦٣٩) وقال: حسن غريب، وابن ماجه ٢: ١٤٣٧ (٤٣٠٠)، والحاكم ١: ٥٢٩ وصححه ووافقه الذهبي.

غريبه: السَّجَلُ: الكتاب الكبير.

البطاقة: الورقة الصغيرة.

طاشت السجلات: خُفَّتْ السجلات مع كِبَرِها وثقلها.

معناه: هذا حديثٌ عظيمُ الفضلِ، جليلُ الوقع، يسمَّى عند المحدثين «حديث البطاقة» وقد جَمَعَ طرقَه وألفاظَه بعضُ المحدثين في جزءٍ خاص.

يحدثنا رسول الله ﷺ عن مشهَدٍ من مشاهد القيامة، وموقفٍ من مواقف الفضل الإلهي العظيم، وفيه بيانُ فضيلةِ كلمة التوحيد.

في هذا المشهد: يأتي الله عز وجل برجلٍ من هذه الأمة المحمدية، ويُظهِره للناس جميعاً، ليُظَهِّرَ لهم فضلُ الله وكرمه، وليُقَوِّى أملُ الآملين به.

فَتَقَدَّمَ له صُحُفُه ودواوينه: تسعةٌ وتسعون سجلاً: كتاباً كبيراً، وَصَفَ رسول الله ﷺ كِبَرَه بأن طوله حيث ينتهي بصره في أرضٍ مستوية ﴿ لا تَرى فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً ﴾. فكم يُمَدُّ البصرُ ومتى ينتهي؟

تَقَدَّمَ له صُحُفُه ويُقَرَّر على ما فيها: «أَتَنكَّرُ من هذا شيئاً؟ أَظْلَمَكَ كَتَبْتِي الحافظون؟» فيُقرُّ ويعترف.

فيقول: لا يا رب، فيقول: أَفَلَاكَ عذر؟ فيقول: لا يا رب.

فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظُلمَ عليك اليوم، فتُخرج بطاقةً فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: أَحْضِرْ وَزْنَكَ، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السُّجَلَاتِ؟

ثم يُسْتَعْذَرُ فَيُسَالُ: «أَفَلَاكَ عذر» فيقرُّ ويعترفُ على نفسه بالخطايا والذنوب العظام الجسام، كمّاً وكيفاً، عمداً واختياراً، وأنه لا عذر له.

وإن تقديم الله عز وجل الصحف إلى العبد يطلعُ عليها، إنما هو لإقامة الحجة الإلهية عليه، إذ لا يجبُ على الله تعالى شيء، ومن أول ذاك اليوم يُوقِنُ من فرطُ بأنه قد فرط، ويعلم نتيجةه، فلا حاجة عنده للصُّحُف، لكنه بمحضِ عدلٍ إلهي تُعرض عليه أعماله كلها: صغيرها وكبيرها.

وموقفُ هذا العبد هو الموقفُ الراجح عند أهل العلم: أن العبد إذا قرَّر بذنوبه فالأفضلُ في حقِّه الاعترافُ وعدمُ الاعتذار، وأنشدوا عليه ما تقدم قريباً في شرح حديث النجوى:

وما قابلتُ عَنَبَكَ باعتذارٍ ولكني أقولُ كما تقولُ
وأطرقُ بابَ عفوك بانكسارٍ ويحكُّمُ بيننا الخلقُ الجميلُ

وتُدرِكُ العناية الإلهية هذا العبدَ المفرطَ في دنياه، وهو بين يدي ربه، فيقول الله تعالى له: «إن لك عندنا حسنة».

فتُخرج له بطاقة: ورقة صغيرة لا تتسع لأكثرَ ما يُوضع فيها أو يُكتب عليها، فهي صغيرة لا تتسع لأكثرَ من كتابة كلمة الشهادتين: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله».

ويناديه ربه: «أحضرْ وَزْنَكَ».

ومهما بَلَغَ عقلُ الإنسان الذي خُلِقَ ضعيفاً، فإنه لن يَتَمَالَكَ نفسه من السؤال: «يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السُّجَلَاتِ؟!».

فقال: إنك لا تُظَلِّمُ.

قال: فتَوَضَّعُ السَّجَّالَاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتْ السَّجَّالَاتُ، وَثَقُلَتْ البِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ.

ولكن الله تعالى العليم الرحيم، الحَكَمَ العدلَ يَقُولُ له: «إنك لا تُظَلِّمُ». يريد جَلَّ شأنه إدخالَ الطمأنينة على قلوب عباده أنه: لَا ظُلْمَ اليومَ، بل ولا قبله ولا بعده، لَا ظُلْمَ أبداً، بل: عدلٌ وفضلٌ، ورحمة وإحسان.

وكانت النتيجة أن: «طَاشَتْ السَّجَّالَاتُ وَثَقُلَتْ البِطَاقَةُ» ذلك لأنه «لَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ». وكيف لَا تطيش، ولو أن «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وَضِعَتْ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ فِي كِفَّةٍ: كانت أرجح، كما جاء في وصية نوح عليه الصلاة والسلام لولديه، رواها الإمام أحمد ٢: ٢٢٥ عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً، ورجاله ثقات، كما قال الهيثمي ٤: ٢١٩ - ٢٢٠.

ولقد كان طيشها وَخِفَّتْها شديداً وسريعاً، لأنهما لَا يلتقيان في الميزان.

نَقَلَ المناوي رحمه الله في «فيض القدير» ٢: ٣٣ عن بعضهم وهو يتحدث عن التوحيد وكلمته، فقال: «التوحيد: لَا يُمَائِلُهُ شَيْءٌ، إِذْ لو مَائِلُهُ شَيْءٌ مَا كَانَ واحداً، بل اثنين فصاعداً - على قدر عدد المماثل - فما نَمَّ مَا يَزِنُهُ إِلَّا الْمُعَادِلُ وَالمُمَائِلُ، وَلَا مُعَادِلٌ وَلَا مُمَائِلٌ. فلذلك هو المانع لَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَنْ تَدْخَلَ المِيزَانُ يوم القيامة، فَإِنَّ الشُّرَكَ الَّذِي يُقَابِلُ التَّوْحِيدَ لَا يَصْحُحُ وجوده من العبد مع وجود التوحيد، فَإِنَّ الإنسان إما مشرك وإما موحد، فَلَا يَزِنُ التَّوْحِيدَ إِلَّا الشُّرَكَ، وَلَا يَجْتَمِعَانِ فِي مِيزَانٍ أَبَداً».

ومعنى «لَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ» حينئذ: لَا يَثْبُتُ أمام اسم الله شيء من الذنوب: أعظمها وهو الشرك، وأصغرُها مثل اللَّمَمِ، لِثَقُلِ اسْمُ اللَّهِ، وَحَقَارَةِ مَا سِوَاهُ.

وعلى هذا التأويل فإن هذا الرجل كان كافراً طَوَالَ حياته، وفي الساعات الأخيرة منها خُتِمَ له بخاتمة الخير، فَأَسْلَمَ وَتَشَهَّدَ، ومات، فكان آخِرُ قَوْلِهِ «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» و«مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ: دَخَلَ الْجَنَّةَ» كما رواه أبو داود ٣: ٤٨٦ (٣١١٦) وغيره عن معاذ بن جبل مرفوعاً.

وإذا كان قد نَطَقَ بالشهادتين آخر حياته - وكان إسلامه بهما - فقد هَدَمَ ما عَمِلَهُ من قَبْلُ مهما عَظُمَ، كما قال ﷺ لعمر بن العاص رضي الله عنه لما جاء مسلماً مبايعاً: «أما علمت أن الإسلام يَهْدِمُ ما قبله..» رواه مسلم ٢ : ١٣٨ .

وهذا قول بعض العلماء. وقال آخرون: «إنه كان مسلماً، لكنه مُسْرِفٌ على نفسه بكثرة ذنوبه، وقد نطق بهاتين الشهادتين منيئاً إلى ربه، تائباً من ذنوبه، خائفاً من ذنبه، راجياً رحمة ربه^(١)، فيكون نظيرَ الرجل الآخر الذي قتل تسعة وتسعين نفساً.

كما في الصحيحين^(٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قَتَلَ تسعةً وتسعين نفساً، فسألَ عن أعلمِ أهلِ الأرض، فذُلَّ على راهب - أي عابدٍ غير عالم - فأتاه، فقال: إنه قَتَلَ تسعةً وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكَمَّلَ به المائة، ثم سألَ عن أعلمِ أهلِ الأرض، فذُلَّ على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفسٍ، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومَنْ يَحُولُ بينه وبين التوبة؟! انطلقْ إلى أرضٍ كذا وكذا، فإن بها أناساً يَعْبُدُونَ اللهَ فاعْبُدِ اللهَ معهم، ولا تَرْجِعْ إلى أرضِكَ، فإنها أرضُ سَوءٍ.

«فانطلقَ حتى إذا نَصَفَ الطريقَ أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملكٌ في صورة آدمي، فجعلوه بينهم فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه، فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة».

فصاحبُ البطاقة - من جهة حُسنِ العاقبة - نظيرُ هذا الرجل الذي قَتَلَ مائة نفس، والذي قالت فيه ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، ولكن قالت فيه ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله.

١ - فيكون تشهداً ملاحظاً فيه التوبة، لا تشهداً قاصراً على التوحيد المستقر في قلبه من قبل.

٢ - البخاري ٦ : ٥١٢ (٣٤٧٠)، ومسلم ١٧ : ٨٢.

وقال بعض العلماء: إن صاحب البطاقة أراد الله الغفور الرحيم أن يُكرمه إكراماً خاصاً، ويُعلن ذلك على رؤوس الخلائق، فغفر له جميع ذنوبه ومَحَاها عنه، بسبب تلك الشهادة التي تقرب بها إلى الله سبحانه.

فهذا من باب الإكرام الإلهي الخاص به، كما يُشير إلى ذلك قوله ﷺ في صدر الحديث: «إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق».

ذكر هذه الأقوال الثلاثة - ولخصتها من كلامه - شيخنا العلامة الحجة الشيخ عبدالله سراج الدين حفظه الله تعالى بخير وعافية، في كتابه «الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها» ص ٣٠٣ - ٣٠٥.

نعم، في الحديث نفسه ما يُستأنس به أنه كان كافراً، فينطبق عليه القول الأول، وهو أن في البطاقة: «أشهد.. وأشهد»، فهذا اللفظ يُستأنس به لذلك. والله أعلم.

ثم رأيت الشيخ الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى أشار في «مجموع فتاويه» ١٠: ٧٣٣ إلى حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه الذي رواه الترمذي ٧: ٨١ (٢٣٢٦) وقال: حسن صحيح: «إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رَزَقَه الله مالاً وعِلماً فهو يَتَّقِي فيه رَبَّهُ وَيَصِل فيه رَجَمَهُ..، وعبد رَزَقَه الله علماً ولم يَرْزُقَه مالاً فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالاً لَعَمَلْتُ بِعَمَلِ فلان فهو بِنِيَّتِهِ، فَأَجْرُهُمَا سواء..»، ثم قال: «وحديث أبي كبشة في النيات مثل حديث البطاقة في الكلمات» فذكر الحديث وعلّق عليه بقوله: «فهذا» أي هذا الأجر وهذا التجاوز عن عظيم وزره «لِمَا اقترن بهذه الكلمة من الصدق والإخلاص، والصفاء وحسن النية، إذ الكلمات والعبادات وإن اشتركت في الصورة الظاهرة، فإنها تتفاوت بحسب أحوال القلوب تفاوتاً عظيماً، ومثل هذا الحديث الذي في حديث المرأة البغي التي سَقَتْ كلباً، فغفر الله لها، فهذا لما حَصَلَ في قلبها من حسن النية والرحمة إذ ذاك». وهذا أعلى من القول الثاني، مع اشتراكهما في أن كلا منهما يشير إلى ملاحظة قلبية اقترنت بتشهد. والله أعلم.

٨٦- عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَلَقَّتْ الملائكةُ رَوْحَ رجلٍ ممن كان قبلكم، فقالوا: أَعْمِلْتَ من الخير شيئاً؟ قال: لا، قالوا: تَذْكُرُ، قال: كنتُ أداينُ الناسَ فأمرُّ

٨٦- تخريجه: رواه مسلم: كتاب المساقاة والمزارعة - باب فضل إنظار المُعْسِر ٣: ١١٩٤ (٢٦) وشرح النووي ١٠: ٢٢٤، وله روايات أخرى أكثرها صريح في أن الحديث قدسي، ومدارها على حذيفة بن اليمان وأبي مسعود الأنصاري وعقبة بن عامر الجهني - إن صحَّ أنه هو - رضي الله عنهم.

وليس في روايات البخاري ما يفيد بأنه قدسي. انظر منه: كتاب البيوع - باب من أنظر موسراً ٤: ٣٠٧ - ٣٠٨ (٢٠٧٧، ٢٠٧٨)، وكتاب الاستقراض - باب حسن التقاضي ٥: ٥٨ (٢٣٩١)، وأحاديث الأنبياء - في الحديث عن بني إسرائيل ٦: ٤٩٤ (٣٤٥١).

غريبه: يَتَجَاوَزُوا: يَتَسَامَحُوا.

يُنْظَرُوا: يُمَهَّلُوا وَيُؤَخَّرُوا.

معناه: هذا الحديث الشريف من جملة الأدلة على صحة القاعدة المشهورة عند العلماء: الجزاء من جنس العمل.

فالله تعالى أوحى إلى سيدنا رسول الله ﷺ بقصة رجلٍ من بني إسرائيل كان يعامل الناسَ بيعاً وشراءً، وكان من خُلُقِهِ التجاريُّ أن يتسامح، ولا شيءَ سواه من الخير عنده، فحياته حياةٌ مادية تجارية، لكن الله تعالى أكرمه فحلاه بهذا الخُلُق الحسن الذي أدَّى به إلى عاقبة حسنة.

تَلَقَّتْهُ الملائكةُ للحساب، فسُئِل: هل عندك عملٌ صالحٌ خَيْرٌ؟ فقال: لا، فذَكَرْهُ. فتذكَرَ قال: نعم، كنتُ أَعْمَلُ النَّاسَ باليسر والسماح، كنتُ أَمُرُ غُلَاماني الذين يعملون عندي أن يُحَسِّنُوا إلى من يَتَعَامَلُونَ معه، فمن استدان منهم وتأخَّر

فَتَيَانِي أَنْ يُنْظَرُوا الْمُعْسِرَ، وَيَتَجَاوَزُوا عَنِ الْمُوسِرِ، قَالَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: تَجَوَّزُوا عَنْهُ».

لكونه مُعْسِراً ليس عنده من المال ما يَقْضِي دَيْنَهُ، أَوْصِيَتْهُمْ بِأَنْ يُمَهِّلُوهُ: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾.

ومن تعامل معهم فاشترى منهم شيئاً وكان موسيراً كنت أوصيهم بالتسامح معه في استيفاء الثمن، كما جاء في رواية أخرى: «كنت أَنْظِرُ الْمُعْسِرَ، وَأَتَجَوَّزُ فِي السُّكَّةِ»، والسُّكَّةُ: هي النقْدُ: الدنانير والدرهم.

فكان جزاؤه من الله عز وجل من جنس عمله، لكنَّ شَتَانَ بَيْنَ عِظَمِ الْعَمَلِ وَجَزَائِهِ، فَهَذَا التَّاجِرُ يَحْصُلُ عَلَى نَتِيجَةِ حَسَنِ خُلُقِهِ فِي الدُّنْيَا، وَذَلِكَ بِإِقْبَالِ النَّاسِ عَلَى التَّعَامُلِ مَعَهُ، هَذَا جَزَاؤُهُ الْعَاجِلُ، أَمَّا جَزَاؤُهُ الْآجِلُ: فَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى لَمَلَأْتَكُنَّ: «تَجَوَّزُوا عَنْهُ»، أَوْ: «أَنَا أَحَقُّ بِذَا مِنْكَ، تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي». ومتى هذا؟ هَذَا يَوْمَ يَفْرُغُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ. في ذاك اليوم يُلْقِيهِ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذَا التَّجَاوُزِ عَنْهُ. فَحَيْهَلًا بِهِ مِنْ جَزَاءٍ! وَلَا عَجَبَ، فَهَذَا مِنَ الْعَبْدِ، وَذَاكَ مِنْ رَبِّ الْعِبَادِ.

ولماذا؟ لَأَنَّ «الْخَلْقَ كُلَّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ، وَأَحْبَبُّهُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ»^(١)، فَالْإِحْسَانُ إِلَى عِيَالِ اللَّهِ جَزَاؤُهُ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ.

بَلْ، أَلَا تَرَى إِلَى الْمَرْأَةِ - وَهِيَ مَا هِيَ - حِينَ أَحْسَنْتَ إِلَى كَلْبٍ يَلْهَثُ الثَّرَى، غَفَرَ اللَّهُ لَهَا! وَإِلَى الَّذِي أَزَاحَ غَصْنَ شَوْكٍ عَنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ، غَفَرَ اللَّهُ لَهُ! وَإِلَى الْمَرْأَةِ الْأُخْرَى عَذَّبَهَا اللَّهُ بِنَارِهِ حِينَ حَبَسَتْ هَرَّةً عَنِ الطَّعَامِ مِنْ قِبَلِهَا أَوْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ وَهَوَامِّهَا وَحَشَرَاتِهَا!.

فَلَا يَحْقِرَنَّ أَحَدٌ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئاً، وَلَوْ مَعَ حَيَوَانٍ، وَلَا يَسْتَسْهَلَنَّ إِسَاءَةً إِلَى أَحَدٍ وَلَوْ إِلَى حَيَوَانٍ، فَإِنْ أَحَدُنَا لَا يَدْرِي مِنْ أَيْنَ تَأْتِيهِ السَّعَادَةُ، أَوْ غَيْرُهَا. نَسْأَلُ اللَّهَ التَّوْفِيقَ.

١- حديث ضعيف، حسنه بعضهم لطرقه المتعددة. انظر شروح «الجامع الصغير» للمناوي والعريزي، وغيرها.

٨٧- عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لَيَسْأَلُ العبدَ يومَ القيامةِ حتى يقول: ما مَنَعَكَ إذا رأيتَ المنكرَ أن تُنْكِرَهُ؟ فإذا لَقِّنَ الله عبداً حُجَّتَهُ قال: يا ربِّ رَجَوْتُكَ وَفَرَّقْتُ مِنَ النَّاسِ».

٨٧- تخريجه: رواه ابن ماجه كتاب الفتن - باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ ٢: ١٣٣٢ (٤٠١٧)، وقال الشهاب البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح، رجاله ثقات.

غريبه: لَقِّنَ: عَلَّمَ وَعَرَّفَ.
فَرَّقْتُ: خِفْتُ.

معناه: من مواقف يوم القيامة: عالم السؤال، ويكون السؤال فيه عن أشياء كثيرة، منها: ما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي ٧: ١٣٦ - وقال حسن صحيح - عن أبي بَرزَةَ الأسلمي مرفوعاً: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فَيَمَّا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فَيَمَّا فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فَيَمَّا أَبْلَاهُ».

ومنها: ما جاء في هذا الحديث: سكوته عن المنكر، إِذْ يَعْتَبُ الله تعالى عليه «ما مَنَعَكَ إِذَا رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ؟».

وَحَقُّ الله عليه: أَنْ يَتَحَرَّكَ فِي قَلْبِهِ خَوْفُ الله إِذْ رَأَى مَا يُغْضِبُهُ، وَتَثَوَّرَ فِي فَوَادِهِ الْغَيْرَةِ لله، فَيُنْكِرُ الْمُنْكَرَ عَلَى تَرْتِيبِ مَرَاكِلِهِ الثَّلَاثِ:

«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» رواه مسلم ٢: ٢٢.

إِلَّا أَنْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، إِلَّا رَجَاءٌ مِنَ الله الْعَفْوِ وَالسَّتْرِ، وَالتَّجَاوُزِ

.....

والمغفرة، فليقنه الله كلمةً تَشْفَعُ له عنده، وتجبرُ زُلَّتَه، فيقول: يا ربُّ رجوتك ولا يخيبُ راجيك، وأما الناس فلا يُؤْمَنُ لهم جانبٌ، فإني قد فَرَقْتُ منهم.

فهذه الملاحظة القلبية (الرجاء) هي التي كانت سببَ نجاته، وبها لقنه الله الحجة، فنجاه بها.

ومع هذا، فإن الأمر والنهي لا بدُّ منهما، لصلاح أمر الإسلام والمسلمين.

روى الترمذي ٦ : ٣٣٦ - وحسنه - عن حذيفة مرفوعاً: «والذي نفسي بيده لتأمرُنَّ بالمعروف ولتَنْهَوُنَّ عن المنكر، أو لَيُوشِكَنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تَدْعُوهُ فلا يُسْتَجَابُ لكم».



٨٨ - عن جُنْدُب بن عبد الله البَجَلِي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «كان فيمن كان قبلكم رجلٌ به جُرْحٌ فَجَزِعَ، فأخذ سِكِّيناً فَحَزَّ

٨٨ - تخريجه: رواه البخاري في كتاب الجنائز - باب ما جاء في قاتل النفس ٣: ٢٢٦ (١٣٦٤) معلقاً، ثم وصله في كتاب أحاديث الأنبياء - باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٦: ٤٩٦ (٣٤٦٣)، وهذا لفظه، ورواه مسلم في كتاب الإيمان - باب بيان غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه ١: ١٠٧ (١٨٠)، ٢: ١٢٤ بشرح النووي.

معناه: قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، إن الله كان بكم رحيماً ﴿فَمَنْ رَحِمْتُمْ سَبَحَانَهُ أَنْ حُرِّمَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَقْتُلَ نَفْسَهُ﴾، أو أن يَقْتُلَ نَفْسَ غَيْرِهِ، وهذا من باب قوله تعالى ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ والإنسان لا يَلْمِزُ نَفْسَهُ، لكنه نَزَلَ سَبْحَانَهُ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْمُؤْمِنِ الْآخَرِ مَنْزِلَةً نَفْسِهِ، فَاخُوكَ نَفْسُكَ، لذلك قال ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، وكذلك هنا ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، تُحْمَلُ عَلَى هَذَيْنِ الْمَعْنَيْنِ: قَتَلَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ، وَقَتَلَ الْإِنْسَانُ غَيْرَهُ.

والمراد هنا الحديث عنها بالمعنى الأول. حُرِّمَ الله عز وجل على الإنسان أن يقتل نفسه قاصداً لذلك، أما لو كان يُعَالِجُ نَفْسَهُ مِنْ مَرَضٍ فَمَاتَ: فَإِنَّهُ لَا يَدْخُلُ هُنَا تَحْتَ هَذِهِ الْآيَةِ أَوْ الْحَدِيثِ.

وعَلَّلَ اللهُ تَعَالَى نَهْيَهُ لَنَا عَنْ هَذِهِ الْجَرِيمَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ اللهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾.

وجاء هذا الحديث على وَفْقِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَكَانَ تَكُونُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ الْعِزُّ وَالْعِظَاتُ، وَكَانَ ﷺ يَتَخَوَّلُ أَصْحَابَهُ بِالْحَدِيثِ عَنْهُمْ مِنْ أَجْلِهَا، فَقَصَّ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْقِصَّةَ مِنْ جُمْلَةٍ مَا قَصَّ عَلَيْهِمْ:

أَصَابَ رَجُلًا قَرَحَةٌ - وَهِيَ حَبَّةٌ تَكُونُ فِي الْبَدَنِ - فِي يَدِهِ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ أَلَمُهَا،

بها يده، فما رَقَاَ الدَّمُ حتى مات، قال الله تعالى: بِأَدْرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ، حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ.

وَقُلْ صَبِرْ عَلَيْهَا، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ «فَجَزَع». فَأَخَذَ أَوَّلًا طَرَفَ سَهْمِهِ فَتَخَسَّ بِهِ الْقَرْحَةَ، فَلَمْ يَنْفَعْ ذَلِكَ، كَمَا يَسْتَفَادُ مِنْ أَوَّلِ رَوَايَةِ مُسْلِمٍ لِلْحَدِيثِ، فَحَزَّهُ بِالسَّكِينِ، يُرِيدُ: أَنَّهُ عَمَّقَ الْجَرْحَ بِالسَّكِينِ، لِأَنَّ الْحَزَّ لَا يَكُونُ مَعَهُ فَصْلٌ وَإِبَانَةٌ لِلْعَضْوِ عَنْ مَوْضِعِهِ.

فَكَانَ مِنْ جَرَاءِ ذَلِكَ نَزَفٌ شَدِيدٌ لِلدَّمِ، أَعْقَبَهُ وَفَاتَهُ.

وَوَاضِحٌ مِنَ التَّفَرُّقَةِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ بَيْنَ مَنْ مَاتَ مِنْ مَعَالِجَةِ جُرْحِهِ غَيْرَ قَاصِدٍ الْمَوْتِ، فَمَاتَ: فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ وَلَا مُوَاخَذَةً، وَبَيْنَ مَنْ مَاتَ مِنْ مَعَالِجَةِ جُرْحِهِ قَاصِدًا الْمَوْتِ وَالْخِلَاصَ مِنَ الْأَلَمِ. فَعَلِيهِ الْمُوَاخَذَةُ. أَقُولُ: وَاضِحٌ مِنْهَا أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ مِنَ الصَّنَفِ الثَّانِي.

لِذَلِكَ عَاقَبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْلِهِ: «بَادِرْنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ، حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ».

أَمَّا قَوْلُهُ: «بَادِرْنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ»: أَيُّ: اسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ لِنَفْسِهِ، وَهَذَا الْإِنْسَانُ لَا يَعْلَمُ مَتَى انْتِهَاءُ أَجَلِهِ، فَصُورَةُ عَمَلِهِ هَذَا صُورَةُ الْمُبَادَرِ الْمَتَّعِجِلِ بِالْمَوْتِ، لَا أَنَّهُ أَمَاتَ نَفْسَهُ قَبْلَ حُلُولِ أَجَلِهِ، فَإِنَّ الْأَجَلَ لَا يَتَقَدَّمُ نَفْسًا وَلَا يَتَأَخَّرُ نَفْسًا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ «حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»: فَإِنَّ النُّصُوصَ الْآخَرَى الْقَطْعِيَّةَ مِنْ آيَاتٍ وَأَحَادِيثٍ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْجَنَّةَ غَيْرُ مُحَرَّمَةٍ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَى الْكَافِرِينَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ، أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ، قَالُوا: إِنْ اللَّهُ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فَمَاءُ الْجَنَّةِ وَرَزَقُهَا مُحَرَّمٌ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَهُمَا بَعْضُ الْجَنَّةِ، فَدَخُولُهَا مُحَرَّمٌ مِنْ بَابِ أَوَّلَى.

وَمِنَ الْأَحَادِيثِ: مَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ بَعْدَ هَذَا الْحَدِيثِ بِحَدِيثَيْنِ ٢: ١٣٠ عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ الطُّفَيْلَ بْنَ عَمْرٍو الدُّوسِيَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ لَكَ فِي حِصْنِ حَصِينٍ وَمَنْعَةٍ - قَالَ: حِصْنٌ كَانَ لِدَوْسٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ - فَأَبَى ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ، لِلَّذِي ذَخَرَ اللَّهُ لِلْأَنْصَارِ، فَلَمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، هَاجَرَ إِلَيْهِ

الطفيلُ بن عمرو، وهاجر معه رجلٌ من قومه، فاجتَنُوا المدينةَ، فمَرِضَ، ففَجِرَ، فأخذَ مَشَاقِصَ له فقطعَ بها بَرَأجَمَه، فَشَخِبَتْ يَدَاهُ حتَّى مات.

فَرَأَهُ الطَّفِيلُ بْنُ عَمْرٍو فِي مَنَامِهِ، فَرَأَاهُ وَهَيْئَتُهُ حَسَنَةً، وَرَأَاهُ مُعْطِيًا يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: مَا صَنَعَ بِكَ رَبُّكَ؟ فَقَالَ: غَفَّرَ لِي بِهَاجِرَتِي إِلَى نَبِيِّهِ ﷺ، فَقَالَ: مَا لِي أَرَاكَ مُعْطِيًا يَدَيْكَ؟ قَالَ: قِيلَ لِي: لَنْ نُصَلِّحَ مِنْكَ مَا أَفْسَدْتَ!.

فَقَصَّهَا الطِّفِيلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ وَلِيَّيْهِ
فَاغْفِرْ!»^(١). فَظَهَرَ بِهَذَا أَنَّ مَنْ تَسَبَّبَ بِقَتْلِ نَفْسِهِ لَا تَحْرُمُ عَلَيْهِ الْجَنَّةُ حَرَمَةً مُؤَيَّدَةً،
فَلَا بَدَّ مِنْ تَأْوِيلِ هَذَا الْحَدِيثِ لِيَتَلَاءَمَ مَعَ الْأَدْلَةِ الْأُخْرَى.

قال النووي رحمه الله ٢ : ١٢٧ تعليقا على قوله «حرمت عليه الجنة»: «قال القاضي - عياض - رحمه الله: يحتمل أنه كان مستحلاً، أو: يُحرّمها حين يدخلها السابقون والأبرار، أو يُطيل حسابه، أو يُحبس في الأعراف. هذا كلام القاضي. قلت: ويحتمل أن شرع أهل ذلك العصر تكفير أصحاب الكبائر».

وزاد على هذه الاحتمالات الحافظُ في «الفتح» ٦ : ٥٠٠ : احتمال أن يكون الرجل كافراً من الأصل، واحتمالَ تحريمِ جنةٍ معينةٍ عليه كالفرديوس، واحتمالُ أن هذا تخويف وتهديد لا يُراد ظاهره، واحتمالُ أن هذا جزاؤه إن شاء الله تعالى استمراره، وإلا فلا.

ولعل أولاهـا القول بأنه يُحرّم دخولُ الجنة مع السابقين الأولين، فـجـريـمـتـه هـذه تُعـرِّقُ دـخـولـه العاجـلُ، وهـو ما اختاره شيخنا العلامة الشيخ عبد الله الصديق الغماري حفظه الله تعالى، في رسالته «قمع الأشرار عن جريمة الانتحار». والله أعلم.

١- ومعنى هذا الحديث إجمالاً: أن الطفيل كان يدعو رسول الله ﷺ أن يهاجر إلى بلاده حيث قبيلته دؤس، لكن الله تعالى خبأ هذه المكرومة للأنصار، ثم جاء الطفيل وصديق له إلى المدينة فأصابهم بعض مرض فيها، فكروا المَقَام بها، إلا أن صديقه لم يحتمل المرض والكراهية، فأخذ نضلاً عريضاً وطويلاً، فقطع به مفاصل أصابعه (العُقَد) فنزف دمه بقوة، فمات، فرآه في المنام كما وصف: بهيئة حسنة مغفوراً له إلا يديه، فدعا له ﷺ بتمام المغفرة والمجازة عن ستة يديه.

وإن الله تبارك اسمه خَلَقَ عباده للحياة، لا لتعجل الموت، فلذلك حرّم عليهم تمنّي الموت، وأن يدعو أحدّهم على ولده بالموت ربما وافق ساعة إجابة، وأن يتمنّوا لقاء العدو، لما فيه من شذائد وسبب للموت، والإلقاء بالنفس في التهلكة، والوَأْدُ الجليّ، والوَأْدُ الخفيّ (العزل)^(١). وهكذا.

فالله تعالى خلق الناس للحياة، وشرّع تعاطي ما يدفع عنهم الموت وأسبابه، كالتداوي، ولم يخلقهم لتعجل الموت، إلا في سبيله.

* * *

١ - إلا إذا كان هناك مسوّغ شرعي للعزل.

٨٩- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنّا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: «هل تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟»

٨٩- تخريجه: رواه مسلم في كتاب الزهد ٤: ٢٢٨٠ (١٧)، ١٨: ١٠٤. غريبه: هل تدرون: هل يُمكنكم التوصل إلى معرفة سبب ضحكي بأي وسيلة؟.

أركانه: جوارحه، قاله النووي، وهو المعروف، ومثله ابن الأثير في «النهاية»، وزاد: «وأركان كل شيء: جوانبه التي يستند إليها ويقوم بها». وعلى هذا المعنى جاء الحديث التالي: «فِيخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لَفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطَقِي». أناضل: أدافع وأجادل.

معناه: لما كان في هذا الموقف سبب ضحك النبي ﷺ غير ظاهر، تعين أن يكون سبباً خفياً، لخاطرٍ خَطَرَ بباله ﷺ، وإدراك هذا صعب على الآخرين، لذلك قال لهم عليه الصلاة والسلام: «هل تدرون مِمَّ أَضْحَكُ؟». قال الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى في «مفرداته»: «الدراية: المعرفة المدركة بضرب من الختل». أي: المعرفة التي يوصل إلى إدراكها وبلوغها بنوع من الحيلة. وبناءً على هذا فلا يصح أن يقال: الله تعالى أدرى بما يصلح عباده، ونحو هذا من العبارات الشائعة على أقلام بعض الكتاب، وألسنة بعض المتحدثين.

ثم أبان لهم ﷺ عن سبب ذلك: وهو جُرْأَةُ الْعَبْدِ عَلَى رَبِّهِ، ظناً منه أنه يستطيع مغالطة الله العليم الخبير!! يقولُ العبدُ لربه سبحانه: إنك وعدتني أن لا تَظْلِمَنِي، ومن ظلمي أن تَقْبِلَ شهادة من لا أرضاه شاهداً عليّ، فَيُعْطِيهِ اللهُ ذلك، بأنْ تَشْهَدَ نَفْسُهُ عَلَيْهِ، فَيَسْتَنْقِذُ اللهُ جَوَارِحَهُ عَلَيْهِ وَيَخْتَمُ عَلَى فَمِهِ.

قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإنني لا أُجِيزُ على نفسي إلا شاهداً مني. قال: فيقول: كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً. قال: فَيُخْتَمَ عَلَىٰ فِيهِ فَيَقَالُ لَأَرْكَانِهِ: انْطِقِي. قال: فتَنطِقُ بأعماله، قال: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قال: فيقول: بُعْداً لَكُنَّ وَسُحْقاً. فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أَنَا ضِلُّ».

فتنطق يداه بما بطشت ظلماً، وسرقت، وكتبت زوراً، وامتدت إلى حرام، ...، وتنطق رجلاه بما مشت إلى حرام، وسعت في باطل، وذهبت إلى منكر.... وهكذا.. وهكذا..، حتى تأتي جوارحه على ما أثمت فيه، نعوذ بالله من الفضيحة!

ثم يأذن الله تعالى للسانه بالكلام، فيوبخ نفسه بنفسه، ويدعو على نفسه بنفسه: هلاكاً بعيداً مديداً لَكُنَّ أَيْتُهَا الْأَعْضَاءُ (الصادقة الصريحة)، فإنني ما تجرأت على ربي وقلتُ له ما قلتُ إلا لِأُنْقِذَكُنَّ مِنْ عَذَابِهِ، وظننتُ أنني بذلك أنجو!! اللهم فاحفظنا!.

٩٠- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تُضَارُونَ في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة؟» قالوا: لا، قال: «فهل تُضَارُونَ في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة؟» قالوا: لا، قال:

٩٠- تخريجه: رواه مسلم: كتاب الزهد ٤: ٢٢٧٩ (١٦)، وشرح النووي ١٨: ١٠٣.

غريبه: تُضَارُونَ: قال النووي رحمه الله في «شرح مسلم» ٣: ١٠٨: «رُوي تضارون - بتشديد الراء وبتخفيفها، والتاء مضمومة فيهما، ومعنى المشدّد: هل تُضَارُونَ غيركم في حالة الرؤية بزحمة أو مخالفة في الرؤية أو غيرها لخفائه، كما تفعلون أول ليلة من الشهر؟. ومعنى المخفّف: هل يلحقكم في رؤيته ضير؟ وهو الضرر» فالمعنى واحد، وبمعناه في «النهاية» و«فتح الباري» ١١: ٤٤٦.

أسودك: أجعلك سيداً على غيرك.

أي فُل: أي: أداة النداء، مثل: يا، وفُل: فلان. فالمعنى: يا فلان. قال النووي: فُل «هو ترخيم على خلاف القياس. وقيل هي لغة بمعنى: يا فلان». وأما ابن الأثير فقال ٣: ٤٧٣: فُل «معناه: يا فلان، وليس ترخيماً له، لأنه لا يقال إلا بسكون اللام، ولو كان ترخيماً لفتحوها أو ضمّوها».

أذكرُك: أدعك. والمراد: ألم أمكنك، ألم أجعلك.

ترأسُ: تكون رئيساً لقومك.

ترَبّع: تأخذ رُبُع الغنيمة، كما كانت ملوك الجاهلية تفعل. وفي رواية: ترَبّع، ومعناها: تتنعم وتتوسّع في عيشك.

أفطننت: الظن هنا: الاعتقاد الجازم.

أنساك: أحرمتك من رحمتي، كما تركت طاعتي.

هاهنا إذا: قف هاهنا لتشهد عليك جوارحك.

«والذي نفسي بيده لا تُضَارُونَ في رؤية ربكم إلا كما تُضَارُونَ في رؤية أحدهما.

قال: فَيَلْقَى العبدَ فيقول: أَيُّ فُلٍ أَلَمَ أَكْرَمَكَ، وَأَسَوَّدَكَ، وَأَزَوَّجَكَ، وَأَسَخَّرَ لَكَ الخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرَكَ تَرَأْسُ وَتَرْبَعُ؟ فيقول: بلى، قال: فيقول: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ؟ فيقول: لا، فيقول: فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي.

لِيُعَذِّرَ من نفسه: قال في «النهاية»: «أَعَذَّرَ فلان من نفسه: إذا أمكن منها». أي: جَعَلَ لغيره المَكْنَةَ والقدرة على نفسه. والمراد: أنه فَضَحَ نَفْسَهُ بنفسه، فحقَّ عليه العذاب. وفي «سنن أبي داود» ٤: ٥١٥ (٤٣٤٧): «لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يَعْذِرُوا - أَوْ: يُعْذِرُوا - مِنْ أَنْفُسِهِمْ».

معناه: في الحديث الشريف إثبات رؤية المؤمنين ربهم عز وجل يوم القيامة رؤية واضحة لا لبس ولا خفاء ولا حجاب. وَيُقَسِّمُ سيدنا رسول الله ﷺ على ذلك بقوله: «والذي نفسي بيده لا تُضَارُونَ في رؤية ربكم كما أنكم لا تُضَارُونَ في رؤية الشمس حين الظهيرة، أو القمر ليلة البدر في سماء مُضْحِيَّة. فلا تتزاحمون لِيَسْتَوْضَحَ كل منكم الرؤية، ولا تَتَنَازَعُونَ، ولا تَتَضَايِقُونَ، ولا يَحْجُبُ بعضكم بعضاً عن الرؤية، بل هي رؤية واضحة تمام الوضوح.

وهذه الرؤية تكون في أرض المحشر يوم القيامة، وهي غير الرؤية التي تكون للمؤمنين خاصة في الجنة^(١).

ثم يحكي ﷺ مشهداً وموقفاً من مواقف القيامة لبعض الناس من الكافرين والمنافقين.

فالرجلُ الأول والثاني من صنف الكافرين، لأنهما أنكرا لقاء الله عز وجل لما سألهما الله تعالى: «أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ؟ قال: لا». فهذا قد أعذر نفسه فوراً دون مكابرة وتصنع ونفاق.

١ - انظر «أعلام الحديث» للإمام الخطابي رحمه الله تعالى ١: ٥٢٣، وسيأتي بعضه في شرح

ثم يَلْقَى الثاني فيقول: أَيُّ فُلٍ أَلَمَ أَكْرَمَكَ، وَأَسَوَّدَكَ، وَأَزَوَّجَكَ، وَأَسَخَّرَ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَاسُ وتَرْبَعُ؟ فيقول: بلى أَيُّ رَبٍّ، فيقول: أَفَظَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نَسِيتني.

ثم يَلْقَى الثالث، فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ، وبكتابك، وبرسلك، وصلَّيتُ، وصُمتُ، وتصدَّقتُ، ويُسَّني بخير ما استطاع، فيقول: ها هنا إذاً.

قَرَّره الله تعالى بِنِعْمه: أَلَمَ أَكْرَمَكَ فجعلتك سيداً على قومك، وأنعمت عليك فزَوَّجَكَ وأعطيتك من أصناف المال ما أعطيتك، وعاملت قومك بما يعاملهم به أهل الجاهلية - لا أهل الهداية - فأخذت منهم المِرباع: رُبْعُ الغنائم، وعِشْت في بُلْهَيْيَّة وسَعَةٍ ورَغَد. وهو في كل هذا يُقَرُّ ويقول: بلى، ولكنه ختم ذلك بأنه ما كان يعتقد ببقاء الله أنه حاصل كائن.

فهو على غير شاكلة ذاك الذي يُقَرِّره رَبُّه بذنوبه فيقول: أعرفُ رَبِّ، أعرف. ذاك مؤمنٌ مُوقِنٌ بيوم اللقاء والحساب والجزاء. وتقدم حديثه برقم ٨٤.

أما الرجل الثالث: فهو من الصنف الثاني، صنف المنافقين، يُظَنُّ أنه يَقْدِر على مغالطة رَبِّه علام الغيوب، العليم بذات الصدور.

إنه يقول لله بعد أن قَرَّره بنعمه: يا رب آمَنْتُ بِكَ، وبكتابك، وبرسلك، وفعلت كذا وكذا وكذا!! مع أنه إيمانُ المنافقين وفعلهم!

فيقول الله تعالى له: إذا أنت تحتاجُ إلى كشفٍ وفضيحةٍ وخِزْيٍ! إنك تكذب وتُنافِق، وهذا إن صَلَح في الدنيا مَوْقِناً، فإنه لا يَصْلُح في الآخرة مِقْدَارَ لحظة واحدة، فإن من أسماء يوم القيامة: الحاقَّة، يُحقُّ الله تعالى فيه الحقائق، ويكشف الزَّيف.

وأفْطَح طرق الفضيحة: أن تكونَ عن طريق الإنسانِ المفضوحِ نفسه، وأقواها: أن تكونَ عن طريق من لا يُتَصَوَّر منه كذبٌ وخداع، إذ اللسان يَلْتَوِي

قال: ثم يُقَالُ له: الآن نبعثُ شاهدنا عليك، وَتَتَفَكَّرُ في نفسه: مَنْ ذا الذي يَشْهَدُ عليه؟! فَيُخْتَمَ على فيه، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ ولَحْمِهِ وعظامته: اِنطِقي، فتَنطِقُ فَيَخِذَهُ ولَحْمَهُ وعظامه بعمله، وذلك لِإِعْذَرٍ من نفسه.

وذلك المنافق، وذلك الذي يَسْخَطُ الله عليه.

وَيَتَلَاَب بالحقائق، أما سائرُ الجوارح فلا يُعْهَدُ منها نطق وكلام، حتى يُتَصَوَّرَ منها كذب! ولكن الله تعالى بقدرته على كل شيء يُنطِقُها فتَنطِقُ بالحقائق الثابتة، وحينئذ يُعْذِرُ هذا الإنسانُ من نفسه، أي: أمكن من نفسه، ومكُنْ غيره من إقامة الحجة عليه.

«الآن نبعثُ شاهدنا عليك» فَيَذْهَبُ: «مَنْ ذا الذي يَشْهَدُ عليَّ؟!». ولا يدري المسكين من أين يُؤْتَى! فهذا هو المنافق، وهذا هو الذي يَسْخَطُ الله عليه. ويختتم الله على فمه، وَيُنطِقُ جوارحه، وَيُحِقُّ الله الحقَّ، وَيَمْحَقُ الباطل والنفاق. ونعوذ بالله تعالى من خزي الدنيا والآخرة، إنه أرحم الراحمين.

٩١ - عن عطاء بن يزيد اللبثي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن ناساً قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال

٩١ - تخريجه: رواه البخاري في كتاب الأذان - باب فضل السجود ٢: ٢٩٢ (٨٠٦)، وكتاب الرقاق - باب الصراط جسر جهنم ١١: ٤٤٤ (٦٥٧٣)، وكتاب التوحيد - باب قول الله تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ ١٣: ٤١٩ (٧٤٣٧)، ورواه مسلم: كتاب الإيمان - باب معرفة طريق الرؤية ١: ١٦٣ (٢٩٩) وشرح النووي ٣: ١٧ - ٣٣، واللفظ له.

غريبه: تضارون: تقدم في الحديث السابق ضبطُ الرأء بالتشديد والتخفيف، وأنه من الضرر أو الضير، والمعنى واحد.

الطواغيت: جمع طاغوت، وهو: كل ما عُبد من دون الله عز وجل. أول من يُجيز: أول من يمشي عليه ويقطعه.

منهم المؤمن بقي بعمله: في رواية البخاري الأخيرة، «فمنهم المُوَقَّع بقي بعمله»، وهي أوضح، ونحوها الروايتان الأخريان.

ومنهم المجازي: أي المُعاقَب الذي يُلقَى في النار.

فَرَّغَ الله: تقدم ص ٢٧٢ قول القرطبي في «التذكرة» ص ٤١١: «معناه: تمم عليهم حسابهم وفصل بينهم، لأنه لا يشغله شأن عن شأن، سبحانه وتعالى».

امتَحَشُوا: احترقوا بالنار حتى انكشف العظم! ويجوز في ضبطه: امتَحَشُوا، وامتَحَشُوا، واختار الثاني النووي ٣: ٢٦.

الحِجَّة: بزور البقل البري.

حَمِيل: قال في «النهاية»: «حَمِيل السيل: هو ما يجيء به السيل من طين أو غُثاء وغيره، فإذا اتفقت - أي صادف - فيه حبة واستقرت على شط مجرى السيل

رسول الله ﷺ: «هل تُضَارُونَ في رؤية القمر ليلة البدر؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «هل تُضَارُونَ في الشمس ليس دونها سَحَاب؟» قالوا:

فإنها تنبت في يوم وليلة، فشبَّ بها سرعة عود أبدانهم وأجسامهم إليهم بعد إحراق النار لها». وانظر شرح النووي ٣: ٢٣.

قَسْبَنِي: قال الخطابي في «أعلام الحديث» ١: ٥٣٣: «يقال: قَسَبَ الدخان: إذا امتلأت خياشيمه من الدخان. ويقال: أصل القَسْب: السُّمُّ، كأنه يقول: صار ريحها كالسُّمِّ في أنفي».

العهود والمواثيق: العهد: التقدُّم إلى المرء في الشيء، واليمين يَحْلِفُ بها الرجل. والوثيقة: إحكام الأمر، كما في «لسان العرب»، فالميثاق في الأصل الإحكام للأمر، والحلف من جملة ألوان التوثيق. وقد حصل ذلك من هذا الإنسان المذكور في الحديث.

انْفَقَهَتْ: انفتحت له.

تَمَنَّهُ: فعل أمر من التمني أَلَحِقْتُ بآخِرِهِ هَاءُ السُّكُوتِ.

ذَكَأُهَا: الذَّكَاءُ هنا شِدَّةٌ وَهَجُ النار.

معناه: هذا الحديث الشريف فيه حكاية عددٍ لمواقفٍ من مواقف الآخرة. ففيه الحديث عن موقف من أوائل المواقف، كما أنه خُتِمَ بالحديث عن رجل هو آخر من يُخْرَجُ من النار ويدخل الجنة.

وفي أوله سؤال بعض الصحابة رضي الله عنهم عن رؤية الله تعالى، فأثبتها لهم ﷺ وأكدها بأنها واضحة لهم دون حجاب ولا واسطة.

وهذه الرؤية التي تكون في أرض المحشر غيرُ الرؤية الثانية التي تكون في الجنة، وفيها يكون أعظمُ سرور لأهلها.

قال الإمام الخطابي رحمه الله تعالى في «أعلام الحديث» ١: ٥٢٣: «ويجب أن يُعْلَمَ أن الرؤية التي هي ثوابُ الأولياء وكرامةٌ لهم في الجنة غيرُ هذه الرؤية المذكورة في مقامهم - أي موقفهم - يوم القيامة». وذكر حديث مسلم الاتي (٩٩) عن صُهَيْب رضي الله عنه مرفوعاً، وأن هذه الرؤية التي تكونُ في الموقف هي رؤية امتحانٍ لأهل الموقف عامةً.

لا، قال: «فإنكم تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ. يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبدُ شيئاً فليَتَّبِعْهُ، فَيَتَّبِعْ من كان يعبدُ الشمسَ: الشمسَ، ويتَّبِعْ من كان يعبدُ الطواغيتَ: الطواغيتَ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها.

وقوله ﷺ: «فإنكم ترونه كذلك»: التشبيه في وضوح الرؤية وأنها دون ضرر ولا حجاب، كما هو واضح، وليس في اتحاد المرئي - وهو الشمس - معاذ الله!! فوجه الشبه: وضوح الرؤية.

ثم ابتدأ ﷺ يحكي الموقف من أوله، وذلك: أن الله تعالى يجمعُ الناس عامةً، ثم يأمرهم: أن تتَّبِعْ كُلَّ طائفةٍ معبودها الذي كانت تعبدُه في الحياة الدنيا، فتلتحق كل طائفة معبودها.

ويبقى أهل الإيمان ومن تظاهر بمظهرهم، وهم المنافقون. فيتجلّى الله عز وجل للمؤمنين بغير ما يعرفون عنه من صفات الجلال والكمال والرحمة، فيستعيذون بالله منه!

ثم يتجلّى لهم بالصفات التي يعلمونها عن الله، فيقولون: نعم أنت ربنا. وموقف آخر من مواقف الآخرة، هو عالم الصراط.

والصراطُ مما يجبُ الإيمان به، ووردت في السنة بعض تفاصيله، فمنها: أنه على ظهر جهنم، أي: إنه ممدودٌ فوقها، فأولُّه في أرض المحشر، وآخره على باب الجنة، يجوزُ عليه الناسُ جميعاً، وعلى حافتيه كلاليبٌ من نارٍ تخطفُ الناسَ بأعمالهم.

ولكلِّ عملٍ من الأعمال موقفٌ عليه، يسمى قنطرة، فيما قيل.

قال القرطبي في «تذكرته» ص ٣٨١ تحت «باب كيف الجواز على الصراط...»: «روي عن بعض أهل العلم أنه قال: لن يجوزَ أحدُ الصراطِ حتى يُسأل في سبع قناطر، فأما القنطرة الأولى: فيسأل عن الإيمان بالله، وهي شهادة أن لا إله إلا الله، فإن جاء بها مخلصاً - والإخلاص قول وعمل - جاز، ثم يُسأل على القنطرة الثانية عن الصلاة، فإن جاء بها تاماً جاز، ثم يُسأل على القنطرة الثالثة عن صوم شهر رمضان، فإن جاء به تاماً جاز، ثم يسأل على القنطرة الرابعة عن الزكاة،

فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عَرَفناه، فيأتيهم الله تعالى في صورته التي يعرفون فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه.

وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرِي جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمِّي أَوَّلَ مَنْ نَجِيزُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ.

فإن جاء بها تامة جاز، ثم يسأل في الخامسة عن الحج والعمرة، فإن جاء بهما تامتين جاز، ثم يسأل في القنطرة السادسة عن الغسل والوضوء، فإن جاء بهما تامتين جاز، ثم يسأل في السابعة - وليس في القناطر أصعب منها - فيُسأل عن ظلمات الناس.

وللصراط هولٌ وفزعٌ، فكلُّ من الناس غارقٌ في همٍّ، وهمُّ معرفة ماله: سقوطٌ وجندلةٌ في جهنم، وكلّاليها تنتظره، أو نجاة وسلامة إلى آخره عند باب الجنة؟؟.

ومن شدة الكرب الأخذ بحناجر الناس أن أحداً منهم لا يتكلم، وكلُّ واحدٍ منا يدرك هذه الحال، إذا أخذَ منه الكرب مأخذاً شديداً كره الكلام منه أو معه! عافانا الله.

فقال ﷺ: «وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ» فهم على عظيم مقامهم لا يتكلمون بشيء إلا بالدعاء بالسلامة والنجاة.

لكن لصاحب المقام المحمود والشفاعة العظمى ﷺ أولياتٌ وخصائصٌ، منها: أنه أولُ من يجوزُ على الصراط، ومعه أمته؛ يجوز بها الصراط، وهي أمة الإجابة، أي: كل من استجاب لدعوة الإسلام، سواء أكان صالحاً أم غير ذلك، فإذا مشى ﷺ على الصراط ومشت أمته وراءه، وقع منهم من قُدِّرَ عليه الوقوع، ونجا من نجا. ويكون هو ﷺ أول واقفٍ على باب الجنة يستفتح لأمته وللناس من بعدهم ليدخلوها.

روى مسلم في «صحيحه» ٣: ٧٣ عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة».

وفي جهنم كَلَالِيبٌ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هل رأيتم شوك السَّعْدَانِ؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «فإنها مِثْلُ شوك السَّعْدَانِ، غير أنه لا يعلم ما قَدَرُ عِظَمِهَا إِلَّا اللهُ، تَخَطَّفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فمنهم المؤمنُ بقيَ بِعَمَلِهِ، ومنهم المُجَارَى حتى يُنَجَّى».

ثم رَوَى بعده عن أنس أيضاً: «آتَى بَابَ الْجَنَّةِ فَأَسْتَفْتَحَ، فيقولُ الخازنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ» ﷺ تسليماً كثيراً.

وقَرَّبَ النبي ﷺ لأفهام الصحابة كَلَالِيبَ النَّارِ، فشبَّها لهم بشوك معروف عندهم فقال: «وفي جهنم كَلَالِيبٌ، مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ...»، غير أنه لا يَعْلَمُ ما قَدَرُ عِظَمِهَا إِلَّا اللهُ»، ووظيفتها أنها «تَخَطَّفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ» السيئة فتوقعهم في نار جهنم، فإذا طهرتهم النار من معاصيهم، وطابوا من خبثها، أُخْرِجُوا منها، لِيُتِمُّوا مسيرتهم على الصراط.

وهذه الكلاليب هي الشهوات التي ذكرها النبي ﷺ بقوله: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ» رواه مسلم عن أنس وأبي هريرة. نقله في «الفتح» ١١: ٤٥٣ عن ابن العربي المالكي. فليحذر المسلم من الانزلاق وراء الشهوات، فإن كلاليب النار له بالمرصاد!! نسأل الله العافية.

ثم يأذن الرحمن الرحيم لملائكته أن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شيئاً، فيخرجونهم منها، وَذَكَرَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَعْرِفُ هَؤُلَاءِ - مِنْ بَيْنِ أَهْلِ النَّارِ - بِآثَارِ السَّجُودِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السَّجُودِ، أَي: أَنْ تُحْرِقَهُ.

وقد يُسْتَشْكَلُ: كيف أن الملائكة تعرف هؤلاء بآثار السجود مع أنهم الطائفة التي ليس عندها شيء من الخير إِلَّا قَدَرُ الْإِيمَانِ الْمُنْجِي مِنَ الْخُلُودِ فِي النَّارِ، دون أيِّ عملٍ آخر، لا صلاة، ولا زكاة، ولا صيام... (١)٩.

١ - هذا ما ظهر لي، وظاهر كلام ابن حجر في «الفتح» ١١: ٤٥٦ أن عندهم شيئاً من عمل الخير، لذلك تَأَوَّلْتُ فِي الْجَوَابِ الْمَذْكُورِ قَوْلَهُ «أَثَرُ السَّجُودِ» بِ: موضع السجود، لأنهم لم يسجدوا فعلاً. وينحوه قال الكرمانى في «شرح» ٢٥: ١٤٣. أما الحافظ رحمه الله فقال هناك: «هل المرادُ بِأَثَرِ السَّجُودِ نَفْسُ الْعِضْوِ الَّذِي يَسْجُدُ، أَوِ الْمَرَادُ: مَنْ سَجَدَ؟ فِيهِ نَظَرٌ، وَالثَّانِي أَظْهَرَ.» =

حتى إذا فَرَّغَ الله من القضاء بين العباد، وأراد أن يُخْرِجَ برحمته من أراد من أهل النار: أمرَ الملائكة أن يُخْرِجُوا مِنَ النار مَنْ كان لا يُشْرِكُ بالله شيئاً، ممن أراد الله أن يَرْحَمَهُ ممن يقول: لا إِلَهَ إِلَّا الله، فيعرفونهم في النار، يعرفونهم بأثر السجود، تأكلُ النارُ من ابن آدم إلا أثرَ السجود، حَرَّمَ الله على النار أن تَأْكُلَ أثرَ السجود. فيُخْرِجونَ من النار قدامتُ حُشُوا، فيُصَبُّ عليهم ماء الحياة، فينبئون منه كما تَنَبُّتُ الحَبَّةُ في حَمِيلِ السَّيْلِ.

ثم يَقْرُغُ الله من القضاء بين العباد، ويبقى رجلٌ مقبلاً بوجهه على النار، وهو آخر أهل الجنة دخولاً الجنة فيقول: أَيُّ رَبِّ اصْرِفْ وجهي عن النار، فإنه قد قَشَبَنِي رِيحُهَا، وأَحْرَقَنِي ذُكَاؤُهَا. فيدْعُو الله ما شاء الله أن يَدْعُوهُ.

والجواب: المعنى: أن الله حرم على النار أن تأكل موضع السجود، وهي الأعضاء السبعة التي بها يحصل السجود، وقيل: الجهة منها فقط. فالله تعالى يحفظ موضع السجود من أكل النار إياه، لكرامة السجود وعظيم فضله، لذلك بَوَّبَ البخاري: باب فضل السجود، وأورد الحديث تحته.

وهذه الطائفة هي المذكورة في الحديث الآتي برقم ٩٥ أنهم ليس في قلبهم إلا مثقالُ حَبَّةٍ من خردل من إيمان، ثم يُكْرَمُهُم الله بالإلقاء في نَهْرِ الحياة، فينبئون منه كما تنبت الحَبَّةُ في حَمِيلِ السَّيْلِ، وجاء في حديث أبي سعيد عند مسلم ٣: ٣٢ أنهم «لم يعملوا خيراً قط».

ثم يقصُّ علينا رسول الله ﷺ قصةَ رجلٍ - لعله أحد المذكورين قبل - وهو آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وحاله تمثل حال النفس البشرية التي تطمح دائماً

= أي: إن الله حَرَّمَ على النار أن تأكلَ منهم الأعضاء التي سَجَدَتْ له، فهي باقية على حالها، لذلك عُرِفُوا بها. وأقول: إن الذين يُلْقَوْنَ في نهر الحياة قومٌ «لم يعملوا خيراً قط»، كما في حديث أبي سعيد عند مسلم ٣: ٣٢.

ثم يقول الله تبارك وتعالى: هل عَسَيْتَ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ بِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فيقول: لا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي رَبَّهُ مِنْ عَهْدٍ وَمَوَاقِيقَ مَا شَاءَ اللَّهُ. فيَصْرِفُ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ.

فإذا أَقْبَلَ عَلَى الْجَنَّةِ وَرَآهَا، سَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، قَدَّمَنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فيقول الله له: أَلَيْسَ قَدْ أُعْطِيتَ عَهْدُكَ وَمَوَاقِيقَكَ: لَا تَسْأَلُنِي غَيْرَ الَّذِي أُعْطَيْتُكَ؟ وَبِلكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ!.

فيقول: أَيُّ رَبِّ، وَيَدْعُو اللَّهَ، حَتَّى يَقُولَ لَهُ: فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ أُعْطَيْتَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فيقول: لا، وَعَزَّتْكَ. فَيُعْطِي رَبَّهُ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ عَهْدٍ وَمَوَاقِيقَ، فَيَقْدُمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ.

إِلَى حَالٍ أَحْسَنَ مِنَ الْحَالِ الَّتِي هِيَ عَلَيْهَا، فَإِذَا بَلَغْتَ مَا تَضْبُو إِلَيْهِ، طَمَحْتَ إِلَى أَعْلَى، ثُمَّ، وَثَمَ، وَهَكَذَا.

وهي حَالٌ مَحْمُودَةٌ مَا دَامَ هَذَا الطَّمُوحُ فِي الْخَيْرِ، أَمَا فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَنَحْوِهَا - بَلَّةُ الشَّرِّ وَالْمَعَاصِي - فَلَا يَنْبَغِي الْإِسْتِرْسَالُ مَعَهُ.

قال سيدنا رسول الله ﷺ: «انظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» رواه مسلم ١٨: ٩٧، وبنحوه رواه البخاري ١١: ٣٢٢ (٦٤٩٠) كلاهما عن أبي هريرة.

وروى الترمذي ٧: ٢٠٠ (٢٥١٤) وحسنه: «خَصَلْتَانِ مِنْ كَانَتَا فِيهِ كَتَبَهُ اللَّهُ شَاكِرًا صَابِرًا، وَمَنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ شَاكِرًا وَلَا صَابِرًا. مَنْ نَظَرَ فِي دِينِهِ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ فَاقْتَدَى بِهِ، وَنَظَرَ فِي دُنْيَاهُ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ فَحَمِدَ اللَّهُ عَلَى مَا فَضَّلَهُ بِهِ عَلَيْهِ: كَتَبَهُ اللَّهُ شَاكِرًا صَابِرًا، وَمَنْ نَظَرَ فِي دِينِهِ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ، وَنَظَرَ فِي دُنْيَاهُ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ فَأَسِيفَ عَلَى مَا فَاتَهُ مِنْهُ: لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ شَاكِرًا وَلَا صَابِرًا». وكأنه حسنُه لِشَاهِدِهِ الَّذِي ذَكَرْتُهُ مِنَ الصَّحِيحِينَ، فَإِنَّهُ سَاقَ لَفْظَ مُسْلِمٍ عَقِبَهُ.

تَكَرَّرَ مِنْ هَذَا الْإِنْسَانِ هَذَا التَّطَلُّعُ وَالطَّمُوحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَهُوَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يَدْعُوهُ وَيَرْجُوهُ، وَيَشْكُو إِلَيْهِ ضُرَّهُ، وَيَسْأَلُهُ خَيْرَهُ، وَيَعْدُو وَيُوثِقُ عَهْدَهُ بِالْإِيمَانِ، ثُمَّ

فإذا قام على باب الجنة انْفَقَهَتْ له الجنة، فرأى ما فيها من الخير والسرور، فیسكتُ ما شاء الله أن یسكتَ، ثم یقول: أيُّ ربِّ، أدخِلْني الجنة. فیقول الله تبارك وتعالی له: أليس قد أعطيتَ عهدَكَ وموائيقَكَ أن لا تَسألَ غیر ما أُعطيتَ؟ ویلك يا ابنَ آدمَ ما أُغْدِرَكَ! فیقول: أيُّ ربِّ، لا أكونُ أشقى خَلْقِكَ. فلا یزالُ یدعو الله حتی یضحك الله عز وجل منه، فإذا ضحك الله منه قال: ادْخُلِ الجنة.

ینقضُ ذلك كُلُّهُ، والله یدكرُهُ بعهوده وموائيقه، وهو یعلمُ سبحانه وتعالی أن هذا العبدَ المسكينَ سوف یتدرّج في مطالبه، لأنه تعالی هو یدرّجُه في منحه، كما جاء ذلك في رواية أنس عن ابن مسعود رضي الله عنهما في «المسند» ١: ٣٩٢.

ومن هذه المواقف الثلاثة نستفيد: أن الإنسان إذا فُتِح له بابُ الدعاء فليعلم أنه قد فتح له باب الإجابة في عالم الغيب، فليدعُ العبدُ، وليكثر من الدعاء، وليستكثر من الطلّبات، ولا يستعظم على الله عز وجل شيئاً، فإن كل شيء موجود في خزائن الله، ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾.

وقال ﷺ: «إذا سأل أحدكم فليكثر، فإنما يسأل ربّه». رواه ابن حبان

(٨٨٩).

وهذا العبدُ لم ييأس من السؤال مع أن حاله لا تُسعفه على السؤال، لما يعلمه من سوء ماضيه مع الله في الحياة الدنيا، ولم يستح أن ينقض موائيقه، طمعاً منه في مسامحة الله له وعفوه.

ونستفيد أيضاً أدباً من آداب الدعاء والمسألة: هو إظهار التضرُّر أمام الله عز وجل، فإنه وسيلة من وسائل إجابة الدعاء: «أيُّ ربِّ اصرف وجهي عن النار، فإنه قد قَشَبني ريحها، وأحرقني ذكاؤها» فإن هذا يستنزِلُ رحمةَ الله عليك وشفقته، جل جلاله. ومنه أيضاً: إظهارُ الدُّلِّ بين يدي الله والافتقارِ إليه: أيُّ ربِّ لا أكونُ أشقى خَلْقِكَ.

ونستفيد أيضاً: أن لا ييأس الداعي من الدعاء فينصرف عنه إذا لم يُجب في المرة الأولى، أو الثانية، أو الثالثة! انظر إليه: «فيدعُ الله ما شاء الله أن یدعوه...، فلا یزالُ یدعو الله».

فإذا دخلها قال الله له: تَمَنَّهُ. فيسأل ربه ويتمنى، حتى إن الله ليَذْكُرَه من كذا وكذا، حتى إذا انقَطَعَتْ به الأمانِي قال الله تعالى: ذلك لك ومثله معه.

قال عطاء بن يزيد: وأبو سعيد الخُدْريُّ مع أبي هريرة، رضي الله عنهما، لا يَرُدُّ عليه من حديثه شيئاً، حتى إذا حَدَّث أبو هريرة أن الله عز وجل قال لذلك الرجل: «ومثله معه» قال أبو سعيد: «وَعَشْرَةُ أمثاله معه، يا أبا هريرة». قال أبو هريرة: ما حفظت إلا قوله: «ذلك لك ومثله معه».

وبعد هذا جاءت النعمة العظمى، والمِنَّة الكبرى: «ادْخُلِ الْجَنَّةَ»، وزاده فضلاً على فضل: «تَمَنَّهُ»!

فيسأل المسكينُ الضعيفُ ربه العَظِيمَ على مقدار عقله وما وَقَعَ تحت سمعه وبصره، وكأنه لم يعلم شيئاً عن عِظَمِ الجنة! «حتى إن الله ليَذْكُرَه من كذا وكذا» أي: سَلَّ من كذا وكذا، ولا تستكثر عليّ شيئاً. ثم وثم ويُمَهِّلُه الله عز وجل في أمانيه قدر ثلاثة أيام من أيام الدنيا، كما جاء ذلك في رواية الإمام أحمد ٣: ٧٠، ٧٤: «حتى إذا انقَطَعَتْ به الأمانِي» ولم يَبْقَ له عند الله سؤال ورغبة يُسَمِّيها «قال الله تعالى: ذلك لك ومثله معه». هذه رواية أبي هريرة رضي الله عنه.

واستدرك عليه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن الذي حَفِظَه هو عن رسول الله ﷺ قوله: «ذلك له وعَشْرَةُ أمثاله معه».

فإذا سمع هذا العبدُ المرحومُ ذلك العطاء المدهش، لم يتحمل قلبه وعقله، فراح يخاطب مولاه الكريم بما لا يليق - والله يَعُدُّه ويَحْتَمِلُ منه ذلك - فيقول: يا ربَّ «أَتَسَخَّرُ بي وأنت المَلِكُ» العظيم الجَبَّار! فقال الله عز وجل له: «إني لا أَسْتَهْزِئُ منك، ولكني على ما أشاء قادر». سبحانهك اللهم وبحمدك.

ثم إن من تمام دَهْشَةِ هذا العبد أنه حينما دخل الجنة جاءته زوجته من الحور العين، وقالت له: «الحمد لله الذي أحياك لنا، وأحيانا لك» فقال: «ما أُعْطِيَ أحدٌ مثل ما أُعْطِيتُ!» وهو صادق في دعواه، لأنه ما رأى ما رآه غيره، وهذا لسان أهل الجنة جميعهم وجوابهم، وسيأتي الحديث - برقم ١٠٠ - الذي يقول كل واحد منهم

قال أبو سعيد: أشهدُ أني حفظتُ من رسول الله ﷺ قوله: «ذلك لك وعَشْرَةُ أمثاله».

قال أبو هريرة رضي الله عنه: وذلك الرجلُ آخِرُ أهلِ الجنةِ دخولاً الجنةَ.

الله سبحانه: «ما لنا لا نَرْضَى وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من خلقك؟» فكلُّ واحدٍ يقولُ هذا عن نفسه معتقداً إياه.

نسأل الله المنعمَ المتفضلَ أن يجعلنا من عباده المكرمين في الدنيا والآخرة بمحضِ جوده وفضله وإحسانه.

هذا، وإن النظر في أحاديث الباب ورواياتها المتعددة يحتمُّ القولَ بتعددِ القصة، وأن بعضها في حقِّ آخِرِ داخلِ الجنة، قادمٍ من أرضِ المحشر، إلى الصراط، إلى الجنة، وبعضها في حقِّ آخِرِ خارجٍ من النار داخلِ الجنة، كما ذهب إليه جماعة من أهل العلم. والله أعلم.

٩٢- عن الشَّعْبِيِّ، أَنَّهُ سَمِعَ الْمَغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ عَلَى الْمِنْبَرِ، يَرْفَعُ الْحَدِيثَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ: مَا أَذْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةٌ؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَمَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: أُدْخِلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخْذَاتِهِمْ؟ فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكٍ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ

٩٢- تخريجه: رواه مسلم: كتاب الإيمان - باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ١: ١٧٦ (٣١٢) وشرح النووي ٣: ٤٥.

غريبه: أَخَذَاتِهِمْ: منازلهم التي أعدها الله لهم وأكرمهم بها.
الذين أردت: الذين اصطفت.

معناه: هذا الْكَرَمُ الْإِلَهِيُّ الْعَظِيمُ جَاءَنَا الْعِلْمُ بِهِ بِسَبَبِ سَيِّدِنَا مُوسَى عَلَى نَبِينَا وَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، إِذْ سَأَلَ رَبَّهُ عَنْ أَذْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةٌ فِيهَا، وَعَنْ أَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةٌ فِيهَا.

فأما أدناهم مَنْزِلَةٌ فِيهَا: فَرَجُلٌ أُمِرَ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، فَلَمْ يَرَ مَكَانًا لَهُ فِيهَا، حَسْبَمَا رَأَى وَخُيِّلَ إِلَيْهِ، كَمَا جَاءَ فِي رِوَايَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «... يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلَأَى، فِيرْجِعُ...» وَيَتَكَرَّرُ مِنْهُ ذَلِكَ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: «اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهَا، أَوْ: إِنَّ لَكَ عَشْرَةَ أَمْثَالِ الدُّنْيَا».

والفرق بين هذين اللفظين يسير: مِثْلُ الدُّنْيَا، وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهَا، فَيَكُونُ مَجْمُوعُ حَظِّهِ مِنَ الْجَنَّةِ أَحَدَ عَشَرَ مِثْلًا لِلدُّنْيَا. أَوْ: لَكَ عَشْرَةُ أَمْثَالِ الدُّنْيَا. فَهِيَ عَشْرَةُ أَمْثَالٍ فَقَطْ، لَا أَحَدَ عَشَرَ.

الدنيا؟ فيقول: رَضِيتُ رَبًّا. فيقول: لَكَ ذَلِكَ، ومثله، ومثله، ومثله، فقال في الخامسة: رَضِيتُ رَبًّا. فيقول: هذا لك وَعَشْرَةُ أمثاله، ولك ما اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ. فيقول: رَضِيتُ رَبًّا.

قال - موسى -: رَبِّ فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قال: أولئك الذين أَرَدْتُ،

لكن الفرق بينهما وبين الحديث المشروح كبير، فلفظه بعد أَنْ وَعَدَهُ رَبُّهُ خمس مرات من أمثال الدنيا، قال: «هذا لك» أي الأمثال الخمسة «وعشرة أمثاله»، فإذا أعدنا الضمير على الأمثال الخمسة كان حاصل ذلك الخمسة الأمثال معطوفاً عليها عشرة أمثالها، فالجميع: خمسة وخمسون مثلاً.

ولا يُسْتَكْثَرُ على فضل الله وجوده شيء، لكن المراد تحقيق فهم الرواية. وهل يَقْرُبُ من جود الله جوداً؟ وهل يليقُ بعاقِلٍ أَنْ يَتَقَاعَسَ عن طلب الجنة، وعن الجِدِّ في طلبها؟ اللهم وفّقنا لذلك يا أكرم الأكرمين. وقد جاءت رواية ابن مسعود - هذه صريحة في أن هذا فضل الله على آخر أهل النار خروجا منها، وهو آخر أهل الجنة دخولا إياها.

ويزيده الله من فضله، فيقول له: «لك ما اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ»: ﴿فِيهَا مَا تَشْتَهُهُ النَّفْسُ وتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ ولذلك يقول هذا الإنسان: «ما أُعْطِيَ أَحَدٌ مثْلَ ما أُعْطِيتُ!!» كما في «صحيح مسلم» ٣: ٤٤.

والمراد: الأنفس والأعين الطيبة التي قالت لها ملائكة الرحمن حين دخولها الجنة: ﴿طِبِّتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾. طابوا فلا يَشْتَهون إلا طيباً يَتَلَذَّوْنَ مع طيب الجنة دار الكرامة، فصارت أنفساً وأعيناً جَنَانِيَّة لا أَرْضِيَّة دُنْيَوِيَّة.

أما أعلى أهل الجنة منزلة: فكان جوابُ الله تعالى لكلّيه موسى عليه الصلاة والسلام مجعلاً لا تفصيل فيه، سوى أنه دلَّه على رفعة مكانتهم لديه: «أولئك الذين أَرَدْتُ، غَرَسْتُ...».

ففرق كبير بين من يُوصَفُ إكرامهم، وبين مَنْ لا يوصَفُ، لِعَظَمِهِ.

وفرق كبير بين من يقول الله له: «لك ما اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ»، وبين

غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ،
وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

قال: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ
لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

من يقول في وصف كرامتهم: «لَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ
بَشَرٍ».

وليس المراد: أن كرامتهم تخطر على قلب غير البشر، كالملائكة، لا، بل
المراد عموم النفي، من بشر، أو مَلَك، أو نبي مرسل، كما جاء التصريح بهذا في
رواية ابن مسعود عند ابن أبي حاتم، ولفظُ الشاهد منها: «وَلَا يَعْلَمُهُ مَلَكٌ مَقْرَّبٌ،
وَلَا نَبِيٌّ مَرْسَلٌ»، كما ذكره الحافظ في «الفتح» ٨: ٥١٦، وهو على شرطه في
الصحة أو الحسن.

هذا، وقد جَعَلَ الحافظ ابن حجر رحمه الله - في الموضع المذكور - هذا
الحديث سبباً للحديث الذي قبله. والله أعلم.

والله سبحانه وتعالى هو المستنول والمرجو أن يُكْرَمَنَا بما هو أهلُه دون سابقةٍ
حساب أو عذاب أو عتاب. إنه هو أهلُ التقوى وأهلُ المغفرة.

٩٣- عن مَعْبَد بن هلال العَنَزِيِّ قال: انطلقنا إلى أنس بن مالك وَتَشَفَّعْنَا بِثَابِتٍ فَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِ وَهُوَ يُصَلِّي الضُّحَى، فَاسْتَأْذَنَ لَنَا ثَابِتٌ،

٩٣- تخريجه: رواه البخاري في كتاب التوحيد - باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء ١٣: ٤٧٣ (٧٥١٠)، ومسلم كتاب الإيمان - باب أدنى أهل الجنة منزلة ١: ١٨٢ (٣٦٢)، ٣: ٦١ بشرح النووي، واللفظ لمسلم.

غريبه: ماج الناس: اختلطوا واضطربت أمورهم.

بُرَّة: واحدة البر، الحبة الواحدة من القمح.

الجَبَان: الصحراء، أو المقبرة. وظهرها: أعلاها.

هيه: أي: قولوا، اذكروا الحديث، وهاتوا ما تريدون قوله. وقوله هيه في المرة الثانية يريد بها: زيدوا من حديثكم، وأتموه. وكان الحسن البصري مختفياً من الحجاج الثقفي.

وهو يومئذ جميع: أي: «مجتمع العقل، وهو إشارة إلى أنه كان حينئذ لم يدخل في الكبر الذي هو مظنة تفرق الذهن، وحدث اختلاط الحفظ». كما في «فتح الباري». وأصله للنووي ٣: ٦٥.

معناه: تَوَاتَرَ حديث الشفاعة عن النبي ﷺ، فرواه عدد جُم كبير، وبألفاظ متعدّدة، ما بين اختصار وتطويل، وهذا واحد منها، وهذا لفظ من ألفاظه عن أنس رضي الله عنه. وجدير به أن تجمع رواياته وألفاظه ويُشَرَّحَ باستيفاء^(١)، فإنه من أعظم الأحاديث الشريفة التي تُظْهِرُ جَلِيًّا عَظِيمَ مقام سيدنا رسول الله ﷺ، على سائر الأنبياء والمرسلين، بله غيرهم من الناس والملائكة المقربين!.

١- انظر «فتح الباري» ١١: ٤٣٢ - ٤٤١، و«شرح المواهب» للزرقاني ٨: ٣٧٠ - ٣٨٢. وما لم أخرجه فهو من «فتح الباري»، وهو على مقتضى شرطه: صحيح أو حسن، حتى إنه عمدة الزرقاني في شرحه.

فدخلنا عليه، وأجلس ثابتاً معه على سريريه، فقال له: يا أبا حمزة إن إخوانك من أهل البصرة يسألونك أن تحدثهم حديث الشفاعة، قال:

حدثنا محمد ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة مآج الناس بعضهم إلى بعض، فيأتون آدم فيقولون له: اشفع لذريتك، فيقول: لست لها، ولكن

وأتكلم عليه بإيجاز حسب تسلسل الفاظه هنا ومواقفه.

١- أول ما في هذا الحديث: أدب من الآداب مع ذوي الفضل والمقام الكريم، هو الدخول عليهم صحبة رجل مقرب لديهم.

يقول راوي الحديث معبد بن هلال: انطلقنا. وتشفعنا بثابت، ولفظه عند البخاري: «اجتمعنا ناس من أهل البصرة. وذهبنا معنا بثابت البنانى». وثابت معروف الصحبة لأنس، صحبه أمدأ طويلاً. قال ابن حبان في «الثقات» ٤: ٨٩: «صحب أنساً أربعين سنة!». فحق لمثله أن يتشفع به عند أنس، وحق لأنس أن يكرمه ويجلسه بجانبه على سريريه.

٢- وفيه: إظهار مزية الشفيع عند المتشفع به، وربما لو دخل ثابت وحده لما كان من أنس رضي الله عنهما ما كان منه أمامهم، لما بينهما من الأنس وعدم الكلفة، لكنه أراد إظهار كرامته عنده أمامهم. فهذا أدب ثان.

٣- وقول ثابت لأنس: «يسألونك أن تحدثهم حديث الشفاعة»: جاءت رواية البخاري مصرحة بطلبهم ذلك من ثابت، ففيها: «وذهبنا معنا بثابت البنانى إليه يسأله لنا عن حديث الشفاعة». وفيه: مزيد أدب من الصغير مع الكبير: أن لا يباشر بنفسه الطلب منه، بل يدخل على طلبه بمن له عنده اختصاص وقرب ومكانة. وهذا أدب ثالث.

٤- معلوم من الروايات الأخرى لحديث الشفاعة: أن الذي يحرك الناس لطلبهم الشفاعة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هو شدة الموقف عليهم، وطوله، وأهواله، فكان من الطبيعي أن يفكروا فيما يتقدمهم، ففكروا، فأروا أن التوسل إلى الله عز وجل بصفوته من خلقه خير طريق يسلكونها.

ثم رأوا أن الأولى بذلك هو أبوهم، فلذلك قالوا له: «اشفع لذريتك». ورأوا

عليكم بإبراهيم عليه السلام، فإنه خليلُ الله.

فيأتون إبراهيم، فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بموسى عليه السلام، فإنه كليُّمُ الله.

فيه من المزايا الأخرى ما ذكروه في رواية أخرى: «أنت آدم أبو الخلق، خلقتك الله بيده ونَفَخَ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا عند ربك، حتى يُريحنا من مكاننا هذا».

وفي هذا أدب آخر، هو تقديم الثناء على المرجو منه المتشفع به، ثم ذكر الأمر المرجو.

٥- وفي بعض روايات البخاري: «يجتمع المؤمنون فيقولون»، وفي غيرها: «يجتمع الناس»، وفي هذه الرواية: «ماج الناس». ولا تعارض، فالذي يجتمع: هم جميع الناس، والذي يطلب الشفاعة: هم المؤمنون. كما في «الفتح» ١١: ٤٣٢. واستظهر عليُّ القاري في «المرقاة» ١٠: ٢٧٧ أن الذين يأتون آدم فمن بعده: «هم رؤساء أهل المحشر لا جميع أهل الموقف». والله أعلم.

٦- وفي جواب آدم عليه الصلاة والسلام لهم «لستُ لها»: نُصَحَ لهم، وبيانٌ للحقيقة، والأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم هم دائماً وأبداً نَصَحَةٌ للأسم جميعهم، في الدنيا والآخرة. والآخرة هي الحاكمة، فيها بيان للحقيقة.

ونقل القاري ١٠: ٢٨٢ عن الطيبي رحمهما الله تعالى أن اللام في قوله «لها» لام الاختصاص، فيكون المعنى: لستُ مختصاً بها، ولا هي لي، أي: بل هي لغيري، وفيه إيذانٌ بأنه هو وغيره من الأنبياء المذكورين يعرفون أنها لمحمد ﷺ. وانظر نقوله هناك.

ثم ذلَّهم وأرشدهم أن يذهبوا إلى إبراهيم خليل الرحمن وشيخ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وعُلِّلَ لِمَ أرشدهم إليه بقوله: «فإنه خليل الله».

٧- فيأتون إبراهيم، فيقول لهم كما قال آدم، ويُرشدهم إلى موسى عليه الصلاة والسلام، ويبين لهم لِمَ أرشدهم إليه، لأنه «كليُّمُ الله».

فيؤتي موسى فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام، فإنه روحُ الله وكلمته.

فيؤتي عيسى فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بمحمد ﷺ.

٨ - فيأتون موسى، فيقول لهم كما قال آدم وإبراهيم من قبله، ويرشدهم إلى عيسى، لأنه «روح الله وكلمته».

وكل واحد من هؤلاء الثلاثة يعتذر ويبين لهم سبب اعتذاره، وهو أمر أو أمور فرطت منه لا تليق بمقامه العظيم، واختصر ذكرها هنا في هذه الرواية. وكذلك اختصر الحديث عنها، لكني أقول: إنها لا تؤثر على عصمتهم، ولا على مقامهم الكريم.

كما اختصرت الرواية هذه ذكر نوح عليه الصلاة والسلام، وهو مذكور في كثير من الروايات الأخرى الصحيحة.

٩ - فيأتون عيسى عليه الصلاة والسلام فيعتذرون ويقول: «لستُ لها» ولا يذكر هنا سبباً وعذراً يؤخره عن الشفاعة، ولكنه يقول لهم «عليكم بمحمد ﷺ» ويبين في روايات أخرى لم أمرهم بالذهاب إلى محمد ﷺ بقوله: «فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر». وذكر الحافظ في «الفتح» ١١: ٤٣٥ رواية ثابت البناني عند سعيد ابن منصور: «خاتم النبيين قد حضر اليوم، رأيتم لو كان متاعاً في وعاء قد ختم عليه، أكان يُقدر على ما في الوعاء حتى يُفَضَّ الخاتم؟».

١٠ - والظاهر أن كل نبي يأتيه الناس، يمشي معهم إلى النبي الذي يرشدهم إليه، فآدم يمشي معهم إلى نوح، ونوح وآدم والناس يمشون إلى إبراهيم، وهكذا.

يدلُّ على ذلك حديث أنس في الشفاعة، الذي رواه أحمد ٣: ١٧٨: «إني لقائم أنتظر أمتي تعبر على الصراط إذ جاءني عيسى فقال: هذه الأنبياء قد جاءتك يا محمد يشتكون - أو قال: يجتمعون - إليك، ويدعون الله عز وجل أن يفرق جمع الأمم إلى حيث يشاء الله، لغم ما هم فيه».

فَأَوْتَى، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي،

ويدلُّ على ذلك حديث آخر، رواه مسلم في «صحيحه»^(١) ٦: ١٠١ - ١٠٢ عن أبي بن كعب في حديثه في الأحرف السبعة، وضربَ النبي ﷺ على صدره، وفي آخره قال ﷺ: «اللهم اغفرْ لأمتي، اللهم اغفرْ لأمتي، وأُخِرَتِ الثالثة ليوم يَرْغَبُ إِلَيَّ الخَلْقُ كُلُّهُمْ حَتَّى إِبْرَاهِيمَ ﷺ». وهو في «المسند» أيضاً ٥: ١٢٧، ١٢٩. فالتَّاسُ ومَعَهُمُ الأنبياء يرجعون إلى رسولنا محمد ﷺ، يَرْجُونَهُ الشَّفَاعَةَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْ يَفْرُقَ هَذَا الْجَمْعَ الْحَاشِدَ الْعَظِيمَ إِلَى جَنَّةِ أَوْ نَارٍ. فَأَعْظَمَ بِهِ مِنْ مَكْرُمَةٍ!

١١ - قال ﷺ: «فَأَوْتَى، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَأَنْطَلِقُ...». وهذا الموقف وحده يكفي لإظهار عِظَمِ الفارق بين مقامه ﷺ، وبين مقام أي نبي آخر. نبي يقول: لست لها، وأنا وراء وراء، ونفسي نفسي، ونبي يقول: أنا لها أنا لها، ويقول: فَأَنْطَلِقُ. والانطلاق: الذهابُ بسرعة، ومنه: «الطَّلَقُ: جَرِيُّ الْفَرَسِ لَا تَحْتَبِسُ إِلَى الْغَايَةِ. وَتَطَلَّقَ الظُّبْيُ: مَرَّ لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ»^(٢) ومنه قولهم: طَلَّقَ اللِّسَانُ: أي سَرِيعَ النُّطْقِ. وانطلاقه ﷺ هنا واضحٌ معناه وَمَغْزَاهُ، وهو ناشئٌ عن علمه برفعة مكانته عند ربه، وأنه هو الموعود بهذا المقام العظيم.

وللعلماء كلام طويل في بيان: لَمْ تَقْدَمْ ﷺ وأحجم غيره، ومما قيل ما حكاه الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في «بدائع الفوائد» ٤: ٢١٦ قال: «قال أبو بكر عبد العزيز غلام الخلال: سمعت بعض شيوخنا يقول: إنما امتنع سائر الأنبياء من الشفاعة لأنهم عوتبوا قبل الغفران، فأحجمهم عن الهجوم عليه، ونبينا عليه الصلاة والسلام غُفِرَ لَهُ قَبْلَ الْعِتَابِ».

١٢ - ولا ريب أننا إذا كنا نعلم هذا في حق نبينا محمد ﷺ، فَلَأَنْ يَعْلَمَهُ إِخْوَانُهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ مِنْ بَابٍ أَوَّلَى. فَلَمْ لَمْ يُرْشِدُوا الْخَلَائِقَ إِلَيْهِ مِنْ أَوَّلِ الْأُمُرِ؟. وسؤال آخر: إذا كنا نعلم أن هذا المقام خاصٌ بنبينا عليه أفضل الصلاة والسلام، فَلَمْ لَمْ نَنْطَلِقْ إِلَيْهِ مِنْ أَوَّلِ أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ، أَوْ أَوَّلِ نَبِيِّ؟.

والجواب عن السؤال الأول: أن الله عز وجل يريدُ إظهارَ فَضْلِ مُحَمَّدٍ ﷺ

١ - وعزه الحافظ ابن حجر في «الفتح» ١١: ٤٣٦ إلى الترمذي، وهو غريب منه، فما كان في «صحيح مسلم» لا يُعْزَى إِلَى الترمذي، على أني لم أره في الترمذي أيضاً.

٢ - من «المصباح المنير».

فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأُحَمِّدُهُ بِمُحَمَّدٍ لَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ الْآنَ، يُلْهِمْنِيهِ اللَّهُ، ثُمَّ أُخْرِجْهُ
لَهُ سَاجِداً، فيقال لي :

على سائر مخلوقاته، وإظهارُ الفضيلة يتمُّ ويزدادُ ظهوراً كلما اشتدَّت الحاجة،
واستعصت الأمور، وزادت الكُرْبَات، وأحكمت الخطوبُ أبوابها. أما مَنْ جاءته
المواهبُ والمنحُ عاجلاً ودون تعبٍ: فلن يجدَ لها لذة:

ومن أخذَ البلادَ بغير حربٍ يَهُونُ عليه تسليم البلاد
ومن اشتدَّ عليه الخوفُ وجَدَ لذةَ الأمن، ومن أخذتِ الهمومُ بِخَنَاقِهِ - نسأل
الله العافية - شَعَرَ بلذةٍ عظيمة عند الفَرَجِ والخلاص منها.
ثم رأيت الإمامَ التقي السبكي رحمه الله أبدى في «شفاء السقام» ص ١٩٥
حكمة أخرى، قال: «الحكمة فيه - والله أعلم - أنهم لو سألوهُ ابتداءً لأمكن أن يقول
قائل: يحتمل أن غيره يقدر على هذا، فأما إذا بذلوا الجهد في السؤال والاسترشاد،
وسألوا غيره من رسل الله تعالى وأصفياه وأولي العزم، فامتنعوا ولم يألُوهم جهداً في
النصح والإرشاد، فانتهوا إليه، وأجاب، وحصل غرضهم: حَصَلَ العلم لكل أحد
بنهاية مرتبته ﷺ، وارتفاع منزلته، وكمال قربه، وعظم إجلاله وأنسه، وتفضيله على
جميع المخلوقين من الرسل الآدميين والملائكة».
وانظر لزماً «شفاء السقام» للسبكي ص ١٩٥ .

وعلى يد مَنْ يُظْهِرُ الله تعالى فضيلةَ محمد ﷺ في خِصْمٍ تلك الشدائد؟ على
يد خاصة أنبيائه ورسله، صلوات الله وسلامه عليهم: آدم أبي البشر والأنبياء،
ونوح الأب الثاني، وإبراهيم الخليل، وموسى الكليم، وعيسى روح الله وكلمته!! .
أما الجواب عن السؤال الثاني: فقد قال ابن حجر رحمه الله في «الفتح»
١١: ٤٤١ في فوائد الحديث: إن الناس «يُعْطَى عَنْهُمْ بَعْضُ مَا عِلْمُوهُ فِي الدُّنْيَا،
لأن في السائلين مَنْ سَمِعَ هذا الحديث، ومع ذلك فلا يَسْتَحْضِرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ أن ذلك
المقام يختصُّ به نبينا ﷺ، إذ لو استَحْضَرُوا ذلك لسألوه من أول وَهْلَةٍ، وَلَمَّا
احتاجوا إلى التردُّد من نبيٍّ إلى نبيٍّ، ولعلَّ الله تعالى أنساهم ذلك للحكمة التي
تترتب عليه، من إظهار فضل نبينا ﷺ».

١ - ذكره الذهبي في «العبر» ترجمة عبد الوهاب ١: ٢٤٥ حوادث سنة ١٩٤. ويستفاد من
«المصباح المنير» أن السَّقَمَ: هو المرض، وأن السَّقَمَ: طول المرض.

يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع.

وتأمل هذا: إن الله تعالى رؤوف رحيم بعباده، وقد أذخر من رحمته تسعة وتسعين جزءاً ليوم القيامة، ووَضَعَ بين مخلوقاته - في عالم الدنيا على سَعَتِهِ - جزءاً واحداً، ومع ذلك فإنه تركَ الناسَ يتنقلون بين الأنبياء - وسط زحام المحشر -، ولم يُلْهِمَهُمْ أن يذهبوا إلى محمد ﷺ من أول الأمر، كما أنه لم يَأْذَنَ لأنبيائه أن يدُلُّوهم عليه أولاً.

كل ذلك لماذا؟ لِيُظْهِرَ مزيةَ محمد ﷺ وفضيلته على سائر الأنبياء، وليبلغ العبادَ كُلَّ مبلغٍ من اللذة والسرور بشفاعته بعد عَنَاءٍ طويل. صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين.

١٣ - وبعد ذلك يقوم ﷺ في مقام الحمد لله، والثناء عليه بمحامد يفتحها الله عليه، ويتجلى بها عليه، لم يكن يَعْرِفُهَا ﷺ من قبل، إنما هي من إلهامات الوقت وفيوضاته، ثم يخترُ ساجداً لله، لوقتٍ طويل، جاء في بعض الروايات: «فيخترُ ساجداً قَدْرَ جُمُعَةٍ».

وهذا أدبٌ من قَبِيلِ ما تقدّم بيانه تحت الفقرة الثالثة: تقديم الثناء والحمد والمدح بين يدي المرغوب فيه، وهاهنا حمدٌ وثناءٌ، وسجود وتذلل.

١٤ - وتأتي الكرامة الإلهية من الله عز وجل، «فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع». وهذا هو الإذن له بالشفاعة العامة للإراحة من طول الموقف.

فيقول النبي ﷺ: «يا رب عَجِّلْ على الخَلْقِ الحساب»، كما في رواية البزار^(١)، وهذا هو (المقام المحمود).

ثم تكون له ﷺ الشفاعة لأمته المحمدية، وهي المذكورة في قوله:

فأقول: رَبِّ أُمْتِي أُمْتِي .

فيقال: انْطَلِقْ، فمن كان في قلبه مثقالُ حَبَّةٍ من بُرَّةٍ - أو شعيرة - من إيمانٍ فأخْرِجْه منها. فَأَنْطَلِقْ فَأَفْعَلْ .

ثم أَرْجِعْ إِلَى ربي فَأَحْمَدْهُ بِمَحَامِدِهِ، ثم أَخِرْ لَهُ ساجداً، فيقال لي:

يا محمدُ ارفعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ، وَسَلِّ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ .

فأقول: يا رَبِّ أُمْتِي أُمْتِي .

فيقال لي: انْطَلِقْ، فمن كان في قلبه مثقالُ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ مِنْ إيمانٍ فأخْرِجْه منها.

فَأَنْطَلِقْ فَأَفْعَلْ . ثم أَرْجِعْ إِلَى ربي فَأَحْمَدْهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثم أَخِرْ لَهُ ساجداً، فيقال لي:

يا محمد ارفعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمِعْ، وَسَلِّ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ .

فأقول: يا رب أُمْتِي أُمْتِي .

«فأقول: رَبِّ أُمْتِي أُمْتِي، فيقال: انْطَلِقْ فمن كان في قلبه مثقالُ حَبَّةٍ من بُرَّةٍ - أو شعيرة - من إيمانٍ فأخْرِجْه منها» أي: من النار. قال: «فَأَنْطَلِقْ فَأَفْعَلْ» .

ثم يَتَكَرَّرُ مِنْهُ الرَّجُوعُ وَالْمَحَامِدُ وَالسُّجُودُ، فَيُؤَمَّرُ بِإِخْرَاجِ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ، ثم بِإِخْرَاجِ مَنْ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى، أَذْنَى، أَذْنَى مِنْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ .

فهذه ثلاثُ مرَّاتٍ بعدَ المَرَّةِ الأولى التي تَكُونُ عَامَةً لِلنَّاسِ جَمِيعِهِمْ .

وَيَأْتِي ﷺ لِلْمَرَّةِ الرَّابِعَةِ فَيَقُومُ بِوَاجِبِ الْحَمْدِ لِلَّهِ، وَالسُّجُودِ لَهُ، وَيَسْتَأْذِنُهُ بِإِخْرَاجِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. لَكِنْ قَدْ سَبَقَ قَدْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَفَضْلُهُ أَنْ يَسْتَأْذِنَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِذَلِكَ فَقَالَ: «لَيْسَ ذَاكَ إِلَيْكَ، وَلَكِنْ وَعِزَّتِي وَكِبْرِيائِي، وَعَظَمَتِي

فيقال لي : انطلق، فمن كان في قلبه أَدْنَى أَدْنَى مِنْ مثقالِ حبةٍ مِنْ خردلٍ مِنْ إيمانٍ فَأُخْرِجْهُ مِنَ النارِ.

فَانْطَلِقْ فَأَفْعَلْ». هذا حديث أنس الذي أنبأنا به.

فخرجنا من عنده، فلما كنَّا بظَهْرِ الجَبَّانِ قلنا: لو ملنا إلى الحسن فسلمنا عليه وهو مُسْتَخْفٍ في دار أبي خليفة. قال: فدخلنا عليه فسلمنا عليه فقلنا: يا أبا سعيد جئنا من عند أخيك أبي حمزة، فلم نسمع مثل حديثِ حَدَّثَنَا في الشفاعة!.

قال: هيه. فحدَّثَنَا الحديث.

فقال: هيه. قلنا: ما زادنا.

قال: قد حَدَّثَنَا به منذُ عشرينَ سنةً وهو يومئذٍ جميعٌ، ولقد تركَ شيئاً، ما أدري أنسيَ الشيخُ أو كره أن يُحدِّثكم فَتَّكَلُّوا.

قلنا له: حَدَّثْنَا، فضحك وقال: خُلِقَ الإنسان من عَجَلٍ، ما ذكرتُ لكم هذا إلا وأنا أريدُ أن أُحدِّثكموه:

وجبرائي لأُخْرِجَنَّ من قال لا إله إلا الله» أي: ولم يعمل خيراً قط، حتى إنه لم يُكررها مرةً ثانية في حياته، لأن تكراره لها خير وعملٌ زائدٌ على المرة الأولى التي دَخَلَ بها قنطرة الإيمان.

قال النووي رحمه الله تعالى: «معناه: لَا تَفْضَلُنَّ عليهم بإخراجهم من غير شفاعة، كما تقدم في الحديث السابق - عنده ٣: ٣٢ - : «شَفَعَتِ الملائكة، وشَفَعَ النبيون، وشَفَعَ المؤمنون، ولم يَتَّقْ إلا أرحم الراحمين» سبحانه وتعالى!!.

وهذا مظهر عظيم من مظاهر الجود الإلهي حتى على من فرط في جنب الله وقصر وأعرض!.

وهذا أيضاً موقفٌ عظيم بل هو أعظمُ موقفٍ دالٌّ على عِظَمِ أثرِ «لا إله إلا الله»! فإن الله سبحانه أحبُّ أن يكون هو الذي يَظْهَرُ بمظهر الجود والتفضل عليهم.

«ثم أرجعُ إلى ربي في الرابعة فأحمدهُ بتلك المحامد، ثم أخرجُ له ساجداً، فيقالُ لي: يا محمدُ ارفع رأسك، وقلْ يسمعُ لك، وسلْ تُعطه، واشفعْ تُشفَّعْ.

فأقول: يا ربِّ ائذنْ لي فيمن قال: لا إلهَ إلا الله!

قال: ليس ذاكَ لك - أو قال: ليس ذاكَ إليك -، ولكنْ وعزَّتِي وكبريائي وعظمتي وجبريائي لأُخرجنَّ من قال: لا إلهَ إلا الله».

قال: فأشهدُ على الحسن أنه حدَّثنا به أنه سمع أنس بن مالك، أراه قال: قبل عشرين سنة وهو يومئذ جميعٌ.

وأقدِّر أن عددَ المشفوع فيهم في المرات الثلاثة الأولى أكثرُ من عدد هؤلاء، لكنْ لما كان هؤلاء من التقصير بِدَرَكَةٍ نازلة جداً، لم يكنْ هناك من يتداركهم ويشملهم عفوه سوى الله ربِّ العالمين، وأكرم الأكرمين، ذي الجلال والإكرام، والطَّول والإِنعام.

وإني أسأل الله العظيم، ربَّ العرش العظيم، أن يُدخلني الجنة بغير حساب، ووالديَّ ومشايخي، وأهلي وذوي الحقوق عليَّ. إنه سميع مجيب، كريم وهَّاب.

٩٤ - عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يقول الله: أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ ذَكَرَنِي يَوْمًا، أَوْ خَافَنِي فِي مَقَامٍ».

٩٤ - تخريجه: رواه الترمذي في أبواب صفة جهنم، باب ما جاء أن للنار نَفْسَيْنِ ٧: ٢٦٠ (٢٥٩٧) = ٤: ٧١٢ (٢٥٩٤) وفيهما قول الترمذي: حديث حسن عريب.

معناه: ما يزال سيدنا رسول الله ﷺ يُخَبِّرُنَا عن كرم الله عز وجل على عباده ورحمته بهم، وتتجلى هذه الرحمة في ذلك اليوم العَصِيب الرهيب: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ. وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

ففي ذلك اليوم يُعَامِلُ المولى الكريم عباده برحمته التي ادخرها عنده إلى يوم القيامة، وهي الرحمة العظيمة التي أخبر النبي ﷺ عن عظمتها يوم القيامة بقوله: «إِنَّ اللَّهَ مَائَةٌ رَحْمَةً أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاْحِمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخْرَجَ اللَّهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». رواه الشيخان، وهذا لفظ مسلم ١٧: ٦٩.

فمن مظاهر هذه الرحمة العظمى المَدْخَرَةُ إلى يوم القيامة: أن الله تعالى يُشْفَعُ بعض مخلوقاته الكرام ببعض مَنْ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ - سوى المخلّدين في النار - ثم يُشْفَعُ هو سبحانه وتعالى، فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا مِنَ النَّارِ.

فمنهم: هذان الصنفان المذكوران في هذا الحديث: «مَنْ ذَكَرَنِي يَوْمًا، أَوْ خَافَنِي فِي مَقَامٍ».

أما الصنف الأول: فهو مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ يَوْمًا بِكَامِلِهِ. ومعنى ذكر الله يومًا. أي: خَطَرَ بِيَالِهِ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، فَتَذَكَّرَهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ غَافِلًا عَنْهُ، فَسَبَّحَهُ وَحَمِدَهُ وَوَحَّدَهُ.

فالله سبحانه وتعالى يَحْمَدُ له هذا الموقف، فيذكره له أشد ما يكون حاجةً إليه، فيكون سبباً لنجاته عند ربه.

وأما الصنف الثاني: فهو مَنْ خاف الله عز وجل في ساعةٍ من الساعات، وموقفٍ من مواقف حياته. إما أن يُذكره مذكراً بالله، فيرتدع، أو يخوفه مظلوماً فيخاف، أو يكون هذا المسكين غارقاً في معاصيه، فتهبُّ على قلبه نفحةٌ إيمانية... .

ألا تَرَى إلى الرجل من بني إسرائيل، لما تمكَّن من ابنة عمه، فذكرته بالله وقالت: اتق الله، فتركها لله وخوفاً منه له، فلما أُلجأ المبيت إلى غار - ومعه اثنان - وسدَّ فم الغار بصخرة عظيمة، وأيسوا من النجاة، قام كل واحد منهم يذكر عملاً صالحاً له، فقام هذا الرجل فذكر هذه الحسنة: أنه ترك ابنة عمه لله، فانزاح عنهم جزءٌ من الصخرة. والحديث معروف.

فهذا قد خاف الله في مقام، في ساعة من ساعات حياته، ففرَّج الله عنه، ولم يُضَيِّعْ له هذا الموقف، كما أن الله تعالى أكرم من أن يجعل ثوابه عليه في الدنيا فقط، ويقوَّت عليه ثوابه في الآخرة.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾. أي: خاف مقامه وموقفه بين يدي ربه للحساب، فترك المعصية. وقال مجاهد وإبراهيم النخعي: هو الرجل يَهْمُ بالمعصية فيذكر الله - أي: فيتذكر الله - فيدعها من خوفه.

والجنتان: جنة لخوفه من ربه، وجنة لتركه شهوته^(١).



٩٥- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يقول الله: من كان في

٩٥- تخريجه: رواه البخاري: كتاب الإيمان - باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال ١: ٧٢ (٢٢) وكتاب الرقاق - باب صفة الجنة والنار ١١: ٤١٦ (٦٥٦٠)، وهذا لفظه، ومسلم: في كتاب الإيمان - باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار ١: ١٧٢ (٣٠٤) و٣: ٣٥.

غريبه: امتحشوا، الحبة، السيل: تقدم معناها برقم ٩١.
حُمَمًا: جمع حُمَمَة، والمعنى: صاروا فحمًا! وفي الرواية الأولى: «قد أسودوا».

حِمَّة السَّيْلِ: قال العيني في «عمدة القاري» ١٩: ٨٨: «أي: معظم جزيه واشتداده». وفي رواية لمسلم: «حِمَّة» قال النووي: «هي الطين الأسود»، زاد العيني: «الطين الأسود الممتن».

معناه: هذا موقفٌ ترغيب وترهيب، وإن شئت فقل: موقف خوف ورجاء.
صورة تَقْشَعُرُ منها جلود الموقنين بيوم القيامة يومَ جزاء وحساب، وجنة ونار، فلا بد من طائفة من العُصاة يُدْخِلُها الله تعالى ناره، وهم أصنافٌ وألوان، ويكونون فيها على ذَرَكَاتٍ، ومنهم من يكون عذابُه شديدًا مديدًا، مع أنه من أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

ومن الثابت في الأحاديث الكثيرة - وبعضه في القرآن الكريم - أنه تكون في يوم القيامة شفاعات لعدَّة أصناف من كِرامِ خَلْقِ الله عز وجل، ذَكَرَ بعضهم في رواية لمسلم ٣: ٣٢: «فيقول الله عز وجل: شَفَعَتِ الملائكة، وَشَفَعَ النُّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» وَذَكَرَ نحو الحديث المشروح.

قلبه مثقال حبة من خردلٍ من إيمانٍ فأخرجوه، فيُخرجون قد امتحشوا وعادوا حُمماً، فيُلْقَوْنَ في نَهْرِ الحياة، فيَنْبُتُونَ كما تَنْبُتُ الحَبَّةُ في حَمِيلٍ

أما مَنْ يُشْفَعُ فيه: فاناسَ ذُو مراتبٍ في الإيمان والخير، وقد ذُكِرَ منهم في الحديث المشار إليه أصناف: منهم مَنْ أخذتِ النارُ إلى نصفِ ساقه، وإلى رُكْبتيه، ومَنْ في قلبه مثقالُ دينارٍ من خير، ومثقالُ نصفِ دينار، ومثقالُ ذرةٍ من خير، ثم مَنْ لم يعمل خيراً قط.

ووصفوا في روايتنا هذه بأنهم في قلوبهم مثقال حبة من خردلٍ من إيمان. فهذا هو يوم النُصْفَةِ: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾.

يُخْرَجُونَ من النار وقد انكشف اللحم عن العظم من عظم الاحتراق، واسودُّوا فصاروا كاللحم، فيُلْقَوْنَ في نَهْرِ الحياة، فيَنْبُتُونَ كما تَنْبُتُ الحَبَّةُ في حَمِيلِ السيل.

أما موضع نهر الحياة: فعلى باب الجنة، جاء ذلك في رواية مسلم المذكورة قبل قليل: «يُلْقِيهِمْ في نَهْرٍ في أفواه الجنة يقال له: نهر الحياة» وأفواه: جمع فُوْه، قال الإمام النووي، رحمه الله تعالى: «أفواه الأزقة والأنهار: أوائلها. قال صاحب «المطالع»: كأن المراد في الحديث مُفْتَتِحٌ من مسالك قصور الجنة ومنازلها».

أما خَصِيصَتُهُ: فهو الماء الذي أصاب رُشاشُهُ حوتَ موسى وقتاه وهو في المِكَتَلِ ميتٌ، فَحَيِّي، واتَّخَذَ سَبِيلَهُ في البحر سَرَباً^(١). أما الماء الذي نَشْرَبُهُ فهو أحدُ العناصر الأربعة التي عليها قوام الحياة: الماء والهواء، والحرارة والبرودة، وليس هو المراد بالآية والأحاديث، فليَتَنَبَّهْ لهذا، فإنه خطأ شائع ذائع. وتقدم شيء من هذا في الكلام على الحديث العاشر.

ثم ذكر عليه الصلاة والسلام صفتين لما يَنْبُتُ في حَمِيلِ السيل: صفراء ملتوية، والمراد بذلك ما تقدَّم في كلام النووي رحمه الله: أنها سريعةُ النبات، على ضَعْفِها.

١ - انظر «صحيح البخاري» ٨: ٤٢٢ (٤٧٢٧) قوله: «قال سفيان: وفي حديث غير عمرو قال: وفي أصل الصخرة عين يقال لها: الحياة، لا يُصِيبُ من مائها شيء إلا حَيَّي». وانظر كلام ابن حجر عليه قبل ٨: ٤١٥.

السَّيْل - أو قال: حَمِيَّة السَّيْل - . وقال النبي ﷺ: «أَلَمْ تَرَوْا أَنَّهَا تَنْبُتْ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً؟» .

وزاد ﷺ في وصفه - في رواية مسلم - وصفين آخرين: وَجْهُ هذه النَّبْتَةِ الذي يكون إلى جهة الشمس يكون لونه أَصْفَرٌ وَأَخْيَضَرٌ - أي قليل الصُّفْرَةِ والخُضْرَةِ - والذي يكون إلى جهة الظل يكون لونه أبيض .

وهذا وصف دقيق لا يَعْرِفُهُ إلا من عاش في البادية فترةً طويلة من الزمن! لذلك تَنَبَّه بعضُ الصحابة السامعين لهذا الوصف الدقيق فقال: كأنك كنتَ تَرَعَى بالبادية، وفي لفظ آخر لمسلم أيضاً: كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية! .

وهذا الموقفُ يَسْتَوْقِفُنَا وَيَسْتَأْنِينَا في القول الشائع: إن رسول الله ﷺ اجتهد فأخطأ يوم تأبير النخل، حين قال لأهل المدينة لما رَأَاهُمْ يَأْبُرُونَ نَخْلَهُمْ: «لو لم تَفْعَلُوا لَصَلَحَ»^(١) فهل مثلُ ضرورةِ تأبير النخل لصلاحه يجهلها إنسانٌ عرف شيئاً من حياته وبيئته، فضلاً عن رجل جاوز الخمسين من العمر، فضلاً عن رجل ذي مواهب فوق العادة، بَلَّه رجلاً فاق المستويات الطبيعية، فكيف برسول الله ﷺ الذي لو وُزِنَ عَقْلُهُ وفهمه ومعارفه بسائر ما عند البشرية لَرَجَحَ عليهم! صلوات الله وسلامه عليه من رسول قال الله تعالى له مُمْتَنّاً عليه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾، فلا بدَّ من جَمْعٍ وفهمٍ للأحاديث في المسألة لِيُنْزَلَ كُلُّ حديث منزله، ومعاذ الله أن يَرُدَّ مسلم حديثاً ثابتاً عن رسول الله ﷺ .



٩٦- عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «خَلَقَ اللهُ جَنَّةَ عَدْنٍ بِيَدِهِ، وَدَلَّى فِيهَا ثَمَارَهَا، وَشَقَّ فِيهَا

٩٦- تخريجه: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» ١٢: ١٤٧ (١٢٧٢٣) وسقط منه جملة، تستدرك من هنا، وزاد المنذري في «الترغيب» ٣: ٣٨١، ٤: ٥١٣ والهيثمي في «المجمع» ١٠: ٣٩٧ عزوه إلى «المعجم الأوسط» أيضاً، وقالوا عن أحد إسناده: «جيد». واقتصارُ السيوطي والمُنَاوِي - «فيض القدير» ٣: ٤٤٤ - على عزوه إلى «المستدرك» ٢: ٣٩٢ من حديث أنس بإسناد ضعيف: فيه قصور. غريبه: عَدْن: عَدْنُ بِالْمَكَانِ: ثَبَّتَ وَاسْتَقَرَّ فِيهِ، وَمِنْهُ يُقَالُ لِلْمَعَادِنِ: مَعَادِنٌ، لِاسْتِقْرَارِهَا فِي مَكَانِهَا، وَتُسَمَّى الْجَنَّةُ جَنَّةَ عَدْنٍ لِخُلُودِ أَهْلِهَا فِيهَا. وَمِنْهُ: سَمَّوْا عَدْنَانَ، كَمَا سَمَّوْا: خَالِدًا. وَمِنْ هُنَا اخْتَارَ جَمْعُ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ «عَدْنَ» اسْمٌ لِلْجَنَّةِ كُلِّهَا، لَا اسْمٌ لِمَرْتَبَةٍ فِيهَا^(١).

معناه: يبيِّن النبي ﷺ في هذا الحديث الشريف كرامةَ الجنة عند الله عز وجل بأنه تَوَلَّى خَلْقَهَا بِيَدِهِ، وَأَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ مُوجُودَةٌ الْآنَ، كَمَا هُوَ الْحَالُ وَالْمَعْتَقَدُ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، خِلَافًا لِلْمَعْتَزَلَةِ فِي زَعْمِهِمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَخْلُقُهَا.

وبيَّن بعض ما فيها من نعيم، ومن ابتهاج الجنة وفرحها بما فيها وبمن سيدخلُها أنها قالت: فلاحاً ونجاحاً، وفوزاً وظُفراً للمؤمنين الذين سيدخلونني ويحلُّون في: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. قالت هذا «بلسان المقال، فإن الذي خلق النُّطقَ في لسان الإنسان، قادر على أن يخلقه في أي شيء أراد» قاله المناوي في «فيض القدير» ٣: ٤٤٥.

وما هو الفلاح؟ قال بعض العلماء: ليس في لغة العرب كلمةٌ أجمعُ لمعاني

أنهارها، ثم نَظَرَ فيها فقال لها: تَكَلِّمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون، فقال: وعزّتي لا يُجاورني فيكِ بخيلٌ.

الخير من كلمة (الفلاح)، فهي تدلُّ على الخير، والرحمة، والسلامة، والظفر بالمطلوب، والنعمة، والعزة...

وقال الإمام الراغب الأصفهاني رحمه الله في «مفرداته»: الفلاح «ضربان: دُنيوي، وأخروي، فالدنيوي: الظفر بالسعادات التي تطيب بها حياة الدنيا، وهو البقاء، والغنى، والعز. وفلاح أخروي، وذلك أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلم بلا جهل، ولذلك قيل^(١): لا عيش إلا عيش الآخرة».

والجنة مظهر عظيم من مظاهر الكرم الإلهي على عباده المؤمنين، فلذلك لا يدخلها إلا كريمٌ تطهر من دنس صفة البخل، ليكون التناسب بينه وبين دار مقامه وخلوده.

لهذا قال الله تعالى للجنة: «وعزّتي لا يُجاورني فيكِ بخيل».

وروى الترمذي في «سننه» ٦: ١٩٢ (١٩٦٤) وقال حسن غريب، عن سيدنا الصديق رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة خبٌ، ولا متّان، ولا بخيل». وأحاديث أخرى وردت في عدم دخول البخيل الجنة، منها الثابت، وغيره، وأحاديث أخرى أيضاً وردت في ذم البخل والبخل، وفي بعضها ذم الشح، وكلاهما من وإد واحد، ولهذا جاء في بعض روايات الحديث قراءة النبي ﷺ بعد «لا يُجاورني فيكِ بخيل» قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. ومن فرق بينهما جعل الشح أسوأ من البخل، وأخص منه.

فليحذر المسلم هذه الصفة الذميمة، فإن الجنة طيبة، ولا يدخلها إلا طيب، والبخل لا يدخل الجنة حتى يطهره الله منها، فيطيب ويتأهل لأن يكون من أهلها.



١ - كذا عبر الراغب رحمه الله، مع أنها جملة من حديث شريف مروي في الصحيحين وغيرهما.

٩٧ - عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان يوماً يحدث - وعنده رجلٌ من أهل البادية - : أن رجلاً من أهل البادية استأذن ربّه في

٩٧ - تخريجه: رواه البخاري في كتاب الحِرث والمزارعة - باب ٥ : ٢٧ (٢٣٤٨)، وكتاب التوحيد - باب كلام الربّ مع أهل الجنة ١٣ : ٤٨٧ (٧٥١٩)، والإمام أحمد في «مسنده» ٢ : ٥١١ .

غريبه : استأذنه : أي تمامُ نبيّته واستقامته على ساقه .

معناه : في هذا الحديث الشريف بيانٌ لأمر :

أولها : أن بعضَ الطبائع البشرية يُصاحِبُ الإنسان وهو في الجنة ، ولا ينفكُ عنها ، مما لا يتعارضُ مع عالم الجنة وكرامته ، ونزاهته وصفاته .

فحبُّ العملِ فطرةٌ إنسانيةٌ وطبيعة بشريةٌ ، ولا تتعارض مع هذه الصفات لعالم الجنة ، فلا يُستغربُ من إنسان واحد - أو أكثر - أن يشتهيّه وهو في ذلك العالم ، ومع ذلك فليس هذا الميلُ صفةً لعامة أهل الجنة ، بل لفرد أو أفراد .

أما اللغو واللغو - مثلاً - ومساوئ الأخلاق كالكذب ونحوه ، وبواطل الأعمال كالسعي في الفساد والإفساد ونحوه : فهذا لا يكون فيها أبداً ولا من فرد واحد . ولن يحصلَ تمنيه من أحدٍ من أهل الجنة ، ذلك أن الله تعالى : أخبر أن ملائكته يقولون للمؤمنين عند دخولهم الجنة : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا ﴾ ، فلا يدخلُ الجنة إلا طيبٌ مطهّرٌ ، طهره الله من هذه الخبائث القولية والفعلية والقلبية ، إما مع العفو عنه ، وإما بنار جهنم ، ثم يؤذّن له بدخول الجنة .

وهذا يدلُّ على أن حبَّ العمل ليس من الأمور المذمومة التي سيظهر الله منها الإنسان قبل إدخاله الجنة .

ثانيها : أن حال الإنسان في الجنة كما أخبر الله تعالى في كتابه الكريم ، وفي

الزُّرْع، فقال له: أَلَسْتَ فيما شِئْتَ؟ قال: بلى، ولكنَّ أَحِبُّ أن أزرع، قال: فَبَدَّرَ، فبادر الطَّرْفَ نَبَاتُهُ واستواؤُهُ واستِحْصَادُهُ، فكان أمثالَ الجبال، فيقول الله: دُونَكَ يا ابنَ آدَمَ، فإنه لا يُشْبِعُكَ شيء. فقال

هذا الحديث القدسي. قال تعالى في هذا الحديث: «أَلَسْتَ فيما شِئْتَ؟» وقال في كتابه الكريم: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فيها، وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، فلا يتخلف عما يشاؤه العبدُ شيء بإذن الله تعالى وإكرامه.

ومما جُبِلَ عليه الإنسان في الدنيا، ولا يعارضُ عالمَ الجنة: حُبُّ الولد. وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أنه سيكونُ له ما يشتهي.

ففي «سنن الترمذي» من كتاب صفة الجنة ٧: ٢٤٠ (٢٥٦٦) عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ: «المؤمنُ إذا اشتهى الولدُ في الجنة كان حملُهُ ووضَعُهُ وسِنُّهُ في ساعةٍ كما يشتهي» - قال الترمذي: حسن غريب^(١) - أي: إن اشتهى الذكور أوتيتهم، وإن اشتهى الإناث أوتيهنَّ، فوراً، وعلى عُمُرٍ يتناسب مع أعمار أهل الجنة، وهو ثلاثون سنة أو ثلاث وثلاثون، كما جاء في حديث الترمذي ٧: ٢٢٤ (٢٥٤٨) وقال عنه: حسن غريب، وجاء في غيره الجزمُ بسنِّ الثلاث والثلاثين.

قال: فَبَدَّرَ، فكانت مراحلُ النَّتَاجِ الثلاثةُ كُلُّها في أقلَّ من طرفة عين، وذلك أن المراد من قوله «فَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ...»: أن النباتَ وتماثله واستحْصاده قد تمت هذه الثلاثة في ظرفٍ زمنيٍّ أسرع من وصول «لَحْظِ الإنسان إلى أقصى ما يراه» ويقع عليه بصرُهُ، أو هو حركة جَفْنِ العين، قال الحافظ في «الفتح» ٥: ٢٧: «وكانه المراد هنا».

ولم يكن المحصولُ الزراعي قليلاً، بل قال: «كان أمثالَ الجبال»^(٢). وكانه كان كذلك ليتِمَّ المراد من قول الله له: «دُونَكَ يا ابنَ آدَمَ فإنه لا يُشْبِعُكَ»، وهذا

١ - ثم حَكَى عن بعض أهل العلم أنه ليس في الجنة ولد، لحديث ذكره هناك.
٢ - وقال الكُرْمَانِي ١٠: ١٦٦، والعيني في «العمدة» ١٠: ١٩٠: «فكان كلُّ حبة مثلَ الجبل»، والظاهر أنه أولى وأقرب، بالنظر إلى عالم الجنة.

الأعرابي: والله لا تجذّه إلا قُرْشياً أو أنصاريّاً، فإنهم أصحابُ زَرَع. فضحك النبي ﷺ.

كقوله «لا يملأ عينَ ابنِ آدمَ إلا الترابُ»، وليس المقصودُ شَبَعَ البطن^(١). والله أعلم.

على أن المؤمن مطلوبٌ ومدعوٌ إلى غِرَاس في الجنة أعلى من هذا وأجلُّ.

روى الترمذي ٩: ١٤٨ (٣٤٥٨) عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «لقيت إبراهيم ليلة أُسري بي، فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان^(٢)، وأن غِرَاسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر». قال الترمذي: حسن غريب.

وروى الإمام أحمد ٥: ٤١٨ عن أبي أيوب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ليلة أُسري به مرَّ على إبراهيم فقال: من معك يا جبريل؟ قال: هذا محمد، فقال له إبراهيم: مرَّ أمتك فليكثرُوا من غِرَاس الجنة، فإن تربتها طيبة، وأرضها واسعة، قال: «وما غِرَاس الجنة؟» قال: لا حول ولا قوة إلا بالله^(٣).



١ - أفاده الكرمانني ٢٥: ٢١٠، والعيني ٢٠: ٣٧١.

٢ - أي: أرض مستوية.

٣ - قال في «مجمع الزوائد» ١٠: ٩٧: «رجالہ رجال الصحيح غير عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وهو ثقة، لم يتكلم فيه أحد ووثقه ابن حبان». «الثقات» لابن حبان ٧: ١.

٩٨ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا

٩٨ - تخريجه: رواه البخاري: كتاب بدء الخلق - باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ٦: ٣١٨ (٣٢٤٤)، ومواضع أخرى، ومسلم أول كتاب الجنة وصفة نعيمها ٤: ٢١٧٤ (٢ - ٥)، ١٧: ١٦٦.

غريبه: أعددتُ: هَيَّأتُ.

قَرَّةُ أعين: أي: ما تَقَرُّ العينُ عنده ولا تتطَلَّع إلى شيء سواه، فتكون قد بلغتْ غايتها ومَنَّاها. وهذا غاية السرور. أو تَقَرُّ به العين وتَبَرَّد، وذلك ببيكائها بكاء فرح وسرور، ذلك أن الإنسان إذا اشتدَّ فرحه بكى، ودمعةُ بكاءِ الفرح باردة، بخلاف دمعة بكاء الحزن، فإنها حارة. - كذا يقولون - والأول أولى.

معناه: يخبر الله عز وجل بما أعدَّه لصفوة المؤمنين الصالحين من خَلقه في دار الخلد والنعيم المقيم، فيقول:

أعددتُ لعبادي الصالحين، والإعداد: التهيئة، فهو مهيباً مُعَدُّ، وهذا يقتضي أن الجنة - وكذلك النار - مخلوقتان موجودتان الآن ومن قبل، وهو كذلك، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة، خلافاً للمعتزلة. والدليلُ عليه قولُ الله تعالى في كتابه العظيم عن الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وقوله عن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

وفائدة هذا الإخبار: ترغيبُ الله عز وجل وتشويقُه العبادَ إلى الجنة، كما أن فائدة الإخبار عن النار وعذابها ترهيبُه العباد وتخويفُهم منها. ومع ذلك يغفلُ العباد عن ذلك!

خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنَّ شِئْتُمْ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾.

وقد رَوَى أبو هريرة وأنس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما رأيتُ مثل النارِ نامَ هاربها، ولا مثل الجنةِ نامَ طالبها»^(١).

وقوله في الحديث «ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»: المراد منه أنه لا يدخل تحت تصوُّر المخلوقين، يدلُّ على ذلك حديث ابن مسعود عند ابن أبي حاتم الذي ذكره ابن حجر في «الفتح» ٨: ٥١٦: «... ولا يعلمه ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ»، وليس المرادُ نفْيَ ورودِ ذلك على قلب البشر، لِإِطْرَأ احتمالُ معرفة الملائكة له.



١- وراه عن أبي هريرة الترمذي ٧: ٢٦٤ (٢٦٠٤) وضعفه، لكن رواه عن أنس الطبراني في الأوسط بإسناد حسن، كما قال الهيثمي ١٠: ٢٣٠.

٩٩- عن صُهَيْب بن سِنَانٍ الرومِيُّ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وَجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنْ

٩٩- تخریجه: رواه مسلم: كتاب الإيمان - باب ما جاء في رؤية المؤمنين ربهم وخطاب الله لأهل الجنة ١: ١٦٣ (٢٩٧)، وشرح النووي ٣: ١٦ - ١٧.

معناه: جاء في بعض روايات الحديث عند الإمام أحمد ٤: ٣٣٢، ٣٣٣: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ...»، وهذا يُسْتَأْنَسُ به على أن هذا الإكرام الإلهي العظيم لأهل الجنة بالنظر إلى وجهه الكريم يكون بعد فترة قريبة من دخولهم واستقرارهم فيها بعد ذبح الموت.

في حين أنه لم يَرَدْ في روايات الحديث الآتي - «أَجَلٌ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي» - شيء يفيد هذا القُربَ الزمني، فكان الرؤية حاصلة قبل الرضوان، لذلك قُدمت هذا الحديث. والله أعلم.

وهذه الرؤية ثابتة بالتواتر، وهي عامة للمؤمنين جميعاً في الجنة، وهي غير الرؤية التي تكون في أرض المحشر، المذكورة في الحديث السابق برقم ٩١، وتقدم التنبيه هناك من كلام الإمام الخطابي إلى هذه المغايرة بينهما.

ولا ريب أنها متفاوتة، كل على حَسَبِ مقامه في الجنة، ف رؤية عامة المؤمنين غير خاصيتهم، والخاصة منهم يَرَوْنَ رَبَّهُمْ سبحانه وتقدس غير رؤية الصديقين منهم، وجميع هؤلاء رؤيتهم غير رؤية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، و رؤية سيدهم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم غير رؤيتهم.

وهذه الرؤية هي الزيادة التي جاء ذكرها في قول الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ كما جاء في رواية الإمام أحمد ٤: ٣٣٢: «ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾».

النار؟ قال: فَيَكْشِفُ الحجابَ، فما أُعْطُوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربِّهم عزَّ وجلَّ.

واختار ابنُ جرير رحمه الله في «تفسيره» العموم: عمومُ أفضال الله على أهل الجنة فقال ١١ : ١٠٨: «ومن الزيادة على إدخالهم الجنة: أن يُكْرِمَهُم بالنظر إليه، وأن يُعْطِيَهُم عُرفاً من لآلئ، وأن يزيدهم غفراناً ورضواناً، كلُّ ذلك من زيادات عطاء الله إياهم على الحسنى التي جعلها الله لأهل جنته. وعمُّ ربنا جلُّ ثناؤه بقوله ﴿وزيادة﴾ الزيادات على الحسنى، فلم يخصَّص منها شيئاً دون شيء، وغير مستنكر من فضل الله أن يجمع ذلك لهم، بل ذلك كله مجموع لهم إن شاء الله. فأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يُعمَّ، كما عمَّ عزَّ ذكره».

وتكرر الرؤية لأهل الجنة، وذلك في يومٍ يسميه أهل الدنيا يومَ الجمعة، ويُسمِّيه أهل الآخرة يومَ المزيّد، وهم ينتظرون قدومه بفارغ الصبر^(١).

وهذا التكرار: من الرضوان أيضاً، وبهذا الاعتبار يكون الرضوان أجلاً وأعلى من الرؤية، لاشتماله عليها، وعلى تكرارها، وعلى غيرها من الفضل الإلهي.

وأما «الحجاب» في قوله «فَيَكْشِفُ الحجاب» فهو الحجاب المذكور في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً، الذي رواه مسلم قبل حديث واحد من الحديث المشروح ٣ : ١٢: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يَخْفِضُ الْقِسْطَ ويرفعه، يُرْفَعُ إليه عملُ الليل قبل عمل النهار، وعملُ النهار قبل عمل الليل، حجابُه النور - وفي رواية: النار - لو كَشَفَهُ لأُحْرِقَتْ سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

فهذا الحجابُ هو ذاك، قال عليُّ القاري في «المرقاة» ١٠ : ٣٤٦: «فُيْرَفَعُ الحجابُ عن أعين الناظرين» وإلا فالله عز وجل ليس بمحجوب.

قال الإمام النووي في معنى السُّبُحات: «هي جمعُ سُبْحَةٍ، قال صاحب «العين» والهَرَوِيُّ وجميعُ الشارحين للحديث من اللغويين والمحدِّثين: معنى

١ - جاء ذلك في حديث طويل رواه أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً. انظره في آخر «مجمع الزوائد».

.....

سُبُحات وجهه : نورُه وجلالُه وبهاؤُه . وأما الحجابُ فأصلُه في اللغة : المنع والسُتر ،
 وحقيقة الحجاب : إنما يكون للأجسام المحدودة ، والله تعالى منزّه عن الجسم
 والحدّ ، والمراد هنا : المانع من رؤيته ، وسُمّي ذلك المانع نوراً - أو ناراً - لأنهما
 يمنعان من الإدراك في العادة ، لشُعاعهما ، . . والتقدير : لو أزال المانع من رؤيته
 - وهو الحجاب المسمى نوراً أو ناراً - وتجلّى لخلقه لأحرقَ جلالُ ذاتِه جميعَ
 مخلوقاته . والله أعلم .



١٠٠ - عن أبي سعيد الخُدْرِي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة،

١٠٠ - تخريجه: رواه البخاري: كتاب الرقاق - باب صفة الجنة والنار ١١: ٤١٥ (٦٥٤٩). وكتاب التوحيد - باب كلام الرب مع أهل الجنة ١٣: ٤٨٧. ورواه مسلم: كتاب الجنة ونعيمها وأهلها - باب إحلال الرضوان على أهل الجنة ٤: ٢١٧٦ (٩) وشرح النووي ١٧: ١٦٨.

غريبه: لبيك: الفعل من هذه الكلمة: لَبَّ - أو أَلَبَّ - بالمكان، إذا أقام به، وأَلَبَّ على كذا: إذا لم يُفَارِقْه. والعربُ تستعمل هذه الكلمة في حال إجابة النداء، فتكون الثنية في قولك «لبيك» بمعنى أجبك إجابةً بعد إجابة، وألبي طلبك تلبيةً بعد تلبية، والثنية ليست على معنى الانقطاع بعد المرة الثانية، لا، بل هي على معنى التكرار والاستمرار. سَعْدِيك: الفعل من هذه الكلمة أيضاً: ساعد، فالمعنى هنا: مساعدة منك بعد مساعدة. والثنية أيضاً: للتكرار والاستمرار.

معناه: إن الله تعالى عليم بذات الصدور، لا تخفى عليه خافية، ومما هو من علمه جل جلاله: علمه برضا أهل الجنة بالذي تفضل به عليهم، فحصل عندهم الرضا، وامتألت قلوبهم قناعةً بما أكرمهم به، ولكنه تعالى يريد أن يُعَلِّمَهُمْ بأنه يملك أشياء وأشياء لا يعرفونها، بها يدخل عليهم سرورٌ أكبر مما هم فيه، يُريدُ أن يُعَلِّمَهُمْ به، ويُريدُ أن يتفضل به عليهم أيضاً، فيناديهم ويسألهم: يا أهل الجنة هل رضيتم؟ أي: هل رضيتم بما وجدتم في الجنة، هل رضيتم بما أعطيتكم، هل رضي كل منكم بمنزله فيها؟ وهو يعلم رضاهم، ولكن يسألهم ليكرمهم بلذة المناجاة معه سبحانه.

فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟! ولا شيء أفضل مما أعطيتنا! وهذا نفي على قدر معرفتهم.

فيقولون: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ والخَيْرُ في يديكَ، فيقول: هل رَضِيتُمْ؟ فيقولون: وما لنا لا نَرْضَى يَا رَبُّ وقد أُعْطِينَا ما لم تُعْطِ أَحَدًا من خلقك؟! فيقول: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ من ذلك؟ فيقولون: يَا رَبُّ وأَيُّ شيءٍ أَفْضَلُ من ذلك؟ فيقول: أَجِلُّ عَلَيْكُمْ رُضْوَانِي فلا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بعده أَبَدًا.

فيقول الله الكريم لهم: أنا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ من ذلك، ألا أُعْطِيكُمْوه؟! إنه رضاء الله عز وجل: «أَجِلُّ عَلَيْكُمْ رُضْوَانِي، فلا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بعده أَبَدًا».

قال القاري رحمه الله في «المرقاة» ١٠ : ٣٢٨ : «أي: دوام رضواني، فإنه لا يلزم من كثرة العطاء دوام الرضا، ولذا قال (فلا أَسْخَطُ) أي: لا أغضب (عليكم بعده أَبَدًا)... قال ابن المَلَك: في الحديث دلالة على أن رضوان الله تعالى على العبد فوق إدخاله إياه الجنة».

ثم نقل عن الطَّبِيِّ رحمه الله قوله: «وأَكْبَرُ أَصْنَافِ الكرامة رؤيةُ الله تعالى» وعلّق عليه القاري بقوله: «قلت: ولعلّ الرضوانَ أَكْبَرُ، لاشتماله على تحصيل اللقاء، وسائر أنواع النعماء». وهو الظاهر. والله أعلم.

والحديث عن الرضا قد يطول، ولكن لا بدّ من كلمات.

الرضا عن العبد من الله عز وجل يَسْبِقُه رضاءُ الله تعالى فعلُ العبد، فالله تعالى يَرْضَى من العبد فعله لكونه موافقاً لشريعته. وأوّل الموافقة يكون بفعل الواجبات وترك المحرمات، ثم بفعل المسنونات وترك المكروهات، ثم بفعل الآداب والكمالات وترك خلاف الأولى. وكلّما تقدّم العبد في هذا المِضْمَار رَضِيَ الله فعله أكثر، وحينئذ يحبه الله.

فإذا حاز العبدُ شرفَ هذه المنزلة أتاه رضوانُ الله، بمعنى: رضى الله عنه، بعد أن رضى منه فعله، فرضا الله عن العبد يَسْبِقُه رضاه منه ما يفعلُ وحبه له.

وأما قوله في الحديث المذكور: «هل رَضِيتُمْ؟» وقولهم: «وما لنا لا نَرْضَى» فمعناه: هل رَضِيتُمْ بما أكرمتكم به؟ قالوا: وما لنا لا نَرْضَى به. فهو فعل متعّدّ هنا

بالباء، كما أنه يتعدى بنفسه. وقد يتعدى بـ «من»: رضي الله من العبد عمل كذا، وقد يتعدى بـ «عن»: رضي الله عنه. أما إذا تعدى بـ «على» فيكون قد ضُمِّن معنى: نَزَلَ أو أُنْزِلَ. ومنه قوله هنا في الحديث: «أَجِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي» أي: أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي.

والرِضْوَانُ: مبالغة من الرضا. فقوله: أَجِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، أي: أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ أَعْظَمَ الرضا وأبلغه.

فمحبته الله عز وجل لعبده - لامثاله شرعه - سابقة لرضاه عنه، والرضا عنه يكون بعدها، وهو رضا محبة منه باستقامة العبد.

قال الله تعالى في سورة عمران: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، خَالِدِينَ فِيهَا، وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾. فدلنا تعالى على أن هذا الجزاء: للمتقين.

ودلنا سبحانه في سورة التوبة على بعض أوصافهم التفصيلية والإجمالية، فقال أولاً: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا، وَهَاجَرُوا، وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ: أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ. يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ. خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، إِنْ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال في السورة نفسها: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. هذا للمؤمنين والمؤمنات الموصوفين في الآية التي قبلها: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ، إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وقد فسر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في «مدارج السالكين» ٢: ٢١٧ قوله «ورِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ»: «بأن رضا الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها، لأن الرضا صفة الله، والجنة خلقه».

وقال تعالى في آخر سورة البينة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ

هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، رضي الله عنهم ورضوا عنه، ذلك لمن خشي ربه. والخشية تكون مع العلم: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾، فهي مرتبة أشرف من مرتبة الخوف: ﴿وخافون إن كنتم مؤمنين﴾.

وإذا رضي الله عنهم، كان منهم الرضا ثانياً، فهو سبحانه المبتدئ بالفضل، ولا يكون منهم الرضا، حتى يكون منه، جل وعلا، نظير: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَ﴾، فقدّم تعالى ذكر محبته لهم على محبتهم له.

قال الإمام الفخر الرازي رحمه الله تعالى في تفسير آية آل عمران ٧: ٢١٦: «قال المتكلمون: الثواب له ركنان، أحدهما: المنفعة، وهي التي ذكرناها - في تفسير الجنات والأزواج - والثاني: التعظيم، وهو المراد بالرضوان، وذلك لأن معرفة أهل الجنة مع هذا النعيم المقيم بأنه تعالى راضٍ عنهم، حامدٌ لهم، مُثَنٍّ عليهم: أزيد في إيجاب السرور من تلك المنافع.

«وأما الحكماء فإنهم قالوا: الجنات بما فيها إشارة إلى الجنة الجسمانية (أي التي يتلذذ بها الجسم)، والرضوان: فهو إشارة إلى الجنة الروحانية، وأعلى المقامات إنما هو الجنة الروحانية، وهو عبارة عن تجلي نور جلال الله تعالى في روح العبد، واستغراق العبد في معرفته، ثم يصير في أول هذه المقامات راضياً عن الله تعالى، وفي آخرها مرضياً عند الله تعالى، وإليه الإشارة بقوله ﴿راضية مرضية﴾».

هذا، وقد ختم الإمام ابن أبي جمرة رحمه الله تعالى «مختصره» للبخاري بهذا الحديث، وقال في «شرحه» ٢: ٢٩٠: «فيه دليل على أن الخير كله إنما هو في رضا المولى سبحانه وتعالى، وأن ما دونه من النعيم - على اختلاف أنواعه في كلا الدارين - إنما هو من أثر ذلك الخير، وهو النعيم الحقيقي».

وقال الحافظ في «الفتح» ١١: ٤٢٢: «إن رضاه - سبحانه وتعالى - سبب كل فوز وسعادة، وكل من علم أن سيده راضٍ عنه كان أقرّ لعينه وأطيب لقلبه من كل نعيم، لما في ذلك من التعظيم والتكريم».

ومما ينبغي التنبُّه له : أن هذا الرضوان إنما هو رضوانٌ خاصٌّ، أما الرضوانُ العامُّ فهو حاصلٌ لهم من قبلُ، ولولاه لما أدخلهم الجنة .

اللهم اجعلنا من أهل المغفرة والغفران، والرضا والرضوان، بفضلِكَ يا عظيم الجود والإحسان .

وسبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، عددَ خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، كلما ذكَّره الذاكرون، وغفلَ عن ذكره الغافلون . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين مثل ذلك .

اللهم إنا نسألك أن تمنَّ علينا برضوانك فلا تسخطَ علينا بعده أبداً، وبالنظر إلى وجهك الكريم، فلا يكونُ شيءٌ أحبَّ إلينا منه، مع العافية من كلِّ سوء ومكروه في الدنيا والآخرة يا أكرم الأكرمين، ويا أرحم الراحمين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

* *

*

فهرس أطراف الأحاديث القدسية والنبوية(*)

الصفحة	طرف الحديث	الصفحة	طرف الحديث
٣١٥	أخرجوا بعث النار	٣٥٨	حرف الهمزة
٣٧٧	أخرجوا من النار مَنْ ذكرني يوماً (ق)	٣١٧	آتي باب الجنة فأستفتح
٢٠	ادخلوا أنتم وأبواكم (ق)	١٧٨	أبشروا فإن من ياجوج ومأجوج ألفاً
٢٠	ادخلوا الجنة أنتم وأبواكم	١٨٠	أبشروا هذا ربكم
٣٠١	إذا ابتليْتُ عبدي بحبيتيه فصبر (ق)	٢٩٥	ابن آدم اركع لي (ق)
٢٧٧	إذا أحب الله عبداً نادى جبريل	٢٩٩	ابن آدم إن صبرت واحتسبت (ق)
١٠٥ ، ١٩	إذا أحب عبدي لقائي (ق)	٢٦	ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة
٣٢٥	إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة (ق)	٣١١	أتدرون ما المفلس؟
٣٢٧	إذا التقى المسلمان بسيفيهما	١٤٦	أترون هذه المرأة طارحة ولدها
٣٧٩	إذا دخل أهل الجنة الجنة	٣٣٥	اتقوا الله ولو بشقّ تمره
٣٨٩	إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار	١٢٣	أتنكر من هذا شيئاً
٣٨٩	إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول	١٩٥	أتيت بالبراق
٣٦١	إذا دعا أحدكم فليكثر	٣٩٣	أحبُّ عبادي إليَّ (ق)
١٧٥	إذا سلّم عليكم أهل الكتاب	٢١٦	أحلُّ عليكم رضواني (ق)
٣٣١ ، ٦٢	إذا قال الرجل هلك الناس	٢١٦	أخبر بذلك أبا بكر وعمر
١٦٥	إذا كان صلاة الفجر نزلت ملائكة النهار	٧٦	أخبر بذلك ابن الخطاب
٣٦٨	إذا كان يوم القيامة ماج الناس	٣١٧	أخذ الله الميثاق من ظهر آدم
٤٤	إذا كان يوم القيامة ينزل الله تبارك وتعالى	٣١٦	أُخرج بعث جهنم من ذريتك
٢٩٧	إذا مات ولد العبد		أُخرج بعث النار (ق)

(*) ما كان بجانبه رمز (ق) فهو إشارة إلى أنه حديث قدسي ، سواء كان الحديث من الأحاديث المائة المشروحة ، أو مما ذكر أثناء الشرح .

الصفحة	طرف الحديث	الصفحة	طرف الحديث
٣٨٨	اقرؤوا إن شئتم ﴿فلا تعلم نفس...﴾	٢٥٢، ٢٥١	إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا
٢٧٤	اقرؤوا إن شئتم ﴿فهل عسيتم...﴾	٢٩٣	إذا مرض العبد بعث الله ملكين
٧٢	اكتب مقادير كل شيء (ق)	٢٧٠	إذا تكفى همك
٣٣٠	أكنت بي عالماً (ق)	٣٣٠	أذهب فادخل الجنة برحمتي (ق)
٢١٤	ألا أبشرك بما لقي الله به أباك	٣٦٤	أذهب فادخل الجنة فإن لك (ق)
١٧٢	ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا	٨٥	أذهب فسلم على أولئك من الملائكة (ق)
١١٠	ألا إن ربِّي أمرني أن أعلمكم	٦٥	أرايتم ما أنفق منذ خلق
٢٣١	ألا رجل يضيفه الليلة	١٧٥	أربع من كن فيه
٧٦	ألسن برئكم؟ (ق)	٩٦	ارجع إلى عبدي فقل (ق)
٣٨٥	ألسن فيما شئت؟ (ق)	٣٠٨	ارجع إليها فانظر (ق)
١٣٢	الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام	٢١٢	أرواحهم في جوف طير
١٧٦	اللهم إني أسألك فعل الخيرات	١٧٢	إسباغ الوضوء على المكاره
٢٩٨	اللهم بعلمك الغيب	١١٤	استخرجهم كما أخرجوك
٣٧١	اللهم اغفر لأمتي	٢٦٥	أسلم عبدي واستسلم (ق)
١٤١	اللهم اغفر لي	٢٣٤	أشد الناس عذاباً
١٢٨	اللهم أمتي أمتي	٢٤٨	أشهدكم أنني قد غفرت (ق)
٢٨	اللهم اهدني فيمن هديت	٥٣	أصبح من عبادي مؤمن بي (ق)
٣٤٦	اللهم وليدني فاغفر	٥٥	أصبح من الناس شاكر
١٤٥	ألم أبعث إليك رسولاً؟ (ق)	١٧٣	أعبدوا الرحمن وأطعموا الطعام
١٤٥	ألم أعطك مالاً؟ (ق)	٣٨٧	أعددت لعبادي الصالحين (ق)
٤٤	ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ (ق)	٣٢١	أعلم عبدي أن له رباً يغفر (ق)
٥٥	ألم تروا إلى ما قال ربكم؟	٢٠٦، ٢٠٣	اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم (ق)
٣٨١	ألم تروا أنها تنبت صفراء	٢٠٥	اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة (ق)
٣٦٠	أليس قد أعطيت عهدك؟ (ق)	٧٨	اعملوا فكل مؤسّر
٢٠٥	أليس من أهل بدر؟	٢٦٢	أفضل الذكر لا إله إلا الله
٢٠٣	أما إنه قد صدقكم	١٧٦	أفضل الصلاة بعد الفريضة
١٦٩	أما إني سأحدثكم ما حسني	١٧٦، ٦٩	أفضل الصيام بعد رمضان
٢٩١	أما علمت أن عبدي فلاناً مريض (ق)	٦٩	أقرب ما يكون الرب من العبد
٢٠	أما يرضيك (ق)	١٧١، ٦٩	أقرب ما يكون العبد من ربه

الصفحة	طرف الحديث	الصفحة	طرف الحديث
٢٨٣	إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ	٢٦٦	أَمَا يَرْضِيكَ أَنَّهُ لَا يَصْلِي عَلَيْكَ أَحَدٌ
٧٢	إِنَّ اللَّهَ كَانَ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ	٣٣٨	أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا قَبْلَهُ
٣٢٣	إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ (ق)	٣٣٤	أَمَا الْكَافِرُونَ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَى
٢٠٩	إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا	١٩٨	أَمَا وَقُوفُكَ بِعَرَفَةَ
٢٣٦	إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْنَا أَنْ نَكْسُو الْحِجَارَةَ	١٨٢	أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ
٣٤٢	إِنَّ اللَّهَ لَيَسْأَلُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ	٢٠٠	أَنْ قَدْ فَعَلْتَ (ق)
١١٢	إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقْتَهُمْ (ق)	١٠٣	أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقَتْ (ق)
١٧٤	إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ	٣٢٧	إِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي فَاكْتَبُوهَا لَهُ حَسَنَةً (ق)
٣٢٠	إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ	١٤٣	إِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَنَّ الظَّعِينَةَ
٣٣٣	إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَفَّهُ	٢٥٦	إِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبْرًا (ق)
٧٢	إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ	٤٤	أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ ٤٤
٧٢	إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ	١٢٢	إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ إِسْلَامًا
١٦١ ، ١٥٤	إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسِبُ بِهِ الْعَبْدَ	٢٣٧	إِنْ أَصْحَابُ هَذِهِ الصُّورِ يَعْذُبُونَ
١٠١	إِنَّ أَيُّوبَ نَبِيَّ اللَّهِ لَبِثَ فِي بَلَاءِهِ	٢٧٦	إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا
١٢١	إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةٌ	٧٨	إِنَّ اللَّهَ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ
١١٩	إِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبَرِّ	٢٠٦	إِنَّ اللَّهَ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ
١٤٦	إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِئَ مِنْ حَرِّ الْقُبُورِ	١١٤	إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَحْرَقَ
٢٣٧	إِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الصُّورُ	٧	إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا
٢٦٧	إِنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَانِي	٧٨	إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ آدَمَ (ق)
٣١٠	إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي	١٣٧	إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي
٢٧٧	إِنَّ فَلَانًا عَبْدِي يَلْتَمِسُ أَنْ يَرْضِيَنِي (ق)	٨٦	إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ
٣٢٠	إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا	٨٢	إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَبِضَ خَلْقَهُ قَبْضَتَيْنِ
٢٧٧	إِنَّ الْعَبْدَ لَيَلْتَمِسُ مَرْضَاةَ اللَّهِ	١٦٦	إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنَامُ
٢٦٠	إِنَّ عَبْدِي كُلَّ عَبْدِي الَّذِي يَذْكُرُنِي (ق)	٦٢	إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ
١٢٢	إِنَّ الْفَحْشَ وَالتَّفَحُّشَ لَيْسَا مِنَ الْإِسْلَامِ	٢٧٢	إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرِغَ
١٧٣	إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا	١٣١	إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ
٧٠	إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً	٣٣٥	إِنَّ اللَّهَ سَيَخْلُصُ رَجُلًا
٢٨٩	إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَادًا	٣٩٠	إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ
١٦٤	إِنَّ اللَّهَ مَلَائِكَةٌ يَتَعَاقَبُونَ	٢٦	إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ

الصفحة	طرف الحديث	الصفحة	طرف الحديث
٢٢٣	انظروا إلى جراحهم (ق)	٢٤٦	إِنَّ اللَّهَ ملائكة يطوفون
	انظروا إلى عبادي قد قضاوا	٣٢٠	إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مَفْتَنًا تَوَابًا
١٧٨، ١٧١	فريضة (ق)	٢٩٤	إِنَّ الْمُؤْمِنَ عِنْدِي بِمَنْزِلَةِ (ق)
٢١٨	انظروا إلى عبدي رجع رغبة (ق)	٢٨٦	إِنَّ الْمُتَحَابِّينَ بِجَلَالِ اللَّهِ
١٤٩	انظروا إلى عبدي هذا (ق)	٢٩٠	إِنَّ الْمُتَحَابِّينَ لَتُرَى غُرْفَهُمْ
١٧٦	انظروا إلى عبدي هذا كيف صبر (ق)	٣١٨	إِنَّ مِثْلَكُمْ فِي الْأَمَمِ
٣٦٠	انظروا إلى من هو أسفل منكم	٢٣٧	إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا
١٦١، ١٥٤	انظروا هل لعبدي من تطوع (ق)	٢٨٩	إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لَأَنَاسًا
٦٤، ٩	أَنْفَقَ أَنْفَقَ عَلَيْكَ (ق)	١٠٤	إِنَّ النَّارَ لَا يَعْذَّبُ بِهَا إِلَّا اللَّهُ
١١٥	أنفق عليهم فستنق عليك (ق)	٢٢٥	إِنَّ النَّذْرَ لَا يَقْرُبُ مِنْ ابْنِ آدَمَ
٢٢، ٨	إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك	٣٤١	أَنَا أَحَقُّ بِذَا مِنْكَ (ق)
٢٢، ٨	إنكم محشورون حفاة	٤٨، ٤١	أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءَ عَنِ الشُّرْكِ (ق)
٤٩	إنما الأعمال بالنيات	٣٥٧	أَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا
٣١٣	إنما أنت عذابي (ق)	٥٧	أَنَا الدَّهْرُ (ق)
١١٣	إنما بعثتك لأبتليك (ق)	٩٥	أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ
١٣٤	إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم	٣٧	أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عِبْدِي بِي (ق)
٣٣٩، ٣٢٥	إنما الدنيا لأربعة نفر	٢٥٣	أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عِبْدِي بِي فليظن (ق)
١١٩	إنه أتانِي الليلة آتيان	٢٥٣	أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عِبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ (ق)
٢٦٦	إنه أتانِي الْمَلِكُ	٢٩٤	أَنَا قَيَّدْتُ عِبْدِي (ق)
٩٥	إنه سُبَّحَ اللَّهُ فِي الظُّلُمَاتِ	٢٤٤	أَنَا مَعَ عِبْدِي إِذَا هُوَ ذَكَرَنِي (ق)
٢١٥	إنه قد سبق مني أنهم (ق)	٢٥٤	أَنَا مَعَ عِبْدِي مَا ذَكَرَنِي (ق)
١٠٤	إنه لا ينبغي أن يعذب بال نار	٦٨	أَنَا الْمَلِكُ (ق)
١٧٧	إنها حق فادروسوها	٣٧١	أَنَا لَهَا
٢٧٨	إني أبغض فلاناً (ق)	١٨٣	أَنِّي تُعْجِزُنِي ابْنُ آدَمَ (ق)
٢٧٧	إني أحب فلاناً (ق)	١٢٨	إِنَّا سَنَرْضِيكَ فِي أَمْتِكَ (ق)
٢٩٤	إني إذا ابتليت عبداً (ق)	٣١٣	أَنْتَ رَحِمَتِي (ق)
٩٣	إني حرمت الجنة على الكافرين (ق)	٢٠٢	انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ
١٢٠	إني رأيت منذ الليلة عجباً	٣٠٧	انظر إليها وما أعددت لأهلها (ق)
١٣٢	إني فرط لكم	٢٩٣	انظروا ماذا يقول لَعَوَّادِهِ (ق)

الصفحة	طرف الحديث	الصفحة	طرف الحديث
١٠٠	بينما أيوب يقتل	٢٧٧	إني قد أحببت فلاناً (ق)
٩	بينما أيوب يقتل	٢١٤	إني قضيت الحكم أنهم (ق)
***		٣٧٠	إني لقائم أنتظر أمّتي
حرف التاء		١١٦	أهل الجنة ثلاثة (ق)
٣٥٩	تأكل النار من ابن آدم	٣١٨	أهل الجنة عشرون ومائة
٢٠٠	تبسمت من عدو الله	١١٨	أهل النار خمسة
٣٤١	تجاوزوا عنه (ق)	٧	أوحى إلي أنكم تفتنون
٣١٢، ٢٠، ١٩	تحتاج الجنة والنار	١٥٣	أول ما يقضى بين الناس
٧٩	تداووا عباد الله	٣١٥	أول من يدعى يوم القيامة
٣٨٩	تريدون شيئاً أزيدكم (ق)	٣٦٥	أولئك الذين أردت (ق)
٢٠٨	تضمن الله لمن خرج في سبيله	١٧٥، ١٢١	أولم تسمعي ما قلت
١٧٢	تطعم الطعام وتقرأ السلام	١٢٢	أي عائشة إن شر الناس
٣٣٣	تعرف ذنب كذا (ق)	١٠٨	أي عبدي ما حملك (ق)
	تلا رسول الله ﷺ للذين أحسنوا	٣٥١	أي قل ألم أكرمك (ق)
٣٨٩	الحسنى . . .	٢٠٨	أيما عبد من عبادي (ق)
٣٤٠	تلقت الملائكة روح رجل	٢٨٥	أين المتحابون بجلالي (ق)
***		٢٨٥	أين المتحابون لجلالي (ق)
حرف التاء		١٧٣	أيها الناس أفشوا السلام

٢٢٦	ثلاثة أنا خصمهم (ق)	حرف الباء	
١٩٣	ثلاثة لا ترد دعوتهم	٣٤٥	بادرني عبدي بنفسه (ق)
٢٢٨	ثلاثة لا يكلمهم الله	١٢١	بش أخو العشرة
١٢٠	ثلاثة يحبهم الله وثلاثة يبغضهم	١٨٢	بزق النبي ﷺ في كفه ثم وضع
١٧٦	ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم	٣٢٩	بشراً ولا تنفراً
***		١٣٢	بسم الله (وضرب الحجر، يوم الخندق)
حرف الجيم		١٣٢	بعثت بجوامع الكلم
٩٦	جاء ملك الموت إلى موسى	٤٥	بل أردت أن يقال (ق)
		٣٣٦	بلى إن لك عندنا حسنة (ق)

الصفحة	طرف الحديث	الصفحة	طرف الحديث
	حرف الدال	٣١١	جعل الله الرحمة مائة جزء
٢٠٠	دعا النبي ﷺ عشية عرفة	٧	جعل الله الرحمة في مائة جزء
٣٨٥	دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء (ق)	***	
٣٢٢	الدعاء منغ العباد		
٣٢٢	الدعاء هو العباد		حرف الحاء
***		٣٠٩	حُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ
	حرف الذال	٣٣٦	حديث البطاقة
٣٦٢	ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ (ق)		حديث الرجل الذي أمر أولاده أن يذروه
***		١٠٦	إذا مات
	حرف الراء		حديث سلاميات الإنسان ستون وثلاثمائة
٣٩	رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ	٣٦٧	حديث الشفاعة
٣٧٤	رَبِّ أُمْنِي أُمْنِي	٣٣٣	حديث النجوى
٣٣١	رُبُّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٌ بِالْأَبْوَابِ	٣٥٨ ، ٣٠٩	حُقَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ
٢٠٨	رجلٌ خرج غازياً في سبيل الله	٢٨٤	حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَصَافَوْنَ (ق)
	رحم الله امرأً صلى قبل العصر	٢٨٤	حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَنَاصَرُونَ (ق)
١٦١ ، ١٥٤	أربعاً	٢٨٠	حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ (ق)
٨٧	رحمك الله يا آدم (ق)	***	
١٠٦	رغسه الله مالاً وولداً		حرف الخاء
١٦١	ركعتا سنة الفجر خير	١٩١	خرجت لأخبركم بلبلة القدر
١٥٤	ركعتا الفجر خير من الدنيا	٣٦٠	خصلتان من كانتا فيه
***		٨٥	خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً
	حرف السين	٣٨٢ ، ١٢٠	خلق الله جنة عدن بيده
٣٦٤	سأل موسى ربّه	٧٨	خلقت هؤلاء للجنة (ق)
٢٨٧ ، ١٨٦	سبعة يظلهم الله في ظله	٣٢٠	خياركم كلُّ مُقْتَنِي ثَوَابٍ
٣١٠	سبقت رحمتي غضبي (ق)	٣٤١ ، ٢٣٢ ، ١١٧	الخلق كلهم عيال الله
٢٩٠ ، ٩١ ، ٢١	سبقك بها عكاشة	***	

الصفحة	طرف الحديث	الصفحة	طرف الحديث
٢٢٣	حرف الطاء	٣٣٤	سترتها في الدنيا وأغفرها لك (ق)
	الطاعون شهادة لأمتي	٢٦٦	سجد ﷺ لله عز وجل شكراً
	***	٢٣٠	سقي الماء
	حرف العين	***	
٢١٧	عجب ربنا من رجل غزا	حرف الشين	
٢١٨	عجب ربنا من قوم يُقادون	٣٧٩	شفعت الملائكة (ق)
٢٩٣	عجباً لأمر المؤمن	٢٢٠	الشهداء خمسة
٢٢٣	عذابُ يبعثه الله على من يشاء	***	
٣٢٦	على كل مسلم صدقة	حرف الصاد	
١٦٨	على مصافكم كما أنتم	٢٠٥	صدق ولا تقولوا له إلا خيراً
	***	٤٦	صلّى النبي ﷺ في إزار ورداء
	حرف الفاء	١٨٠	صلاة الأوابين حيث ترمض الفضال
١٠٦	فأخذ موافقهم على ذلك	١٧٠	صلاة الرجل في الجماعة تضعف
٨٩	فكتب الله عز وجل عليه كتاباً	١٨٦	صنائع المعروف تقي مصارع السوء
	***	٢١٦	صنّف تمرّك أصنافاً
	حرف القاف	١٤٦	الصدقة تطفيء غضب الربّ
٢٩٧	قبضتم ولد عبدي	١٧٠	الصلوات الخمس والجمعة
١٢٦	قد رجعتُ إلى ربّي	١٨٨	الصوم جُنة ما لم يخرقها
١٤٩	قد غفرتُ لعبدي (ق)	٩	الصوم لي (ق)
١٣٨ ، ١٣٧	قد فعلتُ (ق)	١٨٨	الصيام جُنة ما لم يخرقها
١٠٣	قرصتُ نملةً نبياً	١٩١ ، ١٨٨	الصيام جُنة من النار
١٥٠	قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي (ق)	١٩٢	الصيام جُنة من النار كجُنة أحدكم
٢٧٠	قولوا: اللهم صلّ على محمد	١٨٩	الصيام جُنة يستجن بها العبد (ق)
١٣٦	قولوا: سمعنا وأطعنا	***	

الصفحة	طرف الحديث	الصفحة	طرف الحديث
٣١٣	لا تزال الجنة تفضل	حرف الكاف	
٣٤٢ ، ٢٤٢	لا تزول قدما عبد	٤٦	كان يقول في ركوعه سبحان ربي العظيم
٥٧	لا تسبوا الدهر	١٤١	كان يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده
٢٠٩	لا شيء له	٣٣٠	كان رجلاً في بني إسرائيل
٣٨٣	لا عيش إلا عيش الآخرة	٢٦٩	كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام
٢٢٥	لا يأتي النذر على ابن آدم بشيء (ق)	٨٥	كان طول آدم ستين ذراعاً
٣٥٧	لا يتكلم يومئذ إلا الرسل	٣٤٤	كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح
١٢١	لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم	٣٣٨	كان فيمن كان قبلكم رجل قتل
٣٨٣ ، ١٢٠	لا يدخل الجنة خبٌ	٢٩٠	كانوا لا يكتونون
٦٢	لا يدخل الجنة من كان في قلبه (ق)	٧٤ ، ٧١	كتب الله مقادير الخلائق
١٩٦	لا يزال الدين ظاهراً	٥٨	كذبني ابن آدم (ق)
١٦٠	لا يزال عبدي يتجسس إليّ (ق)	٣٤٩	كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً (ق)
١٠٤	لا يعذب بالنار إلا الله	٣٣٤	كلّ أمتي معافى إلا المجاهرين
٣٨٨ ، ٣٦٦	لا يعلمه ملكٌ مقرب	٢٨٦ ، ١٨٦	كل امرئ في ظل صدقته
٣٨٦	لا يملأ عين ابن آدم إلا التراب (ق)	٣٨٠	كل شيء خلق من ماء
٢٧	لا ينبغي لأحد من أهل النار (ق)	١٩٠	كل عمل ابن آدم له إلا الصوم (ق)
٩٤	لا ينبغي لعبد أن يقول (ق)	١٨٧	كل عمل ابن آدم له إلا الصيام (ق)
٩٤	لا ينبغي لعبدي (ق)	١٩٠	كل عمل ابن آدم يُضاعف
٩٥	لا ينبغي لنبي أن يقول	١١١	كل مالٍ نحلته عبداً حلال (ق)
١٤٤	لئن طالت بك حياة لثرين	٢٣٥	كل مصورٍ في النار
١٤٧	لئن طالت بك حياة لفتحن	٢٨٦	كل من يدخل الجنة على صورة آدم
٢٩٤	لعبدي عليّ إن توفيته (ق)	١٦٦	كيف تركتم عبادي (ق)
٢٠٦ ، ٢٠٥	لعل الله اطلع على أهل بدر	٦٢	الكبر بطر الحق
٧٣	لعله أن يخفف عنهما	٦١	الكبرياء ردائي (ق)
٥١	لقد خلقت خلقاً ألسنتهم أحلى (ق)	١٧٤	الكفارات إطعام الطعام
٢٣١	لقد عجب الله عز وجل	***	
٣٨٦	لقيت إبراهيم ليلة أسري بي	حرف اللام	
٣٦٥	لك ذلك ومثله (ق)	٢٦٢	لا إله إلا أنا (ق)
٣١١	لله أرحم بعباده		

الصفحة	طرف الحديث	الصفحة	طرف الحديث
٢١٥	ما كلم الله أحداً قط إلا	١٩٣	للصائم فرحتان
٢١٠	ما من أحد يدخل الجنة	١٧٥	لم يكن النبي ﷺ فاحشاً
٢٠٤	ما من عبد يقول في صباح كل يوم	٨٧	لما خلق الله آدم
١٩٧، ٨	ما من يوم أكثر من أن يعتق	١٨٤	لما خلق الله الأرض
٣٤٢	ما منعك إذا رأيت المنكر (ق)	٣٠٧	لما خلق الله الجنة
١٥٩، ١٥٥	ما يزال عبدي يتقرب إلي (ق)	١٠٠	لما عافى الله أيوب
٢٤٦	ما يقول عبدي (ق)	٣١٠	لما قضى الله الخلق
٢٤٩	مثل المجلس الصالح	٣٥١	لن يهلك الناس حتى
١١٧	مروا أبا بكر فليصل	٣٣٧	لو أن لا إله إلا الله وضعت
١٧١	مشي الأقدام إلى الجماعات	٨٣	لو أن لك ما في الأرض (ق)
١٤٧	من ابتلي من هذه البنات	٣٨١	لو لم تفعلوا لصلح
٢٠	من أحب لقاء الله	٣١١	لو يعلم المؤمن ما عند الله
٢٣٣	من أظلم ممن ذهب يخلق (ق)	٣٧٦	ليس ذاك لك (ق)
١٧١	من توضأ هكذا غفر له	٣٠٤	ليس ذلك ولكن المؤمن
٣٢٦	من جاء بالحسنة فله (ق)	١٨٩	ليس في الصوم رياء
١٥٤	من حافظ على أربع ركعات	١٤٥	ليلقيّن الله أحدكم
٣٣٠	من ذا الذي يتألى علي (ق)		***
٦٩	من ذا الذي يسترزقني (ق)		حرف الميم
٣٤٢	من رأى منكم منكراً	١٩٩	ما أراد هؤلاء (ق)
١٥٦	من رغب عن سنتي	٥٥	ما أنعمت علي عبدي من نعمة (ق)
١٧١	من ركع ركعة	٢٣٧	ما بال هذه النمرقة
٢٥٨	من شغله القرآن (ق)	١٦٣	ما ترددت عن شيء أنا فاعله (ق)
١٥٠	من صلى صلاة	١٦٤	ما تركتم عبدي يصنعون (ق)
٢٦٧	من صلى علي	١٥٩	ما تقرب إلي عبدي (ق)
٢٦٧	من صلى عليك (ق)	٨٦	ما حسدتكم اليهود على شيء
١٥٥	من صلى في يوم وليلة	٢٠٤	ما حملك على ما صنعت
١٦١، ١٥٤	من صلى قبل الظهر	٣٨٧	ما رأيت مثل النار نام هاربها
٢٣٥	من صور صورة	٣٨٦	ما غراس الجنة
٢٩٢	من عاد مريضاً		

الصفحة	طرف الحديث	الصفحة	طرف الحديث
	حرف النون	٢٧٦ ، ١٥٧	من عادى لي ولياً (ق)
٩	نحن الآخرون السابقون	١٠٤	من فجع هذه بولدها
١٨٥	نعم، ابن آدم تصدق (ق)	١٧٢	من فعل ذلك عاش
٢٧٣	نعم، أما ترضين أن أصل (ق)	٢٠٩	من قاتل لتكون كلمة الله
	نعم، الحديد (يعني: أشد من	٢٦٤	من قال سبحان الله
١٨٤	الجبال) (ق)	٢٦٢	من قال لا إله إلا الله
١٠٤	نهى النبي ﷺ عن قتل أربع	٢٦٣	من قالها في مرضه
	***	٣٣٧	من كان آخر كلامه
	حرف الهاء	٣٧٩	من كان في قلبه مثقال حبة (ق)
١٩٨	هؤلاء عبادي جاؤوا شعناً (ق)	٣٥٦	من كان يعبد شيئاً فليتبعه (ق)
٣٦٥	هذا لك وعشرة أمثاله (ق)	٣٠٣	ما لعبدي المؤمن عندي جزاء (ق)
٨٨	هذه تحيتك وتحية نبيك (ق)	٧٥	من مات على غير هذا
٩٠	هل بلغت (ق)	٢٦٦	من هذا
٥٣	هل تدرون ماذا قال ربكم	٣٢٣ ، ١٢٥	من هم بحسنة (ق)
٣٤٨	هل تدرون مِمَّ أضحك	١٧٢	من يحافظ عليهن عاش
٢١٢	هل تشتهون شيئاً (ق)	٩	من يدعوني (ق)
٣٥٠	هل تُضارُّون في رؤية الشمس	٦٨	من يدعوني فأستجيب له
٣٥٥	هل تُضارُّون في رؤية القمر	٩١	من يشهد لك (ق)
	هل تُضارُّون في الشمس ليس دونها	٧٠ ، ٦٩ ، ٦٨	من يُقرض غير عديم (ق)
٣٥٥	سحاب	١٧٤ ، ١٢١	مهلاً يا عائشة
١١٩	هل رأى أحد منكم من رؤيا	١٧٥	مهلاً يا عائشة عليك بالرفق
١٣٥	هل ظلمتكم من أجركم من شيء (ق)	٣٨٥	المؤمن إذا انتهى الولد
٣٦٠	هل عسيب إن فعلت ذلك بك (ق)	٢٨٠	المتحابون في الله على منابر (ق)
٢٤٨	هم الجلساء لا يشقى جلسهم (ق)	٢٨٠	المتحابون في جلالي (ق)
٢٠٨	هو علي ضامن (ق)	٢٨٩	المتحابون في جلالي لهم منابر (ق)
	***	٢٤٩	المرء على دين خليله
	حرف الواو	١١٩ ، ٥١	المكر والخداع في النار
٣٩	والله إني لأستغفر الله	١٧٩	الملائكة تصلي على أحدكم
		٣٠٥	الميت تحضره الملائكة

الصفحة	طرف الحديث	الصفحة	طرف الحديث
٢٩١	يا ابن آدم مرضت فلم تعدني (ق)	٣٢٩	والله لا يغفر الله لفلان
٣٩٢	يا أهل الجنة (ق)	٩٧	والله لو أني عنده لأريتكم قبره
٢٦٩	يا أيها الناس اذكروا الله	٢٨٢	وجبت رحمتي (ق)
٣٩	يا أيها الناس توبوا إلى الله	٢٨٢	وجبت محبتي للمتحابين (ق)
٣١٥	يا أيها الناس هلم إلى ربكم	٣٨٣	وعزتي لا يجاورني فيك بخيل (ق)
٩	يا أيوب (ق)	١٩٤	وعزتي لأنصرك ولو بعد حين (ق)
١٠١	يا أيوب ألم أكن أغنيك (ق)	١٢٠	وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك (ق)
٢١٤	يا جابر أما علمت أن الله أحيا أباك	٣٧٦	وعزتي وكبريائي لأخرجن من قال (ق)
٢١٤	يا جابر ما لي أراك منكسراً	١٩٢ - ١٩٠	والذي نفس محمد بيده لخلوف
١٢٨	يا جبريل اذهب إلى محمد (ق)	٣١٨ - ٣١٧	والذي نفسي بيده إنني لأطمع
٢١	يا جبريل هؤلاء أمتي	٣٥١	والذي نفسي بيده لا تضارون
٢٠٠	يا رب إنك قادر أن تغفر للظالم	١٩٢	والذي نفسي بيده لا يكلم أحد
٣٤٢	يا رب رجوتك وفرقت من الناس	٣٤٣	والذي نفسي بيده لتأمرون بالمعروف
٣٧٣	يا رب عجل على الخلق الحساب	٢١١	والذي نفسي بيده لو ددت أني أقتل
٢٢	يا رب هؤلاء من أصحابي	٢٢	وليصذن عني طائفة منكم
١٤٧	يا عائشة استتري من النار	٢٢	وهل تدري ما أحدثوا بعدك
١٢٢	يا عائشة إن الله لا يحب الفاحش	٣٨	ويل للمصيرين
١٢١	يا عائشة متى عهدتني فاحشاً	٩١	الوسط العدل
٢٦ (ق)	يا عبادي إنني حرمت الظلم على نفسي (ق)	***	
٢١٥	يا عبدي تمن علي أعطك (ق)	حرف الياء	
١٤٣	يا عبدي هل رأيت الحيرة	٣١٥	يا آدم (ق)
١٧٧	يا محمد إذا صليت فقل (ق)	٥٠	يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله
٣٧٣	يا محمد ارفع رأسك		يا ابن آدم إذا أخذت كريمتيك
١٢٥	يا محمد إنهن خمس صلوات (ق)	٣٠٠	فصبرت (ق)
١٣٣	يا محمد إنني إذا قضيت قضاءً (ق)	٢٥٥	يا ابن آدم إذا ذكرتني خالياً (ق)
١٧٦	يا محمد عش ما شئت فإنك ميت	١١٥	يا ابن آدم أنفق أنفق عليك (ق)
	يا محمد... فيم يختصم الملائكة	٣٦	يا ابن آدم إنك ما دعوتني (ق)
١٧١ - ١٦٩	الأعلى (ق)	٢٤٢	يا ابن آدم تفرغ لعبادتي (ق)
١٧٧	يا محمد قل يسمع	٢١٠	يا ابن آدم كيف وجدت منزلك (ق)

الصفحة	طرف الحديث	الصفحة	طرف الحديث
١٨١	يُصبح على كل سُلامى من أحدكم صدقة	٢٩٧	يا مَلَكَ الموت قبضت ولد عبدي (ق)
	يُطبع المؤمن على كل شيء	٢١٠	يؤتى بالرجل من أهل الجنة
١١٩ ، ١١٨	إلا الخيانة	٥٦ ، ٩	يؤذني ابن آدم (ق)
١٤٨	يعجب ربكم من راعي غنم	١٨٨	يترك طعامه وشرابه وشهوته (ق)
٧٣	يُعذبان وما يُعذبان في كبير	١٦٦	يتعاقبون فيكم ملائكة
٢٨٩	يغبطهم بمكانهم النبيون	٩	يتنزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة
٩٢	يلقى إبراهيم أباه آزر	٩٠	يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل
٣٢٦	يُمسك عن الشرف إنه له صدقة	٩٠	يجيء نوح وأمه
٦٧	ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة	٢١٩	يختصم الشهداء والمُتَوَفُّون
٢٣١	اليوم أمتك فضلي (ق)	٥١	يخرج في آخر الزمان رجال
	***	٦٤	يد الله ملأى
		٣٣٣	يُدنى المؤمن من ربه
		١٧٦	يذُر شهوته ويذكرني (ق)

فهرس الآثار

- ٨ أجّل والله إنه لموصوف في التوراة
 ٨٢ أخاف أن أُسلَب الإيمان عند الموت
 ٨٢ أخاف أن أكون في أم الكتاب شقيّاً
 ٣٠٥ إذا شخص البصر
 ١٤٠ ألا أدلّكم على دائكم ودوائكم
 ٢٥٧ الله تعالى أسرع بالمغفرة
 ٥٠ اللهم اجعلني مع صاحب النّقب
 ١٥٣ اللهم وفق لي جليساً صالحاً
 ١٤٠ إنّ الهلكة كلّ الهلكة أن نعمل السيئات
 إنا بايعنا رسول الله ﷺ على النصح لأهل
 الإسلام
 ٢٣٠ إنك ما كنت في صلاة فإنك تفرع باب
 الملك
 ١٦٠ إنكم أخربتم الآخرة وعمرتم الدنيا
 ٣٠٦ إني بايعت رسول الله ﷺ على النصح
 لكل مسلم
 ٢٢٩ أيؤمّل غيري (ق)
 ٣٣ جمعهم الله تعالى فجعلهم أرواحاً
 ٧٧ حدّث أن موسى أو عيسى قال
 ٨ صلاة الملائكة الدعاء
 ٢٧٠ الصوم هو الصبر
 ١٩٠
- ١٤٥ قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس
 قصة الثلاثة الذين آثروا على أنفسهم يوم
 اليرموك فماتوا ٢٣١ ، ٢٣٢
 كان جرير إذا أقام سلعة ليبيعها بصّر عيوبها ٢٢٩
 الكذب يُجانب الإيمان ١٢٠
 كساه الله حلّة من حُلل الجنة ١٠١
 لا تصحب الأشرار ٢٥٠
 ليس بالذي تذهب إليه ٣٠٥
 ما لك تنظر إليّ فوالله ما كذبتُ على
 عثمان ٢٠٤
 ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل
 الرجل ١٤٤
 من صلّى على رسول الله ﷺ صلاةً ٢٦٨
 من يُكثر قرع باب الملك ١٦٠
 هل أبكاك قط علم الله فيك ٨٢
 يا أبا حازم ما لنا نكره الموت ٣٠٦
 يا بنيّ إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان ٧١
 يا بنيّ قضاء الله أحبُّ إليّ من بصري ٢٩٩
 يا ربّ قد علمت ساكن الجنة ٨٢
 يصلّون: يُبرّكون ٢٧٠

فهرس المصادر

- ١- إتحاف أهل الإسلام بخصوصيات الصيام، لابن حجر الهيتمي المكي، تحقيق الشيخ محمود النواوي ومحمد الديوي، نشر مكتبة النهضة الحديثة بمكة المكرمة، الأولى، ١٣٨٠.
- ٢- إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين، للزبيدي، مصورة دار الفكر- بيروت.
- ٣- الإتحافات السنّة في الأحاديث القدسية، للشيخ محمد المدني، صحّحه محمود أمين النواوي، دار الجيل- بيروت.
- ٤- الأحاديث القدسية، جمع لجنة من علماء الأزهر، مصورة دار الكتاب العربي، ١٤٠٢.
- ٥- الإحسان في تقريب صحيح ابن جبان، للأمير ابن بلبان، تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ.
- ٦- إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، مصورة دار الريان للتراث- القاهرة.
- ٧- الأربعون النووية، للنووي، مطبوع مع شرحه «الفتح المبين»، لابن حجر المكي.
- ٨- أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري، للخطّابي، تحقيق الدكتور محمد بن سعود بن عبد الرحمن آل سعود، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى- مكة المكرمة، الأولى، ١٤٠٩ هـ.
- ٩- الأم، للإمام الشافعي.
- ١٠- الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها، للشيخ عبد الله سراج الدين، الثانية، ١٤٠٤.

- ١١ - بدائع الفوائد، لابن القيم الجوزية، مصورة دار الفكر - بيروت، عن الطبعة المنيرية.
- ١٢ - بزوغ الهلال في الخصال الموجبة للظلال، للسيوطي، تحقيق مشهور حسن سلمان، نشر مكتبة المنار - الأردن، الأولى، ١٤٠٧.
- ١٣ - البداية والنهاية، لابن كثير، تصحيح الدكتور أحمد أبو ملحم، وآخرين، دار الكتب العلمية - بيروت، الأولى، ١٤٠٥ هـ.
- ١٤ - بهجة النفوس، لابن أبي جمرة، مصورة دار الجيل، بيروت، الثانية ١٩٧٢ م.
- ١٥ - تاريخ الأمم والملوك، للطبري، مصورة دار الكتب العلمية - بيروت، الأولى، ١٤٠٧ هـ.
- ١٦ - التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، لابن رجب الحنبلي، دار الكتب العلمية - بيروت، الأولى، ١٤٠٥ هـ.
- ١٧ - التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي، دار الريان للتراث - القاهرة، الثانية، ١٤٠٧ هـ.
- ١٨ - الترغيب والترهيب، للمنذري، ضبطه: مصطفى محمد عمارة، نشر إدارة إحياء التراث الإسلامي - قطر.
- ١٩ - تعجيل المنفعة، لابن حجر العسقلاني، نشرة السيد عبد الله هاشم يماني المدني، بالمدينة المنورة، ١٣٨٦ هـ.
- ٢٠ - التعريفات، للشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية - بيروت، الأولى ١٤٠٣.
- ٢١ - تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار القلم - بيروت.
- * - تفسير الخازن = لباب التأويل.
- * - تفسير الطبري = جامع البيان.
- تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن.
- ٢٢ - التفسير الكبير، للرازي، مصورة دار الفكر - بيروت، الثالثة، ١٤٠٥ هـ.
- ٢٣ - تقريب التهذيب، لابن حجر، تحقيق ودراسة محمد عوامة، دار الرشيد - حلب، الثالثة، ١٤١١ هـ.
- ٢٤ - تلخيص المستدرک، للذهبي، المطبوع مع المستدرک.
- ٢٥ - تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش، للسيوطي، حققه مشهور حسن سلمان، نشر مكتبة المنار - الأردن، الأولى، ١٤٠٧ هـ.
- ٢٦ - تهذيب التهذيب، لابن حجر، المصورة الأولى بدار صادر - بيروت، عن طبعة

- حيدر آباد الدكن بالهند، سنة ١٣٢٥ هـ.
- ٢٧ - تهذيب سنن أبي داود، للمنزري، نشرة محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية، ١٣٦٧ هـ.
- ٢٨ - توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، للصنعاني، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة - القاهرة، الأولى، ١٣٦٦ هـ.
- ٢٩ - الثقات، لابن جبان، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن - الهند، الأولى، ١٣٩٣ هـ.
- ٣٠ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، مصورة دار الفكر - بيروت، ١٤٠٨ هـ.
- ٣١ - جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، لابن رجب الحنبلي، دار عمر بن الخطاب - الإسكندرية.
- ٣٢ - الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، مصورة في بيروت عن الطبعة الثانية بدار الكتب المصرية، سنة ١٩٥٤ م.
- ٣٣ - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، تحقيق الدكتور محمود الطحان، مكتبة المعارف - الرياض، ١٤٠٣ هـ.
- ٣٤ - الجامع لشعب الإيمان، للبيهقي، حققه الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، الدار السلفية - بومباي الهند، الأولى، ١٤٠٦ هـ.
- ٣٥ - المجلس الصالح الكافي، والأنيس الناصح الشافي، للمعافى النهرواني، تحقيق الدكتور محمد مرسى الخولي، نشر عالم الكتب ومحمد أمين دمج، الأولى، ١٩٨١ م.
- ٣٦ - حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، لابن القيم، مصورة دار الكتب العلمية.
- ٣٧ - حاشية ابن عابدين، مصورة دار إحياء التراث العربي، لطبعة بولاق الأولى.
- ٣٨ - حاشية السندي على سنن النسائي، للشيخ أبي الحسن نور الدين السندي، مطبوع مع سنن النسائي.
- ٣٩ - حلية الأولياء، لأبي نعيم، مصورة مطبعة السعادة ١٣٥١ هـ.
- ٤٠ - خلق أفعال العباد، للإمام البخاري، نشرة محمد السعيد بن بسيوني، مكتبة التراث الإسلامي - القاهرة.
- ٤١ - الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني، دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤٠٠.

- ٤٢- روح المعاني، للآلوسي، مصورة دار إحياء التراث العربي - بيروت، للطبعة المنيرية.
- ٤٣- سُبُل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، للصالحى الشامى، تحقيق: د. مصطفى عبد الواحد، وآخرون، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة، الأولى، ١٣٩٢ هـ. وما بعد.
- ٤٤- سراج الملوك، للطُّرُوشى، المطبعة الوطنية بالإسكندرية، ١٢٨٩ هـ.
- ٤٥- سنن ابن ماجه، طبعة محمد فؤاد عبد الباقي، عيسى البابى، الحلبي - القاهرة.
- ٤٦- سنن أبي داود، إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس، دار الحديث - بيروت، الأولى، ١٣٨٨ هـ.
- ٤٧- سنن الترمذى، طبعة عزت عبيد الدعاس، المطبعة الوطنية - حمص، الأولى، ١٣٨٥ هـ. والطبعة التي ابتدأ تحقيقها أحمد شاكِر، وأتمها محمد فؤاد عبد الباقي، ثم إبراهيم عطوة عوض، مصورة دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٤٨- سنن الدارمى، مطبعة الاعتدال - دمشق، ١٣٤٩ هـ.
- ٤٩- سنن النسائي، الطبعة المفهرسة التي اعتنى بها الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ.
- ٥٠- سيرة عمر بن عبد العزيز، لعبد الله بن عبد الحكم، نشر المكتبة العربية - دمشق، ١٣٤٦ هـ.
- * - شرح إحياء علوم الدين = إتحاف السادة المتقين.
- * - شرح الأربعين النووية = الفتح المبين.
- ٥١- شرح السنة، للبغوي، تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط، نشر المكتب الإسلامي، الثانية، ١٤٠٣.
- ٥٢- شرح صحيح البخاري، للكرمانى، مصورة دار إحياء التراث العربي - بيروت، الثانية، ١٤٠١ هـ.
- ٥٣- شرح صحيح مسلم، للنووي، المطبعة المصرية - القاهرة، الثالثة.
- ٥٤- شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث، للشيخ عبد الله سراج الدين، مكتبة دار الشرق - بيروت، الرابعة، ١٣٩٥ هـ.
- ٥٥- شرح المواهب اللدنية، للزرقاني، الأزهرية، ١٣٢٥ هـ.

- ٥٦- شرح الموطأ، للزرقاني، الاستقامة، ١٣٧٩ هـ.
- *- شعب الإيمان = الجامع لشعب الإيمان.
- ٥٧- شفاء السقام، للسبكي، المطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق-مصر، الأولى، ١٣١٨ هـ.
- ٥٨- صحيح ابن خزيمة، تحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، ١٣٩٠ هـ.
- ٥٩- صحيح البخاري، المطبوع مع فتح الباري.
- ٦٠- صحيح مسلم، طبعة محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية-مصر.
- ٦١- صعود الأقوال ورفع الأعمال، للشيخ عبد الله سراج الدين، توزيع مكتبة طيبة بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى.
- ٦٢- الضوء اللامع في معرفة أهل القرن التاسع، للسخاوي، مصورة دار مكتبة الحياة-بيروت، لطبعة حسام الدين القدسي بمصر، سنة ١٣٥٥.
- ٦٣- عمدة القاري بشرح صحيح البخاري، للعيني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي-القاهرة، الأولى، ١٣٩٢ هـ.
- ٦٤- عون المعبود شرح سنن أبي داود، لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، ضبطه عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر-بيروت، الثالثة ١٣٩٩ هـ.
- ٦٥- عيون الأخبار، لابن قتيبة، مصورة دار الكتاب العربي لطبعة دار الكتب المصرية.
- ٦٦- غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام، مصورة دار الكتاب العربي-بيروت، ١٣٩٦ هـ. عن الطبعة الأولى بمجلس دائرة المعارف العثمانية، بحيدرآباد الدكن-الهند، ١٣٨٤ هـ.
- ٦٧- فتاوى الإمام النووي، ترتيب تلميذه الشيخ علاء الدين بن العطار، حققه الشيخ محمد الحنجار، دار السلام-القاهرة، الثالثة، ١٤٠٥ هـ.
- ٦٨- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر، مصورة دار الفكر-بيروت، عن الطبعة السلفية.
- ٦٩- فتح المغيث شرح ألفية الحديث، للسخاوي، ضبطه عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، الثانية، ١٣٨٨ هـ.

- ٧٠- الفتح المبين بشرح الأربعين النووية، لابن حجر المكي، طبع عيسى البابي الحلبي، بمصر، ١٣٥٢.
- ٧١- الفردوس بمأثور الخطاب، للدليمي، طبع السعيد بن بيسوني زعلول، دار الكتب العلمية - بيروت، الأولى، ١٤٠٦ هـ.
- ٧٢- الفقه الإسلامي وأدلته، للدكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر - دمشق، الثانية، ١٤٠٥ هـ.
- ٧٣- فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي، دار المعرفة - بيروت، الثانية، ١٣٩١ هـ.
- ٧٤- قوة الحجاج في عموم المغفرة للحجاج، لابن حجر العسقلاني، تحقيق الشيخ عبد الله الصديق، طبع دار الأدب العربي بمصر.
- ٧٥- الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، للذهبي، تحقيق محمد عوامة، وأحمد الخطيب، نشر دار القبلة - جدة، الأولى، ١٤١٢.
- ٧٦- الكشاف عن حقائق التنزيل، للزمخشري، مصورة دار المعرفة - بيروت.
- ٧٧- الكليات، لأبي البقاء الكفوي، تحقيق الدكتور عدنان درويش ومحمد مصري، نشر وزارة الثقافة بدمشق ١٩٨١.
- ٧٨- الكواكب النيرات في معرفة من اختلط من الثقات، لابن الكيال، تحقيق الدكتور عبد القيوم عبد رب النبي، من منشورات جامعة أم القرى، الأولى، ١٤٠١ هـ.
- ٧٩- لباب التأويل، تفسير الخازن البغدادي الصوفي، مصورة مكتبة المثنى ببغداد، لطبعة دار الكتب العربية بمصر.
- ٨٠- لسان العرب، لابن منظور، مصورة دار صادر - بيروت.
- ٨١- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيتمي، طبعة الأستاذ حسام الدين القدسي بالقاهرة، ١٣٥٢ هـ.
- ٨٢- مجموع الفتاوى، لابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم وولده محمد، الثانية، ١٣٩٨.
- ٨٣- المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز، لابن عطية، طبعة قطر، الأولى، ١٣٩٨.
- ٨٤- مدارج السالكين شرح منازل السائرين، لابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية.

- ٨٥- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للقاري، المكتبة الإمدادية، ملتان - باكستان.
- ٨٦- المسند، للإمام أحمد، المكتب الإسلامي - بيروت، الخامسة، ١٤٠٥ هـ.
- ٨٧- مسند أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، للباغندي، تحقيق محمد عوامة، مؤسسة علوم القرآن - دمشق، الثانية، ١٤٠٤ هـ.
- ٨٨- المستدرك على الصحيحين، للحاكم، وبذيله: التلخيص، للذهبي، دار الكتاب العربي - بيروت.
- ٨٩- مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، للبوصيري، طبعة كمال يوسف الحوت، الأولى، ١٤٠٦.
- ٩٠- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للفيومي، المطبعة الأميرية - القاهرة، السابعة، ١٩٢٨ م.
- ٩١- المعجم الكبير، للطبراني، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، وزارة الأوقاف بالعراق، الأولى، ١٤٠٠ هـ.
- ٩٢- المعرفة والتاريخ، للفسوي، تحقيق الدكتور أكرم العمري، مطبعة الإرشاد - بغداد، الأولى، ١٣٩٤ هـ.
- * - مفاتيح الغيب، للرازي = التفسير الكبير.
- ٩٣- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق سيد محمد كيلاني، مصورة دار المعرفة - بيروت.
- ٩٤- المقاصد السنية في الأحاديث الإلهية، لابن بَلْبَان، تحقيق محيي الدين مستو، والدكتور محمد العبد الخطراوي، مكتبة دار التراث - المدينة المنورة، الأولى، ١٤٠٣ هـ.
- ٩٥- مقالات الكوثري، الأنوار، ١٣٧٣ هـ.
- ٩٦- مقدمة ابن خلدون، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي، الطبعة الثالثة.
- ٩٧- منتخب مسند عبد بن حميد، طبعة مصطفى بن العدوي، دار الأرقم بالكويت، الأولى، ١٤٠٥ هـ.
- ٩٨- المتقى شرح الموطأ للباجي، مصورة دار الكتاب العربي، الثالثة، ١٤٠٣ هـ.
- ٩٩- الموطأ، للإمام مالك، مطبوع مع تنوير الحوالك، للسيوطي، مطبعة المشهد الحسيني - القاهرة.

- ١٠٠- النبأ العظيم، د. محمود عبد الله دراز، نشر دار القلم بالكويت،
الثالثة ١٩٨٨ م.
- ١٠١- النكت على ابن الصلاح، لابن حجر، تحقيق الدكتور ربيع عمير، نشرة
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الأولى، ١٤٠٤ هـ.
- ١٠٢- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي
ومحمود محمد الطنّاحي، عيسى البابي الحلبي - القاهرة، ١٣٨٣ هـ.
- ١٠٣- النهضة الإصلاحية، للشيخ مصطفى أبو سيف الحمّامي، مصطفى البابي
الحلبي، ١٣٥٤ هـ.

فهرس الموضوعات

- ٥ المقدمة.
- ٦ أثر الأحاديث القدسية في روح القارىء وقلبه.
- ٧ تعريف الحديث القدسي، وشرح محترزاته.
- ٧ المحترز الأول والثاني: القول، الصريح، فخرج به الفعل، وما ليس صريحاً، ومثال ذلك.
- ٨ المحترز الثالث والرابع: ما كان من روايته ﷺ، عن الله عز وجل، فخرج نحو الإسرائيليات، وما كان عن غير الله تعالى، كالملائكة مع الأمثلة.
- ٩ هل يشترط في الحديث القدسي أن يصدر بـ: قال الله تعالى، ونحوه؟ والجواب: لا، مع نقل كلام ابن حجر في ذلك.
- ١٠ التفصيل في أن الحديث القدسي لفظه ومعناه من الله عز وجل، مع ذكر قولَي العلماء في ذلك.
- ١١ نقل بعض أقوال الجمهور في أن لفظه من النبي ﷺ.
- ١٢ نقل كلام من خالف الجمهور، وأهمه كلام ابن حجر الهيتمي، وفيه: خصائص القرآن الكريم دون الكتب السماوية الأخرى.
- ١٢ هل يجوز مسُّ المحدث لما صحَّ من التوراة - مثلاً - ونحوها؟
- ١٣ قول ابن حجر الهيتمي: نسبة الأحاديث القدسية إلى الله تعالى نسبة إنشاء، وبيان معناه.
- ١٤ نصرة الدكتور دراز لقول الجمهور وتقريره مذهبهم بقوة.
- ١٥ تلخيص كلامه، والإجابة عنه، وبيان ذهوله عن حال الكتب السماوية - سوى القرآن - وأنه لا يلزم من قولنا: الحديث القدسي لفظه ومعناه من الله تعالى، أن نجعله كالقرآن الكريم.

يستفاد من القول بأن القدسي لفظه ومعناه من الله، وهو غير معجز، وبأن القرآن كذلك لكنه معجز: قوة إلزام للكافرين: هذا لا أتحداكم به، وهذا

أتحداكم به، والكل من عند الله تعالى. ١٦

ذكر سبع مصنفات في الأحاديث القدسية، واستعراض لأربعة منها متداولة. ١٧

١ - الإنحافات السننية للعلامة المناوي، التزم فيه إخراج القدسي فقط،

ولم يلتزم الصحة. ١٨

٢ - الإنحافات السننية للشيخ محمد المدني، وكتابه أوسع من كتاب

المناوي، ولم يلتزم فيه الصحة كذلك، وقسّمه إلى ثلاثة أقسام. ١٨

٣ - الأحاديث القدسية، اختيار اللجنة الأزهرية، وأحاديثه من الكتب الستة

والموطأ، وما كان منها في البخاري ومسلم نقلوا شرحه من «إرشاد الساري»

و«شرح النووي على مسلم». ١٨

الملاحظات على هذا الكتاب: ١٩

١ - التكرار الكثير وذكر سببه. ومثاله. ١٩

٢ - تضمّنه أحاديث غير قدسية، وأمثلة على ذلك. ١٩

٣ - فيه أحاديث ضعيفة لو استغني عنها لاتصف الكتاب بمزية عالية. ... ٢٠

٤ - من الأخطاء المطبعية فيه ما يؤثر في اعتبار بعض الأحاديث قدسياً.

ومثاله. ٢٠

٥ - حصل - نادراً - تحريف في اللفظة الدالة على كون الحديث قدسياً.

ومثاله. ٢٠

٦ - التقصير في تخريج بعض الأحاديث وهو نادر أيضاً. ومثاله. ٢١

٤ - المقاصد السننية، لابن بَلْبَانَ المقدسي، جمع فيه مؤلفه مائة حديث،

ختم كل عشرة منها بحكايات وعظية وأشعار زهدية، ويؤخذ عليه: إيراد فيه

ما لا زمام له ولا خطام! وفي الأحاديث المائة ما ليس بقدسي، وفيها غيرُ

الصحيح والتالف. ٢١

منهجي في اختياري. ٢١

١ - التزمت الصحة أو الحسن فيها. ٢٢

٢ - كما التزمت أن تكون كلها قدسية. ٢٢

٣ - تخريج الحديث من أشهر كتاب رواه. ٢٣

- ٤ - الإكثار من الضبط، والتبسط في شرح الغريب، وذلك ملاحظة لحال
متوسطة القراء ٢٣
- ٥ - تبسيط الأسلوب والبعد عن الأسلوب العلمي ٢٣
- ٦ - توثيق النقول بعزوها إلى مصادر معتمدة ٢٣
- ٧ - ترتيب الأحاديث على وفق موضوعاتها ٢٣
- الحديث ١: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي...، وتخريجه، وأهميته
عند السلف ٢٥
- السُّرُّ في تكرار النداء: يا عبادي... يا عبادي ٢٥
- الظلم نوعان: ظلم للنفس، وظلم للآخرين ٢٦
- فالأول بالمعاصي وأعظمها الشرك: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ ٢٦
- والثاني بالقول أو بالفعل: ﴿إن المفلس من أمتي﴾ ٢٦
- العباد كلهم عرضة للضلال والغواية إلا من استعصم بالله، واستمسك بحبله
المتين ٢٧
- من مظاهر الهداية للعبد: توفيقه لصحبة الأخيار الأبرار ٢٧
- الإشارة إلى تحقق فقر العباد إلى خالقهم في الطعام والشراب والكساء ٢٨
- ضبط النووي لكلمة «تخطئون» ٢٨
- ذنوب العباد كثيرة مستمرة، وعفو الله أعظم وأوسع ٢٩
- لا تعارض بين التعميم والتأكيد في الحديث «وأنا أغفر الذنوب جميعاً» وبين
التخصيص والتعليق بالمشيئة في قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك
به...﴾ ٢٩
- قصة أحد أصحاب ذي النون المصري، حكاه ابن رجب رحمه الله ٢٩
- التطابق بين هذا الحديث: فاستهدوني.. فاستطعموني.. وبين قوله تعالى
على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿إلا رب العالمين﴾ الذي خلقتني فهو
يهدين... ﴿..... ٣٠
- لطيفة دقيقة في التأديب الرباني للعباد في قوله: «كانوا على أتقى قلب رجل
واحد منكم..» وقوله: «كانوا على أفجر قلب رجل واحد» دون لفظة
«منكم» ٣١
- ما أحوجنا إلى الأدب فيما بيننا ومع خالقنا سبحانه وتعالى ٣١

- الغنى على مرتبتين: الأولى بمعنى الاستغناء، والثانية بمعنى الإغناء للغير
 ٣٢ وليساً إلا الله سبحانه وتعالى .
 لا ينقص ما عند الله لو أعطى كل إنسان مسألته ولو كان نقصاناً خفيفاً كما
 تنقص الإبرة إذا أدخلت البحر، وما جاء في الحديث على سبيل المثال
 ٣٤ والتقريب للعقول البشرية .
 ٣٤ الأعمال تشمل أفعال الجوارح والقلوب
 الأدب الرباني في قوله: «ومن وجد غير ذلك» مع اجتناب لفظه، والتنبيه
 ٣٥ عليها من ابن حجر المكي .
 الحديث ٢: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني ..، وتخريج، وغريبه .
 ٣٦ اشتمل الحديث على ثلاثة ندآت ربانية .
 ٣٦ الأول: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني .
 ٣٦ الدعاء والرجاء سببان من أسباب المغفرة .
 ٣٧ إفادة «ما» في قوله «ما دعوتني» ضرورة المداومة والإلحاح في الدعاء .
 ٣٧ النداء الثاني: يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك
 ٣٧ تفسير ابن حجر المكي لقوله «ثم استغفرتني» بالتوبة .
 ٣٨ تعريف المغفرة عند ابن رجب .
 تعريف التوبة، وذكر شروطها الثلاثة في توبة العبد من ذنبه مع الله سبحانه
 ٣٨ وتعالى، وإضافة شرط رابع في توبته من ذنب بينه وبين إنسان آخر .
 ٣٨ مصير من يستغفر بلسانه وقلبه مصرّ على الذنب .
 ٣٩ جملة من الأحاديث في استغفاره وتوبته ﷺ .
 ٣٩ النداء الثالث: يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا
 ٣٩ - التوحيد هو أعظم أسباب مغفرة الله تعالى للعبد .
 الموحد العاصي غير التائب: أمره مفوض لربه إما أن يدخله الجنة مع
 السابقين، وإما بعد أن يطهره من معاصيه وذنوبه .
 ٤٠
 الحديث ٣: أنا أغنى الشركاء عن الشرك ..، وتخريج .
 ٤١ إفراده سبحانه بالعبادة والقصد والتوجه إليه، والوعيد الشديد لمن عمل عملاً
 ٤١ أشرك معه غيره .
 ٤٢ نقل عن النووي رحمه الله: بأن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه بل يائمه به .

- الحديث ٤ : أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم... ، وتخريجه وغريبه. ٤٣
- ضرورة الإخلاص لله سبحانه في الأقوال والأعمال. ٤٤
- تخصيص العلماء والتجار والجنود بالذكر هنا: لأنهم أهم العاملين من الناس. ٤٤
- على طالب العلم أن يكون قصده الله ومرضاته، وأثر ذلك. ٤٥
- تحذير طالب العلم من جملة من أوبئة وأمراض طلبة هذا الزمان. ٤٦
- العلم: حفظ وفهم، وعمل وتطبيق، والعالم من جمع ذلك، واستفادة ذلك من سيرة السلف وتراجمهم. ٤٧
- الحث على قراءة مجموعة كتب من أهم ما كُتب في ذلك، وعلى صحبة العلماء العاملين الذين هم الكتب الناطقة. ٤٧
- من اتَّصف بالحفظ والفهم والتحقيق... وهو بعيد عن العمل لا يعدو أن يكون ناقلاً كما وصفه بذلك الإمام ابن أبي جمرة. ٤٧
- من آفات المال. ٤٨
- أهل الإخلاص حقاً يتنكرون ولا يظهرون لئلا يُعرفوا ويذكروا.. وقصة صاحب النُّقْب مع مسلمة بن عبد الملك. ٤٩
- الحديث ٥ : لقد خلقتُ خلقاً ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمرُّ من الصَّبْرِ... ، وتخريجه، وغريبه. ٥١
- لا يجتمع إيمان ونفاق في قلب مسلم صادق. ٥١
- علماء السوء في آخر الزمان يشترون دنياهم بالدين، وذكر صفتهم، والوعيد الشديد لهم. ٥١
- الحديث ٦ : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي.. وتخريجه وغريبه. ٥٣
- الفاعل الحقيقي لأي أمر هو الله سبحانه، وليس للأسباب قوة التأثير في الأشياء إلا بإرادته سبحانه. ٥٤
- من اعتقد بالأسباب اعتقاده بالمسبب الخالق فقد كفر. ٥٤
- كلام نفيس للإمام الشافعي رحمه الله فيمن قال: مطرنا بالنوء، وتفصيل معنى كلامه لابن الأثير والنووي رحمهما الله. ٥٥
- هناك كفر إيمان، وكفر نعمة والثاني لا يخرج من الملة. ٥٥

- الحديث ٧: يؤذني ابن آدم يسبُّ الدهرَ...، وتخريجه. ٥٦
 معنى: الإيذاء، والدهر. ٥٦
 نسبة نكبات الحياة إلى الدهر والزمن معصية لله تعالى. ٥٦
 من نسب شيئاً من الأفعال إلى الدهر حقيقة فقد كفر. ٥٧
 كلام قيم لابن أبي جمرة في مدار الشرع على قاعدتين: الامتثال والأدب. ٥٨
 الحديث ٨: كذّبي ابن آدم ولم يكن له ذلك...، وتخريجه وغريبه. ٥٨
 اعتقادات مكفرة عند طائفتين من بني آدم حملهما على ذلك الجهل ومجاوزة الحدّ. ٥٨
 الطائفة الأولى: منكرو البعث. ٥٨
 دليل عقلي للرد على منكري البعث. ٥٩
 معنى ﴿وهو أهونُ عليه﴾ مع أن كلّهُ هينٌ على الله تعالى. ٥٩
 الطائفة الثانية: من ينسب الولد لله سبحانه وتقدّس. ٦٠
 الدليل العقلي على إبطال هذا الزعم. ٦٠
 وجه الجهل ومجاوزة الحدّ عند تلك الطائفتين. ٦٠
 الحديث ٩: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري...، وتخريجه. ٦١
 معنى: الكبر والعظمة. ٦١
 صفة الإنسان العبدية، وكماله في تحقّقه بها، لذلك لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبَر. ٦٢
 إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكُهم، مع ضبط «فهو أهلكُهم» وبيان معناها. ٦٢
 وجه تسمية الكبرياء والعظمة رداء وإزاراً، وشواهد لذلك من كلام العرب. ٦٣
 الحديث ١٠: أنفق أنفق عليك، وتخريجه وغريبه. ٦٤
 الإنفاق في وجوه البر والخير مكان وعد الله بالخلف على المنفق. ٦٤
 عطيات الله تعالى تليق بعظمته وكرمه. ٦٤
 الإمدادات الإلهية لكل مخلوق بما يناسبه على مقتضى حكمته سبحانه. ٦٥
 «الماء» المذكور في قوله سبحانه ﴿وكان عرشه على الماء﴾. ٦٦
 الحديث ١١: ينزل ربُّنا تبارك وتعالى كلّ ليلة إلى السماء الدنيا...، وتخريجه. ٦٧

- ٦٧ نقل الإمام النووي مذهبين مشهورين في معنى «ينزل ربنا»
- ٦٧ بيان أن في السلف مؤولة، ليعرف تاريخ التأويل. ت.
- ٦٨ متى يكون التنزل؟، وتحديد ثلث الليل الآخر، وأنه وقت التجليات والمنح.
- ٦٩ أفضل الصلاة والصيام بعد أداء الفريضة: صلاة الليل وصيام شهر المحرم.
- ٦٩ يتحقق قرب العبد من ربه، وقرب الرب منه: حال سجوده في جوف الليل.
- ٧٠ أول صفات المحسنين: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾.
- كلام الإمام النووي والعلامة علي القاري في معنى «من يقرض غير عديم ولا ظلوم».
- ٧٠ الحكمة في إبهام ساعة الليل وغيرها من ساعات الإجابة. ت.
- ٧١ الحديث ١٢: إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب. وتخرجه.
- ٧١ كل الأمور مقدرة قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.
- ٧٢ القلم: أول المخلوقات، ولا تُعرف ماهيته ولا صفته.
- ٧٢ أيهما خلق الله أولاً: العرش أو القلم؟ قولان للعلماء، وبيان الراجح منهما.
- قول القلم: رب وماذا أكتب؟ كلام على الحقيقة لا مجاز ولا تأويل، كما أن هناك أشياء أخرى ورد في القرآن والسنة أنها تتكلم وتسبح.
- ٧٢ الكتابة هذه عامة وشاملة لكل كلي وجزئي ولكل كبير وصغير.
- ٧٤ الفرقة المنسوبة إلى القدر طائفتان، ببيان الفرق بينهما.
- ٧٤ الحديث ١٣: إن الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه. وتخرجه.
- ٧٦ معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.
- ٧٦ اعملوا فكل ميسر لما خلق له، وكلمة «ميسر» تجمع كلمتي: ميسر ومخير.
- ٧٨ أخطأ الجبرية بقولهم: الإنسان ميسر، كما أخطأ المعتزلة بقولهم: إنه مخير.
- ٧٨ وأهل السنة والجماعة يقولون كما قال ﷺ: «ميسر».
- ٧٩ نقلاً عن الخطابي في تقرير معتقد أهل السنة في القدر.
- ٧٩ لا يجوز الاحتجاج بالقدر المغيب لتسوية الأعمال الشريفة.
- ٨٠ أدلة قرآنية كثيرة تنسب الأعمال إلى العبد، وبذلك يبطل مذهب الجبر.
- ٨٠ مراد علماء الكلام من قولهم: الجزء الاختياري.
- ٨١ مواقف خوف وخشية لبعض السلف من خاتمة السوء والعياذ بالله تعالى.
- ٨٢

الحديث ١٤ : إن الله عز وجل يقول لأهون أهل النار عذاباً: ... ، وتخرجه

٨٣ وغريبه .

٨٣ أسباب استعمال المحدثين لفظة «يرفعه» وعدولهم عن الصيغة الصريحة. ..

٨٤ ذكر الميثاق الذي أخذ على بني آدم وهم في صلب أبيهم آدم.

الحديث ١٥ : خلق الله آدمَ وطوله ستون ذراعاً ثم قال... ، وتخرجه .

٨٥ خلق آدم مبتدأً، لا متسلسلاً متطوراً.

٨٥ طول آدم وعرضه ، ومقدار الذراع المذكور في الحديث.

٨٥ «السلام عليكم» تحية المسلمين ولم تكن في الأمم قبلهم.

٨٦ الفاء للاستئناف في قوله : «فكل من يدخل الجنة. .» وليست للتفريع.

٨٦ الجواب النبوي عن نقص الخلق الآن.

٨٦ ألوان الآدميين وأخلاقهم متوازنة من أبيهم آدم.

الحديث ١٦ : لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح... ، وتخرجه .

٨٧ نقل لابن حجر عن الحلبي في حكمة مشروعية الحمد للعاطس.

نقل آخر لابن حجر بيان القاضي ابن العربي للحكمة من الدعاء بالرحمة

٨٨ للعاطس.

٨٨ سلام من آدم ، ورد من الملائكة.

٨٩ هبة آدم ستين سنة من عمره لداود عليهما السلام.

٨٩ معنى الجحود عموماً ، وما المراد منه في حق آدم عليه السلام؟.

الحديث ١٧ : يجيء نوح وأمته ، فيقول الله تعالى : هل بلغت؟ ، وتخرجه .

شهادة الأمة المحمدية للأنبياء على أمهم يوم القيامة من مواقف إظهار فضيلة

٩٠ هذه الأمة.

٩٠ معنى : «وسطاً» .

٩١ هل جميع أفراد الأمة تشهد للأنبياء أو العدول منهم فقط يشهدون؟.

٩١ تقسيم الأمة المحمدية إلى : أمة دعوة وأمة إجابة.

تقسيم الكلاباذي للأمة المحمدية إلى ثلاثة أقسام : أمة دعوة ، وأمة إجابة ،

٩١ وأمة اتباع.

الحديث ١٨ : يلقى إبراهيمُ أباه آزر. . ، وتخرجه وغريبه .

٩٢

- ٩٣ من أوصاف يوم القيامة أنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.
- الحديث ١٩: لا ينبغي لعبد أن يقول: إنه خير من يونس بن متى،
٩٤ وتخريجه.
- ٩٤ لا يحق لعبد أن يفضل نفسه على بعض الأنبياء والمرسلين.
- ٩٤ وجه اختصاص يونس عليه السلام بالذكر، وجانب من قصته مع قومه.
- ٩٥ التأديب الإلهي في قوله «لا ينبغي» شامل للأنبياء فمن دونهم.
- مفهوم الحديث من أن يونس عليه السلام أفضل الأنبياء أو يتساوى مع
أفضلهم: غير مراد، ونقل الإمام النووي عن العلماء توجهين لمثل هذه
٩٥ الأحاديث.
- الحديث ٢٠: جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام...، وتخريجه
٩٦ وغريبه.
- ٩٧ عُرف موسى عليه السلام بغضبه.
- موسى عليه السلام يسأل ربه ما تطمح إليه نفوس الصالحين من دفنه بجوار
٩٧ قوم صالحين وفي أرض مباركة.
- ٩٧ الحكمة في عدم سؤال موسى ربه أن يدفنه ببيت المقدس.
- ٩٧ رؤية نبينا ﷺ ليلة الإسراء موسى عليه الصلاة والسلام قائماً في قبره يصلي.
- تفسير ابن المنير لمراد البخاري من تبويبه «باب من أحب الدفن في الأرض
٩٨ المقدسة أو نحوها».
- كيف تجرأ موسى على فقء عين ملك الموت؟ وكيف انفقات عينه وهو من
٩٨ غير البشر؟ - وكيف لم يقتص الله للملك؟. والجواب عنها.
- الحديث ٢١: بينا أيوب يغتسل عُرياناً...، تخريجه وغريبه. ١٠٠
- ١٠٠ الصبر على البلاء وإن اشتد يعقبه رحمة الله وعظيم فضله.
- ١٠٠ مدة لبث أيوب في بلائه. ت.
- ١٠١ الامتحان المادي لأيوب عليه السلام بعد الامتحان الجسدي.
- الحديث ٢٢: قرصت نملة نبياً من الأنبياء...، تخريجه وغريبه. ١٠٣
- ١٠٣ سبب الحديث، وذكر اسم النبي هذا.
- ١٠٣ عتب الله عليه لإحراقه وادي النمل.

- تسبيح النمل وشبهه على الحقيقة فلا مجاز ولا تأويل. ١٠٣
 جاء في رواية: «فهلا نملة واحدة» أي: وهي التي قرصتك، وليس معناه:
 إحراق واحدة لا على التعيين، وفيه ضمناً الدعوة إلى الصفح والعفو. ١٠٣
 الحديث دليل على جواز إحراق النمل في شرع من قبلنا. ١٠٤
 نص الإمام النووي على عدم جواز تحريق النمل في شرعنا، ومثله في عدم
 الجواز قتله بغير الإحراق عند الشافعية. ١٠٤
 تفريق الخطابي والبغوي بين النمل الكبار في عدم جواز قتله، وجوازه في
 صغار النمل. ١٠٥
- الحديث ٢٣: أنه ذكر رجلاً فيمن سلف... (إذا متُ فأحرقوني) وتخرجه
 وغيره. ١٠٦
 الاستفادة من الأحداث الواقعة ذات الأثر الكبير في النفس. ١٠٦
 نبّه النووي إلى أن قوله «لئن قَدَّرَ الله عليّ» صَدَرَ منه وهو غير ضابط لكلامه
 ولا قاصدٍ ولا معتقد. ١٠٧
 أو أنها من المجاز المستعمل في كلام العرب المسمى: مزج الشك باليقين. ١٠٧
 أو أنها بمعنى: يضيّق كقوله تعالى: «فَظُنُّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ». ١٠٨
 موقفٌ خشيةً لله: سببٌ لغفران الذنوب ولتدارك العبد برحمة الله. ١٠٨
- الحديث ٢٤: ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم...، وتخرجه وغيره. ١١٠
 هذا الحديث يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أقسام: أسبابُ البعثة المحمدية،
 أحداثُها، نتائجها. ١١٠
 فأسبابها: إنقاذ الناس من أيدي الشياطين حيث أضلّوهم وأمالوهم عن
 الحنيفية. ١١٠
 كلام للراغب رحمه الله في معنى: الحَنَفَ والحَنَفَ. ١١٠
 خلق الله عباده على الحنيفية، ثم تدرّجوا في غواية الشياطين لهم. ١١١
 وجه تسمية الحجة بالسلطان. ١١١
 عقائد الإسلام كلها مبنية على (سلطان) من الأدلة. ١١٢
 اقتضت الحكمة الإلهية إنقاذ البشرية من شركها وضلالها مع مَقْتِهِ لهم
 وسخطه عليهم، ذلك لأن رحمته سبقت غضبه. ١١٢
 القسم الثاني: أحداث البعثة المحمدية. ١١٢

- ١١٢ إرساله ﷺ رحمة للعالمين وإنقاذاً للبشرية من مقت الله وغضبه
- ١١٣ كلام النووي رحمه الله في معنى : «إنما بعثتك لأبتليكَ وأبتلي بك»
- تأييده ﷺ بالقرآن، والمراد بقوله تعالى : «أنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء»
- ١١٣ أي : محفوظاً بحفظ الله له، لا يُنسخ ولا يُغيّر
- ١١٤ معنى قوله «تقرأه نائماً ويقظان» : اليسر والسهولة في حفظه وفهمه
- ١١٤ أمر الله تعالى رسوله بدعوة قريش، وسرُّ التعبير بقوله : «أن أحرِّق قريشاً»
- قوله ﷺ «إذا يثْلَحو رأسي» هي النتيجة الحتمية عنده ﷺ لعلمه بما جُبلت
- ١١٤ عليه نفوس قريش
- ١١٤ إعلام الله تعالى رسوله ﷺ بأن العاقبة الحسنى له، وبما أعدَّه له
- منهج هذه الدعوة : قاتل بمن أطاعك من عصاك، ففيه صدق إسلام من
- ١١٥ اتبعك إذ لا تبذل الروح العزيزة إلا في سبيل ما هو أعزُّ منها
- وفي قوله «أنفق فسيفتق عليك» : أمر بالإنفاق بعد الأمر بالغزو في سبيل الله
- وفيه إشارة إلى نوعي الجهاد : بالنفس وبالمال الذي هو من صفات المؤمنين
- ١١٥ الصادقين
- ١١٥ إجمال أحداث البعثة المحمدية في ثلاث نقاط
- ١١٦ القسم الثالث : نتائج البعثة المحمدية
- فأولها : أوصاف أتباعها، ومآلهم إلى الجنة، وثانيها : أوصاف مخالفيها ومآلهم
- ١١٦ إلى النار
- فأهل الجنة ثلاثة : الأول : ذو سلطان مقسط، متصدِّق، موفق، وشرح هذه
- ١١٦ الأوصاف
- الثاني : رجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، مع شرح هذه
- ١١٧ الأوصاف أيضاً
- الثالث : عفيف، متعقِّف، ذو عيال، وشرحها ثم التنبيه إلى أن هذه الصفات
- ١١٧ موصلة للجنة إن قرنت بالإيمان
- ١١٨ وأما أهل النار فخمسة أصناف :
- أولهم : ضعيف لا عقل له يبيِّضه بالأمور، وليس المراد بذلك نفي العقل
- ١١٨ التكليفي عنه، بل المراد ضعف عقله في اتِّباعه لكل ناعق
- الثاني : الخائن، وشمول الخيانة لكل ما تصدَّق عليه من خيانة مالية، ونقض
- عهد، وغير ذلك، وبيان أن وزر الخيانة عظيم عند الله تعالى
- ١١٨

- نقل الإمام النووي عن أهل اللغة معنى: خَفَى الشيء، وأخفاه. ١١٨
- الثالث: المخادع في كل مجال: في الأهل والعرض والنساء والمال،
والخداع وأهله في النار. ١١٨
- الرابع: المتصف بالبخل أو بالكذب، فإحداهما كافية لأحقية صاحبها بالنار. ١١٩
- بعض الأدلة على تحريم الكذب، وعقوبة الكذاب. ١١٩
- بعض الأدلة على تحريم البخل، وعقوبة البخل. ١٢٠
- الخامس: الشنظير الفحاش، وهو: السوء الخلق. ١٢١
- من الأدلة على ذم الفحش والتفحش، وسوء الخلق، والثناء على ذي الأخلاق
الحسنة. ١٢١
- الحديث ٢٥: حديث الإسراء والمعراج. تخريجه وغريبه. ١٢٣
- ذكر أن حديث الإسراء والمعراج أُفردت فيه كتب ورسائل، وأن من أوسع من
تكلم فيه الصالح في «سيرته الشامية» والزرقاني في «شرح المواهب». .. ١٢٤
- التوفيق بين قوله في هذا الحديث: «ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب
شيئاً» مع ما ورد في حديث آخر من كتابتها حسنة. ١٢٦
- الحديث ٢٦: اللهم أمتي أمتي، وبكى ﷺ، وتخريجه. ١٢٧
- في الحديث مكرمتين للنبي ﷺ: ١ - شفقتة على أمته، ٢ - مكانته عند ربه. ١٢٧
- بيان سبب الحديث: قراءة النبي ﷺ آيتين، الأولى على لسان إبراهيم،
والثانية على لسان عيسى عليهما الصلاة والسلام. ١٢٧
- معنى: اللهم أمتي أمتي أي: ارحمهم وتداركهم. ١٢٨
- قَرَنَ ﷺ دعاءه بالبكاء، فكانت سرعة الإجابة. ١٢٨
- السُرُّ في إرسال جبريل وسؤاله عن سبب بكاء النبي ﷺ: مزيد تكريم وإظهار
مزية، وكلام النووي رحمه الله في ذلك. ١٢٨
- لطيفة في التعبير بـ - إنا - في قوله تعالى: «إنا سنرضيك...». ١٢٨
- لطيفة ثانية في قوله تعالى: «ولا نسوؤك» وكلام النووي بأن هذا الحديث من
أرجى الأحاديث لهذه الأمة. ١٢٩
- وجه التعبير بـ «سوف» مع التعبير هنا بقوله: «سنرضيك...». ١٢٩
- الحديث ٢٧: إن الله زَوَى لي الأرض...، تخريجه وغريبه. ١٣١

- في هذا الحديث عظيم مقامه ﷺ عند ربه، وذكر بشارات لهذه الأمة
المحمدية. ١٣١
- فلقد جمع الله لرسوله الأرض فرأى مشارقها ومغاربها... وجاءته البشارة
بامتداد ملك أمته. ١٣١
- وأعطي ﷺ الكثرين، فقال النووي: المراد: كثرة كسرى وقصر ملكي العراق
والشام، والأمر أعم من هذا والله أعلم، فقله «أعطيت الكثرين» كناية عن
كنوز الأرض جميعاً كما دلت الأحاديث على ذلك. ١٣٢
- دعاؤه ﷺ أن لا يهلك هذه الأمة بقحط عام، وأن لا يتسلط عليها أجنبي
وينزل بها البأس والهوان، فاستجيب له. ١٣٣
- الحديث ٢٨: إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم...، تخريجه وغريبه. ١٣٤
- بيان فضل الله على الأمة المحمدية بزيادة الثواب ومضاعفة الأجور. ١٣٤
- الإشارة إلى قصر مدة هذه الأمة في الأرض بالنسبة إلى الأمم الأخرى. ١٣٤
- وصف اليهود والنصارى بالعجز عن القيام بواجبهم تجاه ربهم. ١٣٤
- اختصاص الله تعالى لنا بمضاعفة الأجر مع قصر الوقت. ١٣٤
- اعتراض أهل الكتابين على ذلك، وجواب رب العالمين بأنه أداهم حقهم غير
منقوص فلم يظلمهم، أما فضله فيؤتيه من يشاء. ١٣٥
- الحديث ٢٩: لما نزلت ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم﴾، وتخريجه. ١٣٦
- حال الصحابة وما اعتراهم من الوجع الشديد واستصعاب الأمر لما نزلت:
﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم﴾. ١٣٦
- إرشاده ﷺ الصحابة إلى التسليم في أمرهم وأن يقولوا ﴿سمعنا وأطعنا﴾ وأن
لا يكونوا مثل المغضوب عليهم. ١٣٦
- فكانت النتيجة أن خفف الله عنهم وعن من بعدهم فأنزل: ﴿لا يكلف الله
نفساً إلا وسعها﴾. ١٣٦
- قول الله تعالى: قد فعلت، دليل على استجابة دعائهم لما قرؤوا بهذه
الآيات، وليس هذا قاصراً عليهم، بل هو عام بإذن الله ومشيتته لكل من دعا
بها. ١٣٧
- الإيمان نور يقذف في القلوب، ثم يكون تصديق الجنان، وقول اللسان،
وعمل الجوارح. ١٣٧

- من دقائق التعبير في القرآن الكريم: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ و﴿عَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾
 وأن هذا ليس من باب التفنن في التعبير كما قال بعضهم، وكلام ابن عطية
 ١٣٧ والزمخشري في بيانه.
 ١٣٩ من النسيان ما يؤاخذ عليه صاحبه، ومن الخطأ ما يؤاخذ عليه فاعله.....
 معنى الإصر، والفرق بين هذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا...﴾
 ١٣٩ والدعاء الذي يليه.....
 ثم علّمنا سبحانه أن ندعوه بالنصر، وعلّمنا قبله أن ندعوه بممهّدات النصر:
 ١٣٩ واعفُ عنا، واغفر لنا، وارحمنا.....
 كيف يتم العفو، والمغفرة، والرحمة؟.....
 ١٤٠ قول النعمان بن بشير: إن الهلكة كلّ الهلكة أن تُعمل السيئات في أيام
 ١٤٠ البلاء. والكلام عن خطر الذنوب وأنها سبب لنزول البلاء.....
 وكما أن الاستغفار مطلوب للاستنصار، كذلك مطلوب بعد النصر، علامة
 ١٤١ على الشكر.....
 الحديث ٣٠: يا عديّ هل رأيت الحيرة؟.. تخريجه وغريبه.....
 ١٤٢ هذا الحديث من أعلام النبوة ودلائلها.....
 ١٤٢ إسلام عديّ في أواخر حياة النبي ﷺ واستغرابه هذا الخبر من رسول الله ﷺ.....
 ١٤٣ الإسلام يوفر لأتباعه الأمن والاطمئنان والعيش الهنيء.....
 موقع الحيرة وبعدها عن المدينة المنورة، وبشارة رسول الله ﷺ بوصول نور
 ١٤٣ النبوة إليها.....
 البشارة الثانية: لتفتح كنوز كسرى، وسوف يفتحها أولئك الأعراب بعد
 ١٤٣ اعتناقهم الإسلام.....
 البشارة الثالثة: فيض المال وكثرة الغنى حتى لا يجد المزكي من يستحق
 ١٤٤ زكاته.....
 وقد تحققت البشارات الثلاث كما أخبر بها الصادق الأمين ﷺ.....
 ١٤٤ وبعد الغنى: التخلّي عن الدنيا بما فيها إلى القبر، ومن ثمّ إلى لقاء الله
 عز وجل والحساب والوقوف بين يدي رب العالمين دون واسطة ولا ترجمان.....
 ١٤٥ ويأتي السؤال: ألم أبعث إليك رسولا فيلعلك؟ ألم أعطك مالا وأفضل
 ١٤٥ عليك؟ وجواب العبد في المرتين: بلى يا رب.....

- وبعد الاعتراف ينظر العبد يمنة ويسرة فلا يرى إلا النار، فأين النجاة؟ . . . ١٤٥
 النجاة بالاستجابة لأمر الرؤوف الرحيم ﷺ: اتقوا النار ولو بشق تمرة، والسرُّ
 في اتقاء النار بالصدقات. ١٤٦
 أخبار في فضل الصدقة وعظيم أجرها وإن قلت. ١٤٧
 الحديث ٣١: يعجب ربكم من راعي غنم في رأس شظية بجبل. . . ، تخريجه
 وغريبه. ١٤٨
 الخوف من الله من أسباب النجاة من النار والفوز بالجنة. ١٤٨
 لا يجمع الله على عبده خوفين: فمن خافه في الدنيا أمَّنه في الآخرة. ١٤٨
 كل عبد لا يخلو من هفوات مهما بلغ إلا المعصومين، والرب الرحيم يغفرها
 له. ١٤٩
 الحديث ٣٢: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي. . . ، تخريجه وغريبه. ١٥٠
 هذا الحديث اشتمل على حديثين الأول: نبوي، والثاني: قدسي. ١٥٠
 معنى: خِداج: غير تمام، والنقصان غير الفساد. ١٥٠
 معنى: قسمت الصلاة: جعلت الفاتحة نصفين. فالنصف الأول فيه الثناء
 والحمد والتمجيد، والثاني فيه الدعاء له، ومن الله: الإجابة والعتاء. ١٥٠
 كلام النووي في معنى: حمدي، أثنى علي، مجدني. ١٥١
 جاء في الحديث: «وقال مرة: فَوْضُ إِلَيَّ عَبْدِي» ومطابقتها لقوله تعالى:
 «مالك يوم الدين» من كلام النووي رحمه الله أيضاً. ١٥١
 الحديث ٣٣: إن أول ما يحاسب به العبد. . . ، وتخريجه. ١٥٢
 فائدتان من راوي الحديث: ١٥٢
 - حرصه على اختيار المجلس، ودعاؤه أن يهيء الله له المجلس الصالح. . . ١٥٢
 - تعجيله بطلب الفائدة العلمية من هدي خير البرية وإسراعه في ذلك. . . ١٥٢
 هذا الحديث الشريف دليل على أهمية الصلاة في الإسلام، وعلى لطف الله
 بعبده، وعلى الترغيب بفعل النوافل. ١٥٣
 فأهمية الصلاة: مستفادة من محاسبة العبد عليها أولاً، فإن صلحت فاز، وإن
 فسدت خسر. ١٥٣
 الحقوق المتعلقة بالإنسان قسمان: حقوق لله، ومنها الصلاة، وحقوق للعباد،
 ومنها الدماء، لذا كان أول ما يحاسب عليه. ١٥٣

- وأما لطف الله بعبده: فيظهر في حق المقصّر في صلاته في عدم مؤاخذته على تقصيره إلا بعد النظر فيما له من النوافل لجبر الفرائض الناقصة. ١٥٣
- وهل النوافل تجبر خلل الصلاة، أم تقوم مقام فرض تركه العبد؟ قولان للعلماء. والظاهر أن سائر الأعمال من زكاة وصيام وحج يجري فيها الخلاف على هذا النحو. ١٥٣
- أهمية النوافل والترغيب في القيام بها لأنها المتممة للفرائض، وخاصة السنن الرواتب. ١٥٤
- النوافل المطلقة: بيانها، وأن النوافل بنوعها سبب لمحبة الله لعبده، وسبب لإجابة الدعاء. ١٥٥
- ما وجه الفرق بين الفرائض والنوافل؟ وأن المداومة على ترك السنن نقص في الدين. ١٥٥
- وصية بعض العلماء لأصحابه: «اجعلوا النوافل كالفرائض، والمعاصي كالكفر» وبيان معناها. ١٥٦
- الحديث ٣٤: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ...، وتخرجه. ١٥٧
- تعريف الولي، وتقسيم الولاية إلى عامة وخاصة، وَمَنْ الْمَقْصُودُ بِهَذَا الْحَدِيثِ. ١٥٧
- معاني الموالاة. ١٥٨
- المعاداة على قسمين: مذمومة، وهي المرادة في الحديث، ومعاداة الله وفي الله، وهي مطلوبة ممدوحة. ١٥٨
- والمعاداة تكون من طرف المبغض، ومن طرف الولي، فالأولى بدافع شيطاني، والثانية بدافع الإيمان. ١٥٨
- إفادة الاختصاص من تقديم الجار والمجرور في قوله: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا». ١٥٩
- معنى «آذنته»: الإعلام والإنذار، فإن استدرك أمره وإلا هلك. ١٥٩
- كلام ابن حجر الهيتمي وهو يقارن التهديد والوعيد بجانب المعادي، بالقرب والتأييد بجانب الموالي. ١٥٩
- للولاية طريقتان: الفرائض والنوافل، هي أسباب لحب الله لفاعلها. ١٥٩
- التعبير بقوله «وما يزال»: يفيد الدوام والاستمرار على النوافل. وبيان ما هي النوافل. ١٦٠

- ١٦٠ يتعين الفرض الكفائي إذا لم يقدّم به من يكفي ويسد الحاجة.
- ١٦١ الموازنة بين القرب بالنوافل والقرب بالفرائض وأيهما أعلى.
- نقل الحافظ ابن حجر عن الطوفي اتفاق العلماء على أن قوله تعالى: «كنت سمعه...» من باب المجاز والكناية. ١٦٢
- ١٦٢ خلاصة المراد من هذه الكلمات.
- ١٦٣ من أسباب استجابة الدعاء الحتمية: المواظبة على النوافل.
- معنى التردد، وقول ابن الصلاح في المراد به هنا، والقول الثاني للخطابي في كلام له في تأويل التردد. ١٦٣
- الحديث ٣٥: يتعاقبون فيكم ملائكة...، وتخريجه. ١٦٤
- في الحديث إخبار عن فوجين من الملائكة يتناوبون في الأرض، يحفون المؤمنين، ويجتمع الفوجان جميعاً في صلاتي الفجر والعصر. ١٦٤
- فيصعد الملائكة الذين باتوا الليلة مع المؤمنين عقب صلاة الفجر، ويبقى ملائكة النهار معهم إلى العصر ويصعدون عقب صلاتها. ١٦٥
- في جواب الملائكة زيادة على السؤال لاسترحام الله عز وجل لهم. ١٦٥
- على المسلم أن يحرص على أوقاته كلها، خاصة منها ما يشهده الملائكة. ١٦٥
- ومن هم هؤلاء الملائكة؟ فالأكثر على أنهم الحفظة، وقيل: ملائكة موكلون برفع الأعمال. ١٦٦
- مما يستفاد من الحديث: فضيلة وقتي الفجر والعصر، وقد فسّر ابن أبي جمرة الصلاة الوسطى التي أمرنا بالمحافظة عليها بهذين الوقتين. ١٦٦
- قول الملائكة: أتيناكم وهم يصلون وتركناهم... أي: وهم في صلاة فعلاً أو استعداداً أو انتظاراً. ١٦٧
- الوعيد لمن حلف بيمين كاذبة بعد العصر وذلك حرمة للوقت، وهل وقت الفجر مثله؟. ١٦٧
- الحديث ٣٦: فيم يختصم الملائكة الأعلى؟ وتخريجه وغريبه. ١٦٨
- هذا الحديث جامع لأعمال تكفر السيئات، وأعمال ترفع الدرجات، ودعوات نبوية جامعة. ١٦٨
- رؤيا الأنبياء حقٌ ووحى من الله عز وجل. ١٦٩

- معنى اختصام الملاء الأعلى، وقوله ﷺ لا أدري، ثم لما تجلّى له كل شيء وعرفه، أجاب. ١٦٩
- فالأمر الأول الذي يختلفون فيه: الأعمال التي تكفر السيئات وهي ثلاثة: .. ١٦٩
- المشي إلى صلاة الجماعة، وانتظار الفريضة بعد الفريضة، وإسباغ الوضوء على المكاره. ١٦٩
- والأمر الثاني: الأعمال التي ترفع الدرجات، وفي هذا الحديث ثلاثة أيضاً: ١٦٩
- إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة بالليل والناس نيام. ١٦٩
- فالعَمَلُ الأول من الأمر الأول: الخطأ إلى المساجد لصلاة الجماعة، وثوابه. ١٧٠
- والعمل الثاني منه: الجلوس في المساجد بعد الصلوات بنية انتظار الصلاة اللاحقة. ١٧١
- والعمل الثالث هو: إتمام الوضوء واستيعاب أعضائه مع حصول مشقة في ذلك. ١٧١
- فإسباغ الوضوء وحده كفارة للذنوب فكيف به على المكاره، ودليله. ١٧١
- وفي حديث آخر تظهر فائدة المحافظة على هذه الأعمال المكفرة للذنوب «عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه». ١٧٢
- وأما الأمر الثاني فأول أعماله: إطعام الطعام، وكونه للفقير أحب وأولى، فهو سبب لرفع الدرجات. ١٧٢
- كما أن إطعام الطعام من خير أعمال الإسلام، ومن أسباب دخول الجنة بسلام من غير حساب ولا عتاب، وما أعد الله لمن أطعم الطعام من إكرام في الجنة، والأدلة على ذلك كله. ١٧٣
- وإطعام الطعام المستحقّة مع نفسٍ رضية وإخلاص من صفات الأبرار: ﴿يُوفُونَ بالنذر﴾. ١٧٤
- العمل الثاني من أعمال الدرجات: لين الكلام، وبيان جانب من سلوكه ﷺ في ذلك حتى مع أعدائه. ١٧٤
- لم يكن ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، ومن صفات المنافقين: الفجور في المخاصمة. ١٧٥
- الأمر الثالث من أعمال الدرجات: صلاة الليل. ١٧٥
- والكلام عنها طويل، ولقد ألفت فيها مؤلفات، منها: «قيام الليل» للمروزي وفي «الترغيب والترهيب» للمنزوي، شيء كثير عن قيام الليل وفضله. ١٧٥

- وحديثنا يشير إلى أفضلية صلاة الليل بقوله: «والناس نيام» إشارة إلى أنها ساعة غفلة ونوم، ومع ذلك فهناك من انتصب بين يدي ربه مصلياً وداعياً. ١٧٦
- المصلي بالليل ممن يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم، كما ورد الحديث بذلك. ١٧٦
- في ختام هذا المقام العظيم قال الله تعالى لرسوله ﷺ: سَلِّ. ١٧٦
- اختلاف الروايات بالذي سأله ﷺ، وعدد الدعوات التي دعا بها. ١٧٧
- على المسلم أن يعتني بهذه الدعوات، وأن لا يتخلف عنها، وقد حددتها بعض الروايات بأنها بعد الصلوات. ١٧٧
- الحديث ٣٧: أبشروا، هذا ربكم قد فتح باباً من السماء...، وتخرجه وغريبه. ١٧٨
- في هذا الحديث مباحة إلهية ومفاخرة أمام الملائكة بالعباد المؤمنين. ١٧٨
- والملائكة تدعو وتستغفر لمن مكث بعد صلاته ولم يغادر مصلاه، وثوابه ثواب من يصلي. كما ورد بذلك الحديث. ١٧٩
- الحديث ٣٨: ابن آدم اركع لي من أول النهار أربع ركعات...، وتخرجه. ١٨٠
- الترغيب في صلاة الضحى وكونها أربع ركعات. ١٨٠
- السُرُّ في كفاية هموم باقي اليوم لمن أدى هذه الصلاة: أن وقت الضحى وقت عمل وانهماك في المعاش، فیدعها المؤمن ليقف بين يدي ربه مصلياً. ١٨٠
- وتسمى صلاة الضحى: الأوابين، والأواب: الراجع إلى ربه بالطاعة والتوبة والإنابة. ١٨٠
- وقتها: حين ترمض الفصال، وهو وقت اشتداد حرارة الشمس. ١٨٠
- وكما أن صلاة الضحى سبب كفاية هموم باقي اليوم، كذلك هي تكفي عن ستين وثلاثمائة صدقة يومية عن سلاميات الإنسان. ١٨١
- الحديث ٣٩: أنى تُعجزني - ابن آدم - وقد خلقتك من مثل هذا؟! وتخرجه. ١٨٢
- في الحديث حثُّ العباد على المبادرة في الصدقات قبل فوات الأوان. ١٨٢
- بيان أصل الإنسان، وبيان أن الدنيا فانية فلماذا التكالب عليها؟. ١٨٢
- وصف حال الغافل الذي لا يصحو منها إلا بمفارقتها ومغادرتها إلى عالم القبر. ١٨٢

- ١٨٢ بيان أعظم الصدقة وهي التي تكون حال الصحة والحرص.
- ١٨٣ وجوب الانتباه من هذه الغفلة قبل الوقوع في عواقب وخيمة.
- ١٨٤ الحديث ٤٠ : لما خلق الله الأرض جعلت تميد... ، وتخريجه وغريبه.
- ١٨٤ الحديث في فضل صدقة السر.
- ١٨٥ المتصدق بصدقة يخفيها هو في ظلّ الله يوم لا ظل إلا ظله.
- وصدقة السر تُطفئ غَضَبَ الرب، فإن كانت تطفئ غضب الرب الذي هو أعظم من كل عظيم وأشد من كل شديد، فلا غرابة في أن تكون أقوى من الأرض والجبال.. وما وراء ذلك.
- ١٨٦ الحديث ٤١ : كل عمل ابن آدم له إلا الصيام... ، وتخريجه وغريبه.
- ١٨٧ الحديث دال على عظم فضل الصوم وأجر الصائم.
- ١٨٧ الإشكال في قوله تعالى : «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي».
- وأقدم من تعرّض للإشكال والجواب عن أبو عبيد القاسم بن سلام في «غريب الحديث»، واعتناء العلماء بذلك، حتى أن بعضهم أفرد لذلك تأليفاً.
- ١٨٨ والصوم الذي له هذا الفضل والجزاء: ما كان خالصاً لله عز وجل، وسالماً من شوائب المصاصي، والدليل على ذلك من الحديث نفسه.
- ١٨٨ اختيار جواب ابن حجر عن الإشكال في قوله تعالى : «إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به»، حيث ذكر عشرة أقوال، وأن أقربها الأول والثاني.
- ١٨٩ فالأول: أن الصيام لا يدخله الرياء كغيره من العبادات، فلذلك اختصه الله بإثابة لا يعلم قدرها إلا هو سبحانه.
- ١٨٩ ذكر من اعتمد هذا الجواب، ودليلهم له بحديث.
- وأما الثاني: فمعنى «وأنا أجزي به» أي: أنفرد بعلم مقدار ثوابه وتضعيف حسناته، وبه قال ابن عيينة.
- ١٩٠ ترجيح كل قول من القولين السابقين برواية من روايات الحديث، فكل قول يتناسب مع رواية.
- ١٩٠ في قوله: «إني امرؤ صائم» إرشاد نبوي ينسبه الصائم إلى التزام الأدب وعدم مجاوزة الحد.
- ١٩٠ شهر الصيام (دورة) تدريبية عملية على الترقى في كل فضيلة.
- ١٩١ الملاحاة كانت سبباً في حجب ليلة القدر عن الصحابة.
- ١٩١

- الفائدة من تكرار: إني امرؤ صائم تعود على الصائم وعلى مخاصمته. ١٩١
- الصيام حاجز بين الصائم وبين آفات اللسان وبينه وبين المعاصي الأخرى. ١٩٢
- ولا يفهم من قوله: إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث...، أن هذا مباح في غير الصوم، بل هو لتأكيد المنع حال الصوم. نبه إليه القرطبي رحمه الله. ١٩٢
- نقل العيني عن القاضي عياض أقوالاً في معاني: خلوف فم الصائم أطيب عند الله. ١٩٢
- رائحة خلوف الصائم أطيب عند الله (في الدنيا) كما قال ابن الصلاح، و(في الآخرة) كما قال ابن عبد السلام، وقوله: «عند الله يوم القيامة» يؤيد القول الثاني. ١٩٢
- المقارنة بين ما ورد في خلوف فم الصائم وبين دم الشهيد، وأن ذلك لا يقتضي كون الصيام أفضل من الشهادة. ١٩٢
- قوله «للصائم فرحتان»: الأولى: بتمام العبادة والثانية: بما يراه من جزائه. ١٩٣
- من دواعي الفرح عند الإفطار: إجابة الله دعاءه. ١٩٣
- للحديث روايتان: إحداهما: حين يفطر، والثانية: حتى يفطر، وبيان معناهما. ١٩٤
- الحديث ٤٢: أحبُّ عبادي إليَّ أعجلهم فطراً...، وتخرجه. ١٩٥
- إلى أن تضعيف المناوي للحديث هذا في غير محلّه، وسببه. ت. ١٩٥
- تحقيق أسمى معاني العبودية والطاعة لله رب العالمين في الإمساك وفي الإفطار. ١٩٥
- جميع الطائعين الصائمين أحباب الله، وأحبُّهم إليه من أسرع بامتنال الأمر بعد تحقق انتهاء يومه. ١٩٥
- في تعجيل الفطر مخالفة لأهل الكتاب، فلنحرص عليه. ١٩٦
- الحديث ٤٣: ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وتخرجه، وغريبه. ١٩٧
- في الحديث حثٌّ وترغيبٌ للتعرض لهذا الفضل العميم في يوم عرفة. ١٩٧
- يوم عرفة يوم التجلي بالمغفرة العامة لكل أهل الموقف. ١٩٧
- وصف العباد في ذلك اليوم باستجابتهم لنداء ربهم، وتجلّي الله لهم بالمغفرة العامة الشاملة واستجابة دعائهم، وعتقهم من النار. ١٩٧

- من استحق مباحاة الملائكة هو من صار شبيهاً لهم في غسل الذنوب عنه
وعتقه من النار مع ما تركب في جسده من الصفات البشرية الأرضية. ١٩٨
- سؤاله تعالى: ما أراد هؤلاء؟ سؤال للعطاء لا للمعرفة، فإنه سبحانه يعلم
السر وأخفى. ١٩٩
- وهل عموم المغفرة للحجاج يوم عرفة يتناول المظالم؟، والجواب أنه قد ورد
التصريح بذلك في حديث العباس بن مرداس الآتي. ١٩٩
- الحديث ٤٤: دعا ﷺ عشية عرفة بالمغفرة...، وتخريجه وغريبه. ٢٠٠
- بيان رافة النبي ﷺ ورحمته بمن يكرمه الله تعالى بالحج والوقوف بعرفة. .. ٢٠٠
- دعا ﷺ مساء عرفة فاستجاب الله دعاءه بمغفرة ذنوب الحجاج إلا المظالم. ٢٠٠
- إلحاحه في الدعاء حتى استجاب الله له دعاءه بالمغفرة لأهل ذلك المشهد
عموماً حتى للظالم منهم. ٢٠١
- تعجب الصحابة لضحك النبي ﷺ في موقف الخشوع والدموع لما بُشِّرَ
بعموم المغفرة لأهل الموقف، ولما رأى إبليس اللعين يدعو على نفسه بالويل
والثبور. ٢٠١
- الحديث ٤٥: لعل الله اطلع على أهل بدر فقال. - ، وتخريجه وغريبه. .. ٢٠٢
- من دلائل نبوته ﷺ: إخباره عن المرأة التي تحمل كتاباً للمشركين. ٢٠٢
- وفيه بشارة لأهل بدر بالمغفرة. ٢٠٢
- قبول عذر حاطب بن أبي بلتعة مع تلقين المسلمين درساً في الولاء والبراء. ٢٠٢
- الآية الأولى من سورة الممتحنة فيها الولاء والبراء الذي أمرنا الله به. ٢٠٣
- وفي الحديث فائدة عظيمة تتجلى بقول النفر من الصحابة: ما كذب
رسول الله ﷺ، مع إنكار المرأة وشهود الواقع - أولاً - بصدق إنكارها حيث
إنهم فتشوها فلم يجدوا الكتاب، لكنهم واثقون بصدق خبر رسول الله ﷺ
أشد من وثوقهم بما يرونه بأعينهم، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه كل مسلم
تجاه أمر ربه ونبيه. ٢٠٣
- دفع ما يتوهم من طلب عمر بضرب عنق حاطب، وقد أعلمه ﷺ بصدقه، بأن
طلب عمر رضي الله عنه محمول على أن ضرب عنقه عقوبة دنيوية في مقابل
خيانته، أما صدقه فيغفر الله له ذنبه من أجله. ٢٠٤
- شواهد ومواقف على ثقة الصحابة ومن بعدهم بخبر رسول الله ﷺ. ٢٠٤

- اعتذار عمر ويكاؤه لما قال ﷺ له: لعل الله اطلع على أهل بدر. ٢٠٥
الترجي في «لعل الله اطلع...» يفيد تحقق الوقوع والجزم بذلك، ويؤيده
حديث: «لن يدخل النار أحدٌ شهد بدرًا». ٢٠٦
ولا بد من فهم الحديث على أن المغفرة والمجازة عن حقوق الله تبارك
وتعالى دون حقوق العباد. ٢٠٦
جواب ابن حجر عن الإشكال في إقامة الحد على مسطح بقذف عائشة رضي
الله عنها مع أنه من أهل بدر، بأن المسامحة فيما لا يتعلق به حد شرعي. ٢٠٦
ومما يستفاد من الحديث: التأنّي والتثبت من كل مسؤول حاكم أو قائد...
وأن لا يتأثر بكلام من حوله، وخاصة فيما لا يمكن تداركه كالقتل. ٢٠٦
موقفه ﷺ من تخلف كعب بن مالك يوم تبوك وقوله: لم يكن رسول الله ﷺ
يريد غزوة إلا ورى بغيرها. ٢٠٧
- الحديث ٤٦: أيما عبد من عبادي خرج مجاهدًا...، وتخريجه. ٢٠٨
الحديث في أجر المجاهد: الدنيوي والأخروي. ٢٠٨
فإن سلّم ورجع إلى أهله رجع بأجر عظيم له يوم القيامة مع ما يغنم من أرض
المعركة. ٢٠٨
وإن استشهد قدم على الله مغفور الذنب، بلا فتنة قبر ولا سؤال ولا عذاب. ٢٩٨
هذا الجزاء لمن كان جهاده في سبيل الله وإعلاء كلمته سبحانه. ٢٠٩
على المجاهد أن ينوي بجهاده وجه الله وابتغاء مرضاته. ٢٠٩
- الحديث ٤٧: يُؤْتَى بالرجل من أهل الجنة...، وتخريجه. ٢١٠
الحديث في عظيم أجر الشهادة في الجنة. ٢١٠
وهل الحوار مع رجل قتل في سبيل الله أو لا، احتمالان، ولكل احتمال ما
يرجحه. ٢١٠
طلبه للشهادة عشر مرات. هل العدد مراد أو هو لمجرد الكثرة؟. ٢١٠
نقل ابن حجر لكلام ابن بطال في أن هذا الحديث أجل ما في فضل
الشهادة. ٢١١
- الحديث ٤٨: في قوله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله
أمواتاً...﴾، وتخريجه. ٢١٢

- ليس للشهيد من أمنيّة إلا أن يعود للدنيا ليجاهد فيشهد لما رأى من تفضّل
 ٢١٢ الله وإنعامه عليه وعلى إخوانه الشهداء.
- ٢١٢ وفي الحديث: تفسير للحياة المذكورة في الآية الكريمة.
- الحديث ٤٩: ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه
 ٢١٤ كفاحاً...، وتخريجه وغريبه.
- ٢١٥ تلطف وتنبه إلى أدب من آداب المخاطبة.
- ٢١٥ في قوله ﷺ: «ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب» فيه إشكالان: ..
- الأول: ظاهر الكلام لا يلاقي قول جابر: ترك أبي عيالاً وديناً ولذلك تراني
 ٢١٥ منكسر الخاطر، وجوابه.
- قصة جابر مع الغرماء، وعدم رضاهم بتقسيط الدين ولا بحطه عنه ولا
 ٢١٥ باستشفاعه بالنبي ﷺ.
- جابر يوفي دين أبيه ببركة دعاء النبي ﷺ وجلسه على أحد البيادر، ويقول
 ٢١٦ جابر: وبقي تمرى كأنه لم ينقص منه شيء.
- الأمر الثاني في قوله ﷺ: «ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب»: وهو
 أنه لا تعارض بينه وبين قول الله عز وجل: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله..﴾
 فالآية خاصة بالدنيا، أما عبد الله فتكليم الله له في عالم البرزخ، ولا
 ٢١٦ تعارض.
- الحديث ٥٠: عجب ربنا من رجل غزا في سبيل الله...، وتخريجه. ٢١٧
- في الحديث: حضّ على الثبات في المعارك، وإعظام الله لمن انهزم هو
 ٢١٧ وإخوانه ثم ذكر نفسه بربه فرجع حتى استشهد فباهى الله به ملائكته.
- موقف هذا الرجل الإيمانى أنساه نفسه، ولو لم يكن قلبه ملئاً إيماناً لما رجع
 ٢١٧ إلى التوت بعد أن نجا منه.
- استشكال في إطلاق التعجب على الله سبحانه، والتعجب لا يكون إلا من أمر
 ٢١٨ خفي سببه، والأمر وسببه معلومان، والجواب عنه.
- يستفاد من الحديث: أن نية المقاتل هنا كانت خوفاً من العقاب وطمعاً في
 ٢١٨ الثواب، وهذا لم يؤثر على كون الجهاد في سبيل الله تعالى.
- وأن المقاتل إذا انهزم أصحابه يُستحب له الثبات أمام العدو ولا يجب عليه،
 ٢١٨ ومن كان ثباته موجباً للهلاك من غير نكاية فيجب الفرار قطعاً.

- الحديث ٥١: يختصم الشهداء والمتوفون على فرشهم إلى ربنا في الذين يتوفون من الطاعون، وتخريجه وغريبه. ٢١٩
- الحديث في لون من ألوان الشهادة وصنف من أصناف الشهداء. ٢١٩
- وقد أفرد المنذري في «الترغيب» فصلاً في ذلك، والشيخ عبد الله الصديق الغماري جزءاً سماه «إتحاف النبلاء». ٢١٩
- تقسيم الشهداء إلى ثلاثة أصناف: ٢١٩
- الصف الأول: شهيد الدنيا والآخرة، وبيان شروطه. ٢١٩
- والصف الثاني: شهيد الدنيا، وبيان من هو. ٢١٩
- والصف الثالث: شهيد الآخرة، وهم أصحاب الأنواع الأخرى من أنواع الشهادات فهؤلاء ليس لهم شيء من أحكام الشهيد في الدنيا، بل أجبرهم وثوابهم في الآخرة. ٢٢٠
- تعداد ابن حجر لخمس وعشرين نوعاً من أنواع هذه الشهادة. ٢٢٠
- وأوصلتها إلى ثلاث وأربعين نوعاً استخلصتها مما ذكره المناوي عن ابن العماد. ٢٢١
- لا ينبغي التوسع في إعطاء لقب (الشهيد) لأي كان. ٢٢٢
- الطاعون من وخز الجن، فكما أن الشهادة في سبيل الله من ضرب أعداء المسلمين من الإنس، فكذلك الطاعون من وخز أعدائهم من الجن. ٢٢٢
- والطاعون شهادة لهذه الأمة المحمدية، وهو لغيرهم عذاب ورجس. ٢٢٣
- كلام لطيف ونفيس للعلامة السندي في جواب استشكل ضمني: كيف يتمنى من مات على فراشه أن يلحق المطعون به ويحرمه من فضل الله؟، وهذا إنما ينتج عن حسد. ٢٢٣
- الحديث من الأدلة على صحة القول بالقياس والعمل به. ٢٢٣
- الحديث ٥٢: لا يأتي النذر على ابن آدم بشيء لم أقدره عليه. ، وتخريجه. ٢٢٤
- الحديث في ذم نذر البخيل، وأما النذر من حيث هو فغير مذموم، ولكن الذم للبخل ولكل ما يتصل به وينشأ عنه. ٢٢٤
- نقل الحافظ عن القرطبي كلاماً في النذر وذكر أنواعه، وأعلى تلك الأنواع. ٢٢٤
- وأن بعض أنواعه مكروهة وقد تكون حراماً. ٢٢٤
- ما ينبغي أن يكون عليه العبد مع الله عز وجل من الرجاء والذل، أما البخيل فهو يلتبس ما عند الله بطريق المعاوضة: إن أعطيتني كذا فعلت لك كذا!! ٢٢٤

- ٢٢٥ قد يترتب على النذر ما يريده العبد - إن شاء الله ذلك - وقد لا يترتب
- ٢٢٥ فإذا أراد الله أن يستخرج من البخيل ما تشعُّ به نفسه أوقعه في مكروه ما،
فينذر، فيصرف الله عنه ذلك المكروه، ويستخرج الله منه المال
- ٢٢٦ الحديث ٥٣: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة . . . وتخرجه
- ٢٢٦ الحديث في جوانب من أخلاق الإسلام في المعاملة، وهو ثلاث جمل: . . .
- الجملة الأولى: حَضَّ الإنسان على الوفاء، وتحذيره من الغدر بعد ما أعطى
أيمانا على عهده
- ٢٢٦ الجملة الثانية: باع حراً فأكل ثمنه، فالحرُّ - كما قال ابن الجوزي - عبدُ الله،
فمن جَنَى عليه فخصمه سيده
- ٢٢٦ الجملة الثالثة: من استأجر أجيراً فاستوفى منه العمل ولم يوفِّه أجره
- ٢٢٧ يجب على المسلم أن يَحْذَر هذه الأصناف لثلا يتعرض للعديد الشديد من
الرب
- ٢٢٧ الحديث ٥٤: ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم . . . وتخرجه
وغريبه
- ٢٢٨ الحديث في خصال أخلاقية، تحثنا من خلالها على الاستقامة والصدق في
المعاملة، وسلوك طريق الخير والرشاد
- ٢٢٨ هناك أحاديث أخرى ذكرت خصالاً أخرى، فالعدد في هذا الحديث لا يراد
منه الحصر وعدم الزيادة
- ٢٢٨ التوفيق بين قوله «لا يكلمهم» مع أنه هو الذي سيحاسبهم؟ وبين «لا ينظر
إليهم» وهو سبحانه مطلع عليهم وهم في ملكوته لا يغيبون عنه طرفة عين؟،
وقد نقله النووي عن جمهور المفسرين
- ٢٢٨ أول هؤلاء الثلاثة: الخائن الغاش الحالف على كذبه أيماناً كاذبة
- ٢٢٩ المقارنة بين هذا الخلق الدنيء، وخلق الإسلام الرفيع من خلال حادثة
وقعت لجبرير بن عبد الله لما اشترى له مولاه فرساً، وقول ذلك الصحابي
الجليل: بايعت رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم
- ٢٢٩ حادثة أخرى لجبرير أنه كان يَصُر المشتري بعيوب السلعة ويُخَيِّرهُ بشرائها
- ٢٢٩ وثانيهم: من حلف يميناً كاذبة ليقطع بها مال مسلم، ووجه تخصيص الوقت
بـ (بعد العصر)
- ٢٣٠

- وثالثهم: رجل بخيل شحيح، زاد معه ماء عن حاجته في فلاة يغلب فيها الهلاك فمنعه عن رجل يحتاجه. ٢٣٠
- مقارنة هذا الرجل المانع الشحيح بروائع من صور البذل والإيثار في الإسلام. ٢٣١
- تقبيح الله لهذا الشحيح ولصُّنعه المَقِيَّت بأنَّ منعه سبحانه فضل رحمته يوم لقائه، في وقت هو في أمسِّ الحاجة إليها. ٢٣٢
- الحديث ٥٥: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي...، وتخريجه وغريبه. ٢٣٣
- افتتاح الحديث بالاستفهام الإنكاري، وتقدير الكلام. ٢٣٣
- التشبيه في قوله «كخلقي» لا عموم له... كما أوضحه المناوي. ٢٣٣
- والحديث بظاهره يدل أن الحرمة تثبت بالقصد والإرادة وإن لم يكن ماهراً في مهنة التصوير، وهو مستفاد من قوله: «ذهب يخلق». ٢٣٣
- معنى «يخلق»: يصوِّر والاستدلال من القرآن الكريم. ٢٣٣
- ومعنى «كخلقي» أي: يُشَبِّه مخلوقاً من مخلوقاتي، وإلا فخلق الله لا يُعلم. ٢٣٤
- قد يعترض بأن مقتضى هذا الحديث أن تصوير كل مخلوق لله تعالى كائناً ما كان حرام ولو كان منظراً للطبيعة، والجواب: بأن مقتضى عموم ما تقدم يفيد ذلك، لكن الجماهير على العمل بفتوى ابن عباس القاضية بجواز تصوير ما لا روح فيه، وتخصيص التحريم بما لهُ روح. ٢٣٥
- حكاية خلاف مجاهد لأستاذه ابن عباس، حيث أدخل الشجر المثمر في المنهي عنه، ولم يوافق عليه، كما نقله النووي عن القاضي عياض، وحكاية دليله. ٢٣٥
- استظهار علي القاري حرمة تصوير الشمس والقمر وكل ما عُبد من دون الله. وهذا استظهار منه لم ينقله عن غيره. ٢٣٦
- اعتراض آخر: بأن مقتضى ما تقدّم حرمة تصوير المجسّمات، أما الصور الفوتوغرافية فلا إذ كيف يمكن نفخ الروح فيها. ٢٣٦
- وجوابه: بذكر حديث عائشة في نهيه ﷺ عن البساط الذي فيه صورة لطائر أو خيل ذات أجنحة، والوعيد الشديد في هذا المقام، مع أنه ليس تمثالاً ولا مجسّماً. ٢٣٦
- نقل كلام الحافظ في عموم حرمة الصورة مطلقاً وعدم التفريق. ٢٣٧

- ومما يستفاد من حديث عائشة: أن الصورة لو امتُهِنت جاز، أما إن كانت على هيئة محترمة: فلا يجوز. ٢٣٧
- نصَّ فقهاء الحنفية على كراهة السجود على صورة في بساط أو سجادة، وفرقوا بين جعلها محلَّ السجود أو الاتكاء عليها. ٢٣٨
- أمر يجب التنبيه عليها: فالأول: ما يزعمه البعض من أن حرمة التصوير كانت في أول الإسلام، لقربهم من عهد الأوثان، وذلك سداً للذريعة. والجواب عن هذا الزعم. ٢٣٨
- والثاني: لا عبرة للمصطلحات والأسماء في تسمية عامل التصوير باسم غير (المصوِّر) إذا العبرة بالمعاني. ٢٣٨
- والثالث: اختلاف الوسائل لا تغيِّر الحكم الشرعي، فاستخدام آلات التصوير لا تغيِّر حرمة التصوير إلى حلّه. ٢٣٨
- اشتهار فتوى الشيخ محمد بخيت المطيعي بإباحة هذا النوع من التصوير، واتكاء من جاء بعده على فتياه. ٢٣٩
- لم يوافق الشيخ على فتياه، فقد ردَّ عليه عدد كبير من معاصريه من ذوي الجلالة والمقام العلمي الرفيع، مع ذكر أبرزهم وأسماء رسائلهم. ٢٣٩
- نكتتان علميتان في قوله تعالى: «فليخلقوا ذُرَّةً، أو ليخلقوا حبة أو شعيرة». ٢٤٠
- الحديث ٥٦: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي... وتخريجُه. ٢٤٢
- الحثُّ على تحصيل الغاية التي من أجلها خُلِقَ الإنسان وهي: عبادة الله، ووعدُه سبحانه بأن من قام بها حق القيام رزقه مالاً سدَّ به فقره، ورضاً وقناعة يشعر من خلالها بالغنى الحقيقي. ٢٤٢
- لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أمور، من جملتها: عن ماله من أين جمعه وفيما صرفه. ٢٤٢
- معاقبة الله تبارك وتعالى لمن لا يتفرغ لعبادته بأمرين: بإشغاله بدنياه، وفتحها له، والثاني: بشعوره بالحاجة إلى المزيد منها. ٢٤٣
- موقف العاقل من المال: يجعله بين يديه لقضاء حوائج نفسه وغيره، ولا يدخله قلبه فيشغله به، فيدَّه للمال وقلبه لله تبارك وتعالى. ٢٤٣
- الحديث ٥٧: أنا مع عبدي إذا هو ذكرني... وتخريجُه. ٢٤٤
- الحديث في فضل ذكر الله تبارك وتعالى. ٢٤٤

- «أنا مع عبدي إذا ذكرني» معية الله تعالى للعبد الذاكر بالرحمة والكرم والهداية. ٢٤٤
- وفي رواية «مع عبدي ما ذكرني» أي: دائمة ما دام ذاكراً لي. وفي رواية «حيثما ذكرني» أي: في أي مكان، سواء ذكره في بيته أو سوقه أو مسجده. ٢٤٤
- أنواع الذكر ثلاثة: باللسان، وبالفعل، وبالقلب. ٢٤٥
- فاللسان ذكره: بالتسبيح والتحميد والتهليل وقراءة القرآن والصلاة والسلام على رسول الله وغيرها. ٢٤٥
- «وتحرّكت بي شفتاه» الواو للحال أو للعطف، وبيان المعنى على كلا الإعرابين، وترجيح القول الثاني من كلام الإمام الغزالي وعلي القاري. ٢٤٥
- وذكر الله يكون بالفعل: كالصلاة، وبالقلب، وانظر كلاماً نفيساً للغزالي في فائدة حضور القلب في الذكر. ٢٤٥
- الحديث ٥٨: إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر. ، ، وتخرجه وغيره. ٢٤٦
- الحديث في بيان فضل الله تعالى على عباده، وفي بيان فضل الذكر والذاكرين. ٢٤٦
- من فضل الله على عباده إرساله ملائكته للبحث عن أهل الذكر. ٢٤٦
- كلام الحافظ في الحكمة من سؤال الرب سبحانه ملائكته عن أهل الذكر. ٢٤٧
- ومن فضله سبحانه على أهل الذكر: تفضله عليهم بالعطاء والنوال، وإكرام العبد الخطأ المذنب من أجلهم وبسببهم، لأنه جلس معهم ولو كان عابراً غير قاصد. ٢٤٧
- الألف واللام في قوله «هم القوم» فيها إشعار بالكمال أي: هم القوم كل القوم. ٢٤٨
- كلام النووي في استحباب الجلوس في حلق الذكر. ٢٤٨
- ضرورة اختيار المجلس الصالح والصاحب الخير. ٢٤٨
- كلام نفيس للراغب الأصفهاني في الصحبة، نقلته بطوله لنفاسه. ٢٤٩
- صحبة الأخيار والصالحين وسيلة لا غاية، كما نبّه إلى ذلك المشتغلون بتهذيب النفوس. ٢٥٠
- كلام السري السقطي في هذا المعنى وهو يوصي ابن أخته الجنيد. ٢٥٠

- لفتة حسنة تبين حرص السلف واهتمامهم بالاستفادة حتى ممن هو في حالة التزع. ٢٥٠
- ما جاء في الحديث من فضل الذكر ومجالسه وأهله. ٢٥٠
- مشمولات مجالس ذكر الله المشروعة التي تكون بغية الملائكة وطلبتهم. ٢٥١
- هل تدخل مجالس العلم في مجالس الذكر هذه؟ ٢٥١
- مغفرة الله تعالى للذاكرين ولمن جالسهم مجلساً ولو كان قصيراً غير مقصود. ٢٥٢
- الحديث ٥٩: أنا عند ظن عبدي بي...، وتخريجه وغريبه. ٢٥٣
- الحديث في بيان مزيد فضل الله للذاكرين وذكر لون آخر من ألوان إكرام الله لهم، وبيان نوعي الذكر: السري، والجهري. ٢٥٣
- غاية الإكرام والفضل في افتتاحية الحديث: «أنا عند ظن عبدي بي». ٢٥٣
- حسن الظن بالله أعلى الأعمال والخصال. ٢٥٤
- معية الله للذاكر معية خاصة فوق معية العلم. ٢٥٤
- النوع الأول من الذكر «إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي»: الذكر السري. ٢٥٤
- معنى «ذكرته في نفسي» من كلام الحافظ وابن أبي جمرة، وبيان أن لا منافاة بين قوليهما. ٢٥٥
- ومن دواعي الذكر السري: الإخلاص وتجنب الرياء. ٢٥٥
- النوع الثاني: الذكر الجهري «وإن ذكرني في ملأ...». ٢٥٥
- وجه كون الملأ الثاني خيراً من الملأ الأول: أن الله تعالى مع أهل الملأ الثاني وبذلك صار خيراً من الأول. ٢٥٦
- عظيم فضل الله ولطفه وكرمه على عباده المقبلين عليه التوبة والإنابة. ٢٥٦
- معنى «تقربت إليه ذراعاً، باعاً... أتيته هرولة» عند الأعمش وقتادة. ٢٥٦
- قول الإمام النووي رحمه الله: «هذا الحديث من أحاديث الصفات ويستحيل إرادة ظاهره، ومعناه...». ٢٥٧
- تعبير ابن الأثير عن الهرولة في الحديث بقوله: «كناية عن سرعة إجابة الله تعالى...». ٢٥٧
- الحديث ٦٠: من شغله القرآن وذكرني عن مسألتي...، وتخريجه. ٢٥٨
- الحديث في بيان: فضل طائفة تسأل الله وتدعوه، وطائفة: تشتغل بكتاب الله وبذكره عن كل سؤال، فهذه أفضل من الأولى. ٢٥٨

- «من شغله القرآن وذكرى» من عطف العام على الخاص لبيان شرف الخاص
 ٢٥٨ وإلا فالقرآن من ضمن ذكر الله تعالى، لكن أعظم الذكر.
 وقد يعترض بأن سؤال الله ودعاءه من ألوان الذكر كما في الأحاديث المتقدمة
 ٢٥٨ وجوابه من وجهين:
 السائل يسأل لنفسه من الله، والأول مشغول بذكر الله عن ذكر نفسه، فلذا
 ٢٥٩ كان أفضل.
 الشطر الثاني من الحديث في تفضيل كلام على كلام: «وفضل كلام الله على
 سائر الكلام..» فمن سبح الله وحمده.. فهو ذاك له بكلام من عند نفسه
 ٢٥٩ وقارىء القرآن ذاك لله بكلام الله سبحانه وتعالى.
 الحديث ٦١: «إن عبدي كلَّ عبدي الذي يذكرني وهو ملاقٍ قرْنه». وتخريجه
 ٢٦٠ وغريبه.
 هذا الحديث في امتداح الله تبارك وتعالى لمن تحقَّق من عباده بصفة
 ٢٦٠ العبودية.
 وعلامة هذا التحقق: ذكره الله تبارك وتعالى في شذائد الأمور ومعضلاتها
 ٢٦٠ ومنها: عند ملاقة نظيره في ساحة القتال.
 ٢٦١ فائدة التعبير بقوله: «قرْنه» ولم يقل: عدوه.
 قوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ حيث
 رتب سبحانه الفلاح على أمرين: على الثبات وعلى ذكر الله، وليس مجرد
 ٢٦١ الذكر بل الذكر الكثير.
 الحديث ٦٢: من قال لا إله إلا الله والله أكبر صدَّقه ربه فقال...، وتخريجه.
 ٢٦٢ الحديث في ذكر صيغ من الأذكار تكون لقائلها حرزاً من النار.
 ٢٦٢ جميع الصيغ اشتملت على «لا إله إلا الله» وهي أفضل الذكر.
 ٢٦٢ ذكر ما امتازت به كلُّ صيغة من الصيغ الواردة في الحديث.
 ٢٦٢ مما يستفاد من الحديث: ضرورة انتظار العبد الذاكر عقب ذكره مستشعراً
 ٢٦٣ تصديق الله له وجوابه.
 الحديث ٦٣: من قال سبحانه الله والحمد لله...، وتخريجه.
 ٢٦٤ في هذا الحديث أشهر صيغ ذكر الله تعالى.

- معنى: سبحان الله، والحمد لله، وأن التسييح والتحميد كلمتان جامعتان
لصفات الله على وجه العموم والإجمال: تنزيهه عن النقائص وإثبات
للمحامد. ٢٦٤
- معنى: لا إله إلا الله، والله أكبر. ٢٦٤
- معنى: لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنها من كنوز العرش ومن كنوز الجنة. .. ٢٦٥
- جواب الله تعالى لمن ذكره بهذه الصيغة: «أسلم عبدي واستسلم» ومعناه. . ٢٦٥
- الذاكر يحصل له الإسلام بقوله: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله
أكبر، ويحصل له الاستسلام بقوله: لا حول ولا قوة إلا بالله. ٢٦٥
- تنبيه هام لبعض العوام من تلفظهم بـ «لا حول ولا قوة إلا بالله» بلفظ يكون
معناه كفراً. ٢٦٥
- الحديث ٦٤: «أما يُرضيك أنه لا يصلي عليك أحد إلا صليت عليه عشرًا. .»
وتخريجه. ٢٦٦
- الحديث في فضيلة الصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ، وهو داخل في
وعد الله نبيه ﷺ بقوله ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾. ٢٦٦
- ذكر روايات هذا الحديث وفيها أن النبي ﷺ سجد لله شكراً. ٢٦٦
- ما جاء من الأحاديث في مقابلة صلاة الله تعالى بعشر صلوات لصلاة العبد
الواحدة وكذلك السلام. ٢٦٧
- معنى «اللهم صل على محمد»: يا الله ارحم محمداً ﷺ، لأن الصلاة من الله
رحمة. ٢٦٨
- ويشكل على هذا قوله تعالى: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾
حيث عطف الرحمة على (الصلوات) والعطف يقتضي المغايرة. وجواب
ذلك. ٢٦٨
- من آثار رحمة الله لعباده المصلين على نبيه ﷺ: ﴿ليخرجكم من الظلمات
إلى النور﴾. ٢٦٩
- من أشغل وقته كله بالصلاة على النبي ﷺ كُفي همّه وعُفِر ذنبه. ٢٦٩
- معنى صلاة الملائكة، وأنها صلاة تشريف لهم لا تكليف. ٢٧٠
- وأما صلاتهم على المؤمنين المصلين على النبي ﷺ فبالدعاء لهم
والاستغفار. ٢٧٠

- قد يشكل: كيف يأمرنا الله تعالى بالصلاة على نبيه ﷺ ثم يأتي الأمر بأن نقول: اللهم صل على محمد، فلا ننشئ الصلاة من عند أنفسنا؟ وجوابه... ٢٧١
- تلخيص كلام الآلوسي على قوله تعالى: ﴿وسلموا تسليماً﴾ والإشارة إلى قول غريب لبعضهم..... ٢٧١
- المشهور عند المحدثين كراهة إفراد الصلاة على النبي ﷺ دون ذكر السلام، وعن بعضهم جوازه. ٢٧١
- الحديث ٦٥: إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرِّجَم... ، وتخرجه وغريبه..... ٢٧٢
- الحديث في مكانة الرِّجَم في الإسلام، وفي الترغيب في وصلها، والترهيب من قطعها..... ٢٧٢
- قيام الرحم وكلامها على سبيل الحقيقة أم المجاز؟ وترجيح الأول..... ٢٧٢
- معنى «أَنْ أَصِلَ من وصلك وأقطع من قطعك» كما قاله ابن أبي جمرة، وأن حقيقة الوصل والقطع مستحيلة بحق مولانا تبارك وتعالى..... ٢٧٣
- «هذا مقام العائذ من القطيعة»: تستجير الرحم على نفسها من القطيعة، ويفيد كلام علي القاري أنها تستجير على قاطعها أن يقطعها فيقع في غضب ربه سبحانه..... ٢٧٣
- ما هي الرحم التي توصل؟ وما حكم صلة الرحم وذكر درجاتها..... ٢٧٤
- صلة الرحم أعم من أن تكون بالزيارة فقط، وكلام نفيس لابن أبي جمرة في هذا، وفي شروط صلة الرحم..... ٢٧٤
- الحديث ٦٦: إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل... ، وتخرجه..... ٢٧٦
- هذا الحديث في الترغيب والترهيب، ليزداد الصالح صلاحاً، ويرتدع غيره..... ٢٧٦
- بيان الذين يحبهم الله وهم: من أدى فرائض الله ونوافله..... ٢٧٦
- وفي بعض روايات حديثنا أن الذين يحبهم الله هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات..... ٢٧٧
- من أحبه الله أحبه جبريل والملائكة الكرام، ثم أهل الأرض..... ٢٧٧
- ومن أبغضه الله - وهو من فسد عمله - أبغضه جبريل وأهل السماء ثم أهل الأرض..... ٢٧٨

- من المقصود بأهل الأرض؟ فالصالح لا يحبُّه إلا الصالحون، والعاصي
 ٢٧٨ الفاسد لا يبغضه إلا الصالحون، فهم المقصودون.
- تفسير معنى محبة الله ومحبة جبريل والملائكة للعبد بنقلين عن النووي وابن
 ٢٧٩ حجر رحمهما الله.
- الحديث ٦٧: وجبت محبتي للمتحابين في...، وتخريجه وغريبه. ٢٨٠
- سرعة ائتلاف قلب أبي إدريس مع قلب معاذ بن جبل، مقارنة بما حكاه
 ٢٨١ الأصمعي عن بعض الحكماء يوصي ابنه.
- معنى وجبت «محبتي» وفي رواية: «رحمتي» وبيان أن الرحمة أعم من
 ٢٨٢ المحبة، وترجيح ما بين الروایتين.
- الحب لله أعلى رتبة من الحب في الله، وكلام الغزالي في علامات هذا
 ٢٨٢ الحب.
- معنى «المتجالسين في»، وكلام الجنيد رحمه الله في فضل مجالسة
 ٢٨٣ الصالحين.
- معنى «المتزاورين في»، وحديث في فضل التزاور في الله. ٢٨٣
- تصحيح خطأ عامي في معنى الزيارة والعبادة. ٢٨٤
- مناشدة لتصحيح وضع فاسد قد عمَّ مما يحدث في زيارات الناس لبعضهم
 ٢٨٤ واجتماعاتهم.
- معنى «المتبازلين في» وتشمل كلَّ بذل في سبيل الله: نفسه فما دونها. ٢٨٤
- في رواية أحمد زيادة: «وَحَقَّتْ محبتي للذين يتصافون من أجلي وحقَّتْ
 ٢٨٤ محبتي للذين يتناصرون من أجلي» وشرحها.
- الحديث ٦٨: أين المتحابون لجلالي؟ وتخريجه. ٢٨٥
- الحديث في إظهار فضل الله سبحانه على طائفة خاصة من عباده، وهم
 ٢٨٥ المتحابون في جلال الله وذكر علامة هذا الحب.
- «أين المتحابون لجلالي» هذا نداء لا سؤال، وهو نداء تشريف وتكريم. .. ٢٨٥
- ذكر جانب من أهوال يوم القيامة، وحال المتحابين لجلال الله في ظله
 ٢٨٥ سبحانه.
- الظلال الواردة في الأحاديث على مراتب ثلاثة: ظل الله، وظل العرش، وظل
 ٢٨٦ العمل الصالح.

- ومنه من قال إنها ظل واحد، وهل هو ظل العرش، أم المراد بظل الله كرامته ورعايته... بكل ذلك قال العلماء. ٢٨٦
- وممن هو في ظل الله غير من تقدّم من جاء ذكره بحديث: «سبعة يظلهم الله في ظله...» وغيرهم. ٢٨٧
- الحديث ٦٩: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور... وتخريجه. ٢٨٨
- الحديث في ذكر لون آخر من الإكرام الإلهي للمتحابين فيه... ٢٨٨
- وصف حال المتحابين في الله تعالى يوم القيامة بأنهم في محل غبطة خواص عباد الله من الأنبياء والشهداء. ٢٨٨
- كلام المناوي والبيضاوي في أنه كيف يتمنى النبيون والشهداء هذا التمني مع جلاله قدرهم ووفرة حظهم في الآخرة؟... ٢٨٨
- جواب العلامة القاري عن الإشكال من حيث اللغة، وبه يزول ذلك الإشكال. ٢٩٠
- دخول أقوام آخرين الجنة بغير حساب، غير من ذكر بحديث الباب... ٢٩٠
- كرامة أخرى من الله عز وجل للمتحابين في الله سبحانه في وصف غرفهم في الجنة. ٢٩٠
- الحديث ٧٠: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني... وتخريجه. ٢٩١
- الحديث في الحث على عيادة المريض، وبذل الطعام للجائع، والشراب للظمآن. ٢٩١
- معنى إضافة المرض إليه سبحانه والمراد العبد: التشريف، وأن من عاد المريض كان كمن زار الله. ذكره النووي عن العلماء، ومثله العلامة القاري. ٢٩١
- معنى «لوجدتني عنده»: وجدت ثوابي وكرامتي، نقله النووي أيضاً عن العلماء. ٢٩١
- فضل عيادة المريض، والتنبيه إلى أن المطلوب تكرار الزيارة لذا سميت عيادة، ولولا ذلك لسميت زيارة. ٢٩٢
- تحرير النية في عيادتك للمريض بأن تكون لله، مواساةً للمريض، وشكراً لله على معافائك. ٢٩٢
- الحديث ٧١: إذا مرض العبد بعث الله تعالى إليه ملكين... وتخريجه وغريبه. ٢٩٣

- هذا الحديث لتنبية العبد المسلم إلى أن جميع ما نزل به من بلاء وشدائد يستحق حمد الله والثناء عليه، وبذلك يُحفظ له أجره دنيا وآخرة. ٢٩٣
- جزاء العبد المبتلى إذا حمد الله وأثنى عليه. ٢٩٣
- أحاديث في فضل بيان ما ينبغي أن يكون عليه حال المسلم في البلاء من الصبر والحمد والثناء على الله سبحانه، وبيان فضل ذلك. ٢٩٤
- الحديث ٧٢: ابن آدم إن صبرت واحتسبت عند الصدمة الأولى...، وتخريجه. ٢٩٥
- الحديث في الصبر والاحتساب عند الصدمة الأولى، ومتى تكون الصدمة الأولى؟. ٢٩٥
- بيان أن المصيبة قد تنزل بالكافر كنزولها بالمسلم، لكن الأجر والثواب بصبر المسلم واحتسابه. ٢٩٦
- الحديث ٧٣: إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ وتخريجه. ٢٩٧
- الحديث في الصبر والاحتساب والحمد عند موت الولد. ٢٩٧
- السؤال من الله سبحانه لإبراز عظم المصيبة، ولذلك جاء التدرج فيه. ٢٩٧
- تعريف الحمد، ومعنى الاسترجاع. ٢٩٧
- بيان عظمة إيمان من فقد ولده فوقف لمولاه حامداً. ٢٩٨
- معنى «وأسألك الرضا بعد القضاء» من كلام ابن تيمية نقله عنه تلميذه ابن القيم رحمهما الله. ٢٩٨
- جواب نفيس لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في الرضا بقضاء الله ومناسبة كلامه. ٢٩٨
- بشارتان للحامدين المسترجعين الصابرين عند فقد الولد: بيت في الجنة، وسموه بيت الحمد. ٢٩٩
- بيان أن التنوين في «بيتاً» للتعظيم والتفخيم. ٢٩٩
- الحديث ٧٤: إذا ابتليت عبدي بحبيتيه...، تخريجه، وغريبه. ٣٠٠
- الحديث في الحث على الصبر لفقد البصر، وبيان عاقبة من ابتلي بذلك. ٣٠٠
- شروط من يستحق هذا الأجر العظيم: أربعة. ٣٠٠

- هل الحديث فيمن ولد أعمى ، أو من ولد بصيراً فعمي ، الظاهر الاحتمال الثاني ٣٠١
- الحديث ٧٥ : ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضتُ صفته . . . وتخريجه وغريبه ٣٠٢
- في ثواب من صبر على فقد الحبيب محتسباً بصبره ٣٠٢
- شروط من يستحق هذا الأجر العظيم لفقد الحبيب : ثلاثة من هذا الحديث ، وشرط واحد من حديث آخر ٣٠٢
- الحديث ٧٦ : إذا أحب عبدي لقائي . . . وتخريجه ٣٠٤
- الموت مقدّمة للقاء الله ، وليس هو اللقاء . وبناء عليه فكراهية الموت ليس كراهية للقاء الله ٣٠٤
- حوار السيدة عائشة مع سيدنا رسول الله ﷺ لما سمعت هذا الحديث ، وحوار شريح بن هانئ معها ٣٠٤
- ما نقل عن البراء بن عازب في قوله تعالى : ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ . . . ٣٠٥
- وصف خروج روح المؤمن ونزع روح الكافر من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ٣٠٥
- الكشف للمحتضر عن مستقره في آخر لحظة من حياته ، فالمؤمن يتلَهف ، والكافر يتألّم ٣٠٥
- شذرات من وصية أبي حازم لسليمان بن عبد الملك ٣٠٦
- الحديث ٧٧ : لما خلق الله الجنة والنار . . . وتخريجه ٣٠٧
- هذا الحديث في التنبيه إلى النظر إلى عواقب الأمور ، وعدم الاغترار بالظواهر الفاتنة ٣٠٧
- خلق الله الجنة وأعدّ فيها كل نعيم ، ثم حفّها بالمكارة من التكاليف الشرعية وخلق النار وما فيها من الأهوال ، ثم حفّها بالشهوات الدنيوية ٣٠٧
- موقف العاقل والأحمق من الجنة والنار ٣٠٧
- مَثَلُ للجنة وما حُفَّتْ به ، وللنار وما حُفَّتْ به ٣٠٨
- كلام الإمام النووي والمناوي في حديث : «حفت الجنة بالمكارة ، وحفت النار بالشهوات» ٣٠٩

- الحديث ٧٨: سبقت رحمتي غضبي، وتخريجه. ٣١٠
رحمة الله سبحانه تسبق غضبه، في الماضي والحاضر كما جاء في بعض
الألفاظ: تغلب. ٣١٠
مِنْ سَبَقِ الرحمة للغضب في الماضي: خلق آدم وتكريمه... ثم توبته عليه
بعد عصيانه، وكلام للطَّيِّبِ حول سبق الرحمة للغضب. ٣١٠
معنى الرحمة والغضب. ٣١٠
الرحمة والغضب في حق الله تعالى صفتان لا توصفان بسبق ولا غلبة، وإنما
الوصف لآثارهما. وكلام ابن الأثير والنووي في هذا المعنى. ٣١١
ومن مظاهر سعة رحمة الله ما جاء في حديث: «جعل الله الرحمة مائة
جزء...». ٣١١
حرصه ﷺ على أن يُرَى الصحابة أثر هذا الجزء من الرحمة الإلهية. ٣١١
الحديث ٧٩: تحاجت الجنة والنار...، تخريجه، وغريبه. ٣١٢
معنى «تحاجت»، وكلام الجنة والنار كلُّه على الحقيقة. ٣١٢
سبب شكَاية النار والجنة، وقوله سبحانه لكل منهما. ٣١٢
قوله «حتى يضع رجله»، وفي الرجل مذهباً للعلماء كما قال النووي رحمه
الله. ٣١٣
تزيد الجنة على أهلها فينشئ الله تعالى لها خلقاً جديداً. ٣١٣
ذكر النووي أن هذا الحديث يدل على أن الثواب ليس متوقفاً على الأعمال،
وهو مذهب أهل السنة. ٣١٤
الحديث ٨٠: يقول الله عز وجل: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك...،
وتخريجه، وغريبه. ٣١٥
هذا الحديث حكاية لمشهد من أوائل مشاهد يوم القيامة. ٣١٥
موقف آدم من الأمر الإلهي: «أُخْرِجْ بَعَثَ النار». ٣١٦
ليس في الآخرة حمل ولا رضاع، وما جاء من ذلك فهو من المجاز وتقريب
الأمور الغيبية إلى الواقع الحسي. أو أنها تحصل للناس في آخر لحظات
الدنيا، ورجح الحافظ وقوع هذه الأشياء بين النفختين، وذكر قبله احتمالاً
آخر. ٣١٦
الحديث صريح في أن يأجوج ومأجوج من ذرية آدم. ٣١٧

- وفي هذا الحديث بشارات نبوية متتالية: ٣١٧
الأولى: «إن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنكم رجل»، فخفت الوطأة وهدأت
القلوب. ٣١٧
والثانية: «إني لأطمع أن تكونوا ربع أهل الجنة». ٣١٧
والثالثة: «إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة» وهاتان بشارتان مقرونتان
بالقسم. ٣١٨
والبشارة الرابعة وهي الأعظم: «إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة» والله
سبحانه أجل وأكرم من أن يخيب مطمع حبيبه ومصطفاه ﷺ. ٣١٨
هناك روايات ضعيفة توصل أهل الجنة من هذه الأمة المحمدية إلى الثلاثين. ٣١٨
الرضا بما قسمه الله تعالى ينتج عنه حمده وشكره، وهذان سببان لنزول الخير
والبركة. ٣١٨
- الحديث ٨١: إن عبداً أصاب ذنباً... وتخريجه. ٣٢٠
عظيم فضل الله على من تاب من عباده وإن تكررت منه التوبة لتكرار الذنب. ٣٢٠
وعظيم فائدة الاستغفار الناتج عن توبة القلب بالندم على التفريط، والإقلاع
عن الذنب، والعزم على عدم العود. ٣٢٠
وإن استشكل بأن نقض التوبة بالعود إلى الذنب أقبح من ابتدائه فكيف يغفر
له؟ فالجواب أن التوبة وتكرر العودة إلى الرب أحسن من ابتداء التوبة. ٣٢١
قوله: «فليعمل ما شاء» ليس من باب إباحة المحرمات، إنما هو مشروط
باستمراره على حاله من التوبة بعد كل ذنب. ٣٢٢
شروط التوبة الصحيحة، وفائدة الاستغفار اللساني مع الإصرار على الذنب. ٣٢٢
- الحديث ٨٢: إن الله كتب الحسنات والسيئات... وتخريجه. ٣٢٣
الحديث في بيان لون من ألوان الفضل الإلهي في مجازاة المحسن
والمسيء. ٣٢٣
قوله: «من هم» وفي رواية أخرى «من أراد» واختلاف العلماء في الهم
والإرادة هل هما شيء واحد؟ أو هما مرحلتان؟ ٣٢٣
استخلاص خمسة احتمالات في الهم بالحسنة أو السيئة وعملها أولاً. ٣٢٤
فالأول: الهم بالحسنة مع عدم العمل، فإن كان لعائق عارض كتبت له
حسنة كاملة، وإن كان عدم العمل ناشئاً عن فتور الهم فلا شيء له. ٣٢٥

- تنبيه دقيق للإمام النووي في التعبير بجانب الحسنة بقوله: «كتبها الله عنده» و«حسنة كاملة» مما يدل على الاعتناء والاهتمام بها، وفي جانب السيئة لم يذكر «عنده» وقال «سيئة واحدة» أكدها بأنها واحدة لا تُضاعف ولا تُزِيد. . . ٣٢٥
- الثاني: من هم بحسنة فعلها، فتوابه عشر حسنات إلى سبعمائة حسنة إلى أضعاف كثيرة. . . ٣٢٦
- وجاء في رواية: «فله عشر أمثالها وأزيد» جاءت الزيادة مجملة فسرنا حديثنا ولا بن حجر احتمال آخر فأنظره. . . ٣٢٦
- الثالث: من هم بالسيئة فلم يعملها كتبها الله له حسنة كاملة. . . ٣٢٦
- وفي حديث آخر «يمسكُ عن الشر فإن له صدقة». . . ٣٢٦
- وتقدم أن الثواب في ترك السيئة لمن تركها لله سبحانه ومن أجله، مع ذكر الأدلة على ذلك. . . ٣٢٧
- ومن ترك السيئة لا لخوف من الله، بل لعدم توافر أسبابها. وانظر كلام النووي وابن حجر في حكمه. . . ٣٢٧
- ومن هم بالسيئة فعملها كتبها الله له سيئة واحدة، وتقدم كلام النووي في تأكيد السيئة هنا بواحدة لتقليلها. . . ٣٢٨
- وهذه السيئة الواحدة قد يمحوها الله بالفضل، أو بالاستغفار، أو بعمل حسنة بعدها. . . ٣٢٨
- والحديث عند مسلم بزيادة «ولا يهلك على الله إلا هالك» ونقل كلام الإمام النووي في شرح هذه الجملة. . . ٣٢٨
- الحديث ٨٣: من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان؟! وتخريجه وغريبه. . . ٣٢٩
- هذا الحديث في سعة عفو وغفرانه ورحمته سبحانه وتعالى. . . ٣٢٩
- فهو سبحانه لا يحب أن يقنط إنسان من عفو ورحمته، وخصَّ القنوط بالكافرين. . . ٣٢٩
- التقنيط والتحجير يكونان أقبح إن صدرا عن معجب بعمله مغرور باجتهاده في الطاعة، كما في رواية أبي داود المفسرة لروايتنا. . . ٣٢٩
- إنما كانت عاقبة من أمر ونهى إحباط عمله، لأنه تألى على الله بأنه لن يغفر لفلان. . . ٣٣٠
- الحديث ٨٤: يُدنى المؤمن من ربه حتى يضع عليه كَنَفه. . . وتخريجه وغريبه. . . ٣٣٢

- هذا الحديث في معاملة الناس يوم القيامة: فالكفر بالفضيحة والتشهير،
 ٣٣٢ والمؤمن بستر معصيته وإكرامه العلني .
- ٣٣٣ بيان المراد بالدنو في قوله: «يُذْنَى المؤمنُ...» من كلام النووي رحمه الله .
- ٣٣٣ الكنف لغة على معنيين، وكلام الحافظ فيما يليق بالله سبحانه وتعالى من هذين المعنيين، وتأييد ذلك برواية أخرى .
- ٣٣٣ أقدم من فَسَّرَ الْكَفَّ بالستر .
- ٣٣٤ يستحق الستر في الآخرة من ستر نفسه دون المجاهر .
- ٣٣٤ حرمة المجاهرة بالمعاصي .
- ٣٣٤ ضبط «الآخرون» وبيان معناها .
- ٣٣٥ الحديث ٨٥: حديث البطاقة، تخريجه وغريبه .
- ٣٣٥ الحديث عن مشهد من مشاهدة القيامة وفيه يظهر الفضل الإلهي، وفضيلة كلمة التوحيد .
- ٣٣٥ إظهار الرجل صاحب السجلات ليظهر كرم الله وفضله عليه وليس من باب التشهير والفضيحة .
- ٣٣٦ عرض الصحف على العباد إنما هو لإقامة الحجة الإلهية عليهم .
- ٣٣٦ تدارك العناية الإلهية لهذا العبد المفرط في الدنيا .
- ٣٣٧ السجلات تطيش أمام البطاقة التي ثقلت به: لا إله إلا الله محمد رسول الله .
- ٣٣٧ معنى لا «يثقل مع اسم الله شيء» .
- ٣٣٧ قيل: كان الرجل كافراً طويلاً حياته وأسلم قبل موته بلحظات، فهدم الإسلام ما قبله .
- ٣٣٨ وقيل: كان مسلماً لكنه مسرف على نفسه بكثرة الذنوب، وقد نطق بالشهادتين منياً تائباً، فيكون حاله كحال من قتل تسعة وتسعين نفساً من بني إسرائيل .
- ٣٣٩ وقيل: إن إكرام صاحب البطاقة من الإكرام الإلهي الخاص به .
- ٣٣٩ تعليق الشيخ ابن تيمية رحمه الله على حديث البطاقة .
- ٣٤٠ الحديث ٨٦: تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم...، وتخريجه وغريبه .
- ٣٤٠ الحديث دليل على أنجزاء من جنس العمل .

- ٣٤٠ شرح الحديث.
- ٣٤١ «الخلق كلُّهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله».
- ٣٤١ مغفرة الله تعالى لامرأة بغِيٍّ أحسنت إلى كلب، ولمن أزاح غصن شوك عن طريق المسلمين لا يؤذيهم، وعذاب الله لامرأة حَبَسَتْ هرة.
- ٣٤٢ الحديث ٨٧: إن الله ليسأل العبد يوم القيامة...، وتخرجه وغريبه.
- ٣٤٢ من مواقف يوم القيامة: السؤال.
- ٣٤٢ «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل...».
- ٣٤٢ ومن جملة السؤال: ما جاء في هذا الحديث: «ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره؟».
- ٣٤٢ حق الله على العبد إذا رأى منكراً، ومراتب تغيير المنكر.
- ٣٤٣ الرجاء كان سبب النجاة.
- ٣٤٣ لا بدَّ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعقوبة من أهمل ذلك الواجب.
- ٣٤٤ الحديث ٨٨: بادرني عبدي بنفسه، حرمتُ عليه الجنة، وتخرجه.
- ٣٤٤ الحديث في عقوبة قاتل نفسه.
- ٣٤٤ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ يُحْمَلُ عَلَى قَتْلِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ حَقِيقَةً كَمَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ، وَيُحْمَلُ عَلَى قَتْلِ غَيْرِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمَعْنَى: أَنْ مَنْ قَتَلَ مُسْلِمًا فَكَأَنَّمَا قَتَلَ نَفْسَهُ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ وَالْإِنْسَانُ لَا يَلْمِزُ نَفْسَهُ.
- ٣٤٤ الفرق بين من مات من معالجة جرحه غير قاصد الموت، وبين من مات من معالجة جرحه وهو يقصد الموت. فالأول لا مؤاخذه عليه، والثاني عليه المؤاخذه.
- ٣٤٥ لا يفهم من قوله تعالى «بادرني عبدي بنفسه»: أنه أَمَاتَ نَفْسَهُ قَبْلَ حُلُولِ أَجَلِهِ.
- ٣٤٥ التوفيق بين قوله تعالى: «حرمتُ عليه الجنة» وقوله سبحانه في القرآن: ﴿إِنْ اللَّهُ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.
- ٣٤٦ كلام القاضي عياض في التوفيق بين الآية والحديث.
- ٣٤٦ كلام الحافظ في التوفيق بينهما أيضاً.

- تحريم تمنى الموت، ولقاء العدو الذي هو سببه، وإلقاء النفس في التهلكة،
 ٣٤٧ والوَادِ الجَلِيّ، والخَفْيَ (وهو: العزل) مع عدم المسوُغ الشرعي.
- ٣٤٨ الحديث ٨٩: في شهادة الأعضاء على صاحبها يوم القيامة، وتخريجه وغيره.
- ٣٤٨ تعريف الدراية، وتنبيه على خطأ شائع عند بعض الكتّاب وبعض المتحدثين.
- ٣٤٨ شرح الحديث.
- الحديث ٩٠: في رؤية الرب تبارك وتعالى يوم القيامة، وفي ذكر بعض
 ٣٥٠ مواقفها، وتخريجه وغيره.
- بيان أن تلك الرؤية واضحة وأنها في المحشر، وهي غير الرؤية الخاصة
 ٣٥١ بالمؤمنين في الجنة.
- من مشاهد يوم القيامة وكلام رب العالمين سبحانه مع ثلاثة من عبده.
 ٣٥١ فالأول والثاني من صنف الكافرين، وكانا مكابرين من غير تصنع، فاعترفا.
- ٣٥١ والثالث من صنف المنافقين، والمنافق مخادع مغالط.
- ٣٥٢ فتكون عقوبته الفضيحة وكشف حاله على رؤوس الأشهاد.
- ٣٥٢ شهادة أعضائه عليه، والختم على فيه.
- ٣٥٣ الحديث ٩١: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ وتخريجه وغيره.
- ٣٥٤ كلام الخطابي في أن رؤية الرب في المحشر غير الرؤية الخاصة بالمؤمنين
 ٣٥٥ في الجنة.
- قوله: «فإنكم ترونه كذلك» التشبيه في وضوح الرؤية وليس في اتحاد المرئي
 ٣٥٦ معاذ الله!
- ٣٥٦ هذا الحديث في وصف موقف طويل في المحشر:
- فأوله: الأمر الإلهي لكل طائفة بأن تتبع معبودها في الدنيا، وبقاء أهل الإيمان
 ٣٥٦ ومن تظاهر بمظهرهم من المنافقين.
- ٣٥٦ تجلّيه سبحانه بصورتين: فيفتتن المنافقون، ويثبت الله المؤمنين.
- ٣٥٦ ومما يجب الإيمان به: الصراط، صفته، ومرور الناس عليه.
- ٣٥٦ كلام القرطبي عن قناطر الصراط وأنها سبعة.
- الهور والفرع على الصراط ولا يتكلم أحد عليه إلا الرسل، وكلامهم: اللهم
 ٣٥٧ سلّم سلّم.

- ٣٥٧ خصائصه ﷺ وأوليّاته في هذا الموقف العصيب.
- ٣٥٨ وصف كلاليب النار ووظيفتها.
- ٣٥٨ أمره سبحانه وتعالى لملائكته أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً
- ٣٥٨ فيخرجونهم منها.
- ٣٥٨ النار لا تأكل مواضع السجود ولا تمحو أثره.
- ٣٥٨ كيف تعرف الملائكة هؤلاء بآثار السجود مع أنهم ليسوا من أهل الأعمال وما
- ٣٥٨ عندهم إلا قدرُ الإيمان المنجي من الخلود في النار.
- ٣٥٨ تعليقاً: وجوابه من وجهين: الأول: قد يكون لهؤلاء بعض الأعمال التي من
- ٣٥٨ جعلتها السجود فلا تأكل النار أثره.
- ٣٥٨ والثاني: أن المراد: الموضع الذي يسجد عليه، وهي أعضاؤه السبعة وإن لم
- ٣٥٩ يسجد لله أبداً.
- ٣٥٩ ثم يؤمر بهؤلاء فيلقون في نهر الحياة، فينبتون منه كما تنبت الحبة في حميل
- ٣٥٩ السيل.
- ٣٥٩ ثم تأتي قصة رجل - ولعله من هؤلاء - وهو آخر أهل الجنة دخولاً الجنة. ..
- ٣٦٠ الطموح في الخير وأعمال الآخرة والطموح في الدنيا وموقف المسلم منهما.
- ٣٦١ من فتح له باب الدعاء فليعلم أنه قد فتح له باب الإجابة فليلح وليكثر.
- ٣٦١ ومما يستفاد من هذا الحديث في آداب الدعاء: إظهار التضرُّر والذلّ
- ٣٦١ والانكسار لله، وعدم اليأس والقنوط.
- ٣٦١ عاقبة ذلك الرجل: دخول الجنة، وزيادة فضل على فضل بقوله تعالى:
- ٣٦٢ «تمنَّه».
- ٣٦٢ إمهال الرجل ثلاثة أيام من أيام الدنيا ليفكّر ويسأل، فيسأل على مقدار عقله
- ٣٦٢ واستيعابه، وتذكير الرب سبحانه العبد: اسأل من كذا وكذا.
- ٣٦٢ قول الله تعالى له: «ذلك لك ومثله معه». وفي حديث أبي سعيد: «وعشرة
- ٣٦٢ أمثاله معه».
- ٣٦٢ القول بتعدد قصة آخر من يدخل الجنة، جمعاً بين أحاديث الباب والروايات
- ٣٦٣ المتعددة، وتوجيه ذلك القول.
- ٣٦٤ الحديث ٩٢: في أدنى أهل الجنة وأعلاهم منزلة، وتخريجه وغريبه.
- ٣٦٤ السائل هو سيدنا موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

- حال أدنى أهل الجنة منزلة، وإكرام الله له، والكلام عن اختلاف ألفاظ
 الروايات في قدر ما يعطيه الله سبحانه لذلك الرجل. ٣٦٤
 زيادة فضل الله على ذلك العبد. ٣٦٥
 ثم جاء الكلام عن أعلى أهل الجنة منزلة. ٣٦٥
 الفرق بين من يوصف إكرامه وبين من لا يوصف لعظمه، والفرق بين خطابه
 تعالى لكل من الرجلين: أدناهم منزلة وأعلاهم منزلة. ٣٦٥
 ولا يفهم من قوله: «ولا خطر على قلب بشر» أن إكرامهم يخطر على قلب
 غير البشر كالملائكة مثلاً، بل المراد عموم النفي. ٣٦٦
 الحديث ٩٣: حديث الشفاعة، تخريجه وغريبه. ٣٦٧
 الكلام عن الحديث حسب تسلسل ألفاظه ومواقفه: ٣٦٨
 ١ - من التأدب مع ذوي الفضل والمقام الكريم الدخول عليهم بصحبة رجل
 مقرب لديهم. ٣٦٨
 ٢ - إظهار مزية الشفيع عند المتشفع به. ٣٦٨
 ٣ - من أدب الصغير مع الكبير أن لا يباشر طلبه بنفسه، بل يوكل بطلبه من
 يليق بخطاب ذلك الكريم الكبير. ٣٦٨
 ٤ - السبب الملجئ لطلب الناس الشفاعة هو شدة الموقف في المحشر. ٣٦٨
 ٥ - يجتمع جميع الناس على طلب الشفاعة من صفوة خلق الله، والذي
 يباشر الطلب هم المؤمنون، وبهذا يجمع بين الأدلة. ٣٦٩
 ٦ - جواب آدم وما فيه من الحقيقة والنصح حينما قال: «لست لها»،
 وإرشادهم إلى إبراهيم لأنه خليل الله. ٣٦٩
 ٧ - مجيء الخلائق إلى إبراهيم، وقول إبراهيم لهم كما قال آدم، وإرشادهم
 إلى موسى لأنه كليم الله. ٣٦٩
 ٨ - مجيئهم إلى موسى، فيقول لهم كما قال من قبله ويرشدهم إلى عيسى
 لأنه روح الله وكلمته. ٣٧٠
 اختصار الرواية التي نشرحها لأسباب اعتذارهم، وعدم ذكر مجيئهم إلى
 نوح عليه الصلاة والسلام. ٣٧٠
 ٩ - مجيئهم إلى عيسى، واعتذاره دون ذكر سبب وعذر، بل يكتفي بقوله:
 «لست لها، ولكن عليكم بمحمد ﷺ». ٣٧٠

- ١٠ - كلُّ نبي يأتيه الناس، يمشي معهم إلى النبي الذي يرشدهم إليه، ودليل ذلك من حديث أنس في الشفاعة، وحديث أبي بن كعب في الأحرف السبعة. ٣٧٠
- ١١ - جوابه ﷺ للأنبياء والخلائق بقوله: «أنا لها، فانطلق». ٣٧١
- المقارنة بين قول الأنبياء: لست لها، نفسي نفسي، وأنا وراء وراء وقوله صلوات ربي وسلاماته عليه: أنا لها، وانطلاقه بسرعة. ٣٧١
- ١٢ - سؤالان وجوابهما: فالسؤال الأول: إذا كنا نعلم هذا في حق نبينا ﷺ فلأن يعلمه إخوانه الأنبياء والمرسلون من باب أولى، فلم لم يرشدوا الخلائق إليه من أول الأمر؟ والسؤال الثاني: إذا كنا نحن نعلم ذلك فلم لم ننطلق إليه من أول الأمر؟. ٣٧١
- ١٣ - قيامه ﷺ مقام الحمد لله والثناء عليه بمحامد يفتحها الله عليه لم يكن يعلمها من قبل وسجوده ﷺ سجوداً طويلاً، جاء في بعض الروايات: «قدر جمعة»، وهذا هو المقام المحمود. ٣٧٣
- ١٤ - الكرامة الإلهية من الله عز وجل لحبيبه ومصطفاه ﷺ. ٣٧٣
- ثم تأتي الشفاعة المحمدية الخاصة بأمته. ٣٧٤
- أعظم مظاهر الجود الإلهي في حق المفرطين، وعظم أثر «لا إله إلا الله». ٣٧٥
- الحديث ٩٤: أخرجوا من النار من ذكرني يوماً... وتخريجه. ٣٧٧
- هذا الحديث من مظاهر رحمة الله الواسعة المدخرة لذلك اليوم العصيب. ٣٧٧
- الأمر الإلهي بأن يُخرج من النار من ذكر الله تعالى مرة. أو خافه في موقف. ٣٧٧
- أثر الخوف من الله وذكر جانب من حديث الغار: قصة الرجل مع ابنة عمه، وكيف فرج الله عنهم بسبب ذلك الموقف. ٣٧٨
- تفسير قوله تعالى: «ولمن خاف مقام ربه جنتان». ٣٧٨
- الحديث ٩٥: إذا دخل أهل الجنة الجنة...، تخريجه وغريبه. ٣٧٩
- هذا الحديث في وصف موقف من مواقف يوم القيامة وهو الشفاعة. ٣٧٩
- الشفاعة يوم القيامة ليست واحدة، بل هي شفاعات لعدة أصناف من كرام خلق الله: الملائكة، النبيين، المؤمنين. ٣٧٩
- ومن يُشَفَّع فيه على مراتب، فالتقصير ليس مرتبة واحدة. ٣٨٠

- وفي هذا الحديث جاء وصف جماعة استحقوا الشفاعة وهم: من كان في قلبهم مثقال حبة خردل من إيمان..... ٣٨٠
- صفتهم بعد خروجهم من النار، وإلقاؤهم في نهر الحياة..... ٣٨٠
- موضع نهر الحياة، وخصيصته، وصفة ما ينبت في حميل السيل..... ٣٨٠
- التوقف والتأني في القول الشائع: اجتهد ﷺ يوم تأبير النخل فأخطأ..... ٣٨١
- الحديث ٩٦: خلق الله جنة عدن بيده...، تخريجه وغريبه..... ٣٨٢
- كرامة الجنة ومنزلتها عند الله تعالى حيث تولّى خلقها بيده سبحانه..... ٣٨٢
- الجنة مخلوقة عند أهل السنة خلافاً للمعتزلة القائلين بأنه: سيخلقها..... ٣٨٢
- تعبير الجنة بلسان المقال عن فرحها وبهجتها بمن سيدخلها..... ٣٨٢
- معنى الفلاح، وأقسامه عند الراغب الأصفهاني..... ٣٨٢
- والجنة من مظاهر كرمه سبحانه على عباده المؤمنين ولذلك لا يستحقّ الجوار فيها بخيل..... ٣٨٣
- بعض الأحاديث الواردة في عدم دخول الجنة البخيل، وفي ذم البخل وأهله..... ٣٨٣
- الحديث ٩٧: أن رجلاً من أهل البادية استأذن ربه في الزرع...، تخريجه وغريبه..... ٣٨٤
- الحديث يبين لنا أمرين:..... ٣٨٤
- الأول: أن بعض الطبائع لا تفارق الإنسان وهو في الجنة، ما دامت لا تتعارض مع عالم الجنة..... ٣٨٤
- وأن حبّ العمل ليس من الأمور المذمومة التي سيظهر الله منها الإنسان قبل إدخاله الجنة..... ٣٨٤
- والثاني: في قوله: «ألسْتُ فيما شئت» فالعبد لا يتخلّف عن مشيئته شيء وهو في الجنة، وكل ذلك بإذن الله تعالى وإكرامه..... ٣٨٤
- ومما يشتهي أهل الجنة: أن يرزقهم الله ولداً، والدليل على ذلك..... ٣٨٤
- وصف بذر الرجل، ونباته، وحصاده وكون المحصول أمثال الجبال..... ٣٨٤
- المؤمن وهو في الدنيا مدعو إلى غراس الجنة، وهو أعلى من ذلك الغراس، وذكر حديثين في ذلك..... ٣٨٤
- الحديث ٩٨: أعددت لعبادي الصالحين...، تخريجه وغريبه..... ٣٨٧
- معنى الإعداد: التهيئة. ويستفاد من ذلك أن الجنة - والنار - مخلوقتان، وفائدة هذا الإخبار: الترغيب والتشويق..... ٣٨٧

- المراد من قوله: «ولا خطر على قلب بشر» ٣٨٨
- الحديث ٩٩: إذا دخل أهل الجنة الجنة...، وتخريجه ٣٨٩
- يستأنس من روايات الحديث أن النظر لوجه الله الكريم بعد دخول الجنة بفترة يسيرة. ٣٨٩
- الرؤية لأهل الجنة ثابتة، ولكنها متفاوتة بحسب مراتب أهل الجنة ومقاماتهم. ٣٨٩
- والرؤية هي الزيادة في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾. ... ٣٨٩
- وانظر تفسير ابن جرير وتعميمه في تفسير «الزيادة» ٣٩٠
- تكرار الرؤية لأهل الجنة ٣٩٠
- الحجاب في قوله «فيكشف الحجاب»، وهذا الحجاب يكشف عن أعين الناظرين، وإلا فالله سبحانه ليس بمحجوب ٣٩٠
- معنى «السُّبُحات» و«الحجاب» عند الإمام النووي رحمه الله ٣٩٠
- الحديث ١٠٠: إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة...، تخريجه وغريبه. ٣٩٢
- الحديث في الإكرام الإلهي الذي لا يتناهى لعباده من أهل الجنة ٣٩٢
- سؤاله سبحانه بقوله: «هل رضيتم» والحال أنه يعلم رضاهم، لكنه يسألهم ليكرمهم بلذة المناجاة معه سبحانه ٣٩٢
- كلام العلامة علي القاري، ثم نقله عن الطيبي، في شرح: «أحلُّ عليكم رضواني» ٣٩٣
- رضا الله عن العبد، وما يسبقه من رضاه عن فعله وحبه له ٣٩٣
- فعل - رضي - يتعدى بنفسه وبالباء، ويتعدى بـ - على - ٣٩٤
- محبة الله عز وجل لعبده، سابقة لرضاه عنه ٣٩٤
- ذكر أوصاف من أحبه الله فرضي عنهم، وما أعد لهم ٣٩٤
- الفرق بين الخشية والخوف، ومرتبة الخشية أشرف ٣٩٥
- رضا العبد عن ربه، يتقدم رضا الرب تبارك وتعالى عنه ٣٩٥
- كلام الإمام الفخر الرازي في أن الثواب له ركنان: الجنات والأزواج، والرضوان. ونقله كلام الحكماء بأن الجنات إشارة إلى الجنة الجسمانية، والرضوان إشارة إلى الجنة الروحانية ٣٩٥
- كلام الإمام ابن أبي جمرة والحافظ ابن حجر في الرضوان ٣٩٥
- قوله «أحل عليكم رضواني» هو تجل خاص بالرضا، وقد تقدمه تجل عام دخلوا بسببه الجنة ٣٩٥